تهميمة أنام

The Bones of Grace

عظام المجد

ثلاثية بنجلاديش ٣

رواية

ترجمة: نورهان البدوي

مكتبة ياسمين
عصير الكتب

The Bones of Grace

عظام المجد

في عشـية رحيلهـا للبحث عن عظـام الحوت السـائر -الحفرية التي تُشـكِّل حلقـة الوصل المفقـودة في تطـور البشر- تقـع زبيدة حق في حُـب إيلاجا سترونـج؛ رجلٌ التقته في قاعة حفلات موسـيقية مُعتمة في بوسـطن. تتولد بينهما علاقـةٌ جامحة في الحـال على اختلافهما: إذ ينتمـي إيلاجا إلى عائلة أمريكية نمطيـة، وزبيدة هـي الابنة المتبنّـاة لعائلة بنجلاديشـية ثرية في دكّا. ولمّا تُعيدهـا مُجريـات القدر إلى ديارهـا، تُجبرها القوة الغاشـمة في مجتمعها على اتخـاذ طريقٍ مختلـفٍ جدًّا، فتتـزوجُ صديق طفولتهـا وتعتاد الحياة البنجلاديشية التقليدية.

تستحسـن العائلة خضوع زبيدة، وفي الآن نفسـه تهيج زبيدة بالسـخط. وفي رغبةٍ يائسـة للتحرر أخيرًا من قيـود العائلة، تنتقل إلى شـيتاجونج للعمل على فيلـمٍ وثائقي عـن الشـطآن المغمورة حيـث تُمارس حرفـة تفكيـك السـفن، يظهر أنـور، وهـو عامل في تفكيك السـفن، تحمل قصته مفتاحًا سيكشـف عن أسرارٍ غامضة في ماضي زبيدة واحتمالات لحياةٍ جديدة.

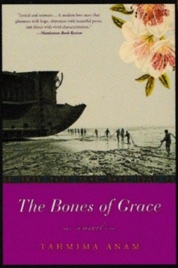

ومـع تفكيك السـفينة حتى آخـر أجزائها، تصبـح زبيدة ممزقة هـي الأخرى بين الأعـراف الاجتماعيـة لدارين -بنجلاديـش وأمريـكا- وسـتُضطر إلى تعريـة حياتهـا الخاصة... لتتخذ قرارًا لن تعود فيه أبدًا.

t.me/yasmeenbook

غـلاف: محمود هشام

9 789779 923505

عصير الكتب

www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb

The Bones of Grace

عظام المجد

ثلاثية بنجلاديش ٣

عصير الكتب

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

عصير الكتب

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: The Bones of Grace
- العنوان العربي: عظام المجد
- طُبِع بواسطة: Canongate Books Ltd
- حُقوق النشر:
Copyright © Tahmima Anam, 2016
- الطبعة الأولى: يناير / 2024م
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب
- ترجمة: نورهان البدوي
- تحرير: أحمد حسين
- تدقيق لغوي: محمد عبد العال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- رقم الإيداع: 2023/26679م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-350-5

يسعدنا انضمامكم إلى قناة

مكتبة ياسمين

معكم نكبر ونستمر بكل جديد

لأجل رولاند لامب، مُجدَّدًا (ودائمًا).
ولأجل شقيقتي «شاڤينا»، ومع أنها ولدت متأخِّرة عنِّي،
فقد أنقذتني من وحشة الوحدة.

لا نعرف شيئًا حقيقة، بل نتكهَّن؛
لسفينة حياتنا سفينة شقيقة،
تتبع مسارًا مُغايرًا.
إذ تتأجَّج الشمسُ من وراء الجُزر.

«البيت الأزرق»

توماس ترانسترومر

شركة مدينة
شيتاجونج
91°48' E
91°54'
22°24'
هاتهزاري
هاتهزاري
سيتاكُندا
راوچان
بايچيد بوستامي
شاندوچون
باتشلايش
بهارتولي
كولشي
بوالكالي
باكوليا
هاليشهور
كوتوالي
دوبل موروري
باندار
ميناء شيتاجونج
باتيا
مطار شيتاجونج
باتينجا
خليج البنغال
أنووارا
2 0 2
N

لقد رأيتك اليوم يا إيلاجا. كنتَ تعبر الشارع. ورأيتُ مبنًى عند ناصية «ماس أفي» و«هارفرد ستريت» يشبه نسخة مصغرة من مبنى «فلاتيرون» في نيويورك. كنتَ موليًا ظهرك للمبنى، وحينما ومضت شارة الرجل الأبيض، ترجلتَ عن الرصيف إلى الشارع، في تلك اللحظة رأيتك. أشرتَ بإيماءة بسيطة من يدك دعتني إلى الظن بأنك رأيتني بدورك، كأنك تلوِّح لي، لكنها لا تعدُّ حركة بسيطة من رسغك لا تعني شيئًا، بل كنت تضرب هواء نوفمبر البارد وحسب، وقبل أن تلتقي أعيننا، تراجعتُ أنا.

أعلم أنها مسألة وقت فحسب قبل أن نتصادف؛ إن كامبريدج بلدة صغيرة والطرق بها محدودة. لقد عدتُ منذ ثلاثة أشهر، وفي كل يوم، كنتُ أتلصَّص بأركان عيني، آمل ولا آمل، والأيام الدافئة تستحيل إلى برودة الثلوج، أن تكون أنتَ الرجل ذو المعطف الأسود الفاحم، وأن ساقيك هاتين تتشحان بالسروال الفضفاض، وصوتك هو الذي يطلب القهوة قبلي.

لقد أعادتني ديانا. إنها هنا -أو على الأقل، جزء ضئيل منها هنا- بين يدي. بدت عظمة كاحلها أشد شحوبًا وأخف وزنًا ممَّا تصوَّرت؛ أرى أن الزمان قد سلب منها ثقلها. عدا أن وجودها معجزة إلهية، هنا في هذا المختبر.. في هذه المدينة، حيثما بدأت أحلامي عنها وأحلامي عنك. حين تركناها في «ديرا بوجتي»، لم أظن قطُّ أنني سأراها ثانيةً. بل ظننتُ أن لغز الحوت السائر سيظل مدفونًا إلى الأبد، كأحد الأسرار التي ما كان لنا أن ننبشها. لكنْ في وقتٍ مبكر من هذا العام، تلقيتُ رسالة، كُتبت بالأردو وترجمتها أمي رغمًا عنها:

الآنسة العزيزة زبيدة حق،

هذه هدية من صديقنا الراحل. لا أفهم السبب الذي يدفع رجلًا للتضحية بحياته مقابل شيءٍ كهذا، ولكن ربما أنتِ تفهمين. لقد ترك خطابًا، وطلب منّي أن أسترد كنزه وأرسله إليكِ.

وما من خيارٍ لديَّ سوى الإسراع في تأدية واجبي نحو أخٍ ورفيق. جُبنا الصحراء بحثًا عن ديانا، وها أنا الآن أبعث بها إليكِ، جزءًا وراء آخر. لا أدري ما تعنيه هذه العظام، ولكن إن كنتِ تقرئين هذه الرسالة، فستعرفين أن لصديقنا أمنية وداع، وقد حرصتُ على تحقيقها.

لم أُصدق أن الرسالة حقيقية؛ بعد سنواتٍ من الصمت، أيُعقل أن زمزم كان يساعد في إنهاء ما بدأناه؟ ليس ثمَّة تفسير آخر، ولا سبب آخر معقول لرسالة الغريب هذه، أضف إلى ذلك أنه استخدم اسمها: ديانا. أجبتُ الرسالة، مُدرجةً تفاصيل القسم، عارضةً المساعدة في تغطية تكاليف النقل، والإجراءات الرسمية التي يتعيَّن إنهاؤها لكي تجتاز الحفريات القديمة الحدود. ثمَّ استقللتُ طائرةً، وأتيتُ إلى هنا، وانتظرت.

حين وصل الصندوق، كان مغلفًا بعدَّة طبقات من الشريط اللاصق، وفي الداخل، بين طياتٍ من ورق الجرائد، كانت عظمة كاحل ديانا مزدوجة المفصل، محفوظة في طبقةٍ من نسيجٍ غشائي أحمر. قبضتُ بأصابعي على البطانة، وشعرتُ بوخز الدموع في عيني. أدركتُ من فوري أن هذا ليس مجرَّد تحقيقٍ لحُلم بِتُّ أحلم به طويلًا ومع ذلك علَّمتُ نفسي التخلِّي عنه؛ بل كان أيضًا وسيلةً ساعدتني لكي أبعث إليكَ بمناشدة أخيرة. كانت ديانا هي السبب وراء رحيلي عن هذه البلدة، وديانا هي السبب في عودتي إليها. أراها طيفًا يرمز إلى الذهاب والإياب، منارةً تقودني بين القارات وعبر الزمن. وأعيش الآن على أمل أنها ستُعيدني إليك.

أظنُّ أني قد اختلقتُ هذه القصَّة في رأسي لبعض الوقت، ولكن حين قبضتُ بيدي على عظام ديانا، فاض رأسي بكلمات، فأسرعتُ إلى البيت ودوَّنتها. إنني أعيش في حالة من الانتظار يا إيلاجا، انتظار لهذه اللحظة، وهذه الفرصة لتصفية الحسابات؛ وزمزم قد حقق لي أمنيتي بعد موته. ديانا هنا، ثمَّ رأيتك، والآن يمكنني التفكير في الأمر برُمَّته -لا أنتَ فحسب، الحب الأعظم في حياتي، ولا **آمبولوستوس**[1] فحسب، بل في أنور أيضًا، الرجل الذي أرشدني إلى أمي، وفي جريس، السفينة التي هلكت حطامًا أمام أعيننا. كان هناك حوت، وامرأة تخلَّت عن طفلها، وبيانو، ورجل يبحث طويلًا بحثًا مضنيًا عن حبيبته حتَّى وجدني. لكنكَ قاطعتني سريعًا. أنا لم أنتهِ بعد، وحتَّى أفعل، ليس ثمَّة طريق يجمعنا مُجدَّدًا.

لقد استبقتَ الأحداث يا إيلاجا، ووقفتَ عند مفترق الطرق قبل أن يُقدَّر لكَ هذا.

***

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

(1) هي كلمة لاتينية من مقطعين، وتعنى الحوت السائر، وهي نوع من الحفريات القديمة التي تكونت في باكستان منذ قرابة 47 أو 48 مليون سنة. (المترجمة)

المقدمات الموسيقية

كانت الكلمات الأولى التي بُحتُ لك بها: «حين كنتُ في التاسعة من عمري، اكتشفتُ أنني مُتبنَّاة». فأجبتَ أنت: «أرسطو كان يتيمًا»، واستطردتُ أنا: «وكذلك كان النبي مُحمد». في ذلك المساء، دفعتني الموسيقى وحرارة أواخر الصيف إلى استرجاع يوم اعترف والداي أخيرًا بالأمر الذي لطالما ارتبتُ في شأنه، حتَّى وأنا طفلة صغيرة. أذكر أنه بعد حفل عيد مولدي التاسع، لمَّا عاد الضيوف إلى بيوتهم ولم يبقَ سوى رائحة الدجاج المشوي والحواف الممزَّقة من ورق التغليف وبقايا رقائق البطاطس، أخبرني والداي أنهما تبنياني بعد عامين من زواجهما، أي بعد خمسة عشر عامًا من الحرب. نادرًا ما فكرتُ في ذلك اليوم، ولكن في تلك الليلة حين التقينا، تذكَّرت الأمر بوضوح: كان أبي قد بنى مُجسم «بنياتا» أُفرغ من محتوياته من الحلوى على المرج، ثمَّ أخذ صبي من المدرسة عصا البنياتا، وظل يُطارد الصبية الآخرين إلى ركنٍ ظليلٍ من الحديقة حيث كانت خيوط العنكبوت سميكةً كالكتب. أذكر كيف كنتُ محشورةً بين والديَّ وهما يحكيان القصَّة؛ أذكر كيف أمسك كل واحدٍ بإحدى يديَّ، وأذكر إخبارهما إياي عن رغبتهما الشديدة في طفلٍ ومعجزة العثور عليَّ. أذكر أنني شعرتُ برغبةٍ مفاجئة في التقيؤ، وأن لون القيء كان برتقاليًّا بلون الحلوى، وأذكر اللون تحديدًا، لأنه في تلك الأيام لم يكن هناك تدفق للماء في المساء، وكان عليَّ أن أسكب ست كؤوس ماء مملوءة من السطل في المرحاض لكي تُصرف. عادت إليَّ الذكريات مثل فيضانٍ في تلك الليلة

الحارة في كامبريدج التي وطأتنا جميعًا بثقل، والصيف في أواخره والفصل الدراسي على وشك البدء، والحرم الجامعي مقفرًا إلا من قليل. كنتُ منهمكةً في الاستعدادات النهائية لرحلتي بحثًا عن هيكل عظمي كامل للحوت العتيق من فصيلة **آمبولوستوس ناتاس**[1]، واختلطت ذكرياتي بأفكار إغلاق شقتي وحزم أمتعتي والرحلة التي أوشك أن أشرع فيها، وتصوُّر عملية التنقيب، ولحظة الاكتشاف، والكشف المرتقب عن حفرية غيَّرت بالفعل منظورنا إلى العلاقة بين البر والبحر، وفي هذه الفترة الفاصلة، بين الذاكرة والتوقُّع، ظهر الصدع، فترةُ صمتٍ تباطأ بها كل شيء، لحظة بينية لم تكن هنا ولم تكن هناك. وفي ذلك الصدع تقع أنتَ: رجل ذو يدين موسيقيتين ورائحة الطقس البارد على ياقته.

كما تعلم جيدًا، كنتُ قد حضرتُ حفلةً موسيقية في مسرح «ساندرز ثياتر». وأحيانًا قضيتُ الأمسيات في تلك القاعة المكسوَّة بالخشب، وفي تلك الليلة، عشية رحيلي، أبحتُ لنفسي هذا الانغماس كختامٍ لسنواتي السبع التي قضيتها في أمريكا، وأغرقتُ نفسي، كما اعتدتُ أن أفعل أحيانًا، في أنغامٍ سيتردَّد صداها دومًا في رأسي رغم غرابتها، أو ربما بسبب ذلك. عادةً أنسى الموسيقى، عدا واحدة لا أنساها، حين عزف «يو-يو ما» معزوفات التشيللو لباخ. كان الحفل أشبه بمقابلة شخصية منها بحفلٍ موسيقي، ولذلك عزف لدقائق قليلة فحسب في النهاية، لكنه عزف وجيز وساحر، وكانت المرَّة الوحيدة التي تمنيتُ فيها مشاركة التجربة مع أحدهم.

إذن كانت هذه ليلتي الأخيرة، وحفلتي الموسيقية الأخيرة. لمَّا وصلت، تكشَّف لي أن المقاطع المعزوفة ستكون المقدمات الموسيقية لشوستاكوفيتش. سمعتُ باسم شوستاكوفيتش من قبل، لكنْ في ما عدا ذلك، لم أعرف شيئًا عن موسيقاه. رأيتُ بيانو ضخمًا على المنصة، ثمَّ أُطفئت المصابيح، ودُهشت حين خرجت امرأة ضئيلة الحجم من خلف الستار. كانت في سنٍّ كبيرة، ربما في الستينيات من عمرها، وقد ارتدت تنورة طويلة، وعقصت شعرها الرمادي في عُقدة منخفضة على رقبتها. استهلت عزفها بمقاطع قصيرة ربما استغرق الواحد منها خمس دقائق. تراءت لي عذوبة الموسيقى المعزوفة، لكنها ليست

(1) جنس مُنقرض من الثدييات يتبع فصيلة الحيتان الجوالة من رتبة مزدوجات الأصابع. وهو جنس من الحيتان المبكرة عاشت قبل 48 مليون سنة، عُثِرَ عليه لأول مرَّة في باكستان. ويمثل المرحلة الانتقالية للحيتان من البر إلى البحر. (المترجمة)

مدهشة. تبدأ المعزوفة بنغماتٍ رومانسية، ولكن حين تصل إلى المنتصف تستحيل إلى نغماتٍ بعيدة تُوحي بالتأمل. وعجزتُ عن التوفيق بينها. في إحدى اللحظات، تنبَّهتُ لرجلٍ يجلس إلى يساري: أنتَ يا إيلاجا، تنبَّهتُ للكيفية التي تنقر بها يدك على ركبتك، والقماش المنسل لسروالك الجينز حيث تستقر أصابعك، وقدميك المحشورتين في صندل، والحقيبة القماشية التي تستقر أسفل مقعدك.

ومع أنني التفتُّ أتطلَّع إليكَ بضع مرَّات، لم تُبادلني النظرات. وفي ما عدا يدك الناقرة، كانت بقية جسدك راسخة. تعجَّبتُ من رسوخك. تتبَّعتُ عينيك اللتين استقرتا على رقعة الضوء المقتضبة حول الآلة الموسيقية، على رفرفة أصابع المرأة وطرقاتها، وفيما كانت نظراتك جادَّة، أرغمتني على تقليدك، والإنصات حقيقةً إلى الموسيقى. في نهاية المقطوعة الرابعة، أحسستُ بتصدُّع زلزالٍ ينفتح في صدري، وبعد المقطوعة الخامسة، والتي كانت رقيقة ثمَّ تخللتها البهجة، تجلَّت الاختلاجة، وهكذا لمَّا توقَّفت الموسيقى، أحسستُ أنها تشقُّ طريقها نحو عنقي. وفي تلك اللحظة عادت إلى الذكرى: ذكرى حفل عيد مولدي.. الاعتراف.. النوم بين والديَّ تلك الليلة.. أنفاسهما المضطربة تحتكُّ بوجهي. وقبل أن أُدرك شيئًا، بللت الدموع وجنتي، وكان هذا كل ما أمكنني فعله لأحجم نفسي عن النشيج عاليًا والمقطوعة التالية تبدأ. طوَّقتُ جسدي بيدي، أُحاول احتواء ذاك الشيء الذي يثور بداخلي، وأخيرًا استدرتَ إليَّ، ورأيتَ أنني أبكي، ومع ظلمة القاعة، أمكنني أن أرى من استدارة وجهك أنكَ وقور مسالم، ولم أُثِر فيك أي ضيق. وضعتَ راحتك على كُم قميصي، فانتشر دفء لمستِكَ من ذراعي حتَّى كتفيَّ. حين لمستني، أحسستُ السكينة في بادئ الأمر، ولمَّا انتهت الموسيقى وأبعدتَ يدك، اختبرتُ وحدةً موحشة، الوحدة التي شعرتُ معها أني الساكن الوحيد في جسدي.

تبادلنا أولى كلماتنا، وبالنظر إلى الوراء، تجدها كلمات غريبة يتبادلها اثنان في بداية تعارفهما، لكنها في ذلك الوقت، بدت أمرًا طبيعيًّا للغاية. كان صوتك عميقًا رخيمًا في السكون. أخذتَ بيدي، فاندفعت الدماء إلى تلك اليد، تثب أسفل جلدي كأنما تحجل وتختلط بدمائك، وهكذا جلسنا لبقية النصف الأول، قلبي يصدح في صدري والساعة تصل إلى نهايتها والأضواء تعود إلى القاعة.

في الضوء الساطع المُفاجئ، لاحظتُ شحوبك الموغل، وعينيكَ الزرقاوين، ولحيتك التي كانت لا شعثاء ولا مُقلَّمة بمهارة. ثمَّ فركتُ وجهي، أرغب بفعلي إخفاء آثار دموعي. جذبتُ يدي بعيدًا وأنا أراقب الناس يخرجون لأجل الاستراحة، وأتساءل إن كان أحدهم قد تعرَّف عليَّ. سألتني إن كنتُ أود كأسًا من الماء، فأجبتُكَ أن نعم، لكنني خشيتُ أن تختفي فلا أراك ثانيةً. وأخيرًا انطفأت الأضواء وبدأ النصف الثاني من الحفل. في هذه المرَّة بدت القاعة مضطربة، والناس يتململون على مقاعدهم الخشبية المسطحة التي تراصت مائلةً حول المنصة. تفكرتُ ثانيةً في مسألة الجذور.. لم أتفكَّر كثيرًا بشأن أصولي، ولكني فكرتُ في حقيقة أني طوال الأعوام الخمسة والعشرين من حياتي، لم أتطرَّق إلى الأمر إلا لمامًا. كم من الأسئلة القليلة طرحتُ؟ في الحقيقة لا شيء - لعل هذا مرجعه إلى حُب والديَّ المُفرط لي، هذا الحب الذي بادلتهما إياه دون شك حتَّى تلك اللحظة تحديدًا. وبينما كان كل ذلك يدور في رأسي، آل الحفل إلى نهايته بأصابع عازفة البيانو المحمومة ويدٍ ظافرة انتصرت على سلسلةٍ من أوتارٍ صوتية متمددة. نهض الحشدُ واقفين، مرج من هيئاتٍ واقفة، ودام التصفيق لوقتٍ طويل. ولمَّا عُزف عن تكرار مقطوعة أخيرة، عادت الأضواء في نهاية الأمر وانتهى الحفل. أخذت القاعة تفرغ ثانيةً، فنهضنا نحن الاثنين.. تقدَّمتني وتنحيتَ جانبًا، لتسمح للآخرين بالمرور وهم في طريقهم إلى المخرج. استنشقتُ رائحة طِيبك: نشراتُ خشبٍ وأشجار نجت من الثلوج. رائحة الطقس البارد في هذه الليلة، أحرُّ الليالي وأكبسها.

تأملنا بعضنا. ركزتَ عينيكَ عليَّ كأنما لم يتبقَّ غيرنا في العالم. لم أرَ في حياتي نظرةً تشبهها من قبل، نظرة ثاقبة.. صريحة. يود الكثيرون لو يكونون في مكانين مختلفين على الأقل في آنٍ واحد، ولكنكَ كنتَ تقف هناك كأنما امتدت جذورك حول قدميَّ. بالكاد تمالكتُ نفسي، فقلتُ: «حسنًا إذن. إلى اللقاء». أجبتني ضاحكًا على كلماتي، وفي ارتياحٍ ضحكتُ معك. اتخذنا طريقنا إلى المخرج، وفكرتُ هنيهةً في دعوتكَ لقضاء الليلة معي، ولكن بدلًا، اقترحتُ الذهاب إلى المقهى الكوري لنحتسي كوبًا من الشاي. لم أكن قد تناولتُ عشائي بعد، لكني لستُ جائعة، وأنتَ لم تذكر شيئًا عن الطعام أيضًا. مشينا عبر ماس أفي، وطلبنا الشاي المُثلج، ثمَّ طلبتُ إضافة حبَّات التابيوكا إلى كأسي. تطلعتَ إليَّ بعينين متسائلتين، فأوضحتُ لكَ أني قد جربتُ

شاي الفقاعات في بانكوك، التي لا تبعد سوى مسافةٍ قصيرة عن دكَّا، في بنجلاديش، حيث نشأت. قلتُ لكَ: «وجبة خفيفة في قاع مشروبك. جرِّبها».

أخبرتني بأمورٍ عنكَ، أمورٍ بدت غير ذات صلة آنذاك، لكني تذكرتها لاحقًا لأجعل من لقائنا أكثر منطقية. أخبرتني أنكَ ذات مرَّة بنيتَ نافورةً من زجاجات المياه المستعملة، وأنكَ منذ سنواتٍ قليلة قد شاركت في قراءة مسرحية منظَّمة لرواية «**يوليسيس**» استمرَّت مئةً وستًّا وسبعين ساعة. تفاجأت بنفسي أحاول مجاراة غرائبية حكاياتك، ولم يتمخض عقلي سوى عن قصةٍ قصيرة، تبدأ باعتراف والديَّ، وعدم ذكرهما له قط بعد ذلك، وعدم سؤالي عن الأمر البتة، هذا لأنني -كما هو معهود عن الأطفال- أدركتُ أن الموضوع قد نُوقش وأُغلق في الآن نفسه.

كنتَ قد انسحبتَ من برنامج دكتوراه في الفلسفة. سألتُكَ عن السبب، فأجبتني كما لو خطر على بالك حقيقة ما في تلك اللحظة فحسب، وهي أن الأمر لم يعد ذا أهميةٍ لكَ. وماذا ستفعل؟ لم تكن موقنًا من الأمر. ربما تُسافر، وترى جزءًا من العالم. أو ربما تُمارس عزف البيانو لبضع سنوات. بدوتَ واثقًا من نفسك، ومن الطريقة التي تتمالك بها نفسك وتصمت بحذرٍ قبل أن تتحدَّث، ومع ذلك كانت الأمور التي أخبرتني بها قد أفشت سِرَّ رجلٍ ذي طموحٍ محدود وثقةٍ ضئيلة، رجل ليس لديه ما يقاومه فانجرف في بحرٍ من الخيارات اللانهائية.

حين تطلعتُ من حولي، رأيتُ أننا الوحيدان في المكان. وأوشكتُ أن أقترح مكانًا آخر نذهب إليه، ثمَّ قررتُ أن علينا الانتظار حتَّى يُغلق المقهى، فنُضطر إلى المغادرة. ظلت نظرتكَ مثبتة عليَّ، وتململتُ أنا في مقعدي. بدوت مرتاحًا لفترات الصمت في حديثنا، لكني احتجتُ إلى ملء الصمت، ولذلك أخبرتكَ عن أمر التنقيب. قلتُ: «سأسافر إلى باكستان الأسبوع المقبل. وسأعمل على إخراج حفرية حوت». أخبرتكَ أنني سأنضم إلى بعثة استكشافية للعثور على عظام **آمبولوستوس ناتاس**، الحوت السائر. ثمَّ أضفتُ: «نأمل أن نعود بالهيكل العظمي كاملًا. إن عظام الحوض ستخبرنا الكثير عنها». جاريتُ وتيرتك في الحديث، وخرجت كل كلمة من فمي مدروسة ومتأنية. وقد أثارت كلمة «الحوض» القشعريرة في جسدي.

سألتك عن عائلتك، فأجبتني بقصةٍ لم أسمع لها مثيلًا من قبل، وهي قصة مواطنين أمريكيين مثاليين. كلا الأبوين أستاذ في جامعة هارفارد، مطلقان

الآن لكنهما حافظا على أواصر صداقة وطيدة، ثلاثة أشقاء وشقيقة صغرى، منزل في ميدان «بورتر سكوير»، وبيانو ضخم في غرفة المعيشة، وعصير ليمون في المُبرِّد، ومطبخ يفوح برائحتي الخشب والبابونج (التفصيل الأخير مختلق، لكنه يقرب إلى الحقيقة، كما سأكتشف في وقتٍ قريب). لا عجب أنك كنت تائهًا. فلا شيء تقاومه، ومن ثمَّ رحتَ تطفو مثل ورقة ساقطة. ثمَّ قلتَ: «توفيت جدتي الشهر الماضي. وفي كل ليلة، أذهب إلى ساندرز، وأستمع إلى الموسيقى. وحين لا يُعزف شيء في ساندرز، أذهب إلى «بوسطن فيلهارمونيك»، وأحيانًا أذهب إلى السينما أو إلى مسرحية شكسبيرية في «بارك»، أو إلى «هاتش شيل»».

مددتُ يدي لأُلامس براجمك بيدي الباردة من الشاي المثلج. بدوت مبتهجًا بلمستي، لكنك لم ترد الإيماءة بمثلها. أخبرتك أنني لم أكن شديدة القرب إلى أحدٍ تُوفي من قبل قط. ثمَّ قلتُ: «أعلم أن ما سأقوله سيبدو غريبًا. لكنْ حين تذكرتُ إخبار والديَّ إياي أنني متبنَّاة، بدا شعوري أشبه بالموت. كأنني كنتُ شخصًا ما طوال حياتي، ثمَّ أدركتُ أنني مزيفة، مثل شبح».

- لا بُدَّ أن عدم معرفتكِ كان أمرًا صعبًا.

- إنني أخشى ممَّا يعنيه هذا. أشعر أنني وحيدة في العالم.

- الوحدة جزء من كيان المرء. إننا نتوق إلى المعيَّة، للتواصل، ومع ذلك، محاصرون في أجسادنا. نريد أن نعرف حقيقة الآخر كلية، لكننا عاجزون عن ذلك، ولا يسعنا سوى أن نمُدَّ أيدينا ونحاول الوصول.

كان حديثك شديد الشبه بما شعرتُ به منذ ساعة أو اثنتين، حين لمستني، ثمَّ حررتني من لمستك، فاستطردتُ: «أظن أن هذا أفضل شيء قاله لي أحدهم مطلقًا». أجبتني باسمًا، وتوارت شفتاك في لحيتك. أعربتَ عن بهجتك إذ مُنحتَ فرصة للنطق بالكلام السليم. ثمَّ طلبتَ منِّي أن أخبرك المزيد عن دكًا.

- لا أعرف أحدًا من بنجلاديش. في الحقيقة، يمكنني القول إنني لا أعرف أي معجب لشوستاكوفيتش يهوى صيد الحيتان من أي بلد.

سُحرتُ بما وصفتني به، فأخبرتكَ أنه ينبغي لكَ أن تأتي وترى المكان بنفسك. فأجبتني أنك ستود ذلك. أخبرتكَ كيف التقى والداي في أثناء حرب بنجلاديش، ذلك الحدث الذي شكَّل حياتهما، وحياتي أيضًا. تحدثنا عن ذلك

الأمر لبعض الوقت، ثمَّ ألقيتُ على مسامعك التاريخ الموجز لبلادي، ذاك الذي قصصته مرَّات كثيرة طيلة السنوات السبع الماضية.

أغلق المقهى أبوابه، وخرجنا منه إلى رحاب الليل المُشع بالحرارة والمضاء بأقماع مصابيح الشارع. انسقنا على مهلٍ نحو شقتي. بيد أن لدينا أمورًا لا حصر لها لنتحدَّث عنها. ترددنا عند مطلع شارعي، عازفين عن الفراق، ولو أنني توقَّفت هُنيهة للتفكير، لربما رأيتُ إرهاصًا لما سيأتي: انفطار قلبي.. العثور على أمي.. **جريس**.. النهاية والبداية.. طاقم التنقيب.. اكتشاف الحب وهجرانه.. إخباري إياكَ قصة حبنا، وقصة أنور.. وأمي. لكني لم أتوقَّف، ومرَّت بي اللحظة الألمعية، وهكذا ودَّعنا بعضنا وداعًا عاديًّا، على وعدٍ باللقاء في الصباح. ولمَّا افترقنا، شعرتُ بعقلي يُحرر نفسه من حكاية مولدي، ويلتفت إلى أمورٍ أخرى أكثر قابلية للإدراك، رحلة التنقيب التي أوشك أن أخوضها، الحفرية التي تنتظر في باطن الأرض، ومُرطب الشفاه والمجلات التي احتجتُ إلى شرائها قبل رحيلي.

ستتساءل، كما تساءلتُ أنا أحيانًا، عن اللحظة المُحددة التي وقعنا فيها في الحب. هل كانت على متن السفينة جريس، بعدما عزفنا البيانو، أم كانت قبل ذلك، اللحظة التي رأيتك فيها عبر الزجاج المُلطخ ببصمات الأصابع في مطار «شيتاجونج»، أم في غرفة معيشة والديك، أم حين افترقنا في ليلتنا الأولى تلك، وشوستاكوفيتش يُحلق ويتردَّد في عقلي الموسيقي، حين استدرتُ وأنتَ تمضي مبتعدًا فيتسنَّى لي أن أراك تتراجع بخطواتٍ بطيئة بقدميك المنعلتين بالصندل وساقيك المتشحتين بسروال الهيبيز؟

غير أنه يجدر بي أن أخبركَ الآن أننا لم نقع في الحب في تلك الليلة، لأنه في تلك الليلة، لم أكن أومن بالحب. أعلم بلا شك أنه موجود. وأعلم أنه المرتكز الأساسي الذي بنى عليه معظم الناس حياتهم، وما كنتُ بالحماقة التي تجعلني أفترض أنه أمر يمكنني تجنبه مطلقًا. لكني لم أومن أني أعيش في زمانٍ يرى الحب العظيم أمرًا واردًا. كان كل شيءٍ في حياتي سهلًا يسيرًا. بوسعي أن أُحب مَن أرغب، وأن أتزوَّجه أو لا أتزوَّجه، أو أبدل ديني، أو أتطلق عدَّة مرَّات وأحظى بأطفالٍ من ثلاثة آباءٍ مختلفين إن رغبتُ في ذلك. لقد ترعرعتُ في مجتمعٍ يمكنك أن تطلق عليه مجتمعًا تقليديًّا، ولكني لستُ مستعبدةً لهذا المجتمع. بل ما أنا مستعبدة له هو الماضي. وهذا أمر يتعلَّق بوالديَّ، والحرب التي خاضاها، وكونهما قد ضربا مثالًا للحب ولِمَا هو ممكن بين زوجين، لقد

ضربا مثالًا رسَّخ في عقلي أن مفهوم الحب الملحمي، ذاك الحب الذي تغنت به الأساطير والقصائد، واكتسى بالعاطفة التي تخطت الجمال والشباب، هو أمر لا يحدث إلا للآخرين، أولئك الذين جاؤوا من قبلي أو ولدوا في أزمان ساحرة مضطربة. لم أرَ نفسي مُحصَّنة ضده -لا شك أني سأُحِب وأُحَب- عدا أنني قدمتُ لذاتي حياةً تحترم لحظتها التاريخية وتُطالب بأقل القليل، شيء يسهل ترويضه عن تغضنات القلب وجروحه العميقة تلك.

أما أنتَ، لو أنكَ سألتني، ما كنتُ لأستطيع إجابتك بسببٍ وحيد لاهتمامكَ بي. حدَّثتُ نفسي: (أ) أنني سأقص عليك فكاهة مدهشة لاحقًا. ستقول لنفسك: مهلًا، لقد قابلتُ عالمة الحفريات البنغالية تلك، واستمعنا إلى شوستاكوفيتش، ثمَّ نينا سيمون، وعرفتُ أنها تُحب رواية «آنَّا كارنينا». ما الفارق الذي تُحدثه؟ أو (ب) أنكَ شعرتَ بالأسف عليَّ. أو (ت) أنكَ كنتَ في حقيقة الأمر منبوذًا اجتماعيًّا، غير محبوبٍ على الإطلاق وفي حاجةٍ ماسَّة إلى الصحبة، وعجزتُ أنا عن تبين الأمر فحسب. لا شك أن ثمَّة خيارًا آخر، وهو أن اهتمامكَ بي صادق -لكنني عاجزة حقًّا عن تخيل الأمر، لأن حينها سأضطر إلى تغيير نظرتي الخاصة إلى نفسي وأعترف أنني ما كنتَ تبحث عنه، وهذا أمر يفوق خيالي.

والآن لمَّا تلقى تقديري لذاتي قصفةً بالغة، يمكنني قول هذا: لقد أحببتني. أحببتني منذ البداية. ربما كان حبك هذا لأنكَ توسمت فيَّ الجمال أو الجاذبية، ولكنَّ الأهم من ذلك هو تقارب الشبه بيننا في حقيقة الأمر، مع أنكَ لا تحمل أي مؤشراتٍ خارجية تُوحي بأنكَ تشبهني في شيء. لقد رأيتَ فيَّ تجسيدًا لكل ما أحسستَ به حيال نفسك: أنكَ ولدتَ في العائلة الخاطئة، وأن ثمَّة أمورًا بداخلك لم تُعبِّر عن نفسها بعد، وربما لو حالفك الحظ تتفاجأ بنفسك تنطق بها في حضوري. بكلماتٍ أخرى: إننا لا نشبه بعضنا في شيء، ونشبه بعضنا في كل شيء. وقد ملكتَ أنتَ الحكمة لإدراك ذلك منذ البداية، حتَّى إن لم أفعل أنا.

***

بينما أقترب من الشقة، أمكنني سماع الموسيقى تنساب إلى الشارع، ثمَّ تذكرتُ حفلة وداعي. هاتفتُ بيتينا، عالمة الأنثروبولوجيا التي أعيش معها منذ عامي الأول، وأقرب أصدقائي في كامبريدج.

- آسفة حقًّا.

أجابت: «أنتِ متأخِّرة».

- لقد التقيتُ أحدهم.

- برمائي؟

«برمائي» هي شفرتنا لوصف أُناسٍ مثلنا. كانت بيتينا أرجنتينية، ولدت في كوينز، وترعرعت في بينوس آيرس حين قرر والداها أن يتخليا عن لقب المهاجرين، ثمَّ التحقت بالجامعة في باريس، وتفرَّغت عدَّة سنوات وارتحلت في أنحاء الصين، حيث صفعتها القرود، ثمَّ استقرت هنا، في كامبريدج، وفي الوقت ذاته كان والداها قد عادا إلى منزلهما في مقاطعة استوريا، ليُهذبهما الجانب الأكثر إثارة ومتعة من الكوكب. تشير كلمة «برمائي» إلى الأناس الواقعين في البَيْنَيْن، الأناس الذين يعيشون بجزءٍ من دواخلهم في عالمٍ سرمدي آخر.

أجبتُ: «كلا. بل نزق بإجماع الآراء».

- عزيزتي، إن كنتِ ستخونين، فاجعلي الأمر مثيرًا على الأقل.

حاولتُ استحضار وجه راشد في ذهني، أُلهِب فتيلَ ذكرياتي بحثًا عن شعورٍ بالعاطفة، التهيج، شيء من هذا القبيل -لكنَّ عقلي لم يتمخض عن شيء، ولذلك أجبتُ: «ليس كأنني أنا وراشد متزوجان».

- أين أنتِ؟ يمكنني سماع الموسيقى.

- أنا في الشرفة.

- يمكننا معاودة الحديث عن هذا لاحقًا. أغلقي الخط وادخلي.

كانت بيتينا قد عهدت بتركيب مكيفٍ للهواء في غرفة المعيشة الصيف الماضي، ومع أن الشقة مزدحمة، كان الجو بالداخل رطبًا عن الشارع. ألقيتُ نظرةً فاحصة على الغرفة ورأيتُ شريكتي في المختبر، كيانج-چو، وقلة من الطلاب الخريجين الآخرين من قسمي، لكنَّ معظم الحضور كانوا من علماء الأنثروبولوجيا، أظرف علماء الاجتماع وأكثرهم كآبةً، مجتمعين معًا في تكتلاتٍ صغيرة. التقطت أذناي مقتطفاتٍ من حديثهم: شكاوى حول رئيس القسم الجديد، ومقالًا بحثيًّا أخفق أحدهم في نشره، ووصفًا جديدًا

في علم الدلالة والرموز، والمخادع الذي هو «سلافوي جيجك»[1]. أُتيحت لي فرصة التعرف بهم جيدًا، فقد قضوا الكثير من الوقت في شقتنا، يشربون الشاي ويشاهدون التلفاز من باب السخرية. أما أصدقائي من قسم الأحياء العضوية والتطورية، فيفضلون الثمالة في العطلة الأسبوعية، أو يطلقون العنان لأنفسهم في أحضان المختبر التحضيري، أو يغطون في النوم بين رفوف مجموعة العينات اللافقارية. عادةً ما تمزح بيتينا فتقول إنني في القسم الخاطئ، ولكنَّ ثمَّة أمرًا بهيجًا منصفًا حيال العلماء، واكتشفتُ أن بوسعي العيش بينهم دون تبديد الكثير، وفي تلك الأيام كان الاختباء في الضوء الخافت هو أفضل ما أفعله.

أحدثتُ اضطرابًا وأنا أتحرك خلال الحشد. هلل هتاف من أحد أركان المطبخ. وأحاطتني بيتينا -التي كانت أضخم منِّي في كل شيء، البنية العظمية والطول والحجم- بذراعيها في عناقٍ خانق، ومرَّرت إليَّ كوبًا من شراب السانجريا. ثمَّ سألتني وهي تعقد شعرها السميك في ذيل حصان: «إذن ماذا حدث؟».

انتزعتُ شريحة برتقالٍ من كأسي، وأجبتُ: «كان حدثًا غريبًا. كنتُ أستمع للموسيقى، وكان هناك هذا الشاب، ثمَّ بكيتُ».

استطردت بيتينا وهي تُروِّح عن وجهها: «هذا أمر حتمي، متوقع حدوثه».

تميل بيتينا إلى التصرُّف كأن لا شيء يثير دهشتها حين يتعلَّق الأمر بالرجال. تجرعتُ جرعةً كبيرة من السانجريا، ثمَّ تبعتها إلى غرفة المعيشة. كنَّا بيتينا وأنا قد التقينا بعد بضعة أسابيع من إخفاقي الأول في هارفارد، حين قررتُ أن أقطع طريقًا مختصرًا عبر مكتبة «توزر» وأنا في طريقي إلى متحف علم الحيوان المقارن. دخلتُ المبنى، أتوقع ترتيبًا عاديًّا للكتب، لكنْ بدلًا من ذلك، استقبلتني غرفة شديدة الظلمة، وحين غصتُ في أعماقها، عادت الأضواء المقطوعة فجأةً، وأنارت طوطمًا يرتفع طابقين أو ثلاثة طوابق إلى

(1) فيلسوف وناقد ثقافي سلوفيني، قدم إسهامات في النظرية السياسية، ونظرية التحليل النفسي والسينما النظرية، وهو أحد كبار الباحثين في معهد علم الاجتماع بجامعة ليوبليانا، يلقي محاضرات عادةً في مدرسة Logos في سلوفينيا، وهو أستاذ في كلية الدراسات العليا الأوروبية، ويوصف بأنه «أخطر فيلسوف سياسي في الغرب». (المترجمة)

المعرض. تملكني الفزع فأطلقتُ صرخةً قصيرة، وهذا حدث شهدته بيتينا التي كانت تقف على بعد أقدامٍ قليلة خلفي، ورأته مثيرًا للضحك.

بدأ الحديث بيننا، ثمَّ ذكرت أنها تبحث عن رفيق سكن. في ذلك الوقت كنتُ أعيش في شقةٍ صغيرة في واحدٍ من المساكن الطلابية المنزوية عن شارع «كيركلاند ستريت»، وكانت الجدران رفيعةً للغاية حتَّى ليسعني أن أسمع جارتي، وهي طالبة دكتوراه في الفلسفة السياسية، تُلصق مُثبت أسنانها في فمها في أثناء الليل. اتضح أن اختيار بيتينا الأول قد تراجعت في اللحظة الأخيرة، وهي طالبة حقوق يعيش حبيبها في نيويورك، ولذلك لن تمكث سوى أيامٍ قليلة كل أسبوع، فالغياب هو الغاية المنشودة لاستحسان رفيق السكن.

مضت الأسابيع الأولى معًا غاية في الغرابة، وهذا لأن بيتينا بدت تستنشق كل الأكسجين في الشقة، لكنْ لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا لينشأ بيننا شيء من المودة. عرضتُ في أحد الأيام أن أُعدَّ العَشاء، فوقعت بيتينا في حُب أحد الأطباق التي يمكنني طهوها بإتقان، وهو حساء الدال بالبيض المقلي الحار. وفي موجة الشتاء الأولى للعام، أصابني الزكام، فأعدت بيتينا شاي الزنجبيل، وعرَّفتني على جانب من التلفاز لم أشهده من قبل قط، وهي مسلسلات مثل «**بافي قاتلة مصاصي الدماء**» و«**بنات جيلمور**». وبعد ذلك، ذهبنا للتسوق في «تريدر جوز» في عطلة نهاية الأسبوع، وشاهدنا الأفلام الموسمية معًا، حتَّى إننا حضرنا صفوف بعضنا الدراسية. (رافقتها إلى حلقة دراسية لـ هومي بهابها عن المالنخوليا، ورافقتني هي إلى دورة علم الحفريات التحليلي. ثمَّ ادعت أنني حصلتُ على العرض الأفضل، وكان عليَّ موافقتها الرأي).

أعان والدا بيتينا ابنتهما لشراء الشقة، مسكن بغرفتيْ نوم في مدينة «تروبريدج» حين شرعت في الدراسات العليا. وأحضرتُ أنا أشياء قليلة من دكًا بعد عطلة الشتاء الأولى: ساعة مصنوعة من الورق المُعاد تدويره، وستار من قماش مُرصع بشظايا من مرايا دائرية صغيرة صارت حجابًا يفصل بين غرفة المعيشة والمطبخ. ثمَّ عثرنا على أريكة متهالكة في الشارع، وسحبناها إلى الداخل بمساعدة حبيب بيتينا، وهو طالب ماجستير في كلية التربية، هجرته بيتينا بعد أسابيع قليلة بعدما تفاقم مللها منه. أطلقنا على الأريكة اسم إدفار تيمنًا به، وأطلقنا على الكُرسي ذي الذراعين الذي تبرَّعت به خالة بيتينا، اسم مود. كانت الشقة دافئة تشعر بها كأنك في موطنك، شعورًا لم أتخيَّل أن

أحظى به في أمريكا قط، ولمَّا استعرضتُ حالي، أدركتُ أنه سيمضي وقت طويل قبل أن أحظى بمنزلٍ خاص بي ثانيةً.

علَّقت بيتينا شاكية وهي تُلقي بنفسها على الكرسي مود: «علماء الحفريات يختلون بأنفسهم كالعادة».

- وعلماء الأنثروبولوجيا يبذلون قصارى جهدهم ليظهروا بمظهرٍ مخيف.

- ويخفقون.

تجرعتُ رشفة أخرى من الكوب البلاستيكي وشعرتُ بدفء النبيذ والسكر يغمر جسدي. أردتُ ذريعةً تُبرر الحديث عنك، فقلتُ: «إذن هذا الشاب، لم أره في الحرم الجامعي من قبل. وتبين أنه خريج من قسم الفلسفة».

سألت بيتينا: «ما اسمه؟».

- إيلاجا سترونج.

قلَّبت بيتينا عينيها وهي تتساءل: «حقًّا؟».

- حقًّا.

ثمَّ خطرت ببالي فكرة مفاجئة، فمضيتُ قائلة: «ما لم يُخبرني باسمٍ مزيف. أتظنين أنه منحني اسمًا مزيفًا؟».

- قطعًا. أما في الوقت الراهن، توجد فطيرة.

استرجعتُ محادثتنا في ذهني، وحسمتُ أمري أن لا، أنتَ لم تكذب. إن إيلاجا سترونج هو اسمك بلا شك. وفي وقتٍ لاحق من تلك الليلة، سأبحث عنكَ عبر الإنترنت، وسأجد صورةً فوتوغرافية التُقطت لكَ قبل أن تُطلق لحيتك وتجعلك تبدو أصغر سنًّا، وهنيهةً ظننتُ أن هذا ليس أنتَ، ولكن كان هذا أنتَ بلا شك.

- فطيرة؟

- فطيرة على أصولها الأمريكية. أشعلتُ نيران الفرن ونحن في درجات الحرارة المجنونة هذه لغوايتك إلى شواطئنا مُجدَّدًا.

قضينا شهورًا طويلة نتجادل بشأن ما إذا كان يجدر بي العودة إلى كامبريدج بعد انتهاء عملي الميداني. وفي نهاية الأمر، قررتُ ألا أعود. يسهل عليَّ كتابة أطروحتي في دكَّا، حيث أكون على مقربة من منطقة التنقيب وقريبة من راشد. حسمتُ أمري على ذلك مع إدراكي بأن العالم يعجُّ بطلاب

الدكتوراه الذين لم ينجزوا درجاتهم العلمية. وتفاقم تناقضي الوجداني إزاء افتقاري إلى العزيمة للبقاء في بلادك، فلم أحلم يومًا كما يحلم آخرون أعرفهم في موطني، بالعيش في أمريكا. حين كنتُ في سن المراهقة، كنتُ قد زرتُ نيويورك لمرَّة واحدة برفقة والديَّ. كان لأبي ابن عمٍّ في «لونج أيلاند»، ومكثنا في غرفة الضيوف لمنزلٍ من طابقين على جانب الطريق السريع. استرجعت ذاكرتي بإعجابٍ سجادة وبرية ممتدة من الجدار إلى الجدار، وغرف شاسعة تفوح برائحة البصل. تساءلتُ آنذاك عن سبب تغطية جميع النساء رؤوسهن، وعن الهدف الذي من أجله تُعلَّق نصوص عربية مُؤطرة على الحائط فوق مدخل كل باب. ولمَّا دق رنين المنبه بأذانٍ مُسجَّل، لم أتمالك نفسي عن الضحك. وبَّختني أمي آنذاك، لكني عرفتُ أنها تُكيل لهم أيضًا الأحكام سرًّا؛ لأن في مخيلتها المهاجر هو شخص هجر بلاده بكل ما فيها.

كان هذا كل ما ألفته عن أمريكا قبل أن أستقر في المدينة الجامعية[1] الصغيرة التي اخترتها لأحصل على درجتي الجامعية قبل أن تتبدل أحوال والديَّ؛ كان هذا هو المكان الوحيد الذي قدَّم إليَّ منحة تعليمية. مضت تلك السنوات الأربع بأشتيَّتها البائسة قاسية البرودة، وعطلاتها الموحشة، معزولة بين الطلاب الدوليين الآخرين بلا سيارة. لم يتحسن الوضع إلا بعدما اكتشفتُ علم الحفريات، والحوت، حينها بدأ يتبلور في ذهني مفهوم بناء حياة لنفسي، هنا حيث يهتم الناس بعظام الحيوانات التي عاشت في زمنٍ يسبق الذاكرة أو الطموح البشري. ومع ذلك عجزتُ عن محو صورة ذلك المنزل في لونج أيلاند من ذهني، والكيفية التي يتشبث بها الأناس القادمون من موطني ببعضهم. والداي وراشد.. لم أُخبرهم شيئًا عن مغريات العيش هنا؛ أما أصدقائي، مثل بيتينا، فأوضحت لهم أنه ما من سبيلٍ لي لأستقر في أي مكانٍ عدا دكًا. إن والديَّ هناك، وأنا طفلة وحيدة، وهما قد عاشا أيام الحرب وتجاوزاها. وإذا رتبتُ توجهي لأي طريقٍ آخر، سيُعد هذا خيانةً من جانبي، لا سيما أنني واعية تمامًا بالتزاماتي.

لمحتُ كيانج-چو وبراين، وبراين هو فتًى من مجموعتي، فاندفعتُ خلال الحشد نحوهما. وجدتُ شريكتي في المختبر ثملة، وشعرها الأسود الخفيف

(1) المدينة الجامعية المقصودة هنا هي مدينة أو ضاحية منفصلة عن مدينة كبيرة، غالبية ساكنيها من طلاب الجامعة الملحقة بها. (المترجمة)

مائلًا إلى الزرقة ملتصقًا بجبهتها. قالت في تحية: «مرحبًا. أأنتِ مستعدة لعملية تنقيبكِ الكبيرة؟». فأجبتها سائلة:

- أكان لديكِ ما يكفي من الشراب؟

ضربت كيانج-چو الهواء بمخالبها، وراحت تقول: «أنا النمرة الآسيوية. أنا النمرة الآسيوية».

كان العداء الطفيف الذي خيَّم على المختبر حين وقع الاختيار عليَّ من بين الآخرين للعمل على التنقيب في باكستان قد استحال إلى نزقٍ واهٍ على مدار الربيع. يتوارى خلف هذا النزق تضمين بأن سبب اختياري هو اسمي المسلم وثلة الكلمات الأردية التي أتحدثها. لم يقرب أحد من «ديرة بوجتي» منذ بداية الحرب في أفغانستان عام 2001، عدا أن الأستاذ بارثولوميو جونز، قائد البعثة الاستكشافية، قد مُنح تصريحًا بالتنقيب حول جبال «سليمان الغربية». وإذا كان النجاح حليفنا، فأمامنا فرصة لصنع اكتشاف بارز في المجال.

تقدم جميع الطلاب الخريجين في قسمي لشغل هذا المكان. أما أنا فانتظرتُ حتَّى اليوم الأخير لإنهاء استمارة التحاقي، ورفعتُ المقال إلى المنصة قبل موعده الأخير بدقائق. وبدلًا من توضيح جميع المهارات الفنية التي سأضيفها إلى الفريق، رسمتُ لوحةً للعالم كما كان ليبدو في عيني الحوت السائر: مشهد طبيعي من الحقبة الأيوسينية المبكرة بعد انقراض الديناصورات، موطن للحيتان السائرة السابحة، برمائيات رباعية القوائم، مخلوقات تعتنق ازدواجيتها وانجذابها لفتنة البحار ومناعم اليابسة. أرسلتُ المقال وقررتُ التفكير فيه لمامًا، أُقنع نفسي بضرورة العمل على أبحاث أطروحتي في المكتبة بينما أضمر الإيمان باختيارهم لي، لا بسبب اسمي، لكنْ لأن ثمَّة إحساسًا شاعريًّا في الحوت السائر، ويحتاجُ إلى أحدٍ سيفهم ذلك الأمر. هنأتني كيانج-چو بعد إعلان النتيجة، لكنني مُدركة مدى صعوبة الأمر عليها تحديدًا. لقد عملت بجدٍّ عني، وامتلكت معرفة موسوعية بالعصر الأيوسيني، وتأتمر بأمر والدين يوليان اهتمامًا يوميًّا بمدى تقدمها، على عكس والديَّ.

حاولتُ انتزاع الكوب من يد كيانج-چو. كنتُ أعرف أنها تُكن إعجابًا لبراين، ولم أُرد لها أن تُحرج نفسها أمامه.

قالت كيانج-چو وهي تُراوغ انتزاعي للكوب: «كانت أمي غاضبة للغاية. كفى بالأمر سوءًا أن أردتُ دراسة الحفريات، لكنني عجزتُ عن أن أكون حتَّى الأفضل في دراستي».

- حالفني الحظ وحسب.

قال براين: «لا تحزني يا كيانج-چو، يتسنَّى لكِ البقاء هنا معنا في حين أن الآنسة ذات السراويل البرَّاقة تغرز يديها في الوحل».

وألقى بذارعه حولي كيفما اتفق، وأخذ ذقنه غير الحليق يحتكُّ بخدي وتُلهبه. شممتُ رائحة الويسكي. ثمَّ ذكَّرتني لحيته بالحفل الموسيقي، وأصابعك تتضافر مع أصابعي. انفلت صوت خافت من بين شفتي؛ على إثره اقترب براين ثمَّ مال نحوي. فكرتُ في تقبيله، لأنني أردتُ تقبيلك بشدة. كان براين قد سألني مرافقته في موعدٍ رومانسي في أثناء حفل استقبال قسمنا، وسخرتُ أنا من الأمر، وعللتُ رفضي بأننا وصلنا لتونا، وأمامنا الكثير من الوقت للرومانسية. لم يكرِّر براين عرضه مرَّة أخرى، وسرعان ما عرف الجميع بشأن راشد. والآن دفعته بعيدًا برفق، وانتزعتُ الكوب الورقي من يد كيانج-چو بقوة. ثمَّ قلتُ: «هذا يكفي. هاكِ، كلي بعض الكاچو».

أوردتُها إلى الأريكة، وأسندتُ رأسها إذ مال إلى مسند الذراع.

علَّقت كيانج-چو بصوتٍ مخشوشن: «لقد أردتُ الحصول عليها أكثر منكِ».

أجبتها: «سأهمس باسمكِ في التراب».

ثمَّ رحتُ أتجول في الشرفة، متمنيةً لو أنكَ منحتني رقم هاتفك. كنتُ سأهاتفك وأخبرك بأمر الحفل، والناس الذين يبصقون على رقعة الحشائش الضئيلة أمام المنزل، ورأس كيانج-چو الذي يتدحرج إلى الأمام على ذراعيها، ورائحة السجائر والفاكهة المطهوة. أخرجتُ هاتفي من جيبي وشرعتُ في كتابة رسالة إلى راشد. بلغ النص أسطرًا قليلة قبل أن أُقلع عن الأمر، غير قادرةٍ على توضيح سلسلة المشاعر التي ما فتأت تتفكك بداخلي: حزن يغمرني لاضطراري إلى مغادرة هذا المكان، هذا الذي ما برحتُ أعتبره موطنًا مؤقتًا، وتململًا موازيًا، وتوقًا إلى الرحيل لأن المحادثات ترتد من حيث جاءت، وصرتُ أُفكر في المرأة التي ولدتني من أحشائها، مختبئة في موضعٍ ما

من بلادي، وهذا أمر لن أعرفه البتة، بدافع الولاء لوالديَّ، لأن كلمة «الصلة البيولوجية» تنشر الرعب في قلبيهما، ولم تُنطق في بيتنا قط.

عبرت بيتينا الباب برفقة اثنين من زملائها في قسم الأنثروبولوجي، أولهما: سوزو التي عقصت شعرها الأشقر في كومةٍ من الجدائل، والأخرى: شاندانا، وهي امرأة هندية لم أُكِن لها أي إعجاب بالمرَّة. وتساءلتُ عمَّن دعاها إلى المجيء.

عاجلتني بيتينا قائلة: «يا فتاة، لقد كنَّا نبحث عنكِ».

- كنتُ أتعامل مع كيانج-چو. إنها ثملة.

- أعلم. لقد تقيأت في المطبخ.

مالت بيتينا إلى السور فيما أخرجت سوزو علبةً حمراء من حقيبةٍ صغيرة ترتديها حول رقبتها. وانضمَّت شاندانا إليَّ على درجة الشرفة، جالسةً في موضعٍ يزيد قربًا منِّي عمَّا أردتُ لها أن تكون.

- سيصحبها براين إلى المنزل الآن.

علَّقت سوزو: «لا أظن أنها معتادة الشراب. ماذا وضعتِ في مشروب السانجريا هذا؟».

أجابت بتينيا: «لا شيء».

استطردت سوزو: «إنها تتمرد.... هل يشربون الخمر في بلادكِ يا زبيدة؟».

استرجعتُ الحفلات التي حضرتها في المدرسة الثانوية، حيث كانت الجعة على مرأى من الجميع، ثمَّ أجبتُ: «نعم ولا. من الناحية الرسمية: لا. لكنَّ الجميع يشرب الخمر».

أشعلت سوزو سيجارةً، وتساءلت: «الجميع؟ ليس الجميع بلا شك. ليس المزارع، أو العامل في تجارة الأقمشة».

قلَّبتُ عينيَّ في محجرهما، ثمَّ أجبتُ: «حين قلتُ الجميع، قصدتُ جميع مَن أعرفهم».

قالت بيتينا: «لا تُحب زبيدة أن تترسخ في أذهاننا صور نمطية عن بنجلاديش».

- مثل ماذا؟

أجابت بيتينا، وهي تتطلَّع إليَّ بحثًا عن الإقرار: «مثل أنها مليئة بالفتوَّات والفقراء».

خالجني شعور بالنقيض، فعلَّقتُ: «عدا أنها كذلك».

- آه، اللعنة على هذا. قضيتِ ثلاث سنواتٍ تُلقين عليَّ المحاضرات في هذا الشأن، والآن ماذا؟ هل غيرتِ رأيك؟

غلَّفتنا رائحة القرنفل المنبعثة من سيجارة سوزو في ضبابٍ لاذعٍ برائحةٍ نفاذة.

قلتُ: «سوزو، يبدو كأنكِ تقضمين على عام 1993 بين شفتيكِ».

ألحَّت بيتينا في حديثها: «إذن أنتِ تقولين إنه جرى تصوير بلادكِ بدقة في الإعلام الغربي».

- إن الأمر هكذا بالضبط. نزاعات سياسية داخلية، متطرفون هاربون، زواج أطفال، وكوارث مناخية على مشارفها. لا يجدر بأي أحدٍ أن يرغب في الاقتراب من هذا المكان.

أدارت سوزو خاتم إبهامها مرَّة وراء أخرى، ثمَّ علَّقت: «ليست لديَّ أي فكرة عمَّا تتحدَّثان عنه يا رفاق».

استطردت بيتينا: «هذا لأنكِ تدخنين هذا القرف»، وهي تُروِّح بيديها الهواء أمام وجهها، ثمَّ مضت قائلة: «التقت زبيدة أحدهم».

أسقطت سوزو سيجارتها، وسحقتها في العشب، ثمَّ علَّقت: «ظننتُ أن لديكِ حبيبًا».

- كان لديَّ. أعني لديَّ.

أردتُ تغيير دفة الحديث، فالتفتُ إلى شاندانا، وسألتها: «ماذا عنكِ؟ ألا تُواعدين أحدًا؟».

كانت واحدة من تلك النساء الهنديات اللاتي يُزيِّنَّ أنفسهن بمقدارٍ من الجواهر الفضية يكفي لتشغيل جهاز كشف عن المعادن. خُرمت أذنها في عدَّة مواضع، ويتدلَّى من أنفها حلق بسلسلةٍ موصولة بقرط أذنها، وترن أساورها في كل مرَّة ترفع ذراعيها. لم تسمح بيتينا لنفسها بالسخرية منها حتَّى بدأتُ في وصفها «بالعروس الكاملة»، هذا لأنها، وعلى حدِّ معرفتي، وحدها عروس هندية كاملة الزينة هي مَن سترتدي قرط أنفٍ بهذا الشكل.

ظننتُ أن شاندانا قد حظيت بالكثير من الفتوحات الجنسية، وأنها ستتزوَّج متخصصًا في الموسيقى العرقية أو نحَّاتًا، لكنها قالت: «آه، لن يوافق والداي إلا إذا تزوجت «تاميل براهمي»».

كنتُ أفهم ما تعنيه، لكنَّ سوزو وبيتينا لم تفهما. فمضت شاندانا موضحةً: «شاب براهمي[1] من مسقط رأسي، مدينة تاميل نادو».

أجبتُ: «هذا أمر لا يُعقَل».

- ألا يُعقَل لديكِ؟

سألت بيتينا: «إذن كيف يسير الأمر؟».

- كل بضعة أسابيع تأتيني مكالمة هاتفية، وعلى الجانب الآخر إما مصرفيٌّ وإما طبيب، ثمَّ يبدو ألطف شابٍّ في العالم، وأضجرهم حتَّى إن كلبًا مسعورًا قد يغرق في غيبوبة بسببه. ثمَّ نخرج في موعدٍ رومانسي إلى مطعمٍ باهظ، ثمَّ أعود إلى المنزل وأبلغ والديَّ أنه ليس الشاب المختار.

سألت سوزو: «وهل يمانعون؟».

ثمَّ سألتُ أنا: «أيُّ مطعم؟».

- أه، لقد ذهبتُ إليها جميعًا. «كريجي أون مين» و«أوجوردوي». إنهم يُحبون طعامها الفرنسي، حتَّى لو كانوا نباتيين ولا يستطيعون طلب شيءٍ سوى سوفليه الجُبن. ذات مرَّة سافرتُ مع أحدهم إلى ميامي. أراد والداي أن يريا محاولاتي.

- كيف يتسنَّى لكِ إنجاز شيء؟

- هذا أمر مستنفد للوقت.. وكدتُ بسببه أرسب في اختباراتي الشاملة.

سألت بيتينا: «وماذا سيحدث لو وقعتِ في حب أحدهم؟».

---

(1) **البراهمة** اسم يُطلق على أفراد الطبقة العليا، وهي طبقة الكهنوت أو رجال الدين، عند الهندوس.

فالمُجْتمع الهِنْدِيَ ينقسم إلى طبقات أربع: البَراهِمة، والنُّبَلاء، والبرجُوازيُّون، والحِرْفيُّون. وكلُّ طائِفَة مُغْلَقَة على نَفْسها لا يُسْمَح بأن تَخْتَلِط بِدَمِها طائِفَة أُخْرى. والبَراهِمَة أَرْقى هذه الطَوائِف، وهم رِجال الدِّين، ولهم مناَسِكهم وطُرق مَعِيَشتهم، وفي وسعهم وَحْدهم تَفْسير الكُتُب المُقدَّسة وتَطْبِيقها، وهم الذين يتولَّون الصلواتِ والأناشيدَ وإذكاءَ النار المُقدَّسة. (المترجمة)

قلَّبنا شاندانا وأنا أعيننا في محاجرها لبعضنا، ثمَّ أجابت شاندانا: «كنتُ أواعد شابًّا ذا بشرةٍ بيضاء العام الماضي، ولمَّا اكتشف والداي الأمر أصابهما الذعر التام. أعني، أن أمي كان عليها أن تُضاعف جرعة دواء ارتفاع ضغط دمها. ولم يستحق الأمر هذا العناء».

علَّقت سوزو: «هذا أمر مُريع».

قلتُ: «آه، لا يُعقل أن يكون بذلك السوء. إن «كريجي أون مين» مطعم جيد حقًّا. صحبني راشد إليه العام الماضي».

سألت شاندانا: «إذن ستتزوَّجين هذا الشاب أم ماذا؟».

أجبتُ: «أجل». أدركتني لحظة البصيرة تلك أخيرًا، فمضيتُ قائلة: «لقد عرفته طيلة حياتي، ووالداي يعشقانه. كما أنه مثير ووسيم، وما برح الجميع يُخبرونني كم أنا محظوظة».

قالت بيتينا: «كان يجدر بكِ الانفصال عنه منذ سنوات».

أردفت شاندانا: «يصير الأمر أصعب حين يتعلَّق والداكِ به».

أرقدتُ رأسي على حجر بيتينا، ورحتُ أُفكر هنيهة في ما ستكون عليه الحياة لو أنني انفصلتُ عن راشد. ربطتنا علاقة قوية منذ أن كنَّا في المدرسة الثانوية. ولمَّا ارتحل إلى الجامعة في لندن قبل رحيلي إلى أمريكا بعام واحد، قررتُ في نفسي أنني سأمنح الأمر ستة أشهر، لكنني تفاجأتُ بدكًّا مملة من دونه، ولمَّا رحلتُ أنا إلى الجامعة، بعثت فيَّ مكالماته الهاتفية، التي كانت تدق في وقتٍ مُحدد كل صباح قبل ذهابي إلى الصف الدراسي، شعورًا بالطمأنينة طيلة الشتاء الأول الطويل في «نيو إنجلاند». وفي مارس، وهو التوقيت الذي يُطلق عليه الناس الربيع، لكنَّ الأرض لا تزال جدباء قاحلة كالقبور، جاء لزيارتي. استأجر سيارةً وقَدِم بها من بوسطن. جلب معه حقيبةً مليئة بأشياء هرَّبها عبر الجمارك، وطهى العدس الأصفر وقلى كريات البطاطس المهروسة في المطبخ الصغير في سرداب مسكني. أحسبُ أنني اتخذتُ قراري آنذاك وأنا أُشاهد أصابعه تلتف في انسيابية حول مقدمة عجلة القيادة حين كان يصحبني عبر الطرق ذات الضفاف الجليدية. بعدما أنهى دراسته الجامعية، عاد إلى الديار لينضم إلى تجارة والده. كنتُ أجده دومًا حين أعود في العطلات، يصحب والديَّ إلى النزهات في أعياد ميلادهما وذكراهما السنوية، يسدُّ شيئًا مِن الفراغ الذي تركته من خلفي. التقيتُ أحيانًا

رجالًا أُعجَبتُ بهم، ورجالًا غازلتهم، لكن لا يسعني تخيل العودة برفقة أحدهم إلى الديار، لأنني أدركتُ أن الديار هي مرجعي في نهاية الأمر، مهما طال الترحال وازدادت فتنته.

***

وهذه هي قصة لقائنا الأول يا إيلاجا. كان لديَّ متسع من الوقت للإسهاب في الأمر. استطعتُ استرجاع كل إيقاع في لقائنا، والإبحار في تلك اللحظة الواعدة. لعلَّ الذكرى جلية في ذهنك كما هي في ذهني؛ لعلَّك تتذكَّر أن لديَّ ندبة أسفل ركبتي كنتَ قد علَّقتَ عليها في المقهى، وأوضحتُ لكَ أنني لم أتعلم قيادة الدراجة قط، وأن رفيقة سكني حاولت تعليمي قبل أن أرحل. ولعلَّك تتذكَّر حُبنا المشترك للمغنية نينا سيمون، وإخبارك إياي بأن والديك قد اصطحباك ذات مرَّة إلى حفلٍ موسيقي حين كنتَ في السادسة، وأنكَ ندمت أشد الندم حين كبرت من نومك طيلة الحفل. ربما ستتذكَّر كل تفصيل، كما أتذكر أنا، مع أن البديل الآخر أوقع احتمالًا، وهو أنكَ محوت الأمر برمته من ذهنك، لأنك لم تُفكر بي، حتَّى حين تُفكر بي -حتَّى لو تذكرتَ أنك التقطتَ ورقة بنكنوت بقيمة عشرة دولارات من رصيف المشاة، ورقة نقدية سقطت حين أخرجتُ مفاتيحي من جيبي- لن تتذكَّره بفيضٍ من حنان، بل بحُممٍ من ندم. على أي حال: بعد ثلاثة أعوام، ها هي قصة لقائنا، ووقوعنا في حب بعضنا، وانفصالنا، وما بين هذا وذاك من فوضى. ها هو كل تفصيل مُحفور في رأسي ويُضخمه شعور بتأنيب الضمير. إنها دراسة ميدانية في الأعراق واعتذار عن سلوكي، وفرصة لي لكي أمنحكَ تفسيرًا شاملًا لما حدث بالضبط -فمع أننا قضينا كثيرًا من ذلك الوقت معًا وشعرتُ أنني أخبرتكَ بكل شيء، أدركتُ الآن أن ثمَّة الكثير لم تعرفه، وأنه، حتَّى لو كنتَ أشد قربًا من أحدهم عمَّا كنتَ أو ظننتَ من قبل، ستظل بينكما لحظاتُ صمتٍ وأحاجي ناقصة وأمور كان يجدر بكَ أن تقولها لكنك خشيت الاعتراف بها. وفي نقطةٍ ما من طريقنا -لم أُقرر بعد متى- سأُخبرك أيضًا بشأن أنور، هذا لأن قصته بأهمية قصتنا؛ نُسِجَ ثلاثتنا معًا بطرقٍ ما كنَّا لنحلم بها قط.

***

رتبتُ لقاءنا أمام «المركز العلمي»، لكنني حين وصلتُ إلى هناك متأخِّرةً عشر دقائق عن موعدنا، لم تكن وصلت بعد. اشتدت الحرارة خلال النهار؛

وعملت النوافير، واجتمعت قلة من الناس حول المقعد الحجري المُحدَّب. ثمَّ رأيت امرأة تدفع طفلًا في عربته، ورجلًا في حُلةٍ سوداء يبسط صحيفةً بين يديه، ومُهرِّجًا اعتاد التسكع عند مدخل قطار الأنفاق. لم أدرِ ما عليَّ فعله، ولهذا عدتُ من حيث أتيتُ عبر الباحة أمشي الهوينى، حريصة على أنك ستصل لحظة رجوعي. ثمَّ تراءى لي: ماذا لو أنكَ لم تحضر؟ ماذا لو أنكَ رحلت ولم أركَ ثانيةً؟ فأسرعتُ الخطى. حين عبرت البوابة إلى خارج الباحة، تطلع الرجل في الحلة السوداء من فوق جريدته، وأدركتُ حينها أن هذا أنت. وحين رأيتني، لوَّحت لي. تسارعت دقات قلبي حتَّى ظننتُ أنها قد تكسر أضلعي. فلوَّحتُ إليكَ بدوري.

قلتَ بنبرة صوتٍ دافئة حنونة: «مرحبًا يا أنتِ».

كان لها أن تكون تحيةً من صديقٍ قديم. ارتديتَ قميصًا أبيض رسمي الهيئة، وربطة عنقٍ مخططة. برزت مسالك المشط في شعرك المُبلل. أردتُ القفز فرحًا، لكن بدلًا من ذلك وقفتُ أمامك متململة. ثمَّ سألتك: «ماذا كنتَ تفعل؟».

أجبتني: «لا شيء. أجلسُ فحسب. في الواقع، كنتُ أُفكر فيكِ».

- كنتُ أُفكر فيكَ أيضًا.

افترَّ ثغرك عن ابتسامة، فقررتُ ألا أسألك عن سبب تأنقك بملابس رسمية. قلتَ إنك تعرف أفضل مقهى للإفطار في كامبريدج، فأجبتكَ أني قد تناولتُ طبقًا من الحبوب، لكن يسعني دومًا أن آكل ثانيةً. ولكم أعجبتني حقيقة أن الناس في بلادك يأخذون أمر الإفطار على محمل الجد. في بلادي يمكنني شراء المثلجات في منتصف الليل، وهناك أكشاك الفاكهة على طريق «ميربور روود» تبيع المانجو حتَّى بزوغ الفجر، لكن في الصباح ليس ثمَّة مكان تذهب إليه. لن تجد بيضًا مخفوقًا أو شرائح بطاطس مهروسة مقلية أو أنواعًا مُعقدة من الخبز المحمص. تبعتُكَ إلى خارج الساحة، اتجهنا إلى «كوينسي» ومشينا في «ماس أفي»، ومررنا بالمقهى الكوري ومتجر النبيذ الذي كنتُ أخشى دخوله دومًا. نزعتَ سترتكَ وطويتها بعنايةٍ على ذراعك. دخلنا مطعمًا صغيرًا لا تُزينه لافتة، ذا سقيفة تظليلٍ زرقاء، لا بُدَّ أني مررتُ بها مئات المرَّات دون أن ألاحظها قط. كان مكيف الهواء يعمل بأقصى طاقته.. وجدتَ لنا طاولة

في مؤخِّرة المطعم، ثمَّ جلسنا، حريص على ضبط ربطة عنقك وأنتَ تجذب كُرسيكَ إلى الأمام.

جلستَ مستقبلًا الشمس بوجهكَ، ثمَّ قلتَ بتفاخر: «مطعم ماس أفي».

وفي تناقضٍ مع خلفية حُلة الحانوتي، بدت تجعيدات شعرك الشقراء مثيرة، وعيناك أشبه بهلالين صغيرين من ضوءٍ أزرق. أجبرتُ نفسي على عدم التحديق إليك، منشغلةً بمفرش الطاولة البلاستيكي والرجل الضخم بيضاوي الهيئة الذي يقف خلف مشواة مسطحة في المطبخ المفتوح. ما كان راشد ليصحبني إلى مكانٍ كهذا أبدًا؛ بل كان ليصحبني إلى مكانٍ راقٍ يُعد فطورًا متأخِّرًا على الجانبٍ الآخر من النهر بعد قراءة المراجعات على هاتفه. رحتَ تتحدَّث إلى النادلة بنبرةٍ حميمة، وتُجيب ابتسامتها بمثلها. ثمَّ غادرت النادلة وهي تغمز بعينها وتدور على أطراف أصابعها المغلفة بحذاءٍ رياضي.

تبادلنا الحديث، فبدأت أنتَ بالحكي عن الوقت الذي أخذ فيه والداك إجازة تفرغ طويلة، ونقلا عائلتكَ بأكملها إلى فيرمونت. لا تزال تذكر تكسير الجليد إذ تُلقي بالحجارة داخل البئر، وحماية النحل والخنازير، وزراعة خضراواتك بنفسك. حاول والداك أن يبدآ مشروعًا صغيرًا، سمَّياه «رحيق سترونج الحلو» ليبيعا العسل وشراب القيقب، ظنًّا منهما أن بإمكانهما التخلِّي عن كل شيء والبقاء هناك لو سارت الأمور على نحو جيد. لكنَّ التجربة فشلت: احتشد النحل واختفى ذات يوم، وتبلوَر الشراب، وتفاقم إنهاك والدتك من غسل الحفاضات بيديها، فحزما الأمتعة وعادا بكم جميعًا إلى كامبريدج، حيث التدفئة المركزية والمياه الجارية والطلاق النهائي. كنتَ في التاسعة من عُمرك.. والمكان لا يزال على حاله. تعود إليه من وقتٍ إلى آخر، وتعتزل العالم، لا تحدث أحدًا ولا تلتقي آخرَ لأيامٍ طوال، وأحيانًا لأسابيع، لا تنقطع.

أخبرتُكَ: «أعجزُ عن البقاء صامتة طيلة كل هذا الوقت. ألا يدفعك هذا إلى الجنون؟».

فأجبتني بشيءٍ عن أن العالم يصير صاخبًا حين يتوقَّف المرء عن الكلام. ثمَّ أخبرتني عن الأشجار في فيرمونت، وكيف تُفرز عصارتها، وديوك الرومي البرية التي تتجول في الوديان، والبحيرات الجليدية التي لطالما أحببت أنتَ وأشقاؤك وشقيقتك الغوص فيها. دُهشتُ من كل ما سمعت، لأنني لم أُخيِّم يومًا مع والديَّ أو أقفز إلى ما هو أعمق من حمام السباحة. وكان الذهاب

إلى رحلة التنقيب هو أشدُّ الأفعال مجازفةً من بين جملة ما فكرتُ في فعله. حملني التفكير في الأمر الآن على استحضار صورة شخصٍ آخر عاش بداخلي يومًا، شخص عادةً ما ارتبطت به كلمة «مِقدام».

عادت النادلة، وكنَّا قد نسينا أن نطلب إفطارنا. أظنُّ أنني مددتُ يدي إلى قائمة الطعام، ولكنكَ تطلعت إليَّ وقلتَ: «سأطلب لكِ؛ أعرف شطيرة أعلم أنها ستعجبكِ. إنها أفضل شطيرة في العالم».

- نتناول شطيرة على الإفطار؟

- ليس شطيرة على الإفطار. بل شطيرة إفطار.

استدرتَ إلى النادلة وأمليت عليها طلبنا.

- بيض وجُبن من أجلي يا بيتي. قهوة؟ عصير برتقال؟ أنتِ تشربين القهوة، أليس كذلك؟

هززتُ رأسي نفيًا، ثمَّ قلتُ: «آسفة، لكنني أكره هذا الشيء. هل لديكم شاي؟».

طلبتَ الشاي من بيتي، ثمَّ أضفتُ أنا: «مع الحليب والسكر».

ومن خلف المطبخ المفتوح، سكب الرجل بيضاوي الهيئة ملء ملعقةٍ كبيرة من الزبدة على المشواة.

قلتَ: «أخبريني عن الحيتان المنقرضة».

- حسنًا، إن الأمر حيال الحيتان هو أنها تسير عكس التيار، هذا إذا تحدثنا من الناحية التطورية.

- ماذا تقصدين؟ هل تعنين أنها سارت أولًا ثمَّ بدأت في السباحة؟

أجبتكَ: «أجل. كان الأسلاف الأوائل للحيتان، وهم سلالة «**باكيستوس**»، ثدييات أرضية تمامًا. أشبه بذئاب البراري. وبعد عشرة ملايين سنة، صار لدينا «باسيلوصور»، والذي لم يملك أي خصائص مميزة سوى أثرٍ بسيط من البرمائية. إن الفصائل الوسطية هي ما تثير اهتمامي».

- الفصائل الوسطية. تُعجبني هذه التسمية. إذن أيُّ الفصائل واقعٌ في الوسط؟

- ثمَّة القليل منها، ولكنَّ الفصيلة التي أبحث عنها تسمى «آمبولوستوس». اكتُشِفَ منذ عشرين عامًا، لكنْ لم يتمكَّن أحد من إحضار هيكلٍ كامل. لهذا أنا ذاهبة إلى باكستان.

تحدثنا لبعض الوقت عن آمبولوستوس. ومع أنني أوضحتُ هذه القصَّة عدَّة مرَّات لكثيرٍ من الناس، شعرتُ معك كأنما أكشف سرًّا عن نفسي. هذا شعور سيعود إليَّ عدَّة مرَّات في حضرتك، شعور بأني قد أفصحتُ عن نفسي أكثر ممَّا قصدت. ولم تجده نفسي بغيضًا ولا مريحًا.

وصل الطعام إلى الطاولة. بدت الشطائر صغيرة شاحبة وهي تستقر بمفردها على الأطباق الخزفية الثقيلة. سُكب الشاي في فناجين ضخمة، وعصير البرتقال في أكوابٍ بلاستيكية مُموجة. التقطتُ الشطيرة، تكاد تكون مربعة يتساوى عرضها مع ارتفاعها، ثمَّ قضمتُ لقمة. تحرر البيض من بين الطبقات، وتناثر على ذقني، ثمَّ سقط على الطبق. شعرتُ بالحرج، وحاولت الإبقاء على شفتيَّ مغلقتين، مشدوهةً من حدَّة النكهة وحجمها في فمي.

في تلك اللحظة، ربما ظننتَ أنكَ ارتكبت خطأً فادحًا. فقلتَ: «يوجد نقانق في تلك الشطيرة -ألا تأكلين لحم الخنزير؟».

سمحتُ لنفسي بقليلٍ من التردد قبل أن أجيب ضاحكةً وأقول: «لا بأس. لا تُخبر والديَّ فحسب».

جذبتَ الطبق من أمامي، وأردفتَ: «أنا آسف حقًّا».

- كنتُ أمزح. حقًّا كنتُ أمزح. إن والديَّ لا يأبهان بالأمر، ليسا متدينين. أعطني شطيرتي.

ثمَّ جذبتُ الطبق إليَّ مُجدَّدًا. سألتَ إن كنتُ مسلمةً، فأجبتكَ أنني كذلك، لكنني أتيتُ من عائلة متشككة. والنزعة القومية هي الدين الذي يدين به أهل بيتنا. ثمَّ أضفتُ: «إنهم يدينون بالشيوعية. شيء أشبه بذلك. لقد غيرتهما حرب بنجلاديش».

أظنُّ أنني ربما ذكرتُ لكَ في تلك اللحظة، على سبيل التوضيح، أن أمي قد قادت سيارة إسعافٍ بنفسها في أثناء الحرب. أردتُ أن أستحضر موضوع التبني مُجدَّدًا، وأن أُكرر على مسامعك أن والديَّ ليسا والديَّ الوحيدين، وأنني أحظى بوالدين آخرين، والدين نادرًا ما فكرتُ فيهما حتَّى ليلة أمس. كانت الصورة التي صوَّرت عليها بيتك -الكوخ وأشجار القيقب- تتوغل في رأسي.

أمكنني أن أشُمَّ رائحة الصنوبر وأسمع صخب عائلتك. تحوَّلت قصتي بفعل قصتك إلى حكاية حزينة، وشرعتُ أنظر إليك في شيءٍ من الحسد. عجزتُ أيضًا عن تفهُّم أسباب وقوعك المفاجئ في حالة من الضياع، بعدما حظيت في ما بدا لي بحياةٍ مميزة. أتيت مُجدَّدًا على ذكر زيارتك إلى الهند، وأنك قد تعود إلى زيارتها ثانية.

- كانت لديَّ صديقة من هناك، وسافرتُ لزيارة عائلتها. ثمَّ سافرنا معنا إلى نيبال وبوتان.

عدتُ من شرودي إلى تلك اللحظة؛ أردتُ أن أسألك عن اسم هذه الفتاة. شبَّكتُ ذراعيَّ وبسطتهما، حاولتُ أن أجد أفضل وضعٍ مريح عفوي لأعبِّر به عن مدى عدم انزعاجي من القصَّة. حدثتُ نفسي أن الناس يقعون في حبك طيلة الوقت؛ فقد كنتَ وسيمًا وسامة كرتونية. حتَّى جبهتك مثيرة، عريضة مسطحة، توحي بالجدية. أملتُ كوب عصير البرتقال حتَّى لم يتبقَّ منه شيء في قاع الكوب، ولمَّا تراءى لي عجزي عن المقاومة، سألتُك: «أكانت حبيبتكَ؟».

- كانت حبيبتي لوقتٍ طويل. لكنَّ علاقتنا انتهت بعدما ذهبتُ إلى الهند.

- هل فطرتَ قلبها؟

توقي إلى أن أكون تلك الفتاة، أن أجذبك نحوي عبر القارات؛ كان توقًا قويًّا شعرتُ معه بتدفق الدماء في ساقيَّ.

- كلا.

سأتعلم على مدار الوقت أنكَ أستاذ في الإجابات وحيدة الكلمة المُحمَّلة بالمعاني. تطلعتُ إلى بؤبؤَيْ عينيك، والحلقة المضيئة لرموشك، سامحةً لك بالنظر إلى ما بداخلي.

قُلتَ:

- في الليلة الماضية، بدوتِ غاية في الجمال وأنتِ تبكين. لم أرَ في حياتي قط أحدًا يبكي هكذا.

- هل لي أن أسألك الآن لِمَ أنتَ متأنق بملابس رسمية هكذا؟

- اليوم تُقام جنازة جدتي.

أخبرتني أنكَ كنتَ تتسكع في مقهى إنترنت في بونديشيري، مستعدًّا لكتابة بريد إلكتروني طويل إلى عائلتك عن تلك المدينة، والحصن والأكواخ

الصغيرة على طرف الشاطئ حيث تأملت الغروب. تتطلَّع في كل ليلة إلى درجة مختلفة من اللون الوردي، ورحتَ تُفكر في مدى اختلاف الشمس هناك؛ بدت أكبر حجمًا ومع ذلك أبعد عمًّا هي عليه في فيرمونت، حيث كانت وحيدة في الأفق دون الغيوم التي تؤطرها. ثمَّ اكتشفت أن والدك يحاول الوصول إليك منذ أيام، وهاتف جميع أصدقائك يسألهم إن كانوا يعرفون أين أنتَ. لكنك سافرت وحدك إلى بونديشيري، والفتاة ريفا كانت قد تركتك في «ميسور» وعادت إلى «دلهي». وبينما كنتَ تحكي لي هذه القصَّة، غلبك ذلك التعبير بالتيه مُجدَّدًا، التعبير الذي رأيته على وجهك الليلة الماضية حين عادت الأضواء إلى القاعة، وأردتُ الآن أن أقول لكَ إنني أبحث عن شيءٍ أيضًا، شيءٍ لا يمكنني العثور عليه في عظام كاحل حوت. جذبتَ كرسيك إلى الأمام واستندت بصدرك إلى حافة الطاولة.

قلتُ: «يا له من أمرٍ مؤسفٍ لك. تعازيَّ».

وبقينا على تلك الحال لوقتٍ طويل، ثمَّ أخبرتك. لم أنوِ ذلك، خاصة آنذاك، ولكنَّ الأمر انبثق من فمي فحسب.

- ثمَّة أمر كان يجدر بي أن أُخبرك به بالأمس. عنِّي.

- ما الأمر؟

كنتُ قد خلعتُ صندلي، وجلستُ متشابكة الساقين على الكُرسي، لكني اعتدلتُ الآن في جلستي وثبَّتُّ قدميَّ إلى الأرض مُجدَّدًا.

أجبتك:

- لديَّ شخص.. حبيب.. في بلادي.

- حقًّا؟

- اسمه راشد.

رددتَ الاسم ورائي: «راشد».

أردفتُ، وأنا أَدَعُ الكلمات تخرج من فمي دفعةً واحدة: «نعرف بعضنا منذ أن كنَّا صغارًا. وربما نتزوج أو شيء من هذا القبيل. لا شك أنكَ لا تهتم بالأمر أو شيء كهذا، ولكني.. لكني فكرتُ وحسب، بما أننا التقينا لتونا...».

قاطعتني قائلًا: «أتمنى لو التقيتُكَ قبله».

- لم أرغب في ترك انطباعٍ خاطئ لديك.

التهمنا الشطائر، وأفرغنا الفناجين من محتوياتها. عادت النادلة إلينا، ومزَّقت ورقة من مفكرتها، ثمَّ تركتها على الطاولة. لم أستطع تبين ما إذا كنتَ محبطًا أم لا. أكنتَ كذلك؟ أم ربما كانت وفاة جدتك سببًا في عجزك عن استرجاع الكثير في تلك اللحظة، وتزاحم كل شعورٍ لديك مع بعض المشاعر الأخرى. حتَّى إنني حين استرجعتُ الأمر الآن، تساءلتُ ما إذا كانت قصتنا ستنتهي نهايةً مختلفة لو أنني أخبرتك بالأمر في وقتٍ آخر أو بطريقة أخرى.

استنشقتَ أنفاسًا عميقة، ورُحتَ تقول: «إذن، ما الذي تُخططين لفعله في أيامك القليلة الأخيرة في كامبريدج؟».

- ليس الكثير. إنهاء أعمالي في المختبر، وإرجاع بعض الكتب إلى المكتبة.

أنهينا وجبتنا. وضعتُ راحتيَّ على الطاولة، وأردفتُ: «شكرًا لكَ على الإفطار».

قلتَ مُجدَّدًا: «أتمنى لو كان لقاؤنا قبل أسبوعين.. أو في العام الماضي».

أجبتُ: «وأنا أيضًا».

ظنًّا منِّي أني أعنيها أكثر منك.

تطلعنا إلى بعضنا، متسائلين عمَّا نفعله بعد ذلك. ثمَّ قلتَ أخيرًا: «هل تودين المجيء معي إلى جنازة جدتي؟».

حاولتُ تصور الأمر لو أن جدتي تُوفيت وجئتُ بكَ إلى جنازتها. ثمَّ أجبتُ: «لا، لا أظنُّ ذلك».

- هل يناسبكِ ما بعد الجنازة؟ سنتناول غداءنا في منزل أمي.

لم أرغب في لقاء عائلتك بأكملها، لم أرغب في لقائهم في تلك الظروف، لكني أردتُ ذريعةً لرؤيتك مرَّة أخرى. ولهذا أجبتك: «حين فكرتُ في الليلة الماضية، صار كل شيءٍ منطقيًّا بالنسبة إليَّ. هذا لأنني راحلة، ولستُ واثقة متى سأعود مُجدَّدًا.. شيء من هذا القبيل».

- أنتِ فصيلة وسطى، مثل آمبولوستوس.

- تمامًا.

قلتَ:

- ربما لو التقينا في ظروفٍ مختلفة، لربما قررنا المُضي في علاقتنا لنرى كيف سيسير الأمر. أن نكون معًا. ولئن لم يُكتب لنا هذا، فلا بأس. ما زلتُ راغبًا في قضاء الوقت برفقتكِ. هل هذا يُناسبكِ؟

- بالطبع. أنا أيضًا أرغب في ذلك.

لم أكن متأكدة ممَّا إذا فهمتُ ما تريده حقًّا. دون خجلٍ أو تردد تحدثتَ عن أن نكون معًا، وقبلتَ بمنتهى الرصانة أننا لن نكون معًا. كان يجدر بي أن أشعر بالارتياح، إذ تلافيتُ شعور الغرابة، لكنْ بدلًا من ذلك انتابني شعور بالإحباط، كأنما مرَّت المحادثة سريعًا بجانبي وأخفقتُ أنا في إيقافها.

سألتني إن كنتُ قد استمعتُ قبلًا لـ «تنويعات جولدبيرج». لكني لم أستمع لها، فقلتَ: «إنكِ تذكرينني بالرقم ثلاثة عشر. إن شوستاكوفيتش لا بأس به، لكنَّ باخ هو الأساس».

كان عليَّ الذهاب إلى متحف علم الحيوان المقارن وحزم الأغراض من مختبري. تطلعتَ إلى ساعتك، ثمَّ قلتَ: «هاتفيني بعدما تنتهين».

تمنيتُ لكَ حظًّا طيبًا في جنازة جدتك. ورغبتُ أشد الرغبة في أن تُمسك بيدي، وتضع ذراعيكَ حولي كما فعلتَ في الليلة الماضية، لكنَّ اللحظة قد مرَّت، هذا إن وُجدت من الأساس، ولهذا قررتُ العودة إلى ماس أفي برفقتك سيرًا. كان الرصيف دافئًا أسفل أحذيتنا، وكل شيءٍ صافيًا مشرقًا من فوقنا.

***

تشاركتُ غرفةً شاسعة جيدة الإضاءة في الطابق الأرضي من متحف علم الحيوان المقارن مع ستة مُتخرجين آخرين وأستاذ زائر. تراصت صفوف النوافذ مُطلةً على «كيركلاند أفينو». وانبعثت رائحة الخشب من كل شيءٍ في المحيط. حين عدتُ لحزم أغراضي من مكتبي، كانت كيانج-چو تلتقط صورًا لعظام الكاحل لحوت «باكيستوس» التي استعرناها من جامعة ميتشجن، وأمكنني سماع الآخرين في الغرفة الخلفية التي تضم الماسح الضوئي. كان المختبر بمنزلة منزلٍ لي طيلة الأعوام الثلاثة الأخيرة، وبعد لقائنا على الإفطار، تفاجأتُ بنفسي أنغمس في لحظةٍ من الاشتياق، هذا لأنني عرفتُ آنذاك أنه مهما سيحدث في عملية التنقيب، سأعود إلى دكّا، وهذا يعني نهاية ليالي السهر هنا، ما بين تحلية فناجين الشاي، والجدال حول توقيت الجفاف

النهائي لـ «بحر تيثس»[1]. وعلى أي حال، تقرر نقل القسم إلى مبنى جديد على الجانب الآخر من الساحة.

اكتشفتُ الحوت المعني لأول مرَّة في أثناء تصفحي مقالًا في مجلة «ناشونال جيوغرافيك»، كان والداي -كالكثيرين من جيلهما- قد حرصا على تجميعها بدافع الواجب. جذبتني الصور الفوتوغرافية الملتقطة لآمبولوستوس، بساقيها الخلفيتين وفمها الضامر العريض، وصارت نفسي اليافعة مُولعة بها. لديَّ طبيعة فضولية حيال الأصول والانحراف الشاذ في التاريخ، مثل حوتٍ يمشي ويسبح أيضًا، في حين أن جميع الحيوانات الأخرى تُخرج نفسها من البحر وتبني بيوتها على اليابسة. لم تُسَر أمي بذلك. وحين أبلغتها بأني سأدرس الأحياء التطورية في رسالة الدكتوراه، ظلَّت تُردد: «أسماك؟». اعتادت أمي أن تكون سائقة إسعاف ثورية، تراها من نوع النساء اللاتي يقفن في مقدمة المظاهرات. شهدت هي الحرب، واختبأتُ أنا خلف المخلوقات البحرية الضخمة. لكنْ أي بديلٍ كان لدي؟ أأدرس الطب مثلها؟ كنتُ ماهرة في العلوم، لكنني لم أُحب دراسة الأجسام، على الأقل ليست الأجسام التي تتأرجح بين الحياة والموت، ميزان يختلُّ بيدي! هذه مسؤولية جسيمة، حتَّى... أم اللغة الإنجليزية؟ إن حُبي للروايات بدأ منذ سنٍّ صغيرة، وتعمَّق مع افتقاري للرفقة، ومع أن خزانة كُتب والديَّ كانت عن الجانب السياسي الجاف، تمكنتُ من القراءة لإبسن، وروايات أخرى مثل: «آخر سلالة الموهيكيين» و«المنزل الكئيب»، وفي عُمر مبكر أيضًا قرأتُ «جين إير». قابلتُ رموزًا وثنية في تلك الكتب: تعرَّفتُ مع كل عصر قرائن ستُرشدني -مثل جريتل- في خطوات حياتي، ولكن مَن يريد أن يعرف ويُعرَف بتلك الطريقة؟ ليس أنا. كانت جين مُعدَمة منعزلة، بهيئة ضئيلة عادية، ولهذا لم أرغب في التعرُّف إليها، أو روحها التي انسلَّت بداخلي. إن الاختباء في مظهرٍ عادي هو هوايتي، أو ربما كان يجدر بي أن أصير نوعًا من الممر الإنساني، ولكن يتعيَّن أن تكون أسباب معارضة الأمر واضحة الآن، هذا لأنني كنتُ أبحث في الأرجاء عن نفسي، الفاعل والمفعول في الوقت نفسه. كانت بيتينا لتقول إنه من الممكن دراسة المرء لحياته الخاصة في سياقها، لكنَّ الأمر أشبه

---

(1) بحر تيثس: هو البحر القديم الذي كان يفصل بين القارات خلال العصور المختلفة من عمر الأرض، وهو غير ثابت الموقع إذ إن موقعه كان يتغير تبعًا لحركة القارات. اختفى بحر التيثس بسبب تقارب الصفائح التكتونية. (المترجمة)

بثقافة «اعتذار المرء لنفسه عن حياته»؛ وكنتُ لأقضي حياتي بأكملها آسفةً لكل الشخصيات التي لن أكونها أبدًا، حبيسة شعورٍ بالذنب مثل أمي. ها نحن نعود إليها مُجدَّدًا، هذا لأنها تجعل كل شيءٍ ممكنًا ومستحيلًا في الآن نفسه.

إذن، أرأيتَ، لم يتبقَّ لي سوى تلك الجماجم والعظام وعلم التصنيف والفئات. إن نظرية أرض هوتون، وكلماته الأخيرة «لا أثر لبدايةٍ، ولا أمل في نهاية» هي ما اخترت التعمق فيه: الأرض بمركزها شديد الحرارة، وصخورها التي تلفظ التاريخ، والعظام.. العظام الراسخة، وأتجاوز الزمان إلى زمنٍ لا يعثر عليَّ أحد فيه.

***

- جاهزة للرحيل؟

خرجت تلك الكلمات من چو وهي تحمل الكاميرا على امتداد ذراعها، وتنقر الزر. فاحت برائحة الصابون. ولم يأتِ أحدنا على ذكر ما حدث الليلة الماضية.

أجبتُ: «ليس تمامًا. مع إنني أنهيتُ لملمة أمتعتي من الشقة في وقتٍ متأخِّر من ليلة أمس حين عجزتُ عن النوم».

كنتُ قد جلبتُ معي الأسبوع الماضي إلى المختبر حقيبة سفرٍ صغيرة، حين بدأتُ فرز أوراقي وحزمها. والآن بدأتُ بخزانة الملفات إلى جانب مكتبي. وجدتُ مقالاتٍ قديمة كنتُ قد نسختها، ومناهج دراسية، ومواد تعليمية لأساسيات علم الآثار، كنتُ قد عملتُ عليها حين امتهنتُ التدريس لثلاثة فصول، حصلتُ بها على تقييماتٍ رائعة من طُلابي، ومقالات، وسجلات أكاديمية، واللائحة الكاملة لسنواتي الثلاث التي قضيتها طالبة دراسات عليا. تخلصتُ من معظمها، محتفظةً بملفٍّ واحد رفيع من أوراق تتعلَّق بعملية التنقيب. حين انتصف النهار، تسارعت وتيرتي، ورحتُ أكدس سلة إعادة التدوير الزرقاء بالأوراق، وأوصيتُ لچو بمجسمي لجمجمة الحوت «رودهوكيتوس[1]» ذات الـ 50 مليون سنة. تعانقنا عناق الوداع، وتمسَّكت بي چو لبضع ثوانٍ إضافية من باب الاعتذار، ثمَّ وعدتها بأن أبقى على اتصال.

(1) جنس منقرض من رُتبة الحيتانيات، وُجدت متحجراته في باكستان، يمتلك العديد من الخصائص التي تملكها الثدييات البرية. (المترجمة)

أخرجتُ هاتفي واتصلتُ برقمك، لكني لم أتلقَّ ردًّا. فكرتُ في الجلوس تحت واحدةٍ من أشجار السنديان الضخمة في الساحة رباعية الجوانب لدقائق قليلة قبل أن أُعاود الاتصال بك. لكني حين عبرتُ الأبواب المزدوجة، أجرُّ حقيبة السفر خلفي، رأيتكَ هناك على درجات السلم. كنتَ قد خلعتَ سترتك وشمَّرت كُمَّيْ قميصك، وهنيهةً تخيلتكَ تمارس الحب مع حبيبتك الهندية.. كيف يحتوي عضداكَ جسدَها، كم تفتقد هي هذين العضدين باستماتة، في الحقيقة، ربما كانت تُفكر فيهما في تلك اللحظة، وأنني وهي لا بُدَّ نحظى بالحُلم نفسه، كم ستكرهني لقربي من عضديك عنها، وهي التي على بعد آلاف الأميال في دلهي. فتاة مسكينة.. دلهي حزينة.

سألتكَ: «أأنتَ بخير؟».

فمررتَ إليَّ كتيبًا، مطبوعًا على ورق خشن معاد التدوير. «**كلمنتينا ألكسندرا روينا موريس. خرائطية.. مغامرة.. شاعرة.. ناشطة.. أُمٌّ.. راقصة.. فنانة**».

ازدهر ضوء النهار، وراحت الأرصفة تلمع من الحرارة. سِرنا في صمتٍ، نُجاهد صاعدين منحدر ماس أفي كلما اقتربنا من شوارع «سمورفيل» الواسعة. توقَّفت لتتطلَّع إلى نافذة عرض في متجرٍ لبيع الأورجامي، تناقشنا في أمور الورق والطي وطيور الكُركي الورقية، ثمَّ انعطفنا إلى شارعٍ جانبي، ومنه صحبتني إلى منزلٍ مطلي بالأصفر الباهت، يستقر كُرسي هزَّاز في شرفته، وتنعم زهور نرجس ذابلة في مرجه الأمامي. كان من فئة المنازل التي أمرُّ عليها مرَّاتٍ كثيرة، منازل تحمل نوافذها ملصقاتٍ لأوباما، وتفوح برائحة الغسيل وعيد الشكر، بروتستانتية متواضعة وراقية على السواء.

كان الباب مفتوحًا. وقف قلة من الناس في الشرفة، وبينما كنَّا نقترب، لوَّح أحدهم ونادى باسمك. رأيتُ رجلًا طويل القامة عريض المنكبين، ذا وجهٍ مُربع ودود، صافحني بحرارة، وقدَّم لي نفسه؛ كان خالَك. وإذ مررنا عبر الباب الأمامي، رحَّب بنا المزيد من الضيوف، وربَّتوا على ظهرك. أخذتَ بيدي، وقُدتني خلال الحشد. تعالت ضوضاء ارتطام النعال بالأرضية الخشبية، وارتفعت أصوات الناس حتَّى ارتطمت بالسقف الأبيض العالي. كان المنزل مضيئًا متهالكًا، وأوسع مساحةً ممَّا بدا عليه من الخارج. دخلنا إلى غرفةٍ في مؤخِّرة المنزل، ذات نوافذ طويلة وأبوابٍ مزدوجة تفتح على الحديقة الخلفية. ومن فوركَ أشرتَ إلى امرأةٍ أخبرتَني أنها والدتك. كانت امرأةً رشيقة يختفي

قوامها أسفل طبقاتٍ فضفاضة من الأسود والرمادي الداكن، ذات شعرٍ أشعث وعينين تماثلان عينيكَ في الدفء واللون. أخبرتَها اسمي، فابتسمت بذهنٍ شارد، وطلبت منِّي أن أعتبر البيت بيتي. قبضتُ على ذراعك، ثمَّ التفتنا إلى امرأةٍ أكبر سنًّا ذات وجهٍ نحيل. قدَّمت لنا يدًا نحيفة، تقترب عظامها من سطح الجلد، وأخبرتني أنتَ أنها خالة والدتك.

بادرتْ قائلة: «مرحبًا! أنا أوتم، شقيقة كلمنتينا».

بصوتٍ رفيع رنان، ولكنةٍ إنجليزية صريحة.

- زبيدة بشير. يُسعدني لقاؤك.

علَّقت أنتَ قائلًا: «التقيتُ زبيدة ليلة أمس، في حفل شوستاكوفيتش».

سألتني أوتم إن كنتُ موسيقية. لا بُدَّ أنها وجدتي في السن ذاتها، لكنها أقل تشابهًا معها. لم يُحفر أسفل عيني جدتي سوى القليل من الخطوط التعبيرية، لكنها تبدو في سلوكها أكبر عمرًا بكثير، بسواريها المكبوسة وعقدها اللؤلؤي الذي دومًا ما ترتديه حول عنقها، أما أوتم بوجهها الخشن والرعشة البسيطة في يديها، فيبدو أنها تحظى بنزهاتٍ طويلة وسط الثلج. أخبرتها أني لستُ موسيقية، بل عالمة حفريات.

- حفريات! أتعرفين، إن جد إيلاجا الأكبر هو إنديانا جونز الحقيقي.

لا شك أنه كذلك. تفقدتُ الأمور من حولي، وتطلعتُ إلى كل هؤلاء الذين يتشحون بأثوابٍ وحُلَّاتٍ سوداء. وعلى أريكة تستقر في مواجهة الحديقة، احتشد ثلاثة رجال بدوا متماثلين تقريبًا في الملامح ومماثلين لكَ أنتَ الآخر، وأخذوا يحلون الكلمات المتقاطعة. لا بُدَّ أنهم أشقاؤك. وأدركتُ أنني لا أعرف حتَّى في أي ترتيب تقعُ أنتَ من حيث السن، ولكنني حتَّى حين طرحتُ على نفسي السؤال، عرفتُ أنك لا بُدَّ الأصغر سنًّا. أسماؤهم كانت: إيزيكّيل، إيراسموس، إيرك. مرحبًا! مرحبًا! حتَّى في جلوسهم بدوا في طولي نفسه تقريبًا. وأُضيئت وجوههم بلمعة أسنانهم. لم يسألني أحد إن كنتُ أرغب في تناول شيء، ولهذا حين تركتَ يدي وتحرَّكتَ نحو البيانو، اتخذتُ طريقي نحو الطاولة، ووجدتُ طواجن لا تُلائم بعضها، وأطباق فطائر، وصواني خِبازة تحوي لازانيا، وسلطات باردة، وجُبن، وشرائح خضراوات. ثمَّ وجدتُ زجاجة نبيذ مفتوحة على الخوان الجانبي، ثمَّ سألتني امرأة تسكب لنفسها كأسًا إن كنتُ أرغب في شيءٍ منها.

انطلق لحن إيقاعي صاخب من البيانو. ثمَّ صحتَ بصوتٍ علا همهمات الحشود: «ثَالُونِيُوس مُنك. المفضل لجدتي».

صاح أحدهم: «أوقف هذا الآن. واعزف شيئًا ذا توليفة إيقاعية».

لكنَّ موسيقى الجاز الصاخبة استمرَّت في تدفقها. أما المرأة التي عرضت عليَّ كأسًا من النبيذ، فراحت تسألني آنذاك: «مَن أين أنتِ؟».

كان لها وجهٌ حليبي اللون يكسوه النمش، وثغر جميل، وشعر طويل جمعته في جديلة فرنسية.

أجبتُها: «بنجلاديش».

ثمَّ أدركتُ أنها كانت تسأل عن مجيئي إلى هناك. فأضفتُ قائلة: «أنا صديقة لإيلاجا».

- تعرفين، دفعتنا جدتي ذات مرَّة لمشاهدة فيلم وثائقي عن بنجلاديش. وقضينا الأسابيع القليلة التالية نهتف «النصر للبنغال».

- هذا شيء أشبه بشعارٍ وطني.

- كانت جدتي يسارية قديمة.

علَّقتُ أخيرًا: «لا بُدَّ أنكِ شقيقة إيلاجا».

- هذا صحيح. اسمي آدا.

حين مالت إلى الأمام وعانقتني، رغبتُ في البكاء. كان هذا قبل أن تقول: «أرشح لكِ طاجن التونة. إن أمي طبَّاخة سيئة للغاية».

في تلك الأثناء، كنتَ بدأتَ في الغناء.

♫ يُداعبنا الخيال / تُشرق به شمس يوم غائم ♫

انضمت آدا إليك، وبصوتٍ قويٍّ متمرِّس تابعت:

♫ يُداعب نحلة لتُفكر في العسل ♫

تقدمتني آدا إلى البيانو، ثمَّ جلستما جنبًا إلى جنب على المقعد. التفَّ الآخرون حولكما، وتعالت جوقة الأصوات رخيمة عذبة.

تراجعتُ إلى الوراء، ممسكةً بطبقٍ من طاجن التونة، ورحتُ أتطلَّع إلى ظهرك يتمايل مع الموسيقى، ثمَّ ابتعدتُ عن مركز الحفل، قطعتُ ممرًّا وعبرتُ زوجين من أبوابٍ متأرجحة قادتني إلى داخل المطبخ. تفاجأتُ بأسطح

النضد بالية ونظيفة، وفاح المكان كله برائحة الأشجار القديمة. استندتُ إلى موقد الحطب هنيهةً، ورحتُ أستمتع بدفئه حتَّى في يوم شديد الحرارة كهذا، قبل أن أدقق النظر في الصور على المُبرِّد. مزيج من أُناسٍ وُسماء ممشوقي القوام يبتسمون بمواربةٍ إلى الكاميرا، ويحملون كلابًا وأطفالًا أمام خلفياتٍ لجبالٍ وبحيرات داكنة. فتحتُ المُبرِّد، فوجدتُ علبة مفتوحة من طعام القطط وإبريقًا من عصير ليمون مملوءٍ بأوراق نعناعٍ طازج.

اختُتمت الأغنية. وأعجبني أنه ما من أحدٍ لاحظ غيابي وعودتي. حين عدتُ إلى الداخل مُجدَّدًا، لفحتني موجة من هواءٍ دافئ راحت تدور في أنحاء الغرفة، وانجرفت رائحة الخُزامى من الخارج واستقرت على أثاث الغرفة. حينئذ رأيتُ صورة شخصية كبيرة لجدتك معروضة على طاولة جانبية. كان أحدهم قد رسم ملامحها بقلم رصاص، وأبدى فكًّا قويًّا وعينين متباعدتين ونظارةً ذات إطارٍ داكن. افترَّ ثغرها عن ابتسامةٍ بسيطة، كأنما رأت أحدًا تعرفه وأوشكت أن ترحب به. وإلى جانب اللوحة، كان هناك دفتر يخطُّ الناس عليه رسائل إليها. وحين أمعنتُ في النظر إلى ما كُتب، قرأتُ: «**أتمنى أن تظلي نفيسة المكانة في الأعلى كما كنتِ بيننا**». وأيضًا: «**أبلغي الرب أن الطقس يزداد حرارةً هنا!**». وأخيرًا: «**جدتي، وأنتِ ترحلين عن عالمنا، أرسلتِ إليَّ هدية. شكرًا لكِ**».

حمل قلة من الناس أطباقهم إلى المطبخ، ثمَّ سمعتُ خرير المياه الجارية. وجدتُ والدتكَ تتكئ على الأريكة، والشمس تسقط متعرجةً على وجهها. وكان أشقاؤك في الخارج، مجتمعين إلى جانب أرجوحةٍ قديمة. ومن سقيفة الحديقة في مؤخِّرة المنزل، لمحتُ أوتم تجلس بمفردها، وتساءلتُ في قرارة نفسي عمَّا إذا كان يجدر بي الذهاب إليها والحديث معها. ثمَّ تهادى إلى سمعي رجلٌ يقُصُّ حكاية عن كلمنتينا، وكيف أفسدت زفاف والديه حين حضرت بزيٍّ جملٍ. تابعتُك بناظريَّ وأنتَ تستمع للحكاية -جليٌّ لي أنكَ استمعتَ لها من قبل- وتساءلتُ كيف يكون الحال إذا كنتَ واثقًا تمام الثقة من أصولك، أن تتحدَّث عن الأسلاف الذين وُثِّقت حياتهم بشهادات الميلاد والدرجات الجامعية وسجلات الزواج الرسمية. كيف يكون الحال حين تُقَص عليك حكاية مباشرة وتعلم أنتَ أنها صحيحة. أما أنا، فلا يسعني النظر إلى إنسانٍ حيٍّ آخر وأرى فيه شيئًا من نفسي: زاوية العينين، أو المشية، أو قوام مُعينٍ للشعر، أو التعرُّف على أشياء أكرهها في نفسي: كضمور حجم ثدي،

وضعف كاحليَّ. لا أرى لتموجات شعري مثيلًا. وفي ثقافة يميل فيها الناس إلى التعليق بحرية على مظاهر الجميع، نادرًا ما قال أحدهم شيئًا عنِّي، هذا لأن عبارة بسيطة مثل: «كم أنتِ جميلة!» لا يمكن أن يتبعها عبارة مثل: «تمامًا كوالدتكِ». تمامًا مثل مَن؟ إلى مَن تنتمي تلك العظام الطويلة ولون البشرة هذا؟ لا ينتمي أي من هذا إلى الأسلاف الذين اجتمعوا في تاريخي.

ضحكتُ مع الجميع حين أخذ الرجل يصف نظرة الصدمة على وجهي والديه، والقاضي في مكتب كاتب المحكمة ينهض عن كرسيه ويأمرهم بالمغادرة.

ثمَّ ظهرتَ من خلفي وأنتَ تقول: «يجدر بنا المغادرة... لدى زبيدة أمورٌ تنجزها».

كنتَ بدَّلت ملابسك إلى سروالٍ قصير وقميصٍ أحمر طُبع على وجهه كتابة صينية.

أجابت والدتك وهي تلتقط نظارتها من قمة رأسها: «لم يتسنَّ لي إلقاء تحية لائقة».

قلتُ: «سأغادر في غضون أيامٍ قليلة».

- حسنًا، يا له من أمرٍ مؤسف.

وضعت والدتك يديها على كتفي وتطلعت إليَّ من كثب، حينها أردتُ أن أسألها لو أن بإمكاني البقاء، وصعود الدرج، وتدثير نفسي في الأغطية على فراشها. وكأنما قرأت أفكاري، قالت: «إليكِ، خذي هذه». وخلعت عن رقبتها قلادة ثمَّ أحاطت بها رقبتي. كانت مصنوعة من أزرارٍ قديمة، يحمل كل واحدٍ منها درجةً طفيفة الاختلاف من اللون الأزرق. طبعتُ قبلةً على خدها وألقيتُ عليها الوداع. وفي الخارج، افترش زوجان من قطط بنية أرضية الشرفة وتدثرا بنفسيهما. اختنق الهواء بالحرارة، وغرق كل شيءٍ في هدوءٍ وسكينة.

***

أحدث لقاء عائلتك تغيُّرًا بيننا. رأيتُ الطريقة التي تُصارع بها أشقاءك، وتلكز أذرعهم ترحيبًا بهم، رأيتُ كل شيءٍ في بيتك غارقًا في فوضى مثالية. أمكنني على وجه التقريب تخيل كل يوم في طفولتك، هذا لأن أحداثًا كهذه لا بُدَّ موثَّقة في أفلامٍ أو على التلفاز -وعلى تلك الشاكلة، ربما عشتَ حياةً

عادية للغاية، واختبرت تجارب دون انتقائية، ثم أزعجتك الطريقة التي أثار بها ماضيَّ الخاص حنقي. كل الأشياء التي أثارت حنقك كانت أشياء تُقتُ إليها، وكل الأشياء التي تقتَ أنتَ إليها كانت أشياء مُسلَّم بوجودها في حياتي. داعبتُ بأصابعي القلادة التي منحتْني إياها والدتك، بدت خفيفة الوزن حول عنقي حتَّى إنني بالكاد شعرتُ بها، وهذا أمر نشدته.. تلك الخفة والمناعة، حين تنتقل الأشياء من شخصٍ إلى آخر بقليلٍ من الثِّقل.

قلتَ، مُجيبًا عن سؤالي: «كنتُ المُفضل لدى كليم. سأفتقدها بشدَّة».

- أكان والدكَ حاضرًا في الجنازة؟

- لم أرغب في إنهاكك بهذا الأمر.

فجأةً شعرتُ بالجوع، فاقترحتَ أن نعود إلى ميدان «هارفارد سكوير» ونتناول الغداء. رحنا نُحصي مزايا مطعميَّ «فيليبس» و«تشيبوتل»، كنتُ ارتدتُهما عدَّة مرَّات على مدار السنين، وسأفتقدهما، وفي تلك اللحظة تذكرتُ أني تركتُ حقيبتي في منزلك، ووقفتُ في مثلثٍ من الظل أتساءل إن كان بإمكاننا العودة إلى هناك.

أخبرتني أن أنتظرك، وعُدت راكضًا إلى الوراء. وبعد دقائق قليلة، كنتَ تجرُّ الحقيبة بعجلاتها على أرضية الشارع. ولمَّا وقفتَ، أغلقتُ عيني وظننتُ أنكَ ربما تطبع قبلةً رقيقة حانية على جبهتي، كما لو أنكَ معتادٌ تقبيلي طيلة أعوام، كما لو أننا عشنا معًا في منزلٍ واحد وربَّينا أطفالًا وامتعضنا بسبب السطح المتدلي وأعددنا الخبز الفرنسي المحمص في أيام الأحد.

حشرتَ يديك في جيبيْك واتكأتَ على كعبيك، ثمَّ سألتَ: «إذن أخبريني ثانية.. عن حبيبك».

أخذتُ منك الحقيبة وشرعتُ في المشي مُجدَّدًا: «لا شيء لأقوله حقًّا. إنه لطيف».

- وما رأيه في توطيد صداقاتٍ جديدة؟

تخيلتُ ما سأقوله حين أصف لقاءنا لراشد دون أن يبدو الأمر كأنني أتيتُ بفعلٍ خاطئ، وهو أمر لم أفعله. أعني ليس بعد. فكرتُ في مدى البساطة التي دخلتُ بها إلى منزلك؛ فمنذ وصولي إلى هذه البلاد، تظاهرتُ بوجاهة قدرتي على التنقل بسلاسة من مكانٍ إلى آخر: أن أكون ضيفًا ممتنًّا في عشاء عيد الشكر، أن أكون فتاةً جاءت من بلادٍ بعيدة تفهم نِكات الجميع لأن إنجليزيتها

مُتقنة. تراءى لي من الأفضل أن أحجب اختلافاتي، وأن أزيح الضيق البسيط الذي أشعر به من وقتٍ لآخر. أشعر بالبرد الشديد دومًا في الربيع، في حين يرتدي الجميع قمصانًا خفيفة، وأحيانًا ما أشدِّد على مقطعٍ في كلماتي (ذات مرَّة أخطأتُ نطق كلمة «إنتستاين» فبدت مثل «ليكتنستاين» أمام طاولةٍ تعجُّ بأمريكيين ضاحكين).

تُحاصرني الآن بنظرةٍ ثاقبة، نظرةٍ لا أظنُّ أن أحدهم قد تطلع إليَّ بها قط، وتفاجأتُ بنفسي أجاهد في الحديث، ومع ذلك آمنتُ أنه ما من شيءٍ أندم عليه أو أشعر بالخزي منه. ومع أن الشعور الذي خالجني حمل وطأة الأحاسيس الجنسية، كان شعورًا مختلفًا بالكلية -ليس شعورًا مُهيِّجًا، بل مُهدِّئًا، كأنما لُملمت شظاياي معًا قطعة وراء أخرى. أحسستُ بالرصيف يشتعل حرارة من أسفل عقبيْ قدميَّ، والشمس ترتفع مشرقة من فوق رؤوسنا. ولهذا لمَّا تراءى لي تأثري بيومٍ بدا أنه يساوي حياتي بأكملها، حدثتُ نفسي أنكَ أقرب صديقٍ حظيتُ به من قبل.

سألتني: «ماذا سنفعل بعد ذلك».

أجبتك: «ينبغي لنا أن نذهب لمشاهدة معرض «الزهور الزجاجية»».

خطرت تلك الفكرة على ذهني حين كنتُ في مطبخ والدتك، وأملتُ أن يكون اكتشافًا جديدًا في رأيك، حتَّى لو كان عهدك في هذه المدينة يطول كثيرًا عن عهدي بها.

صمتَّ هنيهة، ثمَّ قلتَ متعجبًا: «آه، معرض الزهور الزجاجية! اعتادت جدتي أن تصحبني إلى هناك. هل أخبرتكِ بذلك؟ كيف عرفتِ؟».

غمرتني البهجة وأنا أُجيبك: «جربتُ حظي».

عدنا إلى ماس أفي، ثمَّ توقفنا لتناول البيتزا عند مخبز «هاي-رايز بيكري». كانت جميع ملابسي تلتصق بجسدي، ولمَّا شكوتُ إليكَ الأمر، ابتعت لي مصاصة مثلَّجة من بقالة صغيرة. وصلنا إلى كيركلاند وشعرتُ بالارتياح، كان هذا المكان هو منطقة راحتي، وسط الأبنية المزينة بالقرميد الأحمر، والباحات والمروج الصغيرة مثلثية الشكل.

ناولنا موظف الاستقبال في متحف التاريخ الطبيعي دبوسين صغيرين لتثبيتهما على طرف ياقتينا. ثمَّ قدتُ أنا الطريق عبر درجات السلم إلى الطابق العلوي. وقلتُ: «أريد أن أريكَ شيئًا.. قبل أن نرى الزهور الزجاجية».

مشينا وسط المعروضات، ومررنا بوحيد القرن القديم و«**أخدودي الأسنان**[1]». ثمَّ توقفنا أمام الصدفة المُقوَّسة للسلحفاة العملاقة «**ستوبيندميس جيوجرافيكس**»، وقصصتُ عليك كيف انتقلت في قِطَع. وفي قاعة «الحيوانات الفقَّارية» قدتُكَ إلى الخزانة الزجاجية الضخمة التي تحفظ «**سحالي الكرونوصور**». كنتُ قد رأيتها كثير مرَّات من قبل، وكنتُ أعرف تاريخها الضبابي -وهو أن ما نتطلع إليه الآن قد يكون إعادة هيكلة خاطئة، لكنها دومًا ما تخطف أنفاسي- شيء ما حيال الزواحف السابحة كليًّا، بدءًا من حوصلتها الضخمة وصولًا إلى حوضها والعظام المفصلية لزعانفها. بسطتُ يدي في تباهٍ، فقرأتَ الاقتباس. ثمَّ همست: «إذن هذا ما تخططين له.. أن تتفوقي على هذا الرجل».

- شيء من هذا القبيل.

***

تبرز الزهور الزجاجية من داخل نوافذ العرض كأنما اقتُطفت لتوِّها من الحقل. وشعيرات دقيقة من المعدن تربط بتلات الزهور وجذوعها معًا. وبلا قرينة، تستقر الزهور مثل لآلئ بكماء في السكون المُتلبِّد للمتحف.

قلتَ: «لم آتِ لرؤيتها منذ أن كنتُ طفلًا».

ثمَّ قرأتَ اللافتة المُضاءة بمصباحٍ صغير مُثبَّت إلى الحائط: «ليوبولد ورودولف بلاشكا».

قلتُ: «الأب والابن. استغرق الأمر منهما قرابة خمسين عامًا».

كنتُ قد نسيتُ أن أمر صنعهما يدور حول النوع: الأسدية والمبايض وأنماط التكاثر. وكانت أحجامها أكبر ممَّا أتذكر.

فكرتُ في إخبارك أنكَ تُجرِّدني الآن من شيء ما، وقوفك هناك وأصابعك تلتف حول مقبض حقيبة سفري، وتحديقك إلى نبات الصبَّار الزجاجي مع أن الزهرة الوردية تُزهر من جانب النبتة هي شيء أشبه بالمعجزة. فكرتُ في إخبارك أن والديَّ يُحبان سرد القصص التي تُحسِّن من شعورهما حيال التبني، مثل أنني أشبه جدي لأمي، هذا الجد الذي لم ألتقِه قط، وأنني أخذتُ

(1) فصيلة من الحيوانات تتبع فصيلة المدرعات المتدثرة وأشباهها من رتبة الحزاميات، مثل الأرمادلو. (المترجمة)

عنه طول قامته وضيق عينيه، التي جعلتني أشبه بنساء منغوليا، وأخيرًا شعره المُجعَّد. تناقلت مزحة قديمة في العائلة أن جدي قد انحدر من سلالة جنكيز خان. لم أسمع أحدًا من قبل يقص هذه المزحة عدا والديَّ، اللذين يزيفان عدَّة ضحكات قسرية متى ألقيا هذه النكتة، ثمَّ يتطلَّعان إلى بعضهما ويتمنيان أن يكون الأمر برمَّته صحيحًا. ثمَّ بلغتُ التاسعة من عمري، واعترفا لي بكل شيء، ولمَّا بلغتُ ذلك العُمر، كنتُ ناضجةً بالقدر الذي أدرك معه أننا لن نتحدَّث في الأمر مُجدَّدًا. لكنني لم أنطق بشيءٍ من ذلك. هذا لأنني وللمرَّة الأولى في حياتي، لا يعنيني من أين أتيتُ ولا ممن أنحدر. لا يعنيني إن كنتُ برمائية أم فردًا من سلالاتٍ وسطية، لأنني أنتمي إلى هنا، في تلك اللحظة، وسط تلك الجذاذات من الزجاج المُقولَب، ولا آبه سوى لصغائر أمورٍ أخرى.

في طريقنا إلى الأسفل، توقَّفت في الطابق الثاني واتكأتَ على الدرابزين.

استطردتُ: «إذن الآن وقد شاهدتَ الزهور الزجاجية. مرَّة أخرى».

- لا أريد توديعك.

فكرتُ في الليلة التي فقدتُ فيها عذريتي، تسلل راشد إلى غرفتي بينما كان والداي في العمل، وتذكرتُ مروحة السقف التي كتمت أصواتنا، وركبتَيَّ اللتين ظلتا ترتجفان لأيامٍ بعد ذلك، والنظرات البهيجة الآثمة التي تبادلناها في المدرسة في اليوم التالي.

قلتَ: «أريد أن أراكِ كل يوم».

- سأغادر يوم الجمعة.

- ما زال الوقتُ مبكرًا.

بسطتَ يديك متباعدتين على اتساعهما دلالة على فائض الوقت بين الآن وآنذاك. خشيتُ لو أنني قضيتُ دقيقة أخرى هناك، على درجات السلم تلك، برفقتك، ستتأصل هذه اللحظة بداخلي إلى الأبد، خشيتُ أني ربما أتذكر هذه اللحظة طيلة حياتي وأظل أسترجعها.

ثمَّ استطردتَ: «لدينا غدًا وبعد غد. وفي يوم الجمعة، سأوصلكِ إلى المطار».

طيلة سنواتي التي قضيتها في أمريكا، لم يوصلني أحد إلى المطار قط، أو يستقبلني هناك. كانت بيتينا قد عرضت عليَّ الأمر، لكني كنتُ أرفض دومًا، وما كنتُ أمانع وأنا أعبر بوابة الوصول ألا أفحص الحشود بحثًا عن وجهٍ

مألوف. تُتيح لي رحلة الطائرة مدَّة عشرين ساعة لأتحول إلى طالبة مجهولة، ثمَّ أهبط إلى «مطار لوجن» برفقة الأرجنتينين والكوريين، ثمَّ تخضع حقائبنا للتفتيش تحسبًا لمحاولتنا تهريب حلوى «دولسي دي ليتشه» أو «الكمتشي» اللتين تعدهما أمهاتنا. وحين أغادر المطار، أستقلُّ سيارة أجرة ثمَّ قطار الأنفاق. اتَّكلتُ إلى حقيقة أنه ما من أحدٍ سيفتقدني، وأن هناك أُناسًا على الجانب الآخر من الكوكب يهتمون لأمري أكثر من غيرهم. ولهذا حين عرضتَ أن تُقلَّني إلى المطار -ولأنني قضيتُ سنين في هذه البلاد دون السماح بذلك النوع من الحميمية أن يزدهر، ولأنني سأغادر الآن، وربما سأعود لمرَّة واحدة فحسب- رفعتُ ذراعيَّ وأردفتُ: «حسنًا». وللمرَّة الأولى منذ سبع سنين لا أتمنى أن أكون في مكانٍ آخر غير هذا.

التقينا في الصباح التالي في المركز العلمي، ومشينا مرَّة أخرى إلى المطعم. تناولت الشطائر نفسها، واعترفتَ لي بإدمانك للقهوة، واعترفتُ أنا بإدماني لرقائق البطاطس. وقلتُ: أعني برقائق البطاطس، البطاطس المقلية. اتسعت المسافة بيننا وتقلَّصت مثل ألواح الأكورديون. تشاركنا حبنا للأدب الروسي، ومؤخَّرًا ولعنا بشوستاكوفيتش. واعترفتُ لكَ بأني أحد معجبي «بافي قاتلة مصاصي الدماء»، فأجبتَ أن طفولتك كانت مجرَّدة من التلفاز والسكريات ومعظم أشكال الطعام المُصنَّعة. أوضحتَ أن المنزل في فيرمونت خلا من المياه الجارية والكهرباء. فأجبتكَ أن أسلافي عملوا بجدٍّ ليحصلوا على مياه جارية، شكرًا جزيلًا لك على تعليقك. ثمَّ رسمتُ مقارنةً بالتوازي مع الحيتان، وقلتُ أنتم أيها الأمريكيون البيض تعودون إلى البحر في حين أن الجميع سعداء بكونهم على اليابسة الجافة. فأجبتني مُحتجًّا: آه، ولكنَّ افتتانك بالحيتان يشير إلى إدراكك لمنافع التاريخ المضاد. فابتسمتُ لجوابك. عدتَ تقول إنكَ تود كثيرًا أن ترى أين ترعرعتُ. فتساءلتُ في قرارة نفسي ماذا كنتُ سأتصرف معك لو أنني عدتُ بكَ إلى الديار. ثمَّة سبب لاختياري راشد، وذلك السبب يستقر بداخلي كالحجر. ظننتُ آنذاك أنكَ ستقول شيئًا عن جدتك، لكنك لم تفعل، ولم يكن لديَّ فكرة عمَّا إذا كانت هذه هي الطريقة التي يُبدي بها الناس حزنهم في عائلتك: أن يُكوِّنوا صداقاتٍ جديدة ويضحكون معهم ويعرضون عليهم الشطائر، أن يقعوا في الحب ويسمونه صداقة.

في المساء، ذهبنا إلى الشقة. كانت بيتينا تُقلِّب شيئًا على الموقد، وحين دخلنا، ألقت علينا التحية، وأطفأت الغاز، ثمَّ دخلت إلى غرفتها. ظلَّت بعض

آثار الحفل البسيطة باقية -نفحة باهتة من الويسكي على سطح النُّضد، وسلة القمامة في المطبخ تطفحُ بأكواب بلاستيكية باللونين الأزرق والأبيض. تجنَّبتُ النظر إليكَ أو التحدُّث معك، وتفاجأتُ بنفسي أتمنى لو أنني لم أُجرِّد السرير من فُرشه ذلك الصباح. لا تزال الثامنة مساءً، وأمامنا الأمسية بأكملها لنملأها. وفي صمتٍ، أخرجتُ قليلًا من مكعبات الثلج من المُجمد، وسكبتُ لكلينا كأسًا من ماء. كنتَ تُنعم في النظر إلى رفِّ كُتبي شبه الفارغ، ويداك في جيبيْك. مرَّرتُ إليكَ كأسًا، وشربنا الماء في صمت، ولا تزال عيناك مثبتتين على الكتب القليلة المتبقية. ثمَّة ثلاث نسخٍ من رواية «آنَّا كارنينا» أنتظر حتَّى اللحظة الأخيرة لحزمها. ثمَّ تساءلتُ في قرارة نفسي إن كان يجدر بي أن أُقدِّم لكَ شيئًا تشربه خلاف الماء، ربما كأسًا من النبيذ أو شيئًا كهذا. ثمَّ خرجت بيتينا من غرفتها، وسألت إن كنَّا نود بعضَ الفلفل الحار النباتي.

ثمَّ سألَتكَ: «هل التقينا من قبل؟».

فأجبتَها: «لا أدري».

- هل تُدير الـ «آرت سبيس»؟

- في الواقع، أجل أديره.

تدخلتُ في الحديث سائلةً: «ما هو الـ «آرت سبيس»؟».

أوضحت بيتينا: «مكان باخوسي[1] يجمع السكارى ذوي المواهب البارزة. يُفتَرض أنهم يصنعون الفن، لكني سمعتُ شائعاتٍ أخرى».

بذرت هذه المحادثة بداخلي شعورًا مريعًا. فتحتُ المُبرِّد فوجدتُ شراب السانجريا. أخرجتُ الإبريق وشربتُ مباشرةً من فمه، وحافة الزجاج السميكة تستقر على فمي. تطلعتما إليَّ ورأيتُ أنكما متشابهان، نشأتما في ظل العُلب الكرتونية الكبيرة من عصير البرتقال وترانيم عيد الميلاد في ديسمبر. حدَّثتُ نفسي أن تهدأ، وبينما كنتَ وبيتينا تتناقشان في ما إذا كان يجدر بنا جميعًا التنزُّه إلى «تشيرش ستريت» لابتياع أكواز مثلجات، صحتُ قائلة: «لا أفهم ما يحدث الآن».

- إننا نشكل عصابةً ضدكِ.

- هذا ما ظننته.

---

(1) نسبةً إلى باخوس، إله النبيذ عند الإغريق القدماء. (المترجمة)

في الخارج، كان الطقس رطبًا شديد الحرارة، وبدأتَ تُدندن الأغنية التي غنيتَها في جنازة كلمنتينا. وفي سينما «براتل ثياتر»، وجدنا عرضًا متأخِّرًا لفيلم «السبات العميق»، وأعلنتَ أن علينا الذهاب. حاولتُ إقناع بيتينا بالانضمام إلينا، لكنها قالت إن لديها بعض القراءات لتنتهي منها وتريد الخلود إلى الفراش مبكرًا، ثمَّ اتجهتْ صوب المنزل تحمل بولةً من مثلجات رقائق الشوكولاتة بالنعناع. قلتُ لكَ: «لا أفهم طعم رقائق الشوكولاتة بالنعناع هذا. يشبه مذاقه طعم معجون أسنانٍ بارد». ثمَّ سألتني إن كانت جميع الأمور التي تساءلتُ حيالها طيلة السنين السبع الماضية في أمريكا ستبرز نفسها إلى السطح الآن. فأجبتُكَ: «لا. إن رقائق الشوكولاتة بالنعناع هي الأحجية الوحيدة المتبقية». كانت السينما نصف شاغرة، وجدنا لنا مقاعد في مؤخرتها. وما إن ارتميتُ على الوسادة المخملية، أسفتُ على نفسي. يسعني أن أتنبأ بما سيحدث في الأضواء الخافتة، عودة إلى تلك اللحظة في ساندرز حين تعانقت أيدينا في الظلام -أكان هذا حقًّا اليوم الذي يسبق الأمس؟- والآن، أمامنا ساعتان في قاعة سينما هادئة برفقة لورين باكول، والتي أخبرتني عنها بيتينا للتَّوِّ أنها أشدُّ النساء إثارة وجاذبية ممَّن زينَّ الشاشة، وها هي الآن، بصوتها الحالك مثل مبردٍ يحتكُّ بالخشب. لقد انتهى أمري. قفزتُ من على مقعدي وأنا أقول: «أحتاجُ إلى فُشار»، وانحنيتُ إلى الأمام أستأذن وأعتذر وأنا أمرُّ إلى جانب رُكب الحضور الآخرين في صفِّنا. وفي ردهة السينما، ابتعتُ مشروبًا، وبينما كنتُ أدفع ثمنه أدركتُ أني ما زلتُ أحمل كوز المثلجات، وأن المثلجات قطَّرت على رسغي. ألقيتُ بالكوز بعيدًا ولعقتُ رسغي، مسترجعةً بوجارت[1] بوجهه الطويل القاتم، وقبعته التي تنسدل على جبهته. عدتُ إلى قاعة السينما، ولمَّا جلستُ إلى جانبك، لم تتطلَّع إليَّ أو تقل أي شيء. صببتُ جُلَّ تركيزي على الفيلم، ولم أفهم منه سوى القليل. وفي إحدى اللحظات، همست لي بضحكةٍ خافتة: «لقد نسيتِ الفُشار». لكني لم أرَ أي دُعابةٍ في ما قلته، واكتفيتُ بإحكام قبضتي على مسند الكرسي، كأنما أقول: من فضلك لا تُمسك بيدي. ولم تفعل أنتَ.

***

(1) همفري بوجارت أحد أكبر نجوم السينما الأمريكية، حصل على جائزة الأوسكار في عام 1951، عن دوره في فيلم الملكة الإفريقية من إخراج «جون هيوستن». (المترجمة)

التنقيب

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

تحديتُ نفسي أن أنتظرك عند التقاطع، لكنكَ لست هناك أبدًا. لا أثر لكَ في المبنى ثلاثي الزوايا، الذي يطل على الشارع، ولا على رصيف المشاة أسفله. أحيانًا أجدُّ السير إلى ميدان «بورتر سكوير» وفي طريقي أختلسُ النظر إلى الشارع المؤدي إلى منزل والدتك. أُفكر في ارتقاء الدرجات الأربع الخشبية ودقّ الجرس، لكنَّ المسافة بين أفكاري وإصبعي على الجرس الطنان شاسعة لا أقوى على قطعها.

في الوقت الراهن، هذا كل ما لديَّ. أقضي أيامي غارقةً في جوف المبنى الجديد؛ ثلاثة طوابق لا تفوح ممرَّاتها بأي رائحة، وتغمرها أضواء بيضاء برَّاقة. نُقِلت جميع العينات إلى أدراجٍ معدنية ضخمة، لا تختلف عن مشرحة مستشفى في أي شيء. وصلت إلى مسامعي شكوى البعض، لكني لا آبه: تُعجبني فكرة عودة ديانا إلى العالم في هذه المساحة الحيادية التي تخلو من الأشباح.

وصلت القطع على فتراتٍ متباعدة غير منتظمة. ثمَّ أتمَّت سوزان ويليامز تجهيز العينة الأولى، وهأنا ذا أتطلَّع الآن إلى كاحل ديانا: البكرة المزدوجة التي تربطها برتبة الثدييات العشبية، التي تعيش على اليابسة. كانت سليمة تمامًا. إن سوزان هي واحدة من أفضل مُحضِّري المواد الطبيعية في البلاد؛ لسنواتٍ لم ألتقِها سوى في ممرَّات المبنى القديم، امرأة ضئيلة البنية ذات شعرٍ رمادي معقوص في ذيل حصان، وهدوء قاسٍ يُغلِّفها. أما الآن، فتجلس

مُحدودبة الظهر إلى جانبي في مختبر التجهيز، وبرشاقةٍ تفصل أصابعها العظمة عن نسيج العظام، وطرقات أدواتها تُشبه بندول الإيقاع.

***

أجريتُ مسحًا على العظمة وأرسلتُ الصور إلى بارت وجيمنيز. أحيانًا أتوقَّف وأُفكر في ما وُهبت، وأن وجود ديانا بين يديَّ هو معجزة، برهان على كل شيء نتصف به نحن البشر: العلماء الذين كشفوا أسبار الماضي، والفنانين الذين تخيلوه؛ مخلوقات ضعيفة عاجزة تسعى إلى تحقيق الخلود، رغم إدراكنا أننا محضُ نقاطٍ في فصل تاريخنا الطويل. وفي الليل، أُحوِّل أفكاري إلى قصتنا. أجمع أجزاءها واحدًا تلو الآخر. وتصيح جميع الأصوات الأخرى تُطالب بالإنصات إليها: صوتُ أمي، وأنور، ومو، والحياة الأخرى التي ربما كنتُ لأحظى بها لو أن الأمور اتخذت مسارًا مختلفًا. أنتَ لا تعرف أنور، أليس كذلك؟ ليس بعد. أنتَ تتساءل عمَّن يكون. وأنا أُردد اسمه ولا أزيد على ذلك. ربما يجدر بي أن أُخبرك الآن (لا، هو ليس أبي). إنه رجل كشف لي تاريخ كياني بأكمله، وبفعله هذا حرَّرني من كل الأشياء التي ظننتُ أني لا أقدر على التحرر منها ولا يحق لي ذلك، هذا لأن ماضيَّ كان أحجية. وهذا كل ما سأكتفي به الآن، سيُخبرك أنور نفسه بالبقية.

***

سافرتُ إلى ديرا بوجتي، مع أنني حتَّى اللحظة الأخيرة كنتُ مقتنعةً بأن أمرًا ما سيحدث ليعرقل الرحلة. هل كنتُ أتمنى لو يفشل الأمر حتَّى يتسنَّى لي البقاء في كامبريدج برفقتك، وتكرار طقوسنا البسيطة طيلة الصيف؟ أم ربما كان الأمر حدسًا بسيطًا بأن هذه الرحلة هي بداية سلسلة انحدارات، أو استراحة قصيرة وأنا في طريق عودتي إلى الديار؟ حتَّى الديار نفسها لن تكون وجهتي النهائية، وأن المستقر الأخير أجدبُ من أي مكانٍ آخر يسعني تخيله.

أنا أتعجَّل الأمور. دعنا نقصد مكانًا واحدًا بائسًا تلو الآخر. هأنا ذا الآن، أستقل الحافلة إلى ديرا بوجتي. تعبث النافذة المفتوحة بشعري وتُحدث به تشابكاتٍ تتحدى الجاذبية سأقضى ساعاتٍ في ما بعد لهندمتها. وفي نهاية المطاف، سأستسلم، وفي غضون أسابيع قليلة سأتركه يستحيل إلى

عقدة كبيرة يلتصق بها الغبار. على المقعد جانبي يجلس جيمنيز، الذي جلبني من المطار. وصل كل من جيمي والأستاذ بارثولوميو سميث، قائد بعثتنا الاستكشافية، في وقتٍ سابق لتهيئة المُخيم. يبدو جيمي في مظهره مثل بطل ملاكمة للوزن الثقيل عن كونه عالم حفريات. أخبرني من فوره أنه رجل عسكري سابق، وأنه قام بثلاث جولاتٍ في أفغانستان، كأنما هو معتاد اضطراره إلى إبراز كتفيه، أهرامات من العضلات ترتقي إلى رقبته. لم يشغل من الحافلة سوى نصفها، وكنتُ أنا المرأة الوحيدة على متنها. ارتديتُ سترةً طويلة ذات أكمام طويلة واتشحتُ بوشاحٍ أسود يُغطي رأسي ومعظم وجهي. اضطررتُ كذلك إلى منع نفسي من التبول، لأنه ما من مكانٍ هنا مناسب للخلاء، وشعرتُ بالحرج أيضًا من جيمي، وكان هذا سبب عزوفي عن شرب الماء. يقول: «خذي رشفة ماء وإلا ستُهلكِكِ الصحراء». بدا صوته أرقَّ ممَّا تصوِّره لكَ ضخامته.

إنها رحلة طويلة. استغرقتُ في النوم، واستيقظت، واستمعتُ لقائمة الأغاني التي أعددتها من أجلي قبل أن نفترق، وكتبتُ القليل من الخطابات لكَ في ذهني، خطاباتٍ لن أُرسلها أبدًا. كهذه مثلًا: ماذا يحدث لو رافقتني؟ فكرتُ في البيانو الكبير في ساندرز، والدوَّاسات النحاسية تذوب في الدرجات الذهبية لأعشاب السافانا. والوشاح المُحكم حول فمي عزَّز من عُمق أنفاسي. مررنا بحقول الدُّخُن، فما كانت كلها عارية من العشب: تناثرت شجيرات خضراء شائكة على امتداد التلال المُتموجة، مع انفلاقٍ عَرَضي للألوان، مثل زهور صريمة الجدي الشفافة، واسمها العلمي هو «لونيسرا»، والتي أشار إليها جيمي حين بدَّلنا الحافلات في «كشمور». فكرتُ في السؤال عن دورة مياه، ألم ثقيل ينتشر في النصف السفلي من بطني، لكنني لم أرغب في ترك جانب جيمي. ثمَّ أدركتُ -بعد فوات الأوان- أني لستُ من النوع المُغامِر.

***

«كيف سنبقى على اتصال؟».

سألتني حين كنَّا في المطار، ورائحة المُطهِّر والأجسام المُتعبة هي ترنيمة رحيلنا البسيطة.

أجبتُكَ: «يُقدِّم لكَ العالم عددًا لا نهائيًّا من الإمكانات.. الرسائل النصية، والبريد الإلكتروني، والهاتف، وسكايب. وإمكانات فرعية مثل iMessage, WeChat، وواتساب، وسناب شات».

أردفتَ: «إن معرفتكِ في هذا الفرع حافلة».

- تفصلني دومًا مسافة ألف ميلٍ ويزيد عن أحبتي.

- ماذا عن الخطابات؟

أجبتُكَ: «خدمة البريد معطوبة. ستنقضي عشر سنواتٍ وسأفوِّت أحداثًا جوهرية. تخيل معي مدى الندم».

- وماذا عن إشارات الدخان؟

لم أجِر جوابًا لهذا، فأوضحتَ قائلًا: «رسائل مُشفَّرة».

- أخشى أنني لن أفهم هذه الرسائل. علينا أن نضع القواعد أولًا قبل أن نبدأ.

- حسنًا، ما رأيكِ في سطورٍ من «آنَّا كارنينا»؟

- شديدة الكآبة.

- «موبي ديك»؟

- لم أقرأ «موبي ديك» قط.

- أيُّ عاشقةٍ للبحر أنتِ؟ لا كتب إذن.

سألتكَ: «ماذا عن الأغنيات؟».

تطلعنا إلى بعضنا، فما كان سوى جوابٍ واحد. نطقنا في الوقت نفسه: «نينا سيمون».

أردفتَ: «ربما أحيدُ قليلًا عن الخيار. يمكنني التفكير في القليل من أشهر الأغنيات التي لم تُغطيها».

- أنتَ تتمتع بحظوةٍ في هذا الأمر.

- هذا صحيح. ولكنكِ ستواكبين. اعتبري الأمر مثل دروسٍ تعليمية.

- في ضبط النفس أم في الموسيقى؟

هذا لأنني سأجدُ الكثير لأقوله في هذا الصدد.

- كلاهما.

قبل أن تُقلع طائرتي، ألقيتُ نظرةً على قائمة أشهر أغنيات الجاز. «Love Me or Leave Me - اعشقني أو اتركني» «Darn that Dream - ارتقِ إلى ذلك الحلم» «Jonah and the Whale - جونا والحوت» «Every Time We Say Goodbye - كل مرَّة ألقينا الوداع» «I Wish I Could Know What It Means to be Free - ليتني أعرف ما تعنيه الحرية».

***

كان الأستاذ سميث يستند إلى متكأ، ويتحدَّث إلى رجلٍ ذي لحية وطاقية.

- شيء مؤسف ما حدث لـ «البالشوثيريوم[1]».. كان من الممكن أن يُغير كل شيء.

إن عبارة «يُغير كل شيء» هي الغاية المنشودة لأُناسٍ مثلنا، فنحن نبحث عن العظام التي ستعيد صياغة كل شيءٍ عرفناه عن تاريخنا. نبحث عن أذن الحوت «باكيستوس»، وعظام الكاحل لحوت «آمبولوستوس»، والعمود الفقاري لـ «رودهوكيتوس». علمتُ ما يعنيه بحديثه -ربما تخلَّى «البالشوثيريوم» عن تلك العظام، لكنها لم تخضع قط للفحص الكامل.

يعرف الجميع في العالم الصغير لعلم حفريات الحيتانيات أن الأستاذ بارثولوميو سميث قضى حياته المهنية في هذا الجزء من العالم، وأنه يتحدَّث اللهجة الإقليمية ويرتدي على غرار رجال القبيلة المحليين: ستراتٍ قطنية طويلة وصداري مُطرَّزة. والآن، أشاهد هذا الرجل الأسطوري بشحمه ولحمه، وأتفاجأ به ضئيلًا متأثرًا بالعوامل الجوية، وجسده كأنما أُفرغ مؤخَّرًا من داخل مكانٍ شديد الضيق. وكان قد تبنَّى عادة مضغ أوراق التنبول، فأحالت شفتيه إلى درجةٍ متوهجة من الحُمرة.

حيَّاني بحفاوة قائلًا: «السلام عليكم!».

تهلل قلبي بالدفء في صوته، وأُعجبتُ به من فوري؛ كان سلوكه متفتحًا به شيء من الفظاظة. وأصرَّ على أن أناديه بارت، ثمَّ سكب لي فنجانًا من شايٍ مُحلَّى بالكريمة، فقبلته (وفي حال كنتَ تتساءل، أؤكد لكَ أنني تبولتُ مثل حصان سباقٍ لحظة وصولي إلى المُخيم).

---

(1) حيوان ثديي شبه قرني مشى على اليابسة، طوله 7 أمتار، ووزنه 14 طنًّا، في عصر الأوليجوسين أي منذ 23 مليون سنة. (المترجمة)

قال بارت، وهو يُقدم إليَّ رجلًا آخر: «هذا زمزم».

وبكتفين نحيلتين ووجهٍ خجول، بدا غير ملائم في هذه البيئة، على أنه لا بُدَّ أن خطر بباله الأمر نفسه حيالي. كنتُ قد خلعتُ وشاحيٍ، ودمعت عيناي بفعل الغبار، واختبرتُ طفرة أشبه بنفضة، ورحتُ أحكُّ مؤخِّرة عنقي للتخلص من حبيبات الرمل التي بدأت تتراكم هناك. تنشَّقتُ وتمخَّطتُ في منديلٍ مُجعَّد، وتبادلتُ عبارات ترحيب مُهذبة مع زمزم. وعلى الأرض العارية استقر إناء من الكاري وطبق من خُبزٍ صخري. قُدِّم إليَّ طبقًا، ثمَّ اهتممتُ بأمر غدائي. ارتقى الخُبز إلى مسماه وكان شديد الصلابة، لكنَّ حساء الكاري كان شهيًّا ومُحلًّى بالبرقوق المُجفف.

تابع بارت حديثه عن البالشوثيريوم، وتوقَّفت عيناي عن ذرف الدموع. حاولتُ تذكر كل شيءٍ أعرفه عنه، فتذكرتُ أنه اكتُشف في ديرا بوجتي في أوائل القرن العشرين، وأن مكتشفه رجل إنجليزي، واعتبره الناس واحدًا من أضخم الثدييات على مر التاريخ؛ فرس نهرٍ يُشبه الكركدن، جاب الأرض منذ 30 مليون عام مضت. إذن هو صغير العُمر مقارنة بالآمبولوستوس.

ومضى بارت يقول:

- أخرجه فريق من علماء آثار فرنسيين من الأرض عام 1999، وتقرر نقل الهيكل العظمي إلى كراچي للفحص والتحليل. وفي تلك الأثناء، حفظوه في منزل زعيم القبيلة آنذاك، وهو أكبر بوجتي كما تعرف. وحين أغار الجيش على منزل بوجتي، فجَّروا مُجمَّعه السكني، وقتلوه، وظنَّ الجميع أنهم محوا الحيوان شبه القرني من على وجه الأرض.

لم أكن أعرف أنها نهاية القصَّة، فسألتُ: «ماذا حدث؟».

- كان بوجتي قد احتفظ بالعظام كلها في حاوياتٍ معدنية، هذا اللعين!

وصفع بارت ظهر زمزم بيده، وهو يُتابع: «ولهذا السبب تحديدًا علينا أن نُخرج آمبولوستوس من الأرض ونحفظه في موضعٍ آمن».

يُحدثنا آمبولوستوس عن تلك اللحظة، في وقتٍ ما منذ 50 مليون سنة، حين بدأت الحيتان في السباحة. اكتُشِف باكيستوس، السلف الأول للحوت الحديث على بُعد عدَّة مئات من الأميال شمالًا من هنا، في بنچاب. كان باكيستوس يشرب مياهًا عذبة، ويملك أذن ثدييات بحرية ويسبح في المياه الضحلة. آخر مرَّة جرى فيها تنقيب هذه المنطقة، عثر چينچريتش على «أرتيوسيتس

كلافس[1]» و«رودهوكيتوس بالوتشيستانيسيس»، العينتين اللتين برهنتا على أن الحيتان تطورت من «أرتيوداكتيلا» مزدوجات الأصابع، وهي ثدييات آكلة للعشب مشطورة الحوافر، مثل الأبقار وأفراس النهر. ثمَّ عثر ثويزن على كثير من العينات لآمبولوستوس عام 1992، لكن لم يستطع أحد أن يُخرج الهيكل العظمي الكامل من الموقع الميداني ويجلبه.

أخرج بارت ملفًّا من حقيبة ظهره، وهو يقول: «كان چينچريتش هنا عام 2000، لكنهم أوقفوا عمله حين نشبت الحرب في أفغانستان».

كنتُ عازمةً على سؤال بارت عن هذا الأمر؛ فطوال عَقدٍ كامل، لم يُسمَح لأحدٍ بالاقتراب من هنا قط. ولهذا سألتُ: «كيف حصلتَ على التصريح؟».

أخرج ورقةً من الملف وقبض عليها في بهجة، ثمَّ قرأ: «آه، هاكِ هي. (نظَّف حلقه) تخيلي، إن صح التعبير، آمبولوستوس والشمس على ظهرها، وحافة الماء تفيض على جلدها الثخين، والغواية للانغماس بداخل الماء عظيمة، وأسرار المحيط تناديها».

انكمشتُ على نفسي حين سمعتُ كلماتي تُعاد على مسامعي مرَّة أخرى، ودققتُ النظر لأرى لو كان جيمي وزمزم يضحكان أو -ما هو أسوأ- يُحدقان إلى الدهون تتجمد في طبقيهما، شاعرين بالحرج من أجلي. ومضى بارت قائلًا كمَن يؤدِّي طقسًا تنويميًّا: «تقبع أسرارها داخل عظامها: عظام الحوض وأذنها الداخلية المحميَّة التي تسمح لها بأن تسمع تحت الماء، إضافةً إلى عظام فخذها. هذه هي القرائن التي ستُخبرنا عن حقيقتها، لغز فاق طويلًا قدرة العلم على الوصول إليه».

اشتعل وجهي خجلًا. ثمَّ استطردتُ: «لكنْ جديًّا، ظننتُ أن هذه المنطقة محظورة بصرامة».

دسَّ بارت استمارة تقديمي مُجدَّدًا إلى داخل الملف. ثمَّ أخرج عُلبة صفيح من جيبه، واختار ورقة تنبول قلبية الشكل، وطوى الورقة على شكل مظروفٍ مستطيل، ثمَّ ألقى بها إلى فمه. وأجاب أخيرًا: «تعلمين في بلدانٍ كهذه.. عليكِ أن تجدي طرقًا للتحرك هنا وهناك».

قال جيمي: «إن بارت يعمل على الأمر ليلًا ونهارًا».

---

(1) أرتيوسيتس كلافس: هو نوع من الحيتان المنقرضة ويسمى بالحوت مزدوج الأصابع. (المترجمة)

جذب الأستاذ شعره من فروته، قبل أن يقول: «أقنعتُ ذوي الأزياء الرمادية[1] بإثبات الأمر». ومضغ في صمتٍ هنيهة، ثمَّ قال: «عليكِ أن تحافظي على توازن كل الأمور».

انتظرتُ لأرى إن كان سيُوضِّح مقصده، لكن زمزم هو مَن توجَّه إليَّ بالحديث، فقال: «أحسنتِ وصف الآمبولوستوس».

عادت عيناي تذرفان الدموع مُجدَّدًا، ففركتهما بخشونة، متمنيةً في قرارة نفسي لو أني لم أتمادَ في قصة الحوت.

استطردتُ بصوتٍ مرتفع بلا داعٍ: «أراد والداي منِّي ألا آتي إلى هنا؛ قالا إن الأمر غاية في الخطورة».

أجاب جيمي: «الخطر مسألة نسبية».

هنا علَّق بارت: «لا يريد أحد لطفله أن يشبَّ ليصطاد الحفريات».

وطمأنني زمزم قائلًا: «لا داعي لقلق والديكِ. أضمن لكِ هذا».

قال بارت: «على أي حال، لدينا سلاحنا السري».

أسند مؤخِّرة رأسه إلى أصابعه المنبسطة أسفلها، ومنحني ابتسامةً عريضة، أظهرت أسنانه المُلطَّخة بأوراق التنبول. ثمَّ أغلق عينيه وبدا كمَن يصرفنا من مجلسه. لم أسأله ثانيةً عن الطريقة التي حصل بها على كل التصاريح والموافقات الصحيحة، ولا عن الطريقة التي حاز بها مباركة القبائل المحلية، وما كان ليُخبرني على أي حال أنه قد أبرم عدَّة اتفاقات يحفظها توازن دقيق بين الرهانات والمدفوعات. سيتراءى له الأمر إجراءً مقبولًا، ففي نهاية المطاف، ووفقًا لما يراه، ليست التضحية بالحياة البشرية في بلدان كهذه أمرًا مستغربًا، هي ثمن مقابل سندفعه جميعًا، وحدود علينا أن نتخطَّاها لكي نظفر بالكنز القابع أسفل أقدامنا.

***

أراني جيمي بقية المُخيم. كانت الخِيام مُرتبة في شكلٍ شبه دائري حول منطقة مركزية بمنزلة مطبخٍ مفتوح. مُنِحتُ وبارت خيمتين منفصلتين، في حين تشارك جيمي وزمزم خيمة واحدة. كان ثمَّة طباخ وسائق وزوجان

(1) يقصد بهم القوات العسكرية الأسكتلندية الملكية في أفغانستان. (المترجمة)

من الحُراس، وقلة من رجالٍ محليين عُيِّنوا لمساعدتنا على اختراق الطُّفال الصَّفَحي الكثيف أحمر اللون. إذ لمَّا عكف أسلافنا على تنقيب هذه المنطقة، كانت العظام التي وجدوها مكسوَّة بطبقاتٍ متتابعة من مواد الحُمر الرسوبية، والتي كانت صلبة كصلابة الأسمنت. وإذا أردنا أن نُخرج عينة كاملة من الأرض، سيتعيَّن علينا أن نحتجر في المنطقة بأدواتنا، ثمَّ نُفجِّر الصخور بالمتفجرات. كان زمزم مسؤولًا عن الديناميت الذي أبقاه مدفونًا في صندوقٍ من القصدير على الطرف الجنوبي للموقع.

لاحقًا، وبعدما تناولتُ دفعة أخرى من حساء الكاري والخبز الصخري، التقيتُ زمزم مصادفة خارج دورة المياه المتنقلة، يُمسك بوعاء ماءٍ فارغ. حلَّ المساء هادئًا باردًا. وكنتُ قد تناولتُ مضادًّا للهيستامين، فشعرتُ بقليلٍ من التحسُّن.

سألني زمزم: «هل رأيتِ سلاحف المياه العذبة المنقرضة ستوبيندميس جيوجرافيكس؟».

شعرتُ بنفسي تُشرق بهجةً، وأنا أُجيب: «منذ بضعة أيامٍ فحسب. هل تعرفها؟».

- من الصور فحسب. كم أنتِ محظوظة لرؤيتكِ لها بنفسك!

كان محقًّا، أنا محظوظة: قطعتُ أروقة «ويلسون وجولد»، ورأيتُ كرونوصور وستوبيندميس والزهور الزجاجية. وتعانقت أيدينا. تساءلتُ عمَّا حفَّزه للمجيء، فطرحتُ السؤال عليه: «ما الذي أتى بكَ إلى هنا؟».

- ظنَّ أبي أنها فكرة مريعة.

أجبته باسمةً: «تحدَّث ولا حرج».

- ربما في وقتٍ آخر.

غادر مسرعًا، ولمَّا تطلعتُ من وراء كتفي، رأيته يسير بوتيرةٍ سريعة نحو خيمته، وكانت سماء الليل فوقنا قد أضاءت بقطعٍ من القمر وكوكبة كثيفة من النجوم.

***

بدأنا العمل عند بزوغ الفجر، فاستقللنا سيارتين جيب واتجهنا غربًا وشُميسة وردية تنبلجُ من وراء ظهورنا. لاحظتُ أن حارسنا يرتدي ثيابًا أشبه

بزيٍّ رسمي هذا الصباح؛ قميص بأكمام قصيرة وسروال كاكي باهت. كان المسدس المحشور في حزامه جليًّا حين استدار بظهره وعدَّل من شملة رأسه في اتجاه يعاكس الرياح. شمخت التلال بتضاريسها، لكنها تَرِقُّ من آنٍ إلى آخر بفعل أوراق الشجيرات البرية. وفي مقابل خط الأفق، أمكننا أن نرى نظمًا متفرِّقًا من أشجار السنط. بَيد أن سلسلة جبال سليمان تتراجع في الأفق، مع أننا في حقيقة الأمر نقترب منها -وهي خُدعة أحدثتها السافانا- ثمَّ توقفنا أخيرًا في موقعٍ على بُعد مائتي ياردة على الجانب الآخر، ميَّزه كل من جيمي وبارت في أثناء تجهيزهما للموقع.

كان جيمي أحد علماء الرواسب، مهمته أن يفحص قاع بحر التيثس لمعرفة الإطار البيئي للآمبولوستوس، ويُحاول إعادة صنع المشهد الذي تكَّون منه الصخر. وسيستخدم الرجال المستأجرون المطارق الثقيلة لنحت كُتلٍ كبيرة من الصخر الأحمر، ثمَّ نعكف أنا وزمزم وبارت على التدقيق في كل واحدةٍ منها، ونفتش الحجارة المكسورة بحثًا عن فُتاتٍ من عظام وأسنانٍ تناثرت بداخلها مثل قصاصات ورقٍ بيضاء. منذ اللحظة الأولى، كان المجهود البدني فاترًا لبساطته. تحمَّصنا من وطأة الحرارة، قاسية حتَّى في هذه الساعة المُبكرة، ومع أن الهواء بدا ساكنًا بلا نسيم، فسرعان ما تغبَّرت أجسادنا بالمسحوق الأحمر للبحر الجاف. انقضى ذلك الصباح الأول على عجلٍ، وعُدنا إلى المخيم لتناول غداءٍ متأخِّر، وبقينا في الداخل طيلة فترة ما بعد الظهيرة الحارقة، نُنظِّف ونفرز ونُعِدُّ نظامًا مبدئيًّا لتصنيف ما وجدناه.

صمدتُ أسبوعًا، وفي يوم الإثنين الثاني، وجدني بارت أستندُ إلى صخرةٍ ورأسي بين ركبتيَّ، فأمرني أن أغادر الموقع. أصاب الجفاف جسدي، وتقرَّحت مؤخِّرة عنقي من ضربة الشمس. عرض أحدُ الحُرَّاس توصيلي، فجلستُ إلى جانبه في المقدمة وهو يُسرع بسيارة الجيب عائدًا إلى المُخيم، لم يُحدثني سوى مرَّة واحدة ليسألني إن كنتُ أحتاج إلى توصيلةٍ إلى المشفى في مُلتان. أجبته نافيةً وقضيتُ فترة ما بعد الظهيرة راقدةً على حقيبة نومي، حانقةً على نفسي لرضوخي أمام سطوة البيئة. كان أمامي الكثير لأبرهن عليه -ليس للآخرين فحسب، هذا لأنني كنتُ المرأة الوحيدة هنا، ولكن لنفسي أيضًا، لطفولتي المستترة، ولوالديَّ ولكَ أنتَ أيضًا يا إيلاجا.

كنتُ قد عزمتُ على أن أسبوعي معكَ هو بداية لنفسي الجديدة. سأستعين به لأُحوِّل نفسي إلى الشخصية التي تعرف تمامًا ما تتوقعه من العالم. لن

أظل الطفلة الوحيدة المُدللة لوالدين مُتيِّمين بها. حين أموت، سيُكتب على دعوة حضور جنازتي: «عالمة حفريات. مُغامرة. مُحطِّمة صخور. برمائية. نينجا». سيصعُب مُفاجأتي، فأنا صعبة المراس. حتَّى إنني مرحة. أجل: سأُنمِّي حِسًّا فكاهيًّا، حِسًّا جافًّا مُريعًا. ظللتُ أكرر كلمة «نينجا» إلى نفسي وأبتسم حتَّى تشققت شفتاي.

وضعتُ هاتفي على وضع التشغيل وبلا شكٍّ لم أجد إشارة. وكانت البطارية شبه فارغة، لكني تنقَّلتُ خلال قائمة أغنياتي، واخترتُ نسخةً بصوت نينا سيمون من أغنية «Here Comes the Sun - ها قد أشرقت الشمس». أحسستُ برغبةٍ قوية لسماع صوتك، لأُخبرك عن هذا المكان، والألم الحارق في مؤخِّرة عنقي حيث اخترقت الصحراء بشرتي، ورائحة الينسون التي تتبع زمزم أينما ذهب وهو يلوك عيدانًا من الشُّمر، ويرُصُّ الحجارة القرمزية التي تحفظ أسرارها في عناية شديدة. أنتَ تُدرك يا إيلاجا، أليس كذلك؟ تُدرك أن هذه هو السبيل التي غَزوتَ به قلبي؟ ليس في تلك الأيام التي قضيناها معًا في كامبريدج فحسب، لكنْ في أعقاب ذلك، حين عجزتُ عن التوقف عن الحديث إليك، حين انطوى كل منعطف من قصتي على حاشية من محادثة وأنا أتصور كيف ستُجيب، كيف سيُفتتن شعرك بضياء الصحراء، ومدى تأثير الهواء الجاف المُثقل بالتاريخ على صوتك. ماذا كنتَ ستصنع من كل هذا: الأعلام الخضراء لخيامنا على السطح القمري لهذا المكان العتيق، وجدالنا البسيط مع الوقت؟ الآن قد عرفت؛ هكذا تحديدًا كيف يقع الناس في الحُب -في خضم الكلمات التي ينطقون بها لبعضهما، والصور التي يقتطفونها من لقاءاتهما القصيرة، وهما يبوحان بمكنون نفسيهما في ضربٍ من الوصال سيُشيران إليه في ما بعد بأنه قدر حتمي الحدوث.

في المساء، أحضر لي زمزم وجيمي العشاء، وبعض أكياسٍ صغيرة من أملاح الإماهة الفموية. وضع زمزم الأكياس على الأرض إلى جانب حقيبة نومي، وظننتُ أني سمعتُ وقع خطواته تتراجع، لكنه كان يُفتش في حقيبة ظهري بحثًا عن الماء. مزَّق طرف الكيس الصغير، وسكب محتوياته في قنينتي.

- هل وجدتما شيئًا؟

فأجابني: «همهمات الأشباح فحسب».

فتحتُ عينيَّ ولاحظتُ لُطفَ وجهه الذي أحدثته عينان خضراوان باهتتان.

قلتُ: «سأعود إلى الموقع غدًا».

فعاجلني جيمي قائلًا: «حين كنتُ في أفغانستان، فقدتُ وعيي عشرات المرَّات على الأقل. هذا النوع من الحرارة الجافة يمكن أن يقتلكِ».

أنهى زمزم تحضير محلولي الملحي، ووضع القنينة إلى جانب حقيبة نومي.

كنتُ أتوق إلى مغادرتهما، لكن بَيدَ أنهما يرغبان في البقاء حتَّى أُنهي طعامي. أخذتُ قضمةً من الخبز وشعرتُ بها تستحيل إلى عجينٍ في فمي. ثمَّ سألتُ: «كيف كان الحال هناك، أقصد في أثناء الحرب؟».

أجاب جيمي: «كان حالًا سمح لي بتسديد ديوني».

أردفتُ: «التحق أبي بالجيش ذات يوم».

سأل زمزم: «أكان مناضلًا في جيش التحرير؟».

أومأتُ بإيجاب، مشدوهةً من معرفته باللفظة البنغالية لـ «مناضل من أجل الحرية». ثمَّ أوضحتُ إلى جيمي: «كانت بنجلاديش في سابق عهدٍ جزءًا من باكستان. وانضم أبي إلى حرب الاستقلال».

قال جيمي: «قتال من أجل قضية. كم تمنيتُ لو أدركتُ ذلك الشعور».

وضعتُ الطبق أرضًا، وأخذتُ جرعةً كبيرة من المحلول الملحي، فذكَّرتني ملوحته الحلوة بذلك الوقت حين أُصبتُ بتسمم طعامٍ يعود إلى تناولي عود قصب سكر من على قارعة الطريق.

قلتُ أخيرًا: «شكرًا لكما. أشعرُ بالتحسُّن».

لامس زمزم راحة يده بجبهته في بادرةٍ للوداع. ثمَّ أدركتُ شيئًا: تعبيرًا مُحزنًا رغم بهجته كثيرًا ما لمحته على وجهَيْ والديَّ، نظرةُ شخصٍ يؤمن بقدرته على إصلاح العالم. حسبتُ أحيانًا، حين تطلعتُ إلى زمزم، أنه كان يُحاول إخباري شيئًا. لكني مُتعبة وأشعر بدوارٍ خفيف، وما إن غادرا حتَّى أغلقتُ عينيَّ وتوقَّفت عن التفكير في أمره.

في الصباح التالي، أعلن بارت أننا سنقضي اليوم في المُخيم. كلا، لم يكن إعلانه هذا مستندًا إلى ضربة الشمس التي تلقيتها، بل كنَّا في استقبال بعض الضيوف على الغداء. لمَّا خرجتُ من خيمتي، رأيتُ مجلسًا من مقاعد مُرتبة

حول منتصف موقع التخييم، ومفارش بلاستيكية ومفارش طاولات تُغطي رقعةً مُظللة قُرب منطقة الطهي. أُحضرت المساند من خيمة بارت، وأُعِدَّت الموائد، فوجدتُ أكوابًا وأطباقًا من الصفيح مُرتبة في شكلٍ شبه دائري. لفَّ بارت سيجارةً ودخَّنها، وطوى ورقة تنبولٍ ومضغها، ثمَّ بدأ من جديدٍ مع التبغ، كل هذا فيما كان يصيح بالأوامر إلى العمال لتنظيف الموقع، والإسراع في الطهي، فانتشرت من حولنا رائحة اللحم المحترق والخبز المُحمَّص.

أخبرني بارت أنه من الأفضل لو ارتديتُ الخمار وغطاء الوجه مُجدَّدًا، ففعلتُ، ثمَّ أخبرني شيئًا في ما معناه أن أظلَّ متوارية عن الأنظار، فاستنتجتُ أنه إما يجدر بي البقاء في خيمتي وإما ألا أتحدث إلى أي أحد. كنتُ أنوي أن أسأل جيمي عمَّن نتوقع حضوره بالضبط، لكني لم أره منذ أن تناولنا الإفطار.

وصل موكب من سيارات الجيب قُبيل الظهيرة. ترجَّل نحو دزينة من الرجال، وحيوا بارت بحفاوة؛ أخذوا يعانقونه ثمَّ يُرقِدون راحات أيديهم على صدورهم. اقترب كل من جيمي وزمزم، وبينما كانا يتعارفان، نزل زمزم إلى الأرض ولامس قدم أحدهم. وضع الرجل يده على رأس زمزم، ولمَّا استقام الأخير واقفًا، تعانقا. ثمَّ جاء أحدهم وقدَّم خبزًا صخريًّا ولحم ماعزٍ مشويًّا. من وراء حجابي، لاحظتُ مدى خبرة الرجال في تهيئة وضعية جلوسهم، فلا يضطرون إلى نزع أسلحتهم المتدلية من صدورهم، حتَّى وهم يأكلون طعامهم. تحدث إليهم بارت باللغة البلوشية[1]. ومن آنٍ لآخر يُلقي أحدهم بمزحةٍ فيضحك الجميع. لم ينبس زمزم ببنت شفة، وكذلك فعل جيمي. تناقلت فناجين الشاي بين الحضور، ثمَّ تلاها التبغ. وبعدما فرِغوا، نهض أولًا ذلك الرجل الذي لامس رأس زمزم. كان وجهه كمَن رُسِمَ بقلم حبرٍ سائل، ذا ملامح جميلة باهتة. ألقى بخطبةٍ، وحذاؤه الثقيل يُصدِر حفيفًا على المفرش البلاستيكي، توقَّف وانتظر زمزم مُجدَّدًا ليأتي إليه ويُلامس قدميه. ثمَّ قاد الآخرين إلى شاحناتهم وساروا مبتعدين، يعقُبهم غبار أصفر كأنفاس تنينٍ ملتهبة.

سألتُ بارت: «ماذا قال؟»، فأجابني بارت بدوره: «يتعيَّن عليك أن تعتني بابن أخي».

---

(1) اللغة البلوشية هي لغة يتحدَّث بها الشعب البلوشي في إيران وباكستان وأفغانستان. (المترجمة)

ها قد اتضح الأمر أخيرًا في ذهني، وهو أن زمزم ابنُ واحدٍ من أشد قادة القبائل تأثيرًا في المنطقة، رجل يُدعى ديداج بلوش، وقيل إنه خليفة مُحتمل لبوجتي. أما الرجل العجوز الذي جاء ذلك اليوم لم يكن ديداج بلوش نفسه، بل شقيقه أبرار بلوش، عمُّ زمزم. قضيتُ فترة ما بعد الظهيرة في خيمتي مُجدَّدًا، لكني رُحت أُفكر في زمزم بنهجٍ مختلف بعد ذلك اليوم، وقضيتُ أنَّ بيننا أمرًا مشتركًا؛ شعورًا بأننا منبوذان من أصولنا. إلى ماذا تحوَّل زمزم بيدَيْ والده؟ إلى رجلٍ مستأنَس شديد الاهتمام بالعظام فضلًا عن مصير قومه؟ أكان والده يُذكِّره بوجوب انتزاع أرضه من الجيوش والحكومات والمُنقِّبين عن النحاس، وأن هذا العمل بلا أهمية بالمقارنة؟ لم أبُح بأيٍّ من هذا إلى زمزم، لكن حين مررنا ببعضنا ذلك المساء، وسقوف الضوء تميل على السافانا، حرصتُ على التطلع إلى عينيه مباشرةً كأنما أقول: أعرف مَن أنتَ، أعرف كل شيءٍ عن الأمر، وأعرف شعور كل طرقة من شكٍّ تنخر القلب.

***

ثمَّ عثرنا على ذيل ديانا. أو بالأحرى عثر زمزم عليه. فبعد أسابيع قليلة من زيارة عمه إلينا، جاء زمزم راكضًا حيث كنتُ وبارت ننحت في الصخور. كان قد عثر على عظمةٍ بحجم قبضة اليد بدت له واعدة. تركنا ما كنَّا نفعله وشرعنا في الحفر بحرص، وأخذنا نقتطع من الحجر المُحيط بها دائرةً نصف قطرها ثلاثة أقدامٍ تقريبًا. وثانيةً، عثرنا على عظمة أصغر حجمًا بعض الشيء كانت مسكونة على بُعد سنتيمتراتٍ قليلة. عملنا على ما جمعناه، متجاهلين شمس ما بعد الظهيرة وهي تزمجر فوق رؤوسنا، وعلى مهلٍ، وفي صورةٍ تُشبه فُتات الخبز المتناثر كما في القصص الخيالية، بدأ مخطط العظام بأحجامها التصاعدية يبرز من الحجارة. كنَّا نعمل على العظمة الخامسة حين تلاشى ضوء النهار، وأعلن بارت انتهاء العمل الليلة. قضينا طيلة اليوم بالكاد نتبادل بضع كلماتٍ، لكنْ ما إن عُدنا إلى المخيم حتَّى تحدثنا جميعًا في الآن نفسه. هل لاحظ أحد الشقوق في العظمة الثالثة؟ وما الذي يُخبرنا به الحجم، أهي المسافة بين فقرات العمود الفقاري؟ بمجرَّد أن وصلنا إلى نهاية العمود الفقاري، لم يعد الحوض بعيدًا عنَّا. أرجو أن نجده سليمًا. أرجو أن نجده كاملًا.

اقترح زمزم أن نُفجِّر المنطقة على الفور، لكنَّ بارت أجابه برغبته في التأني ومتابعة استخدام الأدوات اليدوية أولًا. أخذ الطريق ذهابًا وإيابًا من الموقع وإليه بضع مرَّاتٍ، لكنَّ بارت ظلَّ مُصرًّا، وهكذا حملنا أنفسنا إلى المنطقة، ننحت في سلسلة الجبال من بزوغ الفجر حتَّى غروب الشمس كل يوم. وفي الأمسيات، أخذنا ندافع عن حقنا في التسمية. منذ بداية الأمر فكرتُ فيها على أنها أنثى، وبيد أن الآخرين موافقون على ذلك. كان جيمي هو من اقترح اسم «ديانا»، تيمنًا بإلهة الصيد الرومانية. وبينما كنَّا جاثمين من حولها في اليوم التالي، همس زمزم بدعاءٍ إلى الفقرة الثامنة للعمود الفقاري المكشوف لديانا. فسأل جيمي: «ماذا يفعل؟».

أجاب زمزم وهو يرفع عينيه الخضراوين بلون العُشب ليُقابلا عينيَّ: «هذه عظام المجد».

استيقظتُ في الصباح التالي على صوت بارت، وهو يقول: «يجب أن أُبقيه هنا». وصوت آخر -كان صوتُ جيمي- يُجيبه: «عليك أن تُخبره». حينها قال بارت إنه سيفعل، لكنه يحتاج إلى مهلةٍ من بضعة أيامٍ أخرى. ثمَّ أضاف: «دعنا نصل إلى الحوض». بَيد أنهما تبادلا الحديث لبضعِ مرَّات أخرى، ثمَّ هدأ صوتاهما حين توصَّلا إلى اتفاق. قال جيمي أخيرًا: «حسنًا يا أستاذي، لكن مسؤوليته تقع على عاتقك».

***

وصل صحفي برفقته مُصوِّر، وأجبرانا على الوقوف حول ديانا نحمل أدواتنا. وبحرصٍ شديد، أخذ بارت ينفض طبقةً من الغبار ويُظهر حوضَ ديانا. ابتهج الصحفي أيَّما بهجة، وفي الخيمة تلك الليلة، تجرعتُ وجيمي ويسكي رخيصًا فيما شرب زمزم مشروب بيبسي الغازي، ثمَّ تحادثنا حول المقالة العلمية التي سنُشارك في كتابتها. عجزتُ عن النوم تلك الليلة؛ راودتني أحلام عن أسابيع وأشهر قادمة، أزيل فيها النسيج الغشائي، وأُعِدُّ الحفريات، وأُعيدها إلى ميتشجن، وأعرضها في المتحف. لا أطيق الانتظار لأخبركَ بكل هذا. ستُعرض أعمالي قريبًا، مثل الزهور الزجاجية، وسيأتي الناس ويتطلَّعون إليها ويختلقون قصصًا عن مخلوقي الخرافي. شعرتُ بأن قدري يُكتب ها هنا على هذه الأرض القاحلة قاسية القلب، هذه التي تشكَّل ترابها قبل التاريخ بعهدٍ طويل. في ظهيرة اليوم التالي، أحضر إلينا السائقون الصحيفة من

مدينة «كويته»، وفي الصفحة الأولى رأينا صورةً لبارت، والبريق في عينيه جعل منه رجلًا وسيمًا بحق.

مضينا في عملنا. وفي خضم حماستي، قليلًا ما فكرتُ في المحادثة التي تهادت إلى مسامعي، وفي غضون أسبوعٍ أو اثنين تلاشت تمامًا من ذاكرتي. فبدت لها كأنها هلوسات. وخطوةً بخطوة رحنا نكشط الصخرة التي غلَّفت ديانا. صرنا في أواخر أكتوبر الآن، وباتت فترات ما بعد الظهيرة أكثر برودة، ولهذا كنَّا نعمل طوال اليوم، ولا نتوقف إلا حين يستحيل النهار المشرق إلى الغسق. كادت أعمال التحجير تنتهي، وفي إحدى الليالي، حين كنتُ أنا وجيمي نُصنِّف شظايا عظامٍ صغيرة، دخل بارت علينا الخيمة، وتبعه رجلٌ يرتدي زيًّا عسكريًّا.

جال الرجل بناظريه في الأرجاء وقال مُحدِّثًا بارت، وهو يرسم دائرةً بإصبعه شملتنا جميعًا: «أريد تقريرًا مُفصَّلًا عن أنشطتكم».

كان يضع قبعةً ويرتدي سروالًا مكبوسًا بعناية، وتضجُّ بدلته بياقاتٍ متعددة الألوان.

أجاب بارت: «لقد أخبرتكَ، إننا مجرَّد علماء. نبحث عن حفريات. وقد وجدنا واحدةً قبل أسابيع قليلة».

- لم يُذكر ذلك في تقريرك اليومي. علينا قراءة هذه التفاصيل على الورق.

تطلع بارت من حوله، ثمَّ قال: «هذا ليس مكانًا يصلح لمناقشة الأمر».

- نحن من سيُقرر المكان الذي يصلح.

خطا الرجل نحو طاولة بارت ومرَّر أصابعه خلال كومةٍ مُكدسة من الأعمال الورقية. انزلقت كومة من الأوراق إلى الأرض، وتساءلتُ ما إذا كانت قصتي عن آمبولوستوس من ضمنها.

- لم يعد يثق بكَ الجنرال علام في منحه ما وعدته به.

- إننا على وشك كتابة التاريخ.

- لم تعد حرًّا لكتابة تاريخك هنا.

في تلك اللحظة، دلف زمزم إلى الخيمة، حاملًا في يده إزميلًا. حدَّق بارت إلى الضابط، ثمَّ إلى جيمي وإليَّ، ثمَّ إلى زمزم، الذي استدار وحاول الركض. لم يَخْطُ سوى خطوتين قبل أن يقبض الضابط على ذراعه، ويطرحه أرضًا

كأنه لا يرتقي إلى ما هو أكثر من كلبٍ صغير. ثمَّ جثم على الأرض وقبض على حلق زمزم. كان الأخير يشهق طلبًا للهواء، يُسدد الضربات إلى قدم الضابط بإزميله دون جدوى.

طمأنتني ذكرى آخر امرأة التقيتُها، خالة كانت تجلس إلى جانبي في أثناء رحلتي من الدوحة. سألتني ما إذا كنتُ متزوجة، ووجدتني مضطرة إلى إخبارها أنني مخِطبة إلى رجلٍ لطيفٍ جدًّا في دياري. حاولتُ استحضار ذكراها الآن في ذهني، رائحة مُعطِّر الشعر، والطريقة التي نادتني بها «عزيزتي».

اتكأ الرجل بركبته على صدر زمزم، وهو يقول: «هل تعلم يا أستاذ ما عقوبة التستر على إرهابي؟».

همس زمزم: «أرجوك اتصل بأبي».

لكمه الضابط، فاستدار وجه زمزم في حِدَّة. حينها تفاجأتُ بنفسي أتحرك نحوه، وأُخرج قطعة قماشٍ من سترتي (كنتُ استخدمتها بالأمس لنفض الغبار عن كنزنا نصف المُكتَشف)، وحاولتُ وقف الدماء المتدفقة من فمه.

استدار الضابط إليَّ وقال: «ابتعدي من فضلك يا سيدتي».

فقلتُ: «إنه مجرَّد حارس».

أمال الضابط رأسه وأجاب: «وماذا سيكون غير ذلك؟».

نهض جيمي لتستقيم قامته، حتَّى صرنا أقزامًا دونه، فقال بارت: «دع الأمر. لا شيء يمكننا فعله».

رُحتُ أُكرر: «لم يفعل أي شيء».

ولا أدري سببَ حديثي البتة.

اتجه جيمي نحونا، وكنتُ أرتعد من أن يبدأ شجارًا وأتمناه في الآن نفسه. جذبني إلى الخلف في اللحظة التي وقعت فيها اللكمة الثانية على وجه زمزم، مستهدفةً المكان نفسه تمامًا، جرحًا وراء آخر، كان هذا حين سالت قطرة من الدماء على يدي المنسحبة. ثمَّ حملني جيمي إلى خيمتي.

قال وهو يغلق سحَّاب الخيمة: «لا تتحرَّكي».

بقيتُ منتظرة بالداخل.

سمعتُ زمزم وهو يُسحَل إلى الخارج، ومعاناته الخافتة، والأحذية الثقيلة تطأ الرمال، وبابُ سيارة يُصفَع منغلقًا. وفي غضون ثوانٍ، ذهبوا جميعًا. فتح جيمي سحَّاب خيمتي وجذبني إلى الخارج. لا بُدَّ أنني كُنتُ أبكي، لكنني لا أتذكر تمامًا، بات كل شيءٍ ضبابيًّا فحسب. رأيتُ بارت يُجادل أحد الجنود، وكان الجندي يقف هناك فحسب ويُحدِّق إليه من أعلى، وبعد دقائق قليلة تبعه بارت إلى سيارة جيب، وهو يصيح بنا أن اعتنوا بديانا.

تناقشتُ أنا وجيمي في ما علينا فعله. يمكننا أن نحاول ونُخرجها من الأرض. كان زمزم قد أوضح لنا كيف نُجهِّز الموقع بالأسلاك، وأين سيضع الديناميت تحديدًا. لكن، حتَّى لو استطعنا التحكم في الانفجار، ماذا سيحدث بعد ذلك؟ لا نملك طريقة لنقل العظام، ولا أمل لدينا لترحيلها عبر الحدود بحوزتنا. لم يكن أمامنا من خيارٍ سوى تغطية الحفرية بأفضل ما يمكننا. ولأشهرٍ، سيظل هذا القرار يؤرِّق مضجعي.

تجرعتُ أنا وجيمي آخر قطرات الويسكي وقضينا فترة ما بعد الظهيرة نُخفي ديانا. ردمنا المنطقة المحفورة بالرمال ودككنا كل شيءٍ بالمجارف. أزلنا السياج الشريطي، والمُحدِّدات، والمخططات التي رسمناها. كانت تحرُّكاتنا مُجدَّة وفوضوية. حشا جيمي سيجارةً ومرَّرناها في ما بيننا. وأخيرًا، بعدما حلَّ الظلام فعجزنا عن الرؤية، استسلمنا واتخذنا طريقنا عائدَيْن إلى المخيم. حاولتُ إجراء بعض المكالمات الهاتفية عبر هاتف القمر الصناعي، لكنني عجزتُ عن الوصول إلى أي أحد. حتَّى إنني حاولتُ الوصول إليكَ يا إيلاجا. أذكر ظني فيكَ أنكَ ستعرف ما عليك قوله في هذه اللحظة، وأنكَ لن تخوض في مدى سوء فكرة مجيئي إلى هنا في المقام الأول. وعيتُ أنني عرضةٌ للخطر، لكني في غالب الأحيان أُفكر في أمر زمزم. تساءلتُ عمَّا إذا كان ميتًا، أو إذا كان في مكانٍ ما يجعلوه راغبًا في الموت. أضف إلى ذلك خشيتي على ديانا، وخوفي من أنها ستظل مدفونة -مثل البالشوثيريوم- دون أن يعرفها أحد معرفة كاملة.

فتَّش جيمي في حاجات بارت، ووجد زجاجة ويسكي أخرى. واصلنا الشراب، ورحتُ أسترجع مرارًا وتكرارًا النظرة على وجه زمزم حين نزلت به تلك اللطمة الثانية، فإذا بالمقاومة تفرُّ من ملامحه فرًّا. لا شك أني كلما تعمَّقت في التفكير حيال الأمر، أُدرك أن الغرابة لا تكمن في مسألة القبض عليه، بل في وجودنا هناك في المقام الأول. أخبرني جيمي بعد ذلك بأمر الترتيبات

التي أبرمها بارت مع الجيش، فقد وعدهم بمراقبة زمزم نظير السماح لنا بالتنقيب، وقطع وعدًا لديداج بلوش بأنه سيحاول وسيكتشف الخطوة المقبلة للجنرال علام. لقد لعب على الجانبين، لكنه لم يساوم على قيمة زمزم، هذا لأن الجيش كان ليطلب المزيد -كانوا سيطلبون زمزم نفسه، لأن زمزم سيمنحهم نفوذًا، شيئًا يُساومون عليه في معركتهم على المنطقة. ظل جيمي يصُبُّ اللعنات على نفسه، يبوح إليَّ بأنه حاول تحذير بارت، لكنَّ الأخير وعده بأنه أخضع الأمور كلها تحت سيطرته.

طيلة كل هذا الوقت، كان زمزم هو سلاحنا السريُّ.. تميمتنا البسيطة التي تحمينا من أهوال الصحراء. والآن وقد قُبِضَ عليه، ربما يأتي إينا والده، ويُفتِّش في تشكيلتنا الموثَّقة بعناية من الحُطام الجيولوجي، بحثًا عن دليل على خيانة ابنه. غالب ندمي شعوري بالخوف من أبيه، وتمنيتُ لو أنني أوليتُ الأمر مزيدًا من الانتباه، لعرفتُ بطريقة أو بأخرى تدابير زمزم أو بارت، قبل هذه اللحظة الحاضرة لمَّا فات الأوان على فعل شيء.

في الصباح، عاد بارت في سيارة جيشٍ عالية. لم يبدُ لنا إن كان مقبوضًا عليه -فلم يكن مقيدًا بالأصفاد- لكن ثمَّة رجلًا حضر معه، وأيَّما أملى عليه هذا الرجل، يفعله من فوره. من أسفل جبهته، انجرفت ملامح وجهه إلى الهاوية والحضيض، وتوقف عن مضغ أوراق التنبول فصار فمه شاحبًا غير بيِّن. أُمرنا بتفكيك المخيم. غمغم بارت مُحدِّثًا إياي: «أنا آسف. سأكتبُ إلى مشرفكِ وأوضح الأمر».

حزمنا أغراضنا في سيارة الجيب. ارتدى السائق نظاراتٍ شمسية ذات إطار معدني، وعطَّل مُكيف الهواء. ثمَّ أوصلنا إلى مدينة «سوي»، حيث استقللنا طائرةً صغيرة إلى مدينة «سكهر»، ثمَّ غيَّرنا إلى طائرة أخرى متجهة إلى كراچي. وعند مكتب التذاكر في كراچي، غيَّرنا حجوزاتنا، ودفعنا ضرائب المطار، وأنهينا الإجراءات الجمركية لأغراضنا: إزميل. مطرقة. بلاستيك سائل. لا وجود لعينات، أو شظايا من ديانا المحفوظة في صخرة، تركناها هناك، بلا هوية وبلا حماية. ألحَّ جيمي في سؤال بارت عمَّا إذا كان هناك ما يسعنا فعله من أجل زمزم، ما إذا كان ثمَّة أحد يمكنه الاتصال به لتحريك الخيوط والحصول على معلومات عن موضع احتجازه. لكنَّ بارت لم يُجِب، ونظرة خامدة اعتلت عينيه. ظلَّ يُحدِّق إلى الرجل الذي رافقنا من ديرا بوجتي. وفي إحدى اللحظات، أعلن جيمي أنه لن يستقل الطائرة، وأنه سيظل في باكستان

حتَّى يُطلَق سراح زمزم، لكنَّ بارت أخرسه، ووضع يده على عضد جيمي الضخم.

التقط هاتفي إشارة، ثمَّ قرأتُ: «**Fly Me to the Moon – حلِّق بي إلى القمر**».

حين أُعلن موعدَ الطائرة المتجهة إلى دكَّا، ألقيتُ الوداع على بارت وجيمي عند البوابة. لم تكد قدماي تطآن مدخل الجسر حتَّى أدركتُ أن التنقيب قد انتهى حقًّا، وأننا لن نُخرج ديانا من الأرض أو نكتشف عمرها الحقيقي، وأن ثمَّة رجلًا يقبع في زنزانة في مكانٍ ما، وأننا سنتركه لمصيره المحتوم. ثمَّ أجبتُك: «**Nobody Loves You When You're Down and Out – لا أحد يُحبك وأنتَ يائس**».

***

وقفت والدة زمزم خارج نادي الصحافة في كويته طوال سبعة وستين يومًا بعد القبض عليه، وصورة مثبتة بإحكام إلى ثوبها. ثمَّ مَثُلَت أمام المحكمة. وفي إسلام آباد، خيَّمت برفقة آباءٍ آخرين اختفى أبناؤهم قسريًّا. بعث إليَّ جيمي بروابط المقالات التي كُتبت عنها، وكانت معظمها في صُحفٍ محلية. أطلقوا عليها اسم «أم المفقودين». وبعد سنواتٍ لاحقة، بعدما فقدنا الأمل منذ زمنٍ بعيد في معرفة ما حدث له، عاد زمزم إلى أسرته، ووجهه بالكاد يُشبه الصورة التي حملتها أمه في كل مكان، ووجهه بالكاد يبدو وجهًا على الإطلاق. لكنْ بطريقة أو بأخرى، ومن حيثما كان قبل وفاته، تمكَّن زمزم من توصيل رسالة. تسلَّم أحدهم هذه الرسالة، وعبر شبكةٍ من أُناس قد عرفوا بأمر التنقيب، رتَّب لتنفيذ هذا الفعل التمردي الأخير، أرسل إليَّ ديانا، عظمةً وراء أخرى. أود أن أُصدِّق أنه والده، رجل قوي الآن لم يبقَ له من ولده شيء إلا هذه الأمنية الأخيرة. أريد أن أُصدِّق أنه نادم على رغبته في صبيٍّ مختلف، صبيٍّ سيرتدي عباءة المقاتل، وأنه هو مَن أصدر الأمر باستخراج ديانا من الأرض، وحزمها في صناديق وإرسالها إليَّ. لا أدَّعي أن هذا هو فعل المقاومة الوحيد لهذا الرجل، لكنْ ربما هو أكثر أعماله فردية وتمييزًا؛ الفعل الذي يحمل أقل قدر من المنطقية، ولكنه يُذكِّر رفقاءه بأن في العالم علماء كما فيه ثوريين، وأن كلا الفريقين هما أبناء الأرض.

***

العودة إلى الديار

أخبرني أنور أنه لم يكد يُدرك مدى احتياجه إلى العثور على المرأة التي أحبها ذات يومٍ حتَّى كان قاب قوسين أو أدنى من الموت. فكرتُ في هذا الأمر كثيرًا طوال السنوات القليلة الماضية، لو لم يعمل أنور في موقع البناء ذاك، لمَا خرج قط بحثًا عن ميجنا، ولئن لم يفعل ذلك، لربما بقيتُ على جهلي بماضيَّ حتَّى الآن. لطالما كنتُ على بُعد شعرةٍ واحدة من البقاء وحيدة في العالم يا إيلاجا، وكان أنور هو مَن أشعل الضوء حيث لم يكن سوى الظلمة.

والآن لديَّ ما أعترف لكَ به (اعتراف آخر؟ بلى). هذه ليست المرَّة الأولى التي أعود فيها إلى حيث التقينا. ليست المرَّة الأولى التي أذرع فيها تلك الشوارع، على أملٍ أن ألتقيكَ مصادفة. كنتُ هنا في العام الماضي من أجل تخرُّج بيتينا. اتشحت الشوارع في باكورة الصيف باللون الوردي لنواوير التفاح المتساقطة. بدا كل شيءٍ على عهده. وسابقًا قبلت بيتينا وظيفةً في جامعة ستانفورد، فساعدتها على حزم محتويات شقتنا الصغيرة في شاحنة «يو هول» ستقودها بنفسها طيلة الطريق عبر البلاد، وطمأنتني أنها تسلَّحت بعناوين جماعة من الرجال الأمناء المُختارين بعناية ليتسنَّى لها مهاتفتهم وهي في طريقها -وكيل تأمين في هارتفورد، ومهندس في لاس فيجاس، وأستاذ في الكتابة الإبداعية في مدينة آيوا. لوَّحتُ إليها بالوداع والشاحنة تسير مبتعدة، أقبضُ على الطبعة الأولى من رواية «مئة عام من العزلة» التي منحتني إياها كهدية فراق. حدث هذا العام الماضي. وحين كتبتُ إليها أُعلمها

بعودتي، عرضت عليَّ أن تسمح لي بتأجير المكان. دفعتُ إليها جزءًا بسيطًا من المبلغ يمكننا تحصيله من أي مكانٍ آخر، لكنها أصرَّت، ولستُ أملك حُرية الرفض. ابتعتُ فراشًا قابلًا للطي، ولصقتُ صورةً لنينا سيمون على الحائط فوق رأسي، وفي ما عدا ذلك ظلَّت الشقة خاوية تمامًا.

أنتَ لا تهتم لأيٍّ من هذا. إن الحاضر حافل بالرتابة. ماذا حدث بعد ذلك يا إيلاجا؟ انتهت مرحلة التنقيب، وتعين عليَّ العودة إلى الديار. جاء والداي لاستقبالي في المطار. وسرعان ما عُدتُ إلى أنماط الطفولة، وسلَّمتُ عليهما بحقارة؛ أحتفظ بمعظم الأحداث في نفسي، يخنقني قلقهما من فوري.

جلستُ على متن الطائرة إلى جانب رجلٍ سألني مرارًا إن كنتُ يابانية، فأغلقتُ عينيَّ وتظاهرتُ بالنوم واستحضرتُ وجه زمزم، رُحتُ أتساءل إن كان غضبه من والده جعل جزءًا ما بداخله يتوق إلى أن يُقبض عليه. لا يختلف والد زمزم عن والدي في شيء، والدي الذي انضم إلى حركةٍ لينفصل عن بلدٍ قديم. أُطلق على أبي وصف «مناضل من أجل الحرية» لأن جانبه قد فاز بالحرب، وها قد مُنح الآن جواز سفرٍ وبرلمانًا وحق تصويت، مزايا لن يُمنح زمزم مثلها أبدًا. سيموت زمزم في ذلك السجن، وسيظل العالم مُقسَّمًا بين أُناسٍ لها بلدان وآخرين ليس لهم شيء.

قالت أمي: «عادت صغيرتي إلى الديار».

غمغمتُ حزينة على حالها: «لا أريد التحدُّث».

كانت رسالتي إليكَ: «**Baby It's Cold Outside - حبيبي الطقس بارد في الخارج**». وبعد دقائق قليلة، أجبتني: «**You Go to My Head - أنتِ تطغين على تفكيري**».

ربضتُ على المقعد الأمامي، ومِلتُ برأسي إلى النافذة، بمنأى عن منظر المدينة. يُحيط بطريق المطار على الجانبين حقول الأرز، وأسلاك الكهرباء تتدلَّى منخفضة على امتداد الطريق السريع، والهواء المُثقل بالبخار يجعل كل شيءٍ عسيرًا وخاملًا.

قالت أمي: «أوصاني راشد أن أتصل به حين تصلين».

سبق راشد وأرسل إليَّ عدَّة رسائل نصية. توسلتُ إليه ألا يأتي، وقلتُ: «ليس اليوم. أنا مُتعبة، ومظهري مُريع. سأراك غدًا».

لكنه زارنا في وقتٍ مبكر من المساء. أضنيتُ جهدًا في غسل الرمال من شعري، ولذلك ظلَّت باشونتي، طاهيتنا، تضع زيت الزيتون على فروتي.

حدَّثته: «قلتُ لكَ أن تنتظر».

فأجابني: «أنتِ تغوصين في الخراء».

أطلقت باشونتي شعري. وقالت: «يا بُنَي انظر إلى هذه الفوضى».

وأشارت الطاهية إلى وجهي، إلى حلقاتٍ من حروق الشمس حول عينيَّ.

ارتدى راشد صداريًّا فوق قميصٍ يُحدد قوامه الممشوق وضخامة عضديه. اختار قصَّة شعرٍ قصيرة، وبدَّل كولونيا ما بعد الحلاقة، وفي ما عدا ذلك ظلَّ كما عهدته: جبهته المُربعة وعيناه الغائرتان وفتحتا أنفه المتوردتان قليلًا. وإذ تطلعتُ إليه، تذكرتُ تثبيته قضيبًا معدنيًّا فوق باب غرفة نومه، يُمسك به رافعًا جسده، في كل صباح قبل أن يهبط إلى الطابق السفلي لتناول الإفطار مع والدته. غمرتني الطمأنينة لرؤيته، وفكرتُ أن أُريح رأسي على كتفه، وجبهتي على ترقوته، ويا لها من طمأنينة سأشعر بها، لكني لم أقوَ على التوقف عن التفكير في زمزم وديانا، ونهاية حياتي كما عهدتها.

قال لي: «أخبريني كلَّ شيء».

في الخرج، سمعتُ صوت جارٍ لنا يُوبخ أحدهم، طفلًا ربما أو خادمًا. اندفعتِ الدماء قوية في فروة رأسي حيث كانت باشونتي تُمشِّط شعري بعنف. أردن أن أقول: لن أصير عالمة حفريات أبدًا، لكني أدركتُ عدم قدرته على إقناعي متظاهرًا باهتمامه للأمر.

أجبتُ: «وقع أحدُ المشاركين في عملية التنقيب في مشكلة، واضطروا إلى إنهائها».

تناولنا لعشاء معًا، راشد ووالداي وشعري المنبسط، وباشونتي تُكيل الأرز في طبقه. وجَّه راشد حديثه معظم الوقت إلى أمي، وراح يُخبرها بشأن المصنع الجديد الذي سيفتتحه مع والده في «سافار». وبعد العشاء، ادَّعى والداي اشتهاءهما المثلجات، وحرصا على إخبارنا بأنهما سيغيبان قدر ساعة.

حين كنتُ في الثانية عشرة، سافرنا إلى تايلاند برفقة عائلة راشد. لم تكن تجارة والدي قد برزت بعد، ولهذا نزلنا في فندقٍ متواضع قُبالة الشاطئ، مع أن والدَيْ راشد يمكنهما تحمل تكاليف ما هو أفضل. قضى راشد

العطلة بأكملها يشاهد سلسلة مباريات الاختبار للكريكت بين الهند الغربية وأستراليا فيما استلقيتُ أنا على الأرجوحة الشبكية تحت شجرةٍ إلى جانب حوض السباحة ذي الشكل الكُلوي. وفي أحد الأيام، وبينما كنتُ أُحدِّق إلى السماء وأُفكر في انتحار سيلفيا بلاث، وكزني راشد بقدمه وقال: «هيا نذهب للسباحة». ورغم انتظاري إياه بلا أملٍ ليلحظ وجودي، أدركتُ أنه ما من شيءٍ سأقوله سيُجنِّبني الحرج لاحقًا، ولهذا تجاهلته، ورُحتُ أجذب ألياف القنَّب البارزة من أرجوحتي الشبكية. قال مُجدِّدًا وهو يلكز قمة رأسي: «هيا بنا. هذا الجو اللعين حارٌّ للغاية».

كم أبهجني نطقه لكلمة «اللعين» بصوتٍ مرتفع، وقولها لي أنا.

أجبتُ، غير قادرة على التطلع إليه: «لا أعرف السباحة».

فقال: «لا بأس، يمكنكِ الطفو فحسب».

رقدتُ طافيةً على ظهري، ووضع هو راحة يده الدافئة أسفل عمودي الفقري. طاف بي هنا وهناك في أنحاء حوض السباحة، وبقينا على حالنا هذا لِمَا بدا ساعاتٍ طويلة. وفي وقتٍ لاحق من ذلك العام، حين ابتاع والداي شقةً على الجانب الآخر من المدينة، وعانيتُ في تكوين صداقاتٍ في المدرسة الجديدة، أخذني راشد تحت جناحيه، لا يشعر بحرجٍ من رؤيته معي في الصباح قبل رنين الجرس، يُلوِّح إليَّ من حيثما يقف أمام البوابة، شاب وسيم أيَّما وسامة في ثياب الكريكت البيضاء، وحين يدحرج الكرة على امتداد ساقه، ويترك خطوطًا وردية على زيه الرياضي، أظنُّ أني سأختنق تحت وطأة إعجابي، لكني لم أختنق، بل بقيتُ أحسُّ بيده أسفل مني، أشعر بحضوره الراسخ، يُعلِّمني السباحة.. الانتماء.. الانخراط. لا أُخبرك هذه القصَّة يا إيلاجا لكي أجرحك، بل لأوضح لكَ أن فكرة تخلِّيَّ عن راشد تماثل فكرة تخلِّيَّ عن طفولتي، ولأنني امرأة بدأت حياتها بلحظة ميلادها، على عكسك أنتَ الذي بدأت حياتكَ بشجرة عائلة تمتد إلى أجيالٍ سابقة، تشبثتُ بكل قطعةٍ من ماضيَّ، غير قادرة على النسيان أو التخلِّي عن شيءٍ وحيدٍ منها، وربما لو لم يُقبَض على زمزم وتمكنَّا من إخراج ديانا من الأرض، لقويتُ على اجتياز هذه اللحظة مسلحةً بثقةٍ راسخة، الثقة اللازمة لقطع الخيوط القديمة وتقوية الجديدة منها، أما الآن، في ظل هذا الإخفاق المثير، عُدتُ -كما كنتُ- يتيمةً مُطيعة.

***

هام بي راشد؛ يطبع القبلات على وجهي ورقبتي، وهو يقول: «لا أُصدِّق أنكِ عدتِ إلى الديار».

أسندتُ رأسي إليه هنيهة، لكنَّ شعوري لم يكن كما تخيلته.

كنتُ قد تلقيتُ منكَ رسالةً قبل دقائق قليلة: «**ما تتركني - Ne me quitte pas**».

- آه يا حلوتي. ألا يمكنني أن أسعد لرؤيتكِ؟ ما المشكلة؟

- لا شيء.

تطلعتُ إلى يدي، لا أدري كيف أصوغ الأمر، لا أدري حتَّى ماذا أريد، ولهذا قلتُ مُجدَّدًا «لا شيء»، ومن ثمَّ كان الأوان قد فات: أخذ راشد يبسط أكمام قميصه ويُزرِّر معصميه، كأنما قرر أن يلكمني في لحظةٍ ما ثمَّ عدل عن رأيه. وبعدها قال:

- هيا بنا إلى منزل سالي ونديم. ستشعرين بحالٍ أفضل بعد احتساء الشراب.

***

مرَّر إليَّ نديم كأسًا من جين وتونيك، وهو يقول: «ما الجديد لديكِ يا أختاه؟» فأجبته: «أنا في حالةٍ مزرية». ضحك نديم، وهو يُمشِّط شعره بيدٍ عظمية. في المدرسة الثانوية، كان نديم الصديق المُقرَّب لراشد، لكنَّ الأخير سافر إلى الجامعة في لندن وتخلَّف نديم للانضمام إلى تجارة والده. وفي العطلات الصيفية، كنَّا نعود إلى الديار لنجده ثملًا على الدوام، يلعب ألعاب الفيديو أو يُطارد كلبه البوينتر في أنحاء الحديقة الخلفية. تدهورت حالته سريعًا ووقع في هوَّة سحيقة، ثمَّ قضى عامًا في مركز إعادة التأهيل، وأخيرًا وهو ما أثار دهشة الجميع، وافقت سالي على الزواج به، ثمَّ انتقلا إلى شقةٍ وصارا زوجين عاديين.

قال لي نديم وهو يُميل كأس الويسكي نحوي: «أنتِ فتاة غريبة».

مرَّرت إليَّ سالي طبقًا من خليط بومباي من الخضراوات المُجففة، ثمَّ سألت: «إذن هل عدتِ إلى الأبد هذه المرَّة؟».

احتضن راشد ركبتي براحة يده، وأجاب: «لن أدعَ هذه الفتاة بعيدًا عن عيني أبدًا».

- متى تُقيمون الزفاف؟

وددتُ لو أنقضُّ عليها لإثارتها الأمر. لكني أجبتُها: «يريد الجميع أن يعرفوا».

ثمَّ لاحظتُ خصلةً من شعرٍ أبيض تنسدل على جبهتها، فغيَّرتُ دفَّة الحديث، وعلَّقتُ:

- هل صبغتِ شعرك؟

- صبغته لي طاهيتي. إنها عبقرية.

أحدث الجين والتونيك برأسي دوارًا وتشويشًا. وشعرتُ بفورة اشمئزاز من سالي، وأدركتُ أنني قضيتُ حياتي بأكملها مع هؤلاء الناس، ثمَّ عُدتُ إلى التفكير في أمر زمزم، وديانا، وأنتَ يا إيلاجا. أكنتَ تُفكِّر بي؟ ماذا كنتَ ستقول في هذه الشقة، وكراسي الطعام الجلدية، والبيانو الأبيض الصغير المقابل للأبواب المتأرجحة، وبحيرة جولشان تلمع في الخلفية؟ شعرتُ بثِقل لساني وحلاوته في فمي؛ استرخيتُ وسمحتُ لذكرى أيامنا في كامبريدج أن تجول طافية في ذهني. ثمَّ عُدتُ إلى الحديث عن شعر سالي. فقلتُ: «إنه ثوري بعض الشيء».

أعلنت سالي بسوقية: «حسنًا.. أنا حُبلى بالفعل».

علَّق راشد، وهو يصفع نديم على كتفه: «اللعنة! أقبل إليَّ يا رجل، دعني أعانقك».

حاولتُ التفكير في شيءٍ لطيف لأقوله، وتمكنتُ من النطق بكلمة: «مبارك».

قال نديم: «ستكونين أنتِ التالية».

سأكون أنا التالية. فكَّرتُ في دكَّا، هذه الضاحية ذات المنازل الكبيرة القابعة خلف بواباتٍ عالية، وهذه الشقة مكيفة الهواء، فكرتُ حتَّى غلبتني العاطفة. لا يزال جزء منِّي يسكن شارع تروبريدج، أو يأكل المثلجات وهواء الصيف الأطلنطي يلفح ظهري، يتحدَّث معك عن موسيقى الجاز وشوستاكوفيتش وشطائر الإفطار، أو بعيدًا في ديرا بوجتي وأنا أحمل إزميلًا في يدي. لكني شعرتُ بالراحة للمرة الأولى منذ شهور، مطمئنةً وأنا أقف على ما أعرفه بدلًا من طبقات المعاني التي برعتُ في فرضها على كل موقف. برفقة هؤلاء الذين

عرفتهم طوال حياتي ولم أعرفهم على الإطلاق، لستُ بحاجةٍ إلى الحديث عن زمزم، أو البعثة الاستكشافية، أو ما أُخطط لفعله في حياتي، أو مَن أسعى لأكون أو مَن كنتُ قبلًا.

قالت سالي إنها غير عازمةٍ على الإقلاع عن الشراب، ومع ذلك، أجبرت نديم وراشد على الخروج إلى الشرفة للتدخين. ولمَّا صرنا بمفردنا، التفتت إليَّ قائلة: «أنا مرعوبة. سيصبر مهبلي في حجم ماسورة صرف، حتَّى إن ثدييَّ سيعودان إلى صغرهما في النهاية. ما الفائدة إذن؟».

كان لسالي، التي اشتُقَّ اسمها المستعار من اسمها الأخير، صلاح الدين، عادة مستمرة في جعل الأمور تبدو أسوأ ممَّا هي عليه حقيقةً؛ إنها في واقع الأمر فتاة متفائلة، أكَّدت لوالديها أن نديم سينضج يومًا ما ويصير زوجًا جيدًا. كنتُ حضرتُ زفافهما، وسالي مدفونة أسفل طبقةٍ ثخينة من كريم الأساس، ووالداها يحومان حول بساط ازفاف بابتساماتٍ جامدة على شفاههما.

- لن يكون الأمر بهذا السوء. سمعتُ أن الأطفال ظرفاء للغاية.

- حين لا يبكون طيلة الليل أو يتقيؤون في وجهك.

سألتها:

- إذن لماذا تُقدمين على الأمر.

- ليس الجميع مثلكِ. (كنتُ أعرف ما تقصده، لكني تركتها تُكمل حديثها) لديكِ شابٌّ مثاليٌّ، كل شيءٍ يمكنكِ أن تتمنيه. إن وجود هذا الطفل يعني أن يبقى نديم بعيدًا عن المشكلات، على الأقل لسنواتٍ قليلة.

- وماذا بعد؟

- سألد طفلًا آخر.

- أهذه هي خطتكِ الكُبرى؟

- أنا لم أُكمل تعليمي في هارفارد؛ هذا أفضل ما يسعني فعله.

لن يدعني أحد أنسى أنني تعلَّمتُ في هارفارد.

في أثناء احتسائنا القهوة المُشبعة بالويسكي، استمعنا إلى عزف نديم على قيثارته. وآنذاك، غمغمت سالي إليَّ وذقنها مستنِدٌ إلى كتفي: «أنتِ مختلفة».

قلتُ في قرارة نفسي: «لستُ مختلفة بالقدر الذي أقدرُ عليه».

لكني أجبتها: «سأعود إلى شخصيتي القديمة في أسرع وقت».

***

لم أعد إلى شخصيتي القديمة. كنتُ أستيقظ فزعةً كل صباح، وأدرك أنني لم أعد في ديرا بوجتي. وقد ذكَّرني الأمر بمعنى وجودي هنا، أن أكون آمنةً، في أحضان أُناس يُحبونني؛ ذكَّرني أن ثمن هذا الأمان هو حياةُ رجلٍ آخر. كنتُ أتوق إلى ما هو أكثر من بضع رسائل مُشفَّرة نتبادلها من وقتٍ إلى آخر، لكنني استصغرتُ نفسي لدرجة أنني بِتُّ مقتنعة بأنكَ ستراني فتاةً كئيبة لا تستحق انتباهك، وعلى أي حال، ما زلتُ لا أجدُ الكلمات التي تصفُ ما حدث، ولا حتَّى إليك.

حين كنتُ لا أبحث بهوسٍ في مُحرك البحث «جوجل» عن «اختفاء زمزم بلوش المقبوض عليه بسبب حوت ما قبل التاريخ»، كنتُ أكذب بأمر الشقة ولا أُجيب مكالمات راشد الهاتفية. أرسل إليَّ الرسائل يسألني إن كان بإمكانه المجيء إلى الشقة، لكني لم أُجب قط وظلَّ هو بعيدًا، مع إنني تخيلته يصطدم بي حين أستغرق في نزهاتي الطويلة البائسة حول حديقة «تانك بارك» أو أدفع عربة تسوق أسفل الأضواء الزرقاء في «يونيمارت». وخزني الجوع ومرارًا صرتُ على حافة البكاء. يطرق أبي باب غرفتي كل صباحٍ ويسألني إن كنتُ سأتناول الإفطار معه. وجرت العادة أن أقول لا دومًا.

تشتت ذهن أمي بوظيفةٍ جديدة. كم كنتُ ممتنة لهذا، لأني أدركتُ أنها لو أحالت انتباهها إليَّ، فسأكون مُجبرةً على إيجاد كلماتٍ لما يحدث. في اللغة البنغالية، يُشيرون إلى النساء مثل أمي بوصف «الفلفل الحار»، هذا لأن أحرَّ أنواع الفلفل الحار أصغرها حجمًا. إن أمي امرأة ضئيلة تثير الرعب في النفوس. في أثناء الحرب، قادت سيارة إسعاف بمفردها كل يومٍ إلى البحيرة المالحة، حيث مُخيم اللاجئين على مشارف كُلكتا، حيث تكدَّس كل المنفيين في أنابيب صرفٍ غير مستخدمة. أطعمتهم اللقاحات، وضمدت جروحهم، وأمسكت بأيديهم في حزنهم على أطفال الكوليرا. أومن أنها بَنَت شخصيتها بأكملها في تلك اللحظة -لا تزال في السابعة عشرة من عمرها وها هي تُضطر إلى مواجهة الموت وجهًا لوجه- على أنها لا بُدَّ كانت هكذا دومًا. ترسم جدتي صورةً لفتاةٍ حرون فضلًا عن فتاةٍ تُشبه عظام سمكةٍ عالقة، فتاةٍ حاولت إزالة شجرة جوافة في الباحة الخلفية لأنها خدشتها في آخر مرَّة حاولت تسلُّقها.

لكنَّ للحرب تغيرًا جوهريًّا، نوع من الولادة لا يقتصر على البلاد وحدها، بل يشمل كل الشباب الذين أرادوا لهذه البلاد الوجود.

أرى والديَّ الآن -بعد أربعين عامًا من الحرب- يبدآن في التصالح مع ما فعلته الحرب بهما: الأمور الجيدة كلها -زواجهما، الذي غزلاه من خيوطٍ متقطعة لما فقداه؛ لذَّة معرفتهما بأن لحياتيهما معنى، لأنهما -على عكس كثيرين غيرهما- لم يُبتليا بألم لضآلة. والأمور السيئة -أخواهما المفقودان، أبي الذين فقدَ أخاه في ميدان القتال، وأمي التي خسرت أخاها بعد ذلك أمام الدين؛ والخوف الذي ربما لم يفهماه جيدًا في نهاية المطاف، لأنه في كل مرَّة تتعثر البلاد، يأخذان الأمر على محمل شخصي، كأنما بُذِرت بذرة معطوبة أفسدت كل شيءٍ بعدها.

مؤخَّرًا، مُنح والداي فرصة النظر في محاكمة الرجال الذين حرَّضوا الجيش وساعدوه. إن كلمة «إبادة جماعية» تتردَّد في منزلي مثل كلمة «الطريق السريع» أو «ثمرة بلوط» ربما في منزلكَ أنت. تخلَّت أمي عن ممارسة الطب، وأخذت تساعد في تجميع الأبحاث من أجل المقاضاة، تسافر عبر البلاد لإجراء مقابلاتٍ شخصية مع الناجين والشهود. تعيش في كفنٍ يضمُّ ذكريات أُناسٍ آخرين، وهي تستميل بلُطفٍ ورحابةَ صبر القصص من ذكرياتهم وتُدوِّنها. بعيدة حزينة هي، لا تخرج إلا لمامًا، كأنما غارقة في سباتٍ عميق، وفي تلك اللحظات، تبدو مبتهجة، كأنما تكتشف -للمرَّة الأولى- أن الحرب كانت مكسبًا في المحصلة. ثمَّ تنسحب إلى تلك الأماكن المظلمة من غير بُدٍّ. يتهامس والداي في الليل، بعيدًا عن مسمعي. يتتبعان المحاكمة: كل حدثٍ، وكل استدعاء، وكل شاهد. أما أنا، فلا أريد أن أعرف. أنشُدُ التواصل معهما، وأقاوم كلما سنحت الفرصة. قلبي رحَّال خامل، بعد كل تلك السنوات التي قضيتها في هذا البلد طفلةً لهذين الأبوين.

هل لكَ أن تُدرك يومًا يا إيلاجا شعورَ أن تأتي من مكانٍ تتمنى أن تقدر على كرهه لكنكَ مُجبر على حبه؟ هل لكَ أن تعرف كيف هو الشعور أن تأتي من بلدٍ يحاول الجميع الهروب منه؟ يشبه الأمر كأنك تركض إلى داخل مبنًى يحترق. لو سألتني، سأخبركَ كل الأشياء التي أحبها في هذا البلد: رائحة الكتب الورقية في الشتاء، نفحات الهواء الباردة والدافئة في آنٍ للرياح الموسمية، الخشب المصقول لمكتبي الذي حظيتُ به وأنا مراهقة، واسمرار لونه من تراكم زيوت جسدي عليه، الاستلقاء أسفل مروحة السقف على سرير

جدتي، ومذاق البيض والباراثا في فمي. إن الحُب موجود، لكن نطاقه ضيِّق، يقبع في أجسادٍ معينة لأناسٍ بعينهم. لقد خاض والداي حربًا من أجل هذا البلد، وهذا هو مقدار وقوعهما في حبها. ثمَّة ذكرى في كل منعطف، وعاطفة تخصُّ كل تغيرٍ للفصول، وجذور ممتدة في أعماق الأرض لدرجة أن يتعيَّن عليكَ اقتلاعهما لتفصل شخصًا عن مكان، لتفصل جسدًا عن تربة. لكن هذا ليس الحال معي.

عادت أمي يومًا من المحكمة، ودفنت رأسها في يديها، وغرقت في نحيبٍ كأنما يضربها أحدهم. وقفتُ على مبعدةٍ بسيطة منها، وشاهدتُ كتفيها يتراخيان. أسرع أبي إليها وأحاطها بذراعيه وظلَّا على هذا الحال وقتًا طويلًا. رأياني وتطلعنا إلى بعضنا، ووقفتُ أنا هناك لم يسألاني الدخول أو الرحيل، ولم أدخل إليهما أو أرحل عنهما. لقد شهدتُ هذا الأمر من قبل، ذلك الشيء الذي يمُرُّ بينهما مثل تيار، المعرفة التي لا تحتاج إلى توضيح، وأعرف أنها تسترجع ذكرى، أو تتذكَّرها من خلال قصة شخصٍ آخر، مثقل قلبها بما تعرفه وما عرفته مؤخَّرًا، لكنَّ الأمر دومًا أسوأ ممَّا هي تذكر، ومع كل ذكرى يُنتزع جزء من بقية حياتها، هذا لأنها نجت من الأمر دون أن تُصاب بضرر، ووطأةُ ما هي عليه -وطأة كل شيء- تُثقل كاهلها. هي امرأة تنوء بشعور الذنب موغلًا في مكنونها، تقضي أيامها تُعوِّض الآخرين عن الحظ الذي أهداها حياةً وزواجًا وطفلًا. تُمثِّل لنفسها اقتصادًا أخلاقيًّا، رُسمَ بلمساتٍ بسيطة من فرشاة الماضي.

كاد أحدهم ينال البراءة في ذلك اليوم. لم يستطيعوا حبك القضية ضده، وأفلت منها بُحكمٍ مُخفَّف. وإذا حدث تغيير ما في الحكومة، ربما ينقلب هذا الحكم البسيط، وقد يُطلق سراح الرجل نهائيًّا. وفي الشوارع، أُقيمت الاحتجاجات، وطلى الناس وجوههم بالأخضر والأحمر، وسار الأطفال بحبالٍ تلتفُّ حول رِقابهم، يحملون لافتاتٍ تقول «**أعدموا أبناء الزنا**». لم يكن والداي وحدهما مَن يرغبان في تصفية الحسابات.

كيف كنتَ لتتعامل مع هذا التاريخ الفوضوي يا إيلاجا؟ منزلكَ الذي يعبق برائحة البابونج، وهرَّتُكَ السمينة، وعصير الليمون في المُبرِّد، وشجرة العائلة تلك، يا لها من شجرةٍ عظيمة، لا يشوبها نسب مجهول، ولا أثر للثورات، وإنديانا جونز بمنزلة مرساةٍ في نشأتك.

بعد ظهيرة ذلك اليوم، وصلت إليَّ رسالتك تقول: «**ألا تتجاهلهم - Don't You Pay Them No Mind**».

***

«أنا وأمكِ قلقان بشأنكِ».

كانت هذه كلمات أبي. غادرت أمي مبكرًا في رحلةٍ ميدانية إلى «باريسال»، وكنتُ أنا وأبي في الشرفة المُطلة على بحيرة جولشان. أطرقتُ بناظريَّ ورأيتُ المياه الخضراء، وشفير القمامة التي كست الشاطئ، وسلسلة الشقق السكنية التي استطالت على حافة الماء من الجانب الآخر.

أجبتُ: «لا أدري ماذا عليَّ أن أفعل. ما زلتُ أسأل نفسي ولا يمكنني استحضار الجواب».

أذكرُ أني رأيتُ بقرةً غارقة في البحيرة بُعيد انتقالنا مباشرةً، وما برحتُ أعود مرارًا إلى الشرفة، أشاهد باشمئزازٍ ساحر انفجار أمعائها خارج جسدها وطفوها في عيدان القصب.

- لِمَ لا تأتين إلى المصنع؟ يُحب العمال زيارتكِ. في حقيقة الأمر، يمكنكِ المجيء والعمل لديَّ.
- هل ستُوفر لي وظيفة؟
- يمكنني الاستفادة من عبقرية هارفارد تلك.
- ستُصاب أمي بسكتةٍ قلبية.

تفاجأتُ بنفسي أضحك بصحبته. بعد سنواتٍ قضاها أبي في العمل لدى الحكومة، قرر أخيرًا أن يدخل مجال التجارة، وكان بلبل، والد راشد، هو مَن أقرضه المال لافتتاح مصنع نسيج. أخفقت علامة «فريدم فابريكس» في السنوات القليلة الأولى، حين رجحت كفة التكاليف عن كفة الربح البسيط الذي حققته، لكنها حققت النجاح حين أدرك مستوردو الملابس الغربيين أن مصنع والدي هو واحد من المصانع القليلة التي تدفع أجورًا مجزية ولا يُوظِّف أطفالًا. وضعوا ملصقات «فير تريد» على ملابسه وباعوها في المتاجر متعددة الأقسام ومحلَّات الأزياء، وطُبعت بطاقات الأسعار على ورقٍ بُنِّيٍّ مُجعَّد. ولمَّا أتممتُ دراستي الجامعية، تغيَّرت أوضاعنا المادية تغيرًا جذريًّا، لكنَّ أمي وأبي ظلَّا يُعارضان ثروتهما المتزايدة، ذلك لأنها تداخلت

مع فكرتهما عن نفسيهما، التي شكَّلاها منذ تلك السنين الطويلة في أثناء الحرب. ظلَّا محتفظين بنمط الحياة التقشفي، يقودان سيارتهما القديمة من طراز تويوتا، ويتشبثان بمجموعة العصي البالية التي تلقَّياها هديةً لزفافهما. أما تنازلهما الوحيد فكان الشقة التي ابتاعاها في جولشان، ولم يبتاعاها إلا بتوجيهٍ حثيثٍ من والدَيْ راشد، اللذين انتقلا حقيقةً إلى الطرف الآخر من المدينة منذ سنوات.

قطعتُ له وعدًا قائلة: «سأُفكر في الأمر».

تذكرتُ المرَّة الأخيرة التي زُرتُ فيها المصنع، وصفوف ماكينات الحياكة، ورائحة الكيروسين والقطن، والنساء ينكفئنَ على أعمالهن، والمشابك البلاستيكية تغزو شعورهن. مدَّ إليَّ أبي يده وأمسك بيدي، فألقيتُ نظرةً على الجِذر الذي كان كل ما تبقَّى له من إصبع فقدها في الحرب. ثمَّ تطلع إلى الماء، وهزَّ رسغه ليُرخي ساعته. شعرتُ أننا لم نحظَ بلحظةٍ كهذه من قبل قط، وأوشكتُ أن أطلب منه أن يُخبرني شيئًا عن أمر التبني، شيئًا لم يُخبرني به بعد، شيئًا من شأنه أن يكسر قفل الموضوع ويجعل الحديث عنه أمرًا لا بأس به. لكنه نظَّف حلقه، واخترقت سطح البحيرة سمكة وحيدة، ومرَّت اللحظة دون جلبة.

***

عادت أمي من رحلتها بحلول موعد العشاء، بدت غريبةً في بهجتها. تجنبنا سؤالها عن المحاكمة أو الشهود الذين سافرت بحثًا عنهم. وعلى أي حال، أرادت أمي أن تتحدَّث عن الزبادي. فقالت: «الطعام في باريسال شهيٌّ للغاية. تذوَّقتُ زبادي «دوي» مذاقه فائق الحلاوة. والسمك كان مميزًا أيضًا». ثمَّ ذكَّرها السمك بشيءٍ، فسألت: «أين راشد؟». إنها ليلة الجمعة، واعتاد راشد أن يأتي إلى منزلنا دومًا للعشاء في أيام الجمعة.

أعدَّت باشونتي بيضًا بالكاري. فوضعتُ قطعةً من البيض في فمي، ومضغتها بأناةٍ وأنا أُجيب: «لا أشعر حقيقةً برغبة في رؤيته الليلة».

- ولِمَ لا؟ قالت دوللي إنه يجدر بنا التفكير في تحديد موعد الزفاف.

- أفٍّ يا أمي، لماذا؟

حدَّقت أمي النظر إليَّ، وقالت: «ولِمَ لا؟ هل من مشكلة؟ أهناك مشكلة بينكما؟».

أحيانًا تُحب أمي التصرُّف كأن خطبتي لراشد هي الشيء الوحيد الجيد في حياتها.

- أنا على مشارف فشلٍ ذريع.. ألا ترين ذلك؟

مدَّ أبي يده ووضعها على كتفي، ثمَّ قال: «آه يا حبيبتي، خذي وقتكِ».

سكبت أمي لنفسها كأسًا من الماء، وسألت: «ماذا أقول لدوللي؟».

فأجبتُ: «كل ما أردتُ فعله حقًّا هو العثور على تلك الحفرية اللعينة».

تجرَّعت أمي الماء، وحطَّت كأسها على الطاولة بصخب، ثمَّ علَّقت: «حسنًا. أنتم أحرار في ما تفعلون».

جاءت أحدث رسائلك إليَّ تقول: «Trouble in Mind - ذهن مشغول». في رأسي، ما زلتُ عاجزة عن مقاومة إخبارك كلَّ صغيرة حدثت، لكني أجبتُكَ ببساطة: «Don't Let Me Be Misunderstood - لا تسمح بأن يُساء فهمي». شغَّلت الأغنية التي منحتني إياها، أستمع بحثًا عن دلائل عمَّا إذا كنتُ سأراكَ مُجدَّدًا أم لا، أُحدِّث نفسي أن الأمر لا يُهم، لكني أعرف أن الأمر مهم، أهميةً تزيد على قدرتي على الاعتراف بها، وغرقتُ مُجدَّدًا في التفكير في زمزم، وكل القرارات التي يتخذها الناس بشأن ولاءاتهم، وأدركتُ أنه مهما كان ما أفعله، سيأخذني القطار دومًا في اتجاه آخر، رياحًا معاكسة ستُضفي شكًّا ساحقًا كاسحًا.

***

تبعد قرية أبي مسافة ثلاث ساعاتٍ عن دكًا، وفي اللحظة الأخيرة وافقتُ على مرافقته إلى حفل زفاف قريبٍ لنا من بعيد. لَعِبتُ الكابادي[1] مع الأطفال، وتابعتُ أبناء عمومتي يصطادون السمك من البركة بجانب المُجمَّع السكني للعائلة، وأخيرًا، بعدما حُزمت بقايا البرياني في مؤخِّرة السيارة، بدأنا رحلتنا

(1) الكابادي: رياضة جماعية شعبية في بنجلاديش، في الرياضة يلعب فريقان مكونان من سبعة لاعبين في كل مباراة. مساحة الملعب ما يقارب نصف مساحة ملعب كرة السلة. المباراة مكونة من شوطين، كل منهما مكون من 20 دقيقة. وبينهما استراحة عبارة عن خمس دقائق، مع عكس اتجاه الفريقين في الشوط الثاني. (المترجمة)

نحو الديار. كنَّا في الساعات الأولى من المساء، ونَعِمنا بحظٍّ مُوفَّق في حركة السير، ولهذا ربما صرنا على مسافة عشرين دقيقة من «تشواراستا»، تقاطعُ الطرق الرئيسي المؤدي إلى المدينة. أخذ ضوء النهار في الخفوت والتلاشي، وفي أفق الطريق السريع الضيق وسلسلة المتاجر، ظهرت لنا الحقول المضيئة لحبات الأرز اليانعة. وفجأةً مالت السيارة ثمَّ توقَّفت. أطفأ سائقنا، «أبو الحسين»، المُحرك، ثمَّ أعاد تشغيله. صهل مُحركها، ثمَّ اصطكَّت فراملها إلى أن توقَّفت. التفت إلينا «أبو الحسين» وأخبرنا بصوتٍ مرتجف أن الوقود نفد منَّا. كان ينوي ملء خزان الوقود في الصباح، لكنه نَسِيَ. دفع السيارة إلى قارعة الطريق، ثمَّ ترجَّل منها، قاصدًا أحد الدكاكين على قارعة الطريق لطلب المساعدة.

قال أبي قبل أن يتبعه: «ابقي في السيارة».

فتحتُ الأبواب، وسمحتُ لهواء المساء أن يعرج بالداخل. وبعد دقائق قليلة، عاد كلاهما. علمنا أن محطة الوقود على بعد عدَّة أميال، سيبدأ «أبو الحسين» في السير، على أمل أن يجد عربة ريكاشة في الطريق. ترجلتُ من السيارة وتجولتُ نحو عربة خضراوات، أُبدي إعجابي بالأهرامات المنتظمة للقرع واليقطين والباذنجان. ستسعد أمي لو عدتُ إلى المنزل ببعض الخضراوات، ستقول: «آه، اللُّب أطعم مذاقًا لو اشتريته من خارج دكًّا». لهذا حاولتُ لفت انتباه الرجل الذي يبيعها. أوشكتُ أن أسدد له لمَّا سمعتُ أحدهم ينادي باسمي، ولأنني كنتُ أقف وسط المجهول والشمس على وشك المغيب، استدرتُ حول نفسي أحمل كلمةً هجومية على شفتي، ثمَّ رأيتُ أن المنادي هو -في حقيقة الأمر- راشد، يبتسم إليَّ مطرقًا رأسه، وهالة من الشعر تُحيط بوجهه.

عانقني، فانبسط قميصه على كتفيه. ثمَّ سألته بفمٍ يقارب أذنه: «ماذا تفعل هنا؟».

أجاب: «اتصل بي والدكِ».

تشممتُ بشرته من أسفل رائحة الصابون والكولونيا، وأنا أُغمغم: «شكرًا لكَ». واصل معانقتي، وعلى عكسه الذي قليلًا ما يهتم لشيء، بدأ الناس في الشارع يُحدِّقون إلينا.

في ذلك الصباح، بعث إليَّ جيمي رابطًا عنوانه الرئيسي: «**العثور على جثة متمرِّد خارج كويته**». ومع أن جثة الرجل تحمل علامات تعذيب، رفضت السلطات تقديم أي شكلٍ من التفسيرات. ثمَّ كتب لي جيمي أن والدة زمزم لا تزال مُعتصمة أمام نادي صحافة كويته. كان أبي يستعد لرحلته إلى القرية، ينتعل حذاءه الرياضي ويُملي على باشونتي أوامر حزم حقيبة من البرتقال من أجل الرحلة. سألته إن كان بإمكاني الذهاب معه، وسَعِد هو أيَّما سعادةٍ لذلك بلا شك، مفترضًا أن هذا إشارة إلى تعافي من أيَّما غرابة تملَّكتني منذ عودتي من باكستان، لكنَّ الطريق خارج دكَّا، والأطفال يحتشدون حول رُكبتَيَّ، وسمك البلطي في البحيرة، لو لم يكن مقدَّرًا لهذه الصور كلها أن تمحو صورة زمزم، فعلى الأقل مقدَّرٌ لها أن تُخفف من أثر صورته في ذهني، منبطحًا على وجهه في حفرةٍ، مغمورًا مثل آمبولوسنوس.

أرسل راشد سائقه ليبحث عن «أبي الحسين»، وسرعان ما سيعودان بالوقود. ثمَّ اقترح علينا أن ننتظر معًا في مطعمٍ صغير على قارعة الطريق. همستُ لأبي ونحن نصعد إلى سيارة راشد الجيب: «لماذا اتصلتَ به؟»، لكنَّ أبي لم يُجِب.

اتخذنا مقاعدنا على صفٍّ من كراسي بلاستيكية في المطعم، هذا الذي لم يَتَعَدَّ كونه مساحةً طويلة ضيقة تبرز من الطريق السريع.

قلتُ إنني بحاجة إلى غسل يدي، فأشار النادل إلى ردهة. وجدتُ دورة المياه مقرفة. ولمَّا لم أجد قفلًا للباب، استندتُ إليه بظهري واتصلتُ برقم هاتفك. أملك رصيدًا بـ 300 تكًّا في هاتفي، ممَّا يعني أنكَ لو أجبتَ مكالمتي، فسأستطيع الحديث معكَ لدقيقة أو اثنتين على الأكثر. بعد ثلاث دقَّات، أغلقتُ الخط. رششتُ الماء على وجهي، ولمَّا لم تكن هناك محارم، فركتُ وجهي بذراعيَّ، ثمَّ أقفلتُ عائدةً إلى الآخرين، أحاول صياغة العبارات التي سيتعيَّن عليَّ أن أقولها لتوضيح كل شيء لراشد، أن أبدو هادئة متمالكةً زمام الأمور، كأنما تجاهلي له طيلة الأسابيع القليلة الماضية كان جزءًا من خطةٍ سبق تدبيرها.

قال: «لا يهُم. لا يتعيَّن عليكِ أن تأخذي كل شيءٍ على محمل شخصي. دعينا نركز على الأخبار السارَّة فحسب، وهي أنكِ عُدتِ في وقتٍ أبكر ممَّا ظننا، وانسي كل ما عدا ذلك».

أنسى كل ما عدا ذلك. ما أحلاه من نسيان، ما أروعه من سرور.

أجبته: «أنا حمقاء».

أنعمتُ في النظر إليه من كثب، في أزرار أكمامه الصدفية، والبال الرائق الذي يعيش به حياته. أخذ يُمرر كؤوس الشاي الصغيرة عبر الطاولة، ثمَّ سمعتُ تنهيدة أبي وهو يستند بظهره إلى الكُرسي ويُغلق عينيه. في تلك اللحظة، اهتز هاتفي، وظننتُ أن ربما كان المرسل أنتَ، ولهذا أخرجتُ هاتفي من حقيبتي. كان المُرسل هو جيمي، ورسالته البسيطة تقول: «**ليس هو**».

***

خرجتُ برفقة راشد في الليلة التالية إلى مطعمٍ صيني اعتدنا أن نرتاده في المدرسة الثانوية، وبعد ذلك ذهبنا إلى «موفينبيك» وتشاركنا المثلجات في كوبٍ واحد، وفكَّر هو في جلب ملعقتين لنا، وتساءلتُ أنا إن كنتُ أتشارك تلك المثلجات معكَ أنتَ يا إيلاجا، إن كنَّا سنتشارك ملعقةً واحدة دون أن يأبه أحدنا مَن يأكل أكثره، ولسببٍ ما، حملتني هذه الفكرة على الرغبة في الصياح -لا لأحدٍ بعينه- بأنني مُنحتُ خيارًا تعجيزيًّا. ثمَّ جاء عيد ميلاد سالي، وخرجنا معًا في رحلة بالقارب في نهر «بوريجنجا». وفي الليلة الثالثة، أتى راشد على ذكر موضوع الزواج، ولمَّا سألته عن السبب، أجابني: «لأن هذا ما نعزم على فعله دومًا». وإليكَ أرسلتُ: «**I Think It's Going to Rain Today - أظنُّ أنها ستُمطر اليوم**». فأجبتني: «**Cry Me a River** - أبكني نهرًا».

مسحتُ قائمة أغنياتكَ من هاتفي، ومازحتُ راشد حين كان يتحدَّث عن الانتقال إلى شقة. بدأ يراودني شك أن هذه نهاية وشيكة لمشكلاتي، نهاية لبقايا أسبوعٍ أحياه مرارًا وتكرارًا، قلقة بشأن ديانا المحبوسة في الأرض، متخيلة النظرة على وجه زمزم وهو يُزَجُّ به في مؤخِّرة تلك الشاحنة.. والأكذوبة التي بُنيت عليها حياتي بأكملها. نهايةً لكل شيء.

أقضي وراشد المساءات جالسين في الشرفة نسحق البعوض، نتقاسم سيجارة أحيانًا، نُحدِّق إلى البحيرة وسلسلة المباني على الجانب الآخر. بدأ حملُ سالي يظهر عليها، وكنَّا نحضر أربعتنا الحفلات، حيث يخلط راشد الكوكتيلات ويعانقني في أثناء رقصاتنا. أعجبتني حقيقة أنه لا يُجيد الرقص، فيمكنني أن أنظر إلى عينيه وهو يأتي بحركاتٍ بلهاء بذراعيه. تسلل إلى

غرفتي بضع مرَّات، ثمَّ غادر دون أثرٍ قبل أن يتنفس الصبح، دون أن يُخلِّف رائحته حتَّى على المُلاءات.

وفي وقتٍ مبكر من أحد صباحات الجمعة، حين كان الزحام بسيطًا، انطلقنا بالسيارة خارج المدينة إلى «سافار»، ووقفنا أسفل نصب الحرب التذكاري بشكله الشراعي. كان راشد قد أحضر إفطارًا: قارورة شاي عازلة للحرارة، وفطيرتا الباراثا المحشوتين ملفوفتين في ورق ألمونيوم. كان الطقس باردًا، ولهذا احتمينا معًا في شِيلاننا. عند هذه المرحلة، كنتُ قد توقَّفت عن التفكير بك كليةً، أو على الأقل هذا ما حدَّثتُ به نفسي، وأنا أحاول أن أجعل منها ذكرى خفيفة سعيدة، كأنما هي توطئة لشيءٍ، لا جوهرًا للحياة نفسها. مرَّ شهر منذ أن كتبتَ إليَّ: «**Do I move You? - هل أثيرك؟**» ولم أُجبكَ قط.

سرتُ أنا وراشد إلى جانب النصب التذكاري، متجهين نحو مصب البركة المستطيلة. مُهِّد الطريق بقرميدٍ أحمر صغير، وطفت زهور اللوتس الوردية على سطح الماء بلونه الأخضر الداكن وغبشه.

- إذن هل ستتزوَّجينني أم ماذا؟

صرنا عند الحافة البعيدة من البركة آنذاك، ولمَّا تطلعتُ إلى النصب التذكاري، والطيات الخرسانية البيضاء ترتفع لتلتقي في رأس مثلث، تذكَّرتُ ذات مرَّة لمَّا جاء بي والداي إلى هنا واتسخ بنطالي، وأجبرتني أمي على الوقوف على المقعد الخلفي طيلة طريق عودتنا إلى المنزل. لا أقلق عادةً من أن يُعيدني والداي من حيث جئت، ولكني في ذلك اليوم تحديدًا، نبضت ذرة في عقلي فخشيتُ أن يفعلاها، وأحكمتُ قبضتي على المقعد أمامي في رعبٍ، أتساءل عمَّا إذا صدرت التعليمات للسائق بأن يُلقي بي على قارعة الطريق ويرحل بعيدًا، هذا لأنني كنتُ قد تخطيتُ حدًّا خياليًّا، مع أن أبي وأمي قد وعداني الحب والاهتمام كما لو كنتُ طفلهما من صُلبهما.

مدَّ راشد يده من تحت غطائه، وأخرج شيئًا من جيبه. لمَّا أطرقتُ ناظرةً إلى يديه، رأيتُ عُلبة صغيرة من المخمل تحتضن خاتم خطبة بداخلها.

كنتُ قد كتبتُ في الأسبوع السابق إلى بارت أسأله إن كانت ثمَّة أخبار عن زمزم أو عملية التنقيب، لكنه لم يُجب، وشعرتُ آنذاك أن السنين تتلاشى -الحلقة الطويلة من الزمن التي قضيتها في أمريكا، والأمسية الموسيقية، والبرد الأخَّاذ لشتاءات نيو إنجلاند.

أشار إليَّ راشد لأجلس على حافة البركة. ثمَّ قال: «لسنا مضطرين إلى العيش هنا كما تعلمين. يمكننا أن نعيش في لندن. كما أننا سنسافر على أي حال».

أثارني افتراضه بأنني لستُ بين أهلي في بلادي، فأجبته: «وما الذي جعلك تظنُّ أنني لا أريد العيش هنا؟».

- أتريدين العيش هنا؟ رائع. هذا يجعل الحياة أسهل.

- أتظنُّ أنني لا أتأقلم هنا؟

- لا عليكِ يا زي، لا تقلقي حيال الأمر. كل ما أعنيه كما تعرفين الخروج من هنا بين الفينة والأخرى أمر جيد.

- ألأنكَ غني سنقضي الإجازات في بانكوك ودبي؟

سألني: «وما المشكلة في دبي؟».

ثمَّة الكثير من المشكلات في دبي، ويمكنني أن أبدأ في ذكرها جميعًا، لكني لو فعلتُ ذلك، أعرف أننا سننفصل، ولهذا عوضًا عن ذلك أجبته: «أريد أن أعيش هنا».

كانت الخرسانة باردة، فأحكمتُ غطائي حول كتفيَّ. ثمَّ مرَّر إليَّ راشد القنينة، فأخذتُ رشفةً طويلة من الشاي.

- حسنًا. حُسم الأمر إذن. سنعيش هنا. معًا.

أخذتُ رشفةً أخرى، ثمَّ سألته: «هل وضعتَ الويسكي في الشاي؟»، ومددتُ يدي وأمسكتُ بيده من تحت الغطاء، ثمَّ أضفتُ: «أشعر بالانتشاء».

- دعيني أعتني بكِ يا زي.

رنوتُ إلى أعلى، ورأيتُ السماء تشيب والسُّحب تتكثَّف. ستُمطر في أثناء طريقنا إلى المنزل، وربما يُحاصرنا الزحام كذلك. حينها قلتُ: «دعنا نُقيم الزفاف في أقرب وقت. ما رأيك في شهر يناير؟».

انطلق ذراعاه إلى السماء في بهجة، وهو يقول: «أجل!».

هكذا حدث الأمر يا إيلاجا. وبينما كنتُ وراشد في طريق عودتنا إلى السيارة، كان الشعور الذي خالجني هو الارتياح، هذا لأنه يتسنَّى لنا الآن جميعًا أن نتوقف عن التظاهر بأنه كان هناك أي مستقبلٍ آخر تُخبئه لي النجوم، وللمرَّة الأولى منذ زمنٍ بعيد، صارت كل السُّبل التي أشعرتني بغياب

أمي -الأم التي عرفتني بذرةً بداخلها، البذرة التي كانت هنا قبل أن أكون أنا هنا، رفرفة في الأحشاء- وصوتُ المعرفة والشك ذاك، كل هذا صار صامتًا مُطيعًا.

وأمام باب منزلي، سألني راشد إن كان بإمكانه قضاء الليلة معي. وقال: «والداكِ نائمان. وعلى أي حال، مَن سيمنحهما حفيدًا؟»، ثمَّ غمز بعينه وأضاف: «علينا أن نتمرَّن».

أجبته محاولةً التملُّص منه: «أنا متعبة. كان يومًا طويلًا».

- أنتِ تقتلينني!

عقد عينيَّ بعينيه، وقبض على مرفقي براحته، واحتفظ بكل السنين التي عرفنا بعضنا فيها في تفاصيل وجهه. تخيلته يعود على عقبيه، يسير متراجعًا نحو بئر السلم، يُداعب مفاتيح السيارة في جيبه، وحنقه يتلاشى في غضون ثوانٍ من رحيله عنِّي، ولهذا خضعتُ لطلبه، وخلعتُ عنِّي ثيابي عند طرف السرير، وسمحتُ له بالنوم مُوليًا ظهره لي، وقضيتُ هذا الوقت كله أُفكر فيكَ أنتَ، وكيف سيكون شعوري لو كنتُ معكَ أنتَ في هذا الفراش، وما إذا كنتَ لتظل هادئًا في نومك كالرجل الذي ينام بجواري الآن.

***

في اليوم التالي، ذهبتُ لزيارة جدتي. كان الزحام ببشاعةٍ لا يمكن تصورها، واستغرق الطريق ساعتين، وفي أحايين أخرى ثلاث ساعات، بالسيارة للوصول إلى بيتها في دانموندي، ممَّا يترك لي ساعة واحدة للعب الكونكان، والنميمة، وتناول كمياتٍ هائلة من الوجبات الخفيفة التي تُحضِّرها نانو في أي لحظة. كانت تنتظرني متزينةً بساري أزرق مُنشًّى، تفوحُ بعبيرٍ مُهدِّئ من الورود المُجففة ومسحوق التلكوم. تنتظرني أيضًا كعكات البيثا -كعكات أرز حلو مطهي على البخار- مغطاة بقصاصة من ورق الألومنيوم لتُبقيها دافئة. ثمَّ انضم إليها على الصينية إبريق شاي وتفاحتان.

- أخبرتها أن تُعدها بعدما تصلين، لكنها لا تستمع لما أقوله.

كانت نانو تشكو طاهيتها التي عيَّنتها مؤخَّرًا، ثمَّ أضافت:

- عنيدة للغاية. دعيني أتطلَّع إليكِ.

وأخذت تفحص سلوار قميص الذي أرتديه، ثمَّ أومأت بإقرارٍ.

تابعت وهي تخلط أوراق اللعب: «إذن.. هل تريدين المراهنة بالمال، أم تُبقين اللعب وديًّا؟».

أجبتُ: «سأتزوَّج».

نحَّت الأوراق جانبًا، وقالت: «أخيرًا! أحدهم يُبشرني بأخبارٍ سعيدة. هل هو ذلك الفتى؟».

قضمتُ من كعكة بيثا، ثمَّ أجبتُ: «أجل. ابن الخالة دوللي».

- جيد. ستسعد أمكِ كثيرًا. كانت أخبرتني أنكِ عُدتِ وتجاهلته.

- أجل، فعلت، ثمَّ غيَّرتُ رأيي.

بدا لي الأمرُ غريبًا حين صغته على هذا النحو، كأنما أعودُ إلى إناءٍ من بقايا حساء. لكنني أضفتُ:

- إنه شاب لطيف.

- اعتادت أمكِ أن تقول لي إنها لن تتزوَّج أبدًا.

- وماذا قلتِ لها؟

خلعت نظَّارتها الثقيلة، وأجابت: «أخبرتها أن الزواج رائع، والأطفال أطيبُ وأروع».

كانت جدتي عروسًا صغيرة، ثمَّ صارت أرملة شابة، وكلما ذكرت زوجها، خيَّمت عليها أمارات الحزن والاشتياق، كأنما فقدته البارحة. ومع ذلك، أمكن لها أن تكون مثالًا عظيمًا لصيرورتها امرأةً مستقلة بذاتها. كان بها من الخفة والفكاهة والبهجة ما لم تُورِّثه لأمي. حددت موعدًا منتظمًا للعب البريدج مع أصدقائها، واستضافت حفل «كيتي» شهري[1]، طرح به أبناء عمومتها وجيرانها مدخراتهم، حتَّى يتسنَّى لشخصٍ واحد أن يفوز بالمبلغ كله مرَّة

(1) حفلات كيتي: من الطرق الشعبية في كل من الهند وباكستان من أجل مشاركة النساء في إطار نادي ادخار غير رسمي. إنه نوع من الحفلات التي تنظمها عادة النساء وتُعقد شهريًّا في فترة ما بعد الظهر. يشير لفظ «كيتي» إلى المبلغ الذي يُجمع في الحفل، كل عضو يسهم بمبلغ معين من المال كل شهر. يسلَّم المال لأحد أعضاء المجموعة كل شهر. عادة ما تُعقد حفلة كيتي في وقت محدد كل شهر، من قِبل مجموعة محددة من النساء. على كل عضوة في المجموعة استضافة الحفلة مرَّة واحدة على الأقل. ينظم العضو المستضيف الطعام واللوازم الأخرى، وعادة ما تكون الحفلة مكانًا للنميمة للنساء. (المترجمة)

واحدة في الشهر، تُسحب الأسماء من غطاء وسادة قديم ثمَّ يُقام الاحتفال في وجود الحلوى. ثمَّ قضت ساعاتٍ طويلة تُرتل القرآن، كما قضت مثلها أمام شاشة التلفاز، تشاهد الأفلام الهندية القديمة وتُغني مع المقاطع الموسيقية.

سألت وهي تمسح دموعها: «هل هو لطيف معكِ؟».

- لطيف جدًّا.

- هذا هو أهم شيء. أوسيم هو؟

- وسيم للغاية.

ثمَّ طرحت عليَّ بعض الأسئلة عن نمط الزفاف الذي أرغب به. في الشتاء أم الصيف؟ في الهواء الطلق أم في قاعة مقفلة؟ وأي فئةٍ من الحموات ستكون الخالة دوللي؟ ثمَّ نصحتني أن أدفع براشد للانتقال من منزل والديه، وقالت: «سيكون الحال أفضل هكذا، ولن تتجادلا بشأن الطهي».

- أنا أكره الطهي على أي حال.

أجابتني ضاحكة: «ولكنكما ستتجادلان بشأنه كذلك».

ثمَّ تطلعت إلى ساعة الحائط، وقالت: «هلَّا انتظرتِ هنا؟ سأعود في غضون دقائق؟».

أشارت الساعة إلى السادسة، ستُشغِّل التلفاز لتشاهد مسلسلها الاجتماعي المُفضَّل، مسلسل هندي عن حماةٍ بغيضة وأبنائها الاثني عشر المُطيعين.

- اذهبي. لا عليكِ.

نظرتُ إلى هاتفي ورأيتُ: «**I Get Along Without You Very Well (Except Sometimes) - حالي يتحسَّن دونك كثيرًا (عدا في بعض الأحيان)**». لم أكن أعرف هذه الأغنية، ولهذا بحثتُ عنها واستمعتُ إليها على هاتفي.

حالي يتحسن دونك كثيرًا

بالطبع يتحسن

إلا حين يسقط رذاذ المطر

استلقيتُ على الأريكة، وحدَّقتُ بناظريَّ إلى السقف. كانت ثُريَّة جدتي تسبح من فوقي، وأمكنني سماعُ أنغام الكمان الغليظة لمسلسلها الاجتماعي.

نسيتكَ كما قلتُ إني
سأفعل
بالطبع فعلت
إلا حين أسمع اسمك
أو ضحكة أحدٍ تشبه ضحكتك

أغلقتُ هاتفي، وحشوتُ فمي بكعكة بيثا، ثمَّ تجرعتُ شايًا باردًا لأبتلعها. جاءت الطاهية لتأخذ الصينية، لكنني أشرت إليها أن ترحل. ثمَّ قضمتُ تفاحة. وبعد مُضي ما بدا لي وقتًا طويلًا، عادت نانو.

قالت: «لن تُصدقي ما حدث. حادثة سيارة، وحماة ميتة».

أجبتها: «ستعود».

- كلا. السيارة احترقت وكل شيء.

- سترين.

سألت: «لماذا أنتِ مستلقية هكذا؟ (ووضعت يدها على جبهتي) هل أنتِ بخير؟».

أجبتها: «لا تقلقي. (وتطلعتُ إلى هاتفي) عليَّ الذهاب».

- اذهبي، اذهبي. وإلا ابتلعكِ الزحام.

- سآتي إليكِ الأسبوع المقبل.

- تعالي قُبيل مواقيت الصلاة، ستكون الشوارع خاوية حينها.

فتحت جدتي الباب، فقلتُ: «إلى اللقاء يا نانو الحبيبة».

- هل أخبرتِ أمكِ؟

- ليس بعد.

- أخبريها سريعًا. تعلمين أنني لا أقوى على حفظ الأسرار.

***

غُلِّفَتْ عظمة فخذ ديانا بطبقةٍ سميكة من النسيج الغشائي. ورُحت أنا وسوزان نتجادل بشأن أفضل طريقة لإعداد العينة، ثمَّ أقنعتها أخيرًا باستخدام معالجة حمضية. حضَّرَت محلولًا مخفَّفًا من حمض الآسيتيك بنسبة ثلاثة بالمئة، ورحنا بأناةٍ نُسقط العظمة فيه. ثمَّ أحكمنا غلقها بالغطاء وانتظرنا الحمض ليؤدِّي عمله. لا بُدَّ من مراقبة المحلول من كثب، وما إن يتحلل النسيج الغشائي الأخير، حتَّى يتعيَّن إزالته، وتُنظَّف الحفرية من الحمض مرَّات عديدة. نريد من الحمض أن يتوغل في النسيج الغشائي، ثمَّ يترك ديانا تنعم في سلام.

استمرت سوزان في كشط عظمة الكاحل بإزميل دقيق. إنه عمل بطيء، لكنها بدت لا تُبالي. راحت تقطع جزءًا أحمر وراء آخر، حتَّى رأينا العظام البيضاء. ثمَّ استخدمت فرشاةً من حقيبة مستحضرات تجميل لم تسمح لي بلمسها حتَّى لتنظيف طبقة الغبار الأخيرة. ترانا نتراجع إلى الوراء كل بضع ساعات، ونُبدي إعجابنا بها، وبالعالم الذي حفظها في صورة متقنة، عظامًا صافية وحُمرةً فائقة الجمال.

كانت بيتينا قد دعتني لقضاء عيد الشكر مع والديها، ولهذا سأستقل غدًا الحافلة إلى نيويورك. أردتُ البقاء في المختبر، لكنني خشيتُ من أن يتسبب خواء كامبريدج في تمضيتي للعطلة الأسبوعية بأكملها أتجول في الشوارع وأنادي باسمك. إنه لمن السابق لأوانه أن أسمح لإحباطي بأن يتغلب عليَّ. وحتَّى تسمع القصَّة بأكملها، لا جدوى من أصطدم بكَ مصادفة في الشارع وينفطر قلبي حين تمُر بقربي، أو يحدث ما هو أسوأ وتتظاهر بأنكَ لا تعرفني البتة. حقيقةً أراني لم أبدأ الحكاية بعد، فما يزال هناك أنور، ينتظر مترصِّدًا، وقصته في جعبته.

***

اسمح لي -عوضًا عن ذلك- أن أُخبرك حكاية أحد أسلافي. ذات مرَّة وقع عمي الأكبر، كاشف المصلح الدين علي، كان اسمه المستعار كياكا، في حُب فتاةٍ يهودية. آمنت عائلته طيلة حياته بأن ثمَّة مشكلة في شخصه: وهي عاطفته المفرطة، بكى عددًا من فلاحي السُّخرة الذين وقعوا في براثن الجوع لمَّا غثَّ الحصاد، وأثار جلبةً لأمر العنزات التي لقيت حتفها من شدَّة البرد، وناح على بقايا الطعام متى أُقيمت وليمة. آمنت أمه أن هذا مرجعه إلى قضائه

وقتًا طويلًا في قناة الولادة، وهو أصعبُ مخاضٍ مرَّ بها، ولمَّا خرج كياكا، كان أزرقَ الوجه وبدا كمَن فارقته الحياة. في حقيقة الأمر، أعلنت القابلة ولادته ميتًا، لكن أمه تكوَّرت حول نفسها على الفراش حين سمعت صرخةً صغيرة تأتي من الأرض المُبلَّطة بالأبيض والأسود حيث تركوه هناك. ولمَّا ناهز سن البلوغ ورفض أن يتصرَّف كالرجال، ألقت باللائمة على تلك الزرقة التي دفعتها إلى الإفراط في تدليله.

وبعد سنوات، لمَّا وجد نفسه بلا زواجٍ ولا صنعة، وأثبت عجزه عن التعامل مع حسابات العائلة أو إدارة الضيعة، اشترى كياكا شقةً في كُلكتا، وابتاع أوتوموبيلًا وأخذ يتردَّد على السينما ومطعم فيربو الواقع على طريق «تشورينجي روود». وفي مطعم فيربو ذاك، التقى راشيل موسيل، راقصة أمريكية يهودية جاءت بناءً على توصيةٍ من مالك المطعم، سنيور فيربو نفسه، لتعليم الشابات الصغيرات في كُلكتا كيف يرقصن. كثيرًا ما مُدِحَت أرضية الرقص الخشبية لمطعم فيربو في صُحف لندن، لكنها الآن تشعر بالخزي لما أحدثته بها رقصات الفوكستروت السيئة التي تؤدِّيها نساء كُلكتا. حتَّى هؤلاء العصريات منهن، اللاتي يأتين متشحاتٍ بالفساتين بدلًا من السواري، يؤدِّين رقصاتٍ سيئة؛ ولا يُستثنى منهن النساء الأجنبيات البيضاوات اللاتي مكثن طويلًا في الهند، إذ فقدت كواحلهن رشاقتها، ورفرفت أذرعهن بلا هدف. إذن انتُدِبت الآنسة موسيل، التي التقاها سنيور فيربو في نيويورك، لأجل هذه المهمَّة الخاصة والخطيرة، كان ذلك حين التقاها كياكا، ولأسبابٍ لم يقدر أي فردٍ في العائلة على أن يُدرك كنهها، اختارته وحده من بين كل الشباب الذين وقعوا في حُبها من فورهم.

لمَّا صحب كياكا الآنسة راشيل إلى الضيعة في «باردهاوان» -وكانت لا تزال في قمة مجدها آنذاك- حين كان طريق «جراند ترانك روود» شاسعًا بحق، وخط السكة الحديدية الرابط بين «هوراه» و«دلهي» لا يزال بِكرًا، قبل أن يرهن جدي الأكبر الضيعة، ثمَّ يبيعها، قبل أن تتضاءل ثروة الأسرة سريعًا تحت وطأة المقامرة والمضاربة -أنعمت الأم في النظر إلى كياكا وقضت أنه ربما نَعِمَ ابنها بشيءٍ من السِّحر في انحدار جبهته الناعم وفمه التويجي الممتلئ، وأن الآنسة موسيل ستُفتن بالكيفية التي يلحظ بها كل جميل. عدا أن هذا الإدراك الجديد لم يحمل والدة كياكا على الموافقة على الزواج. وهكذا حشدت العائلة ضده، وقطعت عنه الإعانة، وباعت سيارته من طراز «ديملر»،

ووقفت فوق رأسه وهو يكتب خطابًا إلى راشيل ليفسخ الخِطبة. «***يؤسفني أن أُخبركِ يا عزيزتي الآنسة موسيل أنه في نهاية المطاف لا يتسنَّى لي الزواج بكِ***». وبعد اثنتي عشرة ساعة من إرسال الخطاب، سار كياكا إلى محطة القطار.. خلع عنه منديل رقبته، ورقد على القضبان، تاركًا العنان لقطار دلهي المنطلق في 6:05، والذي سُمِّيَ في ما بعد باسم «رُمح كالي»، لينزلق فوق جسده الهزيل مثل ملعقةٍ تخترق حساء لحم الضأن المخلوط بالشعير الذي اشتهر به سنيور فيربو. وهكذا انتهت الرواية الغرامية الحزينة لكاشف المصلح الدين علي، الرجل الوحيد أبدًا في تاريخ عائلتي الذي استأنف المغامرة خارج حدود دياره بحثًا عن الحب.

***

مع أنني وافقتُ على الزواج من راشد، لن تكون خطبتنا رسمية حتَّى نُصرِّح علانيةً بالأمر، وقبل أن يحدث ذلك، علينا أن نُقيم حفلًا. تقرر أن يُقام الحفل في منزل راشد، وكان يبعد خمس دقائق على الجانب الآخر من شارع «جولشان أفينو».

حين انتقلوا في بادئ الأمر إلى هذا الضاحية من المدينة منذ ما يزيد على عشرين عامًا، بنت دوللي وبلبل كوخًا متواضعًا يُحيط به مرج من الأمام وآخر من الخلف. ولمَّا توسَّعت تجارة بلبل -في صناعة الحديد الصلب، وصناعة الزجاج، وبناء السفن- اتسع المنزل معها. ودأبت دوللي على التجديد، واستبدال النوافذ ذات أُطرٍ من الألومنيوم بالنوافذ المُغلقة، وبلَّطت المنزل بالأرضيات الرخامية بدلًا من البلاط الفسيفسائي. وسرعان ما استطالت العمارات على جانبي المنزل، وغرقت غُرفهم في الظلمة، ولهذا وبدلًا من هدم المنزل عن بكرة أبيه والبدء من جديد، اكتفوا بإضافة الطوابق إلى المبنى الأصلي، وتركوا الطوابق السفلية للخدم والأقارب الفقراء القادمين من القرية. كان لبلبل تطلعاتٍ سياسية، يحلم بيومٍ يستغل فيه البراح في منزله لعقد اجتماعات الحي السكني، ومن أجل هذه الغاية، أمر بإعادة طلاء الطوابق باللون الأحمر لاستحضار روح الأبنية الواسعة ذات الطراز الاستعماري، التي عُقدت بها تلك الاجتماعات لأجيال، حيث يُقرفص الفلاحون على الأرضية الأسمنتية المطلية ويستجدون «الرجل الكبير».

أجابت دوللي جرس الباب بنفسها، متشحةً بساري ملفوف بلون غزل السكر، بيد أنه يجعل قوامها مستديرًا استدارةً تامة من كل زاوية تقريبًا. كانت جميلة بصورةٍ مبالغٍ فيها، بعينين واسعتين وثغرٍ ممتلئ. ومن خلفها، أُضيئت الردهة بثُريَّة ضخمة. تراجعت إلى الخلف وتطلعت إليَّ من أعلى إلى أسفل، ثمَّ قالت: «آه، أنا سعيدة لأنكِ ارتديتِ ساري الجامداني الوردي. أراه يتماشى مع الحُلي». في وقتٍ سابق من ذلك اليوم، أرسلت دوللي عُلبة مستطيلة حمراء تحوي زوجًا من أقراطٍ ذهبية على شكل جرس، وعُقدٍ مماثل، ودفعني وصولها إلى زيارة صالون التجميل، إذ علَّقت أمي: «لا يمكنكِ رؤية الأقراط ما لم ترفعي شعرك».

تقدَّمتنا دوللي عبر درجات السلالم إلى أن وصلنا إلى شُرفة السطح في الطابق الأخير، حيث كان زوجها يرتشف الويسكي وقدماه مغمورتين في حوض السباحة الذي قررا تأسيسه في مطلع ذلك العام. وغلَّفتنا الأضواء الكاشفة والمياه في سديمٍ أزرق ينبض.

نادى بلبلُ أبي: «أقبل يا جوي. لا شيء يُضاهي تبليل قدميكَ في هذا الطقس الحار».

لم يكن الطقس حارًّا البتة؛ على العكس، كنَّا على مشارف ديسمبر، وبالهواء شيء من البرودة، لكن أبي مُضطر على أي حال، يحثُّ خطاه إلى حوض السباحة ويُشمِّر سرواله.

- عزيزتي زبيدة، هل تنضمين إلينا؟

- شكرًا لكَ يا عمي، لكنْ ربما يجدر بي...

قاطعتني دوللي: «أنتَ أيها الرجل السخيف. ستُفسد ساريها. هيا بنا إلى الداخل».

أشارت إلى غرفة ذات جدران زجاجية إلى جانب المسبح، مزينةً باللونين البرتقالي والذهبي. جلسنا على الأريكة، ثمَّ تطلعتُ إلى السقف. كنتُ قد أتيتُ إلى هنا من قبل، لكنَّ المنزل بدا غريبًا عليَّ آنذاك، البريق واللمعان يُغطيان كل شيء، زهور تُغلِّف الدرابزين وصِحاف من بتلاتٍ عطرية مُجففة على كل نُضد. وهكذا صار مزاجي عكِرًا. كانت دوللي قد عطَّرت الغرفة بجرعةٍ ثقيلة من ماء الورد، وذكَّرتني تلك الرائحة بأجواء الجنازات.

قالت أمي: «أسعدني كثيرًا أننا قررنا الإبقاء على الاحتفال بسيطًا».

ودَّت أمي أن تؤكد حقيقةَ أنها في حضرة قرارٍ صائب.

أجابت دوللي: «واجهتُ الكثير من المشكلات لإبعاد التجمهر، لكنكِ على حق، أنا سعيدة لأن الحفل يقتصر علينا فحسب».

أعيت ملامح وجهها حين ابتهجت، ثمَّ عبست من فورها، وهي تُكمل: «الأمر الوحيد المؤرق هو أن قُرَّتَيْ عيني الآخَرَيْن ليسا هنا».

كان شقيق راشد الأصغر، جنيد، في مدرسةٍ داخلية في سنغافورة، وشقيقته روبي تعيش في نيويورك.

قاطعتهما سائلة: «أين راشد؟».

أرسل إليَّ رسالةً نصية منذ ساعة، واختتمها بعبارة «**حبيبكِ المستقبلي**»، وهي عبارة أشعرتني بالغثيان قليلًا.

- ذهب ليجلب شيئًا أو آخر. ماذا ستتناولين؟ لفائف سبرنج رول؟ روبيان مقلي؟ كوكاكولا، 7 آب؟

أجابت أمي: «لا بأس بأي شيء.. وأنتِ زي؟».

لم أحِر جوابًا، وأبقيتُ عيني على السقف. فأجابت أمي بصوتٍ مُبهج ونبرةٍ عالية: «سأشرب كوكاكولا».

سألتني دوللي: «أأنتِ متوترة يا عزيزتي؟... ما رأيكِ في احتساء مشروب؟»، ثمَّ غمزت لي.

أجبتها مقترحةً: «نبيذ أبيض؟».

- حقًّا يا زبيدة!

كانت أمي هي من نطقت بالكلمات، لأنني تجاهلتُ نظرتها. كلانا يعلم أن دوللي لم تعنِ ما قالته حين عرضت عليَّ الكحول، لكنني ثبتُّ على موقفي، أتتبع دوللي بناظري وهي تسير إلى دولابٍ خشبي مصقول وتعالج القفل الذي يُغلق برَّادًا صغيرًا، ثمَّ تعود بكأسين وزجاجة مشبَّرة من نبيذ شاردونيه. قالت: «والآن، الأهم فالمهم. هل تريدين إقامة حفل الزفاف في «نادي القوات المسلحة للجولف» أم في فندق «راديسون»؟».

جرى التخطيط إلى إقامة حفل زفافٍ مشترك، فالتفتُّ إلى أمي وسألتها: «هل تريدينني أن أتزوَّج في نادي جولف يملكه جيش بنجلاديش أم في فندق خمسة نجوم؟».

نهضت أمي من كُرسيها، وانتقلت إلى المقعد المجاور لي ثمَّ اعتصرت مرفقي. أشحتُ برأسي بعيدًا عنها وتفاجأتُ بنفسي أتطلَّع إلى خِزانة تراصت بداخلها تماثيل من البورسلين.

- راديسون. الطعام هناك أفضل.

كان هذا جوابي، فعلَّقت دوللي:

- المشكلة الوحيدة هي أنهم لن يسمحوا لكِ بإحضار أطباق البرياني التي تطهينها، وهذا أمر مزعج. أرى أن البرياني الذي يُطهى في الفنادق ليس لذيذًا أبدًا.

أومأت أمي في حماسةٍ وأضافت: «أنتِ محقة تمامًا. كما أنه أغلى ثمنًا».

- آه، لا تقلقي حيال هذا.

- ما أقصده هو أنه أغلى ثمنًا، وأقل جودة. ولا شك أن قاعة الرقص في فندق راديسون رائعة جدًّا.

انتبهتُ من فوري: «أنا أكره البرياني».

أجابت دوللي: «إن راشد يعشق البرياني. لكنْ لا تعيلي همًّا، يمكننا إقامة الحفل في راديسون».

أجبتُ متظاهرةً أن عشق راشد للبرياني خبر جديد على مسامعي: «آه، أظنُّ أني لا أمانع إذن».

ارتشفت دوللي من كأسها، ثمَّ قالت: «لسنا مضطرين. نود أن نحظى ببعض الاختلاف».

قلتُ: «ماذا عن حفل زفاف نهاري؟ يمكننا تناول الغداء معًا. سمك مثلًا. هذا مختلف».

- آه، لا أدري يا عزيزتي.

- زبيدة!

جاء النداء من أمي.

- ماذا؟

- ماذا بكِ؟

- لا أريد تغيير اسمي.

اخترتُ واحدًا من الأمور الكثيرة التي كانت تؤرق مضجعي.

أجابت دوللي: «ولكن يا حبيبتي، أليس لطيفًا أن تحظي بالاسم الأخير نفسه مثلنا جميعًا؟».

انتظرتُ أن تهب أمي لنجدتي، فقالت: «أظنُّ أنه خطئي أنا، لأنني احتفظتُ باسمي الأخير».

علَّقتُ: «حسنًا، مَن يدري ماذا كان اسمي الحقيقي على أي حال».

وهنا اندثرت الأصوات جميعها من الغرفة.

دخل رجل إلى الغرفة يحمل صينيةً من طعامٍ مقلي، فالتقطتُ واحدةً من لفائف سبرنج رول.

بعد هُنيهة قالت دوللي: «بالطبع لستِ مضطرة إلى تغيير اسمك».

انتزعتُ ناظري بعيدًا عن الخزانة، ووجدتُ أمي تُجاهد في إعادة لف كعكة شعرها عند مؤخِّرة عنقها، تُخرج وتُعيد دسَّ حفنةٍ من دبابيس سوداء.

استطردت دوللي مبتسمة: «حسنًا. هذه هي المشكلة. لا يجدر بالأطفال التدخل في التخطيط لحفلات الزفاف. لِمَ لا تذهبين وتستكشفين ماذا يفعل الآباء يا زبيدة؟ سيصل بابو في أي لحظة».

أحبت دوللي أن تُنادي راشد بـ «بابو» وأحيانًا «بابو الصغير».

كان أبي وبلبل يجفِّفان أقدامهما إلى جانب المسبح. رآني أبي فسأل: «أهذا نبيذ في يدك؟».

أجبتُ وأنا أرفع كأسي: «خطيئة».

ظهر راشد حاملًا رزمةً مستطيلة صغيرة، وبدا راضيًا عن نفسه. أذهلتني ثقته، كأنه ما من احتمالٍ ألا تسير الأمور كما هو مُخطط لها. وللمرَّة العشرين، بل المئة في ذلك اليوم، تغاضيتُ عن التفكير في صوتك وعما كنتَ ستقوله بشأن هذا الحفل، والساري الوردي الذي أرتديه وشعري الغارق في رذاذ الشعر.

سألته: «أين كنتَ؟».

- أجلبُ سلاحي الخاص.

مال إليَّ وقبَّلني على خدِّي، ففاحت منه رائحة سجائر قوية. ثمَّ استدار نحو أبي وقال: «إذن يا عمِّي، ما أخبارُ تجارة الثياب؟».

- بخير، بخير.
- أتعلم أن المصانع الأخرى دائمو الشكوى من أنكَ تُقاضي الناس أجورًا مجزية وتُظهر بقيتنا بمظهرٍ سيئ.

مرَّر راشد الرزمة إلى والده، الذي حلَّ لفائفها بحذرٍ شديد. جلس أبي على كُرسي المسبح، وأجاب: «أتعلم كم تُكلفني الأجور الكاملة؟ ثلاثين مليون روبية فقط في العام الواحد. مبلغ زهيد. هذا أقلُّ ما يمكننا فعله مقابل ما نكسبه من عرق جبينهم».

قال بلبل وهو يلفُّ سيجارة: «لا تزال يساريًّا».

- شيء من هذا القبيل. (التفت أبي إليَّ) أما الآن، فأنا أتعامل معظم الوقت مع أزماتٍ داخلية.

شغَّل راشد مجموعةً من أغاني البيتلز، وراح العجوزان يؤرجحان كاحليهما، ثمَّ تناقلت السيجارة بينهما.

قلتُ: «إنهما يُدخنان الماريجوانا».

مرَّر أبي الرزمة إلى راشد، ثمَّ قال: «هاكَ، أمنحكَ بركتي».

أخرج راشد بضع أوراق شجرٍ متفرِّقة، وسحقها بين أصابعه، فقلتُ: «هذا لن ينتهي على خير».

أجابني وهو يستدير نحوي حاملًا غليونًا وقدَّاحة: «لا تقلقي، كوني سعيدة».

مال إلى الأمام، وقوَّس يده حول الغليون وأشعل المسحوق البُنِّيَّ الصغير. استنشقتُ العبير. ثمَّ همستُ: «أُحبك»، وقد خطر ببالي كم أودُّ تبليل قدميَّ بدوري.

***

حان الوقتُ ليبدأ الجزء الاحتفالي من الليلة. نادتني دوللي لأعود إلى الداخل، واستدعت خادمتها التي حضرت حاملةً إكليلًا من الزنابق والورود. تلألأ لمعانُ الإكليل، مثقلًا بالبتلات والماء المنثور عليها لتبقى نضرة. ثمَّ قالت: «ارتدي هذا، سيجعلكِ تبدين كالعروس». هالتني كلمة «عروس»، فأطعتُها، ونكَّستُ رأسي لأدع أمي تُلبسني الإكليل حول رقبتي. ثمَّ طرحت دوللي حجابًا فوق رأسي في عُجالة، وثبَّتته بدبوس شعرٍ. اتخذنا طريقنا إلى

الطابق السفلي، مثقلة خطواتي بالحجاب والإكليل، ويدُ دوللي تقبض على مرفقي، ورائحة ماء الورد تتلاشى كلما هبطنا إلى الأسفل.

في الطابق السفلي، وسط غرفة المعيشة الشاسعة، رأيتُ جدتي: نانو، التي تُكفكف عبراتها بمحرمة، ودادو، جدتي لأبي، تجلس منتصبةً في وقار، تحمل طبقًا من الفستق على حجرها. نهضت سالي حين رأتني، فلوَّحتُ إليها بإيماءةٍ قصيرة. أما الضيوف الآخرون، فكانوا تجمُّعًا مشوَّشًا من السواري الحريرية والمعاطف الداكنة. قادتني دوللي إلى أريكة، وأملت عليَّ بالجلوس. ثمَّ جاء راشد وجلس إلى جانبي. بدَّل ملابسه وارتدى بزَّة كورتا زرقاء، هدية من والديَّ. ركع على ركبتيه أمامي وقدَّم إليَّ يده. تأثرتُ من رعشة أصابعه وهو يُخرِج عُلبة الخاتم من جيبه. كان الخاتم نفسه الذي أحضره معه إلى سافار، لكنْ كان عليَّ الانتظار حتَّى إقامة الحفل لأبدأ ارتداءه. حينها أمسكَ العُلبة المخملية بيده، وقال: «هل تتزوَّجيني؟». أومأتُ بالموافقة، ثمَّ صفَّق الجميع، ووضع الخاتم في إصبعي، وبعدها ناولتني دوللي كأسًا من الحليب مع اللوز المطحون. ثمَّ أمَّنا بلبل في دعاءٍ قصير، انتهى بالجميع يُمرِّرون راحاتهم على وجوههم، وراشد جالس بجانبي، يلكزني بمرفقه كما اعتاد أن يفعل حين كنتُ طفلة، وأصابني التفكير في لمسه بعصرةٍ في أحشائي.

جلستُ أنا وراشد في مكانٍ راحد بينما أقبل الضيوف واحدًا تلو الآخر لتهنئتنا. أكلنا الخبز المقلي وكاري البطاطس الحامض. أما سالي التي ثبَّتت ساريها أسفل حملها المنتفخ، فأقبلت إليَّ وقالت إنني أبدو جميلة، ولكني أيضًا كمَن سمع تشخيصًا بالسرطان. ثمَّ قالت: «ما المشكلة أيتها السافلة؟ يُفترض بكِ أن تكوني غارقة في السعادة والعسل».

بعدما غادر معظم الضيوف، نُدِّم العَشاء في غرفة الطعام. كانت مولي، وهي شقيقة دوللي، وزوجها وابنهما فيصل وابنتهما إليزا حاضرين، وكذلك والدةُ بلبل. تعانق الحضور مرَّة أخرى، وتبادلوا التهاني. زُينت المائدة الطويلة من خشب الماهوجني بالونين الأحمر والذهبي. ترأس بلبل الطاولة ودعا أبي إلى الجلوس على الطرف المقابل له. لكنَّ أبي أجابه رافضًا وقال: «اعذرني، لا أقدر»، ولذا حلَّ راشد محله، تاركًا إياي بين مولي وابنها، الذي له عادة القرع على أي سطحٍ يجده، وفي هذه الحالة كان السطح يتراوح بين ركبته والطبق المؤطر بالذهب الذي وجده أمامه. بعدما قبلتُ دعوة أبي إلى الانتشاء بالماريجوانا، هاجمني جرعٌ شديد. ثمَّ خطر ببالي أن هذه قد تكون

في حقيقة الأمر عادة منتظمة لأبي -وإلا فكيف له أن يتمكَّن من الظهور بهذا الهدوء الشديد تحت أي ظرف؟ نعم، بلا شك، لا بُدَّ أنه مُدخِّن بالعادة- لماذا لم أره من قبل يُدخِّن؟ حدَّثتُ نفسي أن هنيئًا له، إنه يستحق هذا التدليل، ليس الأمر كأنه يُقامر أو يسهر في الخارج أو حتَّى يُعامل أحدهم بدناءة. تطلعتُ إلى أبي وغمزتُ غمزةً ذات معنى، ثمَّ استمعتُ للحديث الدائر. كان بلبل يلقي على مسامعنا نخبًا، مرحِّبًا بنا في العائلة، ثمَّ رفعنا جميعنا كؤوس الماء.

قالت مولي: «إذن، أخبرني راشد أنكِ درستِ الفيزياء».

صُبغت أظفارها بطلاءٍ برتقالي واحدًا بعد الآخر، ثمَّ صبغت الأظفار بينها على طراز الطلاء الفرنسي.

- لا، ليس تمامًا -أنا عالمة حفريات بحرية.

- الأمر سواء، أليس كذلك؟ تستخدمون الميكروسكوب وما إلى ذلك.

ثمَّ التقطت شوكةً وغرزتها في السلطة التي قدَّمها إلينا نادل بقفازات بيضاء.

أجبتُ موافقة: «بالتأكيد».

تطلعتُ إلى أمي التي كانت جالسة إلى جانب بلبل. ويلازمها من اليسار عمٌّ راشد. بعدما تناولنا السلطة، قُدِّم إلينا البط المشوي، متبوعًا بحلوى صغيرة من تارت التاتين، كانت دافئة وشهية. سلَّيتُ نفسي بسؤال مولي عن روتينها الجمالي، والذي تكون من مستحضرات تجميل يومية بالفاكهة والخضراوات الطازجة، وغسلة واحدة أسبوعية لشعرها ثمَّ تجفيفه، بالإضافة إلى العلاجات الخاصة، كتبييض الوجه والرقبة حين يتعيَّن عليها الخروج إلى مكانٍ معين. ثمَّ أوضحت: «اعتدتُ الذهاب إلى دازل، لكنَّ الفتيات هناك أصبحنً ذكيَّات. وصرن يعرفن الجميع بأسمائهن. فقلتُ لا، لا أريد أي شيءٍ من التودد. ولهذا أذهب الآن إلى نيلوز».

أومأتُ بإيجاب. ومن الجانب الآخر للطاولة، صاحت دوللي إلى الجميع: «سأحظى بابنةٍ أخرى!». وكوَّرت يدها حول فمها حتَّى تنتشر موجات صوتها وتصل كلماتها إلى الجانب الآخر من الغرفة.

- مسكينة دوللي، أرادت دومًا أن تحظى بمزيدٍ من الفتيات. لكنني أقول لها إن الفتيان أفضل، لا أحد يُجيبكِ بوقاحة. ابنتي إليزا مثلًا، لها لسان صفيق. لكنها، ولله الحمد، فتاة حسنة.

إن مولي امرأة مثل الكثير من النساء في مكانتها، تستخدم العبارات الدينية كاستخدام علامات الترقيم. ولمَّا ينضج أطفال مولي يومًا ويبدؤون في تعاطي المخدرات، أو إذا عانت يومًا مخاوف صحية، أو بدأ زوجها في التسكع هنا وهناك، ستبدأ في تتبيل حديثها بعباراتٍ تحوي لفظ الجلالة: الحمد لله، ما شاء الله، إن شاء الله، إلى آخره، ثمَّ ستبدأ في إظهار صلاتها، وتحشر سجادتها أسفل ذراعها متى ذهبت إلى أي حفل، وربما تقضي عطلة في فندق بخمسة نجوم في مكة، وتنشر صورًا لنفسها وهي تبتسم مرتديةً الخمار، وسيعلِّق عليها أصدقاؤها: «Mash'Allah - ما شاء الله» مستخدمين الفاصلة العليا في مكانها الصحيح ليظهروا أنهم أيضًا يفهمون علامات الترقيم المتعلقة بلفظ الجلالة. أما أبي الذي لا يزال مُلحدًا، قد أوضح هذا الأمر لي ولأمي مرَّات عديدة، وغرقنا جميعنا في الضحك، ونحن جالسين إلى الطاولة في الشرفة ونتساءل عمَّا سيقوله الناس لو أمكنهم سماعنا.

فلتت ضحكة صغيرة منِّي، لكنَّ مولي لم تلحظها، فقد كانت تحكي لي عن مهارة إليزا في المدرسة، وأن جميع المدرسات يُحبونها وأنها تلقت جائزةً عن التزامها في الحضور.

بعدما أنهينا تناول تارت التاتين، مرَّر إلينا النادل أطباقًا صغيرة من المثلجات وهو يتلقى طلبات الجميع بخصوص القهوة والشاي. جابت عيناي الغرفة؛ فوجدتُ أبي غارقًا في حديثٍ مع زوج مولي، الذي كان بدوره يملك ثلاثة مصانع للملابس ودومًا يرتدي سمَّاعة أذن تعمل بالبلوتوث؛ وأمي تصُبُّ تركيزها على طبق المثلجات أمامها، في حين كان راشد يُرِي إليزا شيئًا على هاتفه. وبعدما انسحب النادل، نهض راشد عن كُرسيه ولفت انتباه الجميع إليه، قبل أن يبدأ: «أتيتُ بهديةٍ لأصهاري المستقبليين». ومن خلف كُرسيه، أخرج حزمة مستطيلة مُغلَّفة بورقٍ بُنِّيٍّ، ومرَّرها إلى أبي، وهو يقول: «انتبه، إنها قابلة للكسر».

التففنا جميعًا حول أبي وهو يشدُّ خيط القنَّب الذي يُبقي الغلاف البني مُحكمًا. ثمَّ أشاح الورق بعيدًا. كانت صورة مُكبرة باللونين الأبيض الأسود ذات أُطر، تُظهر شابين يُحيط الواحد منهما الآخر بذراعه. تطلعا إلى الكاميرا وابتسما. كان يرتديان سروالين أنبوبيين متماثلين، وارتدى أحدهما عُصابة رأس حول جبهته ورفع إصبعي السبابة والوسطى علامةً على النصر. وفي الخلفية الرمادية المشوَّشة، كانت الواجهة المُزخرفة لقاعة «كرزون هول»،

كلية العلوم التي ارتاداها. لمَّا تطلع أبي، كانت عيناه مُخضَّبتين بالدموع، وهو يسأل: «من أين أتيت بهذه؟».

- التقيتُ صديقًا قديمًا لكَ من المناضلين من أجل الحرية، وكان يملك هذه الصورة في ألبوم صوره.

أجاب أبي:

- شكرًا لكَ. لم ألتقط صورًا كثيرة قط مع أخي. إني أقدِّر صنيعك.

ساد السكون عبر الغرفة حين تعانق والداي. غمغمتُ بشفتي لراشد: «شكرًا لكَ». فأجابني بغمزةٍ من عينه، وشعرتُ حينها بفيضٍ من المشاعر نحوه. ثمَّ حثَّنا بلبل جميعًا على التصفيق، وبعدها قُدِّم الشاي. رنَّ هاتف مولي، وأراح الجميع ظهورهم إلى كراسيهم معلنين بذلك وصول السهرة إلى نهايتها.

وهذه يا عزيزي إيلاجا حكاية خِطبتي للزواج بشخصٍ آخر غيرك. بعثتُ إليكَ برسالةٍ غير مُشفَّرة تلك الليلة تقول: «**تمَّت خِطبتي**»، وبعد ثوانٍ، أجبتني: «**لا أُكِنُّ أيَّ ضغينة**».

***

أقنعتْ دوللي أمي بأن تأخذ إجازةً لبضعة أيام لكي يتسنَّى لنا الذهاب للتسوق من أجل الزفاف في كُلكتا. فقد قضت أمي الأسابيع التي تلت حفل الخِطبة في «سراج گنج»، حيث التقت مجموعة من نساء «بيرانجونا»[1] اللائي حُبسن في مخيمات الاغتصاب في أثناء الحرب. صار هؤلاء النساء في الستين الآن، لكنهنَّ يعشن معًا في مأوًى أُعِدّ مسبقًا من أجلهن بُعيد الاستقلال. سافرت أمي في بادئ الأمر لليلة واحدة، ثمَّ قررت البقاء لأسبوعٍ، لأن اثنتين من النسوة تُوفِّين مؤخَّرًا بسبب سرطان المبيض، وأرادت أمي أن تُنشئ مستوصفًا للفحص تابعًا لإدارة الصحة المحلية. اتصلت بنا وقالت إنها قد تُحاول إقناع وزير الصحة بالمجيء. هل تعلمان (وعادةً ما تبدأ عباراتها بهذه

(1) Birangona Women مصطلح أطلقته حكومة بنجلاديش بعد ستة أيام من انتهاء الحرب على النساء اللاتي تعرضن للاغتصاب في الحرب، واستخدمته الحكومة ليُعطي معنى «بطلات الحرب» أي النساء الشجاعات. (المترجمة)

الطريقة) أن الجيش الباكستاني اعتاد حلق رؤوسهنَّ لأنهنَّ ربما يستخدمنَّ شعورهنَّ لخنق أنفسهن. وكنتُ أعلم ذلك، لأنها أخبرتني به مرَّات عديدة.

حين كنتُ في الجامعة، بعدما أخذتُ فصلًا دراسيًّا في النسوية والفردية والذاتية، قرأتُ لأندريا دوركين[1] وقضيتُ أنني كنتُ نِتاج اغتصاب. اغتصب أبي أمي، ثمَّ عرضتني أمي للتبنِّي لأن رؤية وجهي أشعرتها بالغثيان. قضيتُ أيامي برفقة الشعور الثقيل المُوحل هذا ينخر في عظامي لبضعة أسابيع، حتَّى إنني تمرَّنتُ على الحديث لنفسي في المرآة بأنني نِتاج اغتصاب، ورحتُ أتساءل عن كيفية طرحي لموضوعٍ كهذا في حديثي مع الآخرين، وقضيتُ بأنه سيمنحني بلا شكٍّ شيئًا من الوزن في نظر أنواعٍ مُحددة من الناس. فكرتُ في استخدام شفرة حلاقة صغيرة على جلدي، ربما ذراعي أو باطن ساقي. وحاولتُ فعلها بضع مرَّات، لكني شعرتُ بالاشمئزاز من رؤية دمائي، لا سيما أن الشعور بالارتياح كان مؤقتًا فحسب، وفي نهاية المطاف، عدتُ إلى أفكاري شيئًا فشيئًا، ولم أتذكر الأمر إلا عندما أتت أمي على ذكر موضوع الاغتصاب، وهو أمر فعلته في أحايين كثيرة تزيد عمَّا يسعكَ تصوُّره من شخصٍ في مسار محادثاته العادية.

في كُلكتا، حجزت لنا دوللي حجرتين بأبوابٍ متصلة في فندق «جراند»، وأمكنني سماعهما يتحادثان ويقهقهان بينما كنتُ أشاهد حلقاتٍ مُعادة من برنامج «**ماستر شيف أستراليا**». جلسنا على مقاعد مخملية في بيوت الأزياء الراقية، وعُرض علينا الساري وراء الآخر، فيما تتردَّد كلمة «جهاز العروس» همسًا بين الباعة. وبعد ذلك، حين كنَّا نتناول المثلجات، أخبراني أنهما في أثناء دراستهما في الجامعة، كانا يملكان ساريًا فخمًا واحدًا، يستعيرانه من بعضهما من أجل المناسبات الخاصة. لا شك أن الساري كان ملكًا لدوللي، فأمي لا يسعها تحمُّل تكلفة مثل هذه الرفاهية، لكنهما لا يتذكَّران الأمر على هذا النحو. أظنُّ أن هذا هو سبب بقاء صداقتهما المُقرَّبة بعد كل تلك السنين. تفوَّقت أمي في عملها، حتَّى إن الناس ينادونها بـ «الأخت المحترمة»، وفي تلك الأثناء، صارت دوللي زوجة رجلٍ غنيٍّ، ليس لها شيء تتباهى به سوى إنجازاتُ أبنائها. ذكَّرت أمي دوللي بالمرأتين اللتين توقَّعتا أن يشبَّا إليهما،

(1) Andrea Dworkin هي كاتبة وناقدة نسوية راديكالية أمريكية. اشتهرت بكتاباتها عن نقد المواد الإباحية، التي قالت إنها كانت مرتبطة بالاغتصاب وغيره من أشكال العنف ضد المرأة. (المترجمة)

حينما وسَّعت الحرب أفق أحلامهما حتَّى تخطَّت حياتيهما البسيطة، وكانت دوللي صديقة وفيَّة شاهدتها خلال الثورة وما أتى في أعقابها. وأخيرًا أدركتُ سبب أنهما لا تفترقان، أدركتُ سبب حياكتهما الخُطط طيلة سنين ليجمعا بيني وبين راشد، هذا لأنهما معًا يُشكِّلان قالبًا واحدًا من الآمال، ولهذا السبب عليَّ أن أقبل الخطَّة بإخلاص، هذا لأنه تبيَّن لي في قرارة عقلي أنه لا بديلَ آخر. لم يُتوقَّع منِّي فعل الكثير، مثل زواج شاندانا البراهمي. لذلك لم يكن زواجًا تعسفيًّا، بل ثمرة عقود من الحلم، ممحاة للتاريخ مثلما هو احتفال بالنصر، وفي ظل هذا كله، كنتُ بلا أهمية.

***

حين كنتُ أنا وراشد في المدرسة الثانوية، كانت شقيقته روبي تساعدني أحيانًا في التسلل إلى منزلهم، فتترك الباب في الطابق السفلي مفتوحًا وتُرشدني عبر الأروقة المظلمة المؤدية إلى غرفته. ولمَّا تمَّت خِطبتنا، بدَّلت رأيها. أظنُّ أنها قد أحصت العدد المُحدد للرجال العُزَّاب المحترمين ذوي الوسامة والثراء في دكَّا، وقضت أن شقيقها -الذي لم يُحطم سيارة والده ولم ينفق ثروةً على المخدرات أو المقامرة قط- أفضل بكثير من الارتباط بحُبٍ قديم.

كان لروبي وشم جملٍ على صدرها الأيسر، واعتادت أن تتأنق كما لو أنها تمتلك العالم بأسره. ذات مرَّة انتعلت حذاء راعي البقر برقبةٍ عالية ولونٍ وردي أسفل ساريها. حدث هذا في يوم عيد، ورفعت قدميها على طاولة القهوة في منزلها، وتباهت به، حذاء برقبة عالية تصل إلى الركبة، زاخر بالتطريز، ذو مقدِّمةٍ مُدبَّبة فبدا الحذاء كأنه قادر على ارتكاب جريمة قتل. بعد الجامعة، تزوَّجت رجلًا أمريكيًّا ذا ذقنٍ ذاوٍ، واستقرت في مدينة نيويورك، تعود إلى الديار في عطلات تدوم لأسبوعين لتُمطر العائلة كاملةً بهداياها الوافرة. وما إن تَحدَّد يوم الزفاف حتَّى حجزت روبي رحلتها وبدأت في إمطاري بصورٍ على البريد الإلكتروني لسواري ولهنگا [1] مُطرزة لامعة أرادت أن تطلبها من مُصمم أزياءٍ باكستاني يعيش في عقارها الاتحادي. لن أرتدي لهنگا أبدًا، وهو أمر أحدث شرارة محادثة مُهذبة باردة بيننا، حين كان راشد يتولَّى

(1) لهنگا هي تنورة منفوشة يصل طولها إلى ما بعد الكاحل مأخوذة من شبه القارة الهندية. (المترجمة)

دور الوسيط. كان يميل إلى جانبي دومًا، أو على الأقل في الخفاء، ووجد طريقةً لمنحي ما أريد دون أن يدع روبي تُدرك تعرضها للرفض. خبير هو في هذا النوع من الدبلوماسية، ولما أعربتُ عن ضيقي من عزوفه عن الشجار مع شقيقته، قال: «أليس الوضع أفضل على هذه الشاكلة؟ لقد حصلتِ على ساريكِ، أليس كذلك؟».

وصلت روبي في الأسبوع السابق لحفل الزفاف، وقررنا مفاجئتها في المطار. ولمَّا عبرت البوابة، كان أول ما نطقت به هو: «لن يكون هناك متسعٌ كافٍ لحقائبي». ابتسمت ورفعت كتفيها استهجانًا في الوقت نفسه، وهي تميل برأسها إلى الجانب، فأحاطها راشد بذراعيه ورفعها عن الأرض. بدا شعرها كأنه حديث التجفيف، تذكرتُ تلك المرَّة حين أخبرتني أنها لم تغسل شعرها في الشتاء قط إلا في صالون التجميل. أمر راشد السائق بجلب سيارةٍ أخرى، وهكذا كان في المحصلة متسعٌ كافٍ لحقائب روبي، التي تبعتها عبر بوابات المطار في ثلاث قاطرات. علَّقت وهي تبتسم وترفع كتفيها في استهجان متزامنين: «كان عليَّ أن أجلب كل شيءٍ في جهاز عُرسكِ أيتها المحظوظة».

جلست روبي في المقعد الأمامي إلى جانب راشد. فسألتها وأنا أميل قاصدةً مُكيف الهواء من الكرسي الخلفي: «كيف حال مات؟».

- آه، إنه بخير. سيُحضر الأطفال في غضون أسابيع قليلة. لا أتحمَّل البقاء في طائرة معهم.

والتفتت إلى الوراء، وغمزت لي. ثمَّ وضعت يدها على رُكبة راشد، وقالت: «يا أخي الصغير! لم أتصور يومًا أنكَ ستفعلها. كيف حال والدينا؟ هل أُصيبت أمي بنوبة غضب؟».

- إنها تُفقد الجميع صوابهم.

- لكنها نسيت أن تُعِدَّ أطباقي المفضلة على الغداء. (التفتت مرَّة أخرى) أترين؟ إنكِ تُفسدين حياتي بالفعل.

تمنيتُ لو يعرض راشد أن يُوصلني إلى المنزل، لكنه اتجه مباشرةً إلى منزله، ووقفتُ جانبًا في موقفٍ حرج بينما تعانَق كل من دوللي وبلبل وراشد وروبي وجُنيد -الذي عاد من مدرسته الداخلية- في عناقٍ جماعي، وقالوا كيف بدا الجميع في أحسن أحوالهم رغم إجهاد الزفاف المنتظر. طلبوا إحضار الشاي في الحديقة، ثمَّ أعلنت دوللي وهي تستند إلى ظهر كُرسيٍ من

الخيزران الهندي: «الآن يمكنني الاسترخاء. إن والدكِ معدوم الفائدة، والخَدمُ يتفوقون على أنفسهم بالغباء». تبادلتا الشكاوى عن طاقم العمل حين أخذت بلبل سنة من النوم، مسقطًا جريدته على العشب. دقَّ هاتف جُنيد، فنهض ليُجيبه، وهو يُومئ إليَّ إيماءةً صغيرة وينطلق.

رُحتُ أتساءل إن كان سيلاحظ أحدهم إن تسللتُ إلى الخارج حين بسطت روبي إحدى حقائبها، وصاحت: «لا تنظري! سأريكِ لمحةً فحسب. شيء واحد فقط». ثمَّ ناولتني عُلبة حذاء. نزعتُ عنها الغطاء، وباعدتُ المنديل. علَّقت روبي: «ألا يعجبكِ؟».

التقطت دوللي الغطاء، وقالت: «فيراغامو! عزيزتي، ما كان عليكِ أن تُرهقي نفسكِ».

كان الحذاء ذا كعبٍ عالٍ دقيق بألوان الذهب والنحاس، له شريط رفيع يُغطي الأصابع وآخر يلتف حول الكاحل. قلتُ وأنا أُخرج واحدًا: «شكرًا لكِ، إنه جميل».

قالت روبي: «أنتِ تكرهينه».

- أوه، لا، مطلقًا. إنه يبدو... مناسبًا جدًّا لزفاف.

- هذا بالضبط ما كنتُ أُفكر به، يا له من أمر صعب أن تجدي مُصمم أحذيةٍ يُصمم ما يليق بملابسنا. أنا وأمي نشكو دومًا هذا الأمر حين نتسوق في نيويورك.

علَّقت دوللي: «صحيح تمامًا».

- لكنْ إن لم يُعجبكِ، يجدر بكِ أن تُخبريني فحسب. لقد صرنا شقيقات الآن.

- أوه، لا، إنه رائع. كل ما في الأمر -تعلمين أني لم أعتدْ ارتداء الكعوب العالية، ولذلك ربما أجد مشكلة بسيطة في المشي.

أومأت روبي بحماسٍ وقالت: «عرفتُ أنكِ ستقولين هذا».

فاستطردت دوللي: «أنتِ بسيطة للغاية».

- لكنْ على أي حال، في أثناء حفل الزفاف لن تركضي في الأرجاء، ستجلسين في مكانكِ فحسب، ولذلك الأمر لا يُهم.

علَّقتُ أخيرًا: «هذا صحيح».

استخدمت روبي كلتا يديها لإعادة الحذاء إلى عُلبته، ثمَّ نهضتُ أنا، وقلتُ: «يجدر بي أن أدعكِ ترتاحين يا روبي».

- آه، ليس لديَّ وقت للراحة. سنذهب اليوم للتحدث إلى طاهي البرياني، أليس كذلك يا مامي؟

فركت دوللي عينيها. وانكفأ راشد على هاتفه عابسًا، ثمَّ قال: «دادي، هل سمعتَ عن الإضراب؟».

انتفض بلبل مستيقظًا، ومالوا إلى الهاتف معًا.

استعددتُ للمغادرة، وقبَّلتُ الجميع على الخدِّ. ثمَّ قالت لي روبي: «علينا الذهاب إلى صالون التجميل. هذان الحاجبان يحتاجان إلى التشذيب».

***

في يوم زفافي، خطرت على بالي رقية سخاوات حسين، التي كتبت رواية «**حلم السلطانة**» عن عالمٍ تبدَّلت فيه أدوار الرجال والنساء. كان هذا في العام 1905، بقيت رقية تنتظر زوجها العائد من رحلة عمل، لتُبهره بمدى إتقانها للغة الإنجليزية (التي تعلمتها على يديه)، وتُخبره أنها كتبت روايةً قصيرة. لأنه في عالم رقية الحقيقي، ترتدي النساء الحجاب وتعيش حيواتٍ منعزلة، اختارت رقية في عالمها التخيلي أن يقع الحبس للرجال، أن يُفرض الحصار على الرجال. وتحكم النساء، اللاتي تقودهن ملكة مُحسنة، بسلاح العلم والتكنولوجيا والحكمة التي أتت من شيءٍ اكتسبوه بشق الأنفس.

دفعتني قصة رقية إلى التفكير في هذا الأمر: كم من الروايات كُتبت لإبهار مُحِب؟ وكيف تأتَّى لها هي المحبوسة في زَنانتها[1] أن تقتحم بعينها المكان الأفضل ذاك وترى كل ما سيصير حقيقةً ذات يوم، وتتصوَّر الأشياء التي لن ننالها أبدًا؟ كانت رقية هي بطلة أمي الأسطورية. تذكر اسمها كما يلجأ الآخرون إلى اسم الله أو المسيح. وتقول: إن كان لرقية أن تفعل شيئًا، يمكننا أيضًا أن نفعل. ناصرت رقية تعليم النساء، وأسست مدرسة، وانتقلت من قرية إلى قرية تستقطب الطُّلاب؛ ألقت الخُطب في البرلمان، وحاربت عائلة زوجها

---

(1) الزَّنانة هو ملحق بالبيت يخص النساء حيث يعشن به، ويشتهر في منازل العائلات المسلمة أو السيخية أو الهندوسية. يُقابله في الحضارة العثمانية «الحرملك»، وفي شبه القارة الهندية «الحريم». (المترجمة)

المتوفى دفاعًا عن إرثها، وألقت النِّكات في حفلات العَشاء. كانت أرملة، فقدت زوجها في وقتٍ مبكر من حياتها. لعلَّ رقية ذكَّرت أمي بأمها، أرملة أيضًا، نشأت في ذلك الجيل الذي لم يكن فيه الالتحاق بالمدرسة أمرًا مسلَّمًا به. آنذاك وأنا على بِساط الزفاف، رُحتُ أُفكِّر في رقية، وفي أمي وفي أمها، وفي كل النساء اللاتي فعلن ما أمرتهنَّ به أمهاتهنَّ، وبكل النساء اللاتي قلبن العالم من حولهنَّ، وجعلن من السجون مروجًا.

***

بعدما انتهى حفل الزفاف، اتجهنا إلى منزل راشد؛ أُسدِلت على واجهته سلاسل من الضوء امتدت إلى الرصيف الجانبي خارج البوابة. وفي الداخل، تقلَّدت روبي بمسؤولية الحجرة بأكملها؛ مسرورة لأنها أقنعتني بارتداء سلسلةٍ ذهبية على جبهتي وثبَّتتها في شعري بدبوس أمان؛ منزعجة لأنني رفضتُ ارتداء ثلاث قلائد خلافية التدرج بعضها فوق بعض لكي تبدأ الزخارف عند سُرَّتي وتنتهي عند مستوًى مرتفع من رقبتي؛ ظافرةً بالانتصار لأنني الآن جزء من العائلة ويمكنها أن تتحكم بي وتأمرني بما عليَّ أن أرتديه. وفي غمار كل تلك السعادة والتعاسة، حملني راشد ووقف على العَتبة بحذاء ناجرا المُطرَّز الذي ارتداه ليتماشى مع «شيرواني» الزفاف، وأنزلني إلى العتبة حتَّى يتسنَّى لي أن أغمر قدميَّ في إناءٍ واسع من الحليب. ثمَّ أُلقيَ الأرز على رؤوسنا، وتُليت الدعوات همسًا ونُفِخت في وجوهنا، استدراك شامل لما بعد حفل الزفاف على قدمٍ وساق. تردَّدت التعليقات: أتظن أن البرياني كان مدهنًا بعض الشيء، أجل، ريتا إس هي مَن زيَّنت القاعة بهذا البهاء، اختيار ممتاز لزهور الأوركيد البنفسجية والورود البيضاء، ألا يبدو ابننا راشد أميرًا. لم أعثر على أثرٍ لوالديَّ، هذا لأنني صرتُ الآن مُلكًا لهم، راشد ودوللي وبلبل وروبي، لا أرتدي كما حكمت التقاليد خيطًا واحدًا من ملابسي القديمة، متشحةً من قمة رأسي إلى أخمص قدمي بملابس منحتني إياها عائلة راشد، وصولًا إلى السروال الداخلي الرفيع مُذهَّب اللون الذي اختارته روبي من بيت أزياء للملابس التحتية في نيويورك، كان أكثر الملابس التي لامست جسدي مطلقًا خشونةً وإزعاجًا.

أثارت لحظة دخولنا إلى غرفة النوم استعراضًا ضخمًا. كنتُ مدفونة أسفل طبقاتٍ كثيفة من مساحيق التجميل، وثُبِّتت طبقات الساري معًا بالكثير من

دبابيس الأمان، حتَّى استغرق الأمر ساعةً كاملة للتحرر من ملابسي. تطلعتُ إلى نفسي في المرآة مرتديةً بلوزتي وتنورتي التحتية؛ غرقت عيناي في خطوطٍ داكنة انتشرت على جفنيَّ في مواضعٍ تعسَّر فيها إزالة مُحدد الأعين. ثمَّ بدأتُ الاستحمام لأزيل مُثبِّت الشعر، ورُحتُ أجاهد لفك تشابك كعكة الشعر المُعقَّدة في مؤخِّرة رأسي. وحين خرجتُ من دورة المياه مرتديةً سروالي الرياضي وقميصي القديم بدلًا من منامتي الحريرية التي مُنحتُ إياها، كان راشد جالسًا على كُرسي بذراعين وإلى جانبه زجاجة شامبانيا مفتوحة. وجدته قد خلع حذاءه وجوربيه، وحلَّ الزِّر العلوي لـ «شيرواني».

- ماذا؟ ألن ترتدي ثوب نومٍ مُثير؟

- آسفة. أنا مُتعبة للغاية.

اتخذتُ قراري بإخباره الآن، فلئن أطلتُ الانتظار عن ذلك، سيبدو كأنني أختبئ منه، وإكرامًا لكل السنوات التي انبسطتْ أمامنا، أردتُ أن يُعرف الأمر، باعتبارها مسألة توثيق لصدقي منذ اليوم الأول. تطلعتُ إلى وجهه، الذي صار مألوفًا لي أُلفةَ انعكاسي في المرآة، بأنفه المعقوف وفتحتي أنفه المتوردتين، وحاجبيه الكثَّين الداكنين، والتموُّجات البديعة لشعره الفاحم.

- اسمع، ثمَّة أمر عليَّ أن أخبركَ به.

مدَّ يده أسفل قميصي وجذبني نحوه، ثمَّ قال وفمه يتقوَّس نحو فمي: «في ما بعد».

داعبتُ شفتيه بخفةٍ، ثمَّ استطردتُ: «لا، أنا أتحدث جديًّا. لن يستغرق الأمر أكثر من دقيقة».

زفر تنهيدةً، وشبَّك يديه على حجره، ثمَّ قال: «حسنًا يا سيدة خوندكار، كُلي آذان مصغية».

- لا تنادِني بهذا اللقب.

- أقولها بدافع الحب فحسب.

- أعتذر. والآن اسمع، علينا أن نتحدَّث في هذا الأمر، لأننا متزوجان الآن، ويومًا ما ربما نُنجب أطفالًا، وهذه أمور لا بُدَّ من الإفصاح عنها.

- تتحدَّثين بجدية.

- لستُ ابنةً بيولوجية لأبي وأمي.

أخذتُ كأس الشامبانيا من يده وتجرَّعتُها. ومن فوري شعرتُ بدوار رأس.

- أنا ابنة مُتبنَّاة. لم يُخبر والداي أحدًا قط. وأخبراني أنا بالأمر مرَّة واحدة، حين كنتُ في التاسعة، كان هذا في عيد مولدي، ولم نتحدَّث في الأمر مُجدَّدًا.

مدَّ يده إلى الأرض ملتقطًا الزجاجة. ولما التفت إليَّ مرَّة أخرى كان يبتسم.

- حبيبتي، أنا أعرف.

- ماذا؟

- أنا أعرف الأمر. أخبرني والداي منذ سنين.

ما برحتِ الابتسامة وجه راشد وهو يُعيد ملء الكأس. فتناولتُ رشفةً أخرى وسمحتُ للكلمات أن تغوص في ذهني لهُنيهة.

- طيلة كل هذا الوقت؟

أشحتُ بيدي فتساقطت قطرات من الشامبانيا على حجري.

- الأمر ليس مهمًّا. والداي يعرفان، ولا أحد يهتم. أنا أُحبكِ. والجميع يحبونكِ. (طبع قبلةً على جبهتي) والآن أريد المضاجعة في ليلة زفافي.

لا أحد يهتم؛ هذا نوع من السخاء، وشيء آخر -ربما الغفران. لم أدرِ علامَ كنتُ آسفة، لكني آسفة، وكان هو يقول لي أن لا بأس. حاولتُ تصوُّر الحديث الذي كان سيخوضه مع والديه -لكنْ متى؟- عن كيفية التعامل مع القصَّة لو انكشف الأمر، أو تورط الأقارب الآخرون في الأمر وشككوا في حكمة تكوين أسرةٍ مع فتاةٍ ذات أصلٍ مجهول. ربما ناقشوا الأمر مع أمي وأبي. لكنْ ماذا قال والداي؟ أكانا ممتنَّين لأن آل خوندكار على استعدادٍ للوقوف إلى جانبهما، لإضفاء صورة شرعية على ابنتهما من خلال مصادقتهم على الزواج؟

عُدتُ بتفكيري يا إيلاجا إلى تلك اللحظة حين أخبرتني بشأن اشتياق الروح. الشعور بالوحدة لكونكِ في جسدٍ وحيد، حين لا ترغب الروح في شيءٍ سوى الوصال. لم تُحاول أن تُشعرني بالتحسُّن، بل جعلت مخاوفي باهتة، مجرَّد مثالٍ آخر بسيط على الاحتياج الكوني إلى الرَّحِم. لكنَّ راشد كان يحاول أيضًا، بطريقته الخاصة، وهو يُلصق شفتيه على رقبتي، ويتحسَّس نهدي بظهر يده. سمحتُ لنفسي أن تهنأ بمداعباته، ويده متصلبة على ظهري. تبادلنا القُبل. تذوقتُ الشامبانيا على شفتيه والنكهة المألوفة لأنفاسه. مرر إليَّ كأس الشامبانيا مُجدَّدًا، فتناولتُ جرعةً أخرى من الكأس بنهم، مستشعرةً

فورانها حتَّى وصلت إلى مؤخِّرة حلقي. زُيِّن فراشنا بالورود، وعُلِّقت الأكاليل وتدلت من السقف وأُلصقت بالحائط. فاح المكان برائحة لاذعة وشيءٍ من العفن. أزال راشد غطاء الفراش إلى مؤخِّرة السرير وأرقدني برفقٍ على الفُرش. مارسنا الحُب بهدوء، غارقَين في الإرهاق من أحداث اليوم، ومع أننا مارسنا الحب من قبل في هذه الغرفة، تسببت رائحة الزهور والطلاء الجديد والثِّقل المُتخلِّف على وجهي وفكرة أن جميع مَن في المنزل يعرفون ما أوشكنا أن نفعله -تسبب كل هذا في إثقال إيماءات الجنس العادية وتبلُّدها. وبعد ذلك، نهض راشد وطوى ملابسه وفرَّش أسنانه، وما إن عاد إلى الفراش حتَّى غفوتُ، وهكذا لم أشعر بيده على مؤخِّرتي وأنفاسه خلف أذني إلا شعورًا ضبابيًّا.

في الصباح، حلَّ والداي ضيوفًا على منزلي الجديد. كدَّس الطاهي دجاج كورما في طبقي، ومنحتني دوللي مفتاح الدرج في خزانتي، وأخبرتني أن أقفل على أشيائي فيه متى ما غادرتُ الطابق العلوي من المنزل، بل أغلق باب غرف النوم نفسه لأنكَ لا تعرف أبدًا ما يفعله الخَدم. تراءى لي فجأةً أنه مع نشأتي أنا وراشد في منزلين على بُعد بضع دقائق من بعضنا، يجدر أن يكون الانتقال إلى منزله أكثر بقليل من مجرَّد الانتقال من جانبٍ تقع فيه شقة والديَّ إلى الجانب الآخر؛ كانت الحياة هنا عالمًا آخر، في المنزل ذي الطوابق الثلاثة والمسبح المستقر على السطح، وغلق الأبواب من ورائي، وتناول الكورما على الإفطار، وفيلق السيارات في المرأب، والشكوك حول الخَدم، لأنكَ لا تعرف أبدًا، عدا أنني كنتُ أعرف، وأشعرني ما كنتُ أعرفه بحزنٍ لاذع، يزعجني الحديث الذي دار بيننا في الليلة السابقة وأنا أتذكَّر الشفقة والغفران في صوته. ما زلتُ في يومي الأول فحسب، وهاجمتني أغوار ما ارتكبته من خطأ، تُلامسني مثل قلمٍ تناثر حبره في جيبي.

نتلقى في كل ليلةٍ دعوة على العشاء إلى منزل أحد الأقارب، وفي الجمعة التالية، سنذهب في زيارةٍ إلى مصنعٍ يملكه بلبل. ومن حينٍ إلى آخر، نحظى بلذة إغلاق الباب من ورائنا وتبادل قبلة سريعة مسروقة؛ ولمرَّةٍ أو مرَّتين، يشغِّل راشد بعضًا من أغانينا المُفضلة على النظام الصوتي الذي أقامه حول فراشنا، ونعانق بعضنا أسفل قبة الزهور الجافة، وفي تلك اللحظات يغمرنا شعور بأننا خارج المساق، بعيدًا عن السواري المُطرَّزة وآلاف المجاملات التي يجب أن تتدفق من بين شفتي، شعور بانفرادنا ببعضنا، صديقين قديمين

وحبيبين منذ الطفولة يصلان أخيرًا إلى الخاتمة الطبيعية لشيءٍ بدأناه قبل سنين عديدة. ثمَّ تسقط بقية حياتي في بؤرة التركيز، وألمحُ بصيصًا من الشخصية التي اعتدتُ أن أكون عليها، أقصد التي كُنت عليها منذ شهورٍ مضت، الشخصية التي ستسافر عبر القارات لاستخراج عظام حوتٍ من الأرض، وفي تلك اللحظات شعرتُ كأنما أقاتل سرابًا، امرأة تُطارد حياتي المثالية الأخرى.

***

وفي أحد الأيام، عاد راشد إلى عمله في المصنع. استيقظ في الصباح، وأخذ حمامًا، ثمَّ ارتدى سروالًا وقميصًا بأزرارٍ على الكُمَّين، وتزيَّن بالساعة التي أهداه إياها والداي هديةً للزفاف، ثمَّ استقل المقعد الخلفي لسيارته. رأيتُ المشهد كاملًا فيما كنتُ بمنامتي، أميل إلى خارج سياج شرفة الطابق الثاني، وأستمعُ إلى باب السيارة يُصَكُّ من ورائه فجأةً. ثمَّ رحتُ أفكر في بقية اليوم وأنا أزحفُ أسفل الأغطية وأدفن وجهي في الفراش.

قلَّبتُ في الكتب على رف مكتبتي، ووجدتُ رواية «موبي ديك»، فتذكَّرتُ كيف كنتَ تثير غيظي في ذلك اليوم حين كنَّا في المطار. دفعتني «موبي ديك» إلى التفكير في ديانا، محبوسة كما هي تحت الأرض، وربما دُنِّست حفرياتها بذلك الوقت لو أن ما قالوه عن الاضطرابات في تلك المنطقة صحيح. تخيلتُ أن أيديَ لا مبالية ترفع عظامها من الأرض، وتزعج ما رقد دون إزعاجٍ لآلاف السنين، وهذا أمر دفعني إلى التفكير في الزمن وتقدُّمه الحتمي إلى الأمام، والتفكير في أنني أيضًا سأرقد عظامًا في قبرٍ يومًا ما، وأنني سأكون ميتة، ثمَّ بدأتُ أُحصي كل الأشياء التي سأندم عليها لو كنتُ أحتضر، عدا أن الرقود في الفراش يوم إثنين لا ألوي شيئًا سوى قراءة «موبي ديك» لم يكن عنصرًا في تلك القائمة. لن أسترجع ما فات من حياتي وأعترف أنني أحسنتُ إنفاقها لو كان هذا ما أنفقتُ حياتي فيه.

أعود وأُفكر مرارًا في الحديث الذي دار بيني وبين راشد ليلة زفافنا. أردتُ أن أسأله عن الأمر مُجدَّدًا، وأكتشف تفاصيل الكيفية التي اكتشف بها سري، ولماذا قرروا جميعًا -دوللي وبلبل وراشد وأبي وأمي- ألا يمنحوني المواساة التي تحملها معرفتهم الجماعية. لكني لم أرغب في رؤيته يسخر من الأمر مُجدَّدًا، لم أُرد منه أن يطمئنني ويُخبرني أن كل شيءٍ على ما يرام، ممَّا يوحي لي بطريقته الخاصة أنني في أعماق أعماقي مدينة له بالعرفان لقاء عدم

اهتمامه بالأمر، لقاء معاملته لي كأنني أي شخصٍ آخر، شخص له نسب يمكن للناس تعقبه والتصديق عليه. ولهذا التزمتُ السكوت، أُكرر نمط الانسحاب الذي بدأ مع مولدي. وبعد بضعة أسابيع، صار «ملفيل» صديقًا، وتراجعت الأحزاب، وصرتُ على وِفاقٍ مع القدر الذي اخترته بنفسي.

***

لا أُفكر عادةً في زفافي يا إيلاجا، لكنْ لديَّ صورة أحملها معي في الأرجاء. حتَّى إني جلبتها معي في هذه الرحلة. أبدو جميلة، جمالًا يكتسبه المرء حين يبذل مجهودًا ليبدو جميلًا أمام الكاميرا. كان الساري الذي اختارته روبي ودوللي حسن الذوق وناسب الدرجات النحاسية التي تتآلف منها بشرتي. كنتُ قد سمحتُ لخبيرة تجميل، وهي صديقة لسالي، أن تصبغ جفنيَّ وتنفخ شيئًا من مسحوق لامع على جبهتي. لم أعد بهذا الجمال يا إيلاجا -في واقع الأمر، في الوقت الذي وصلتَ فيه إلى الشاطئ، كان هذا البريق الخاص قد ولَّى منذ زمن- لكنني في حضرتك، كما تعرف، تجاوزتُ حدود الجمال: كنتُ مهيبة، سلطانة، مثل «الملكة» في قصة رقية.

***

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

بروسبيرتي شيبريكنج

ها نحن قد وصلنا الآن إلى الوقت الذي وطئَت فيه قدماي الشاطئ، وانقلبت حياتينا ليواجه الواحد منَّا الآخر مُجدَّدًا. العام الذي عِشتُ فيه في ظل «جريس» وشاهدتُ هذه الباخرة الجبروتية العظيمة تتفكك حتَّى آخر شظيةٍ من عطفاتها. العام الذي فطرتُ فيه قلبكَ. أُحب هذا الجزء من القصَّة، لا سيما وأنكَ جزء منه، ولأن تلك الأسابيع القليلة التي قضيناها معًا منحتني كل شيءٍ احتجتُ إلى معرفته عمَّا تبقَّى من حياتي. لا شك أنه يرسم صورةً لي أشمئز من تذكرها، ناهيكَ بأن أُحبيها. ولكن لكي يتسنَّى لنا أن نسقط أعنف سقوط، علينا أن نصعد إلى تلك الأعالي، علينا أن نكون هؤلاء الناس الذين تُلامس أناملهم الأفق. وسأشعر بالامتنان دومًا لذلك.

مضى عام بعد الزفاف. كنتُ أنا وراشد نعيش في منزل والديه ذي المسبح المُثبَّت على السطح وأبواب غرف النوم المغلقة. أما أنور، في تلك الأثناء، فقد عاد إلى قريته، يحمل سِرَّه في جعبته، الذي هو سِرِّي أيضًا. لم يبدأ بعد في البحث عن ميجنا، ولم يصل بعد إلى المدينة التي سنلتقي فيها في ختام الأمر. أما كيفية وجودي أنا هناك فهذا أمر له علاقة بالدم. تأخَّر حيضي. وكان سائق وسيارة قد تخصَّصا لي؛ عيَّنهما الرجل ذو المظهر المُتجهم الذي يدير منزل دوللي. بدا السائق يافعًا ونحيفًا، غارقًا في كُرسيه حتَّى كان كل ما يمكنني رؤيته من الخلف هو كُم قميصه ومرفقه وهو يُحرك ناقل السرعات. طلبتُ منه أن يوصلني إلى صيدلية في جولشان 1، تلك التي تقع أسفل محل

المثلجات. كان البائع واقفًا خلف نُضدٍ زجاجي مكتظ بالفوط الصحية، وبينما كنتُ أبحث في ذهني عن الكلمة البنغالية التي تعني «اختبار حمل»، تفاجأت بنفسي منزعجةً مرَّة أخرى من حقيقة أن جميع الصيدليات مُنظَّمة على هذه الشاكلة، وأنك لو رغبتَ في شيءٍ يُعرِّضك للحرج، عليكَ أن تطلب من أحدهم أن يُنزله من رفٍّ عالٍ أو يفتح صندوقًا كرتونيًّا مُخبَّأً في مؤخِّرة المحل. وقضيتُ أن قومي كلهم حمقى. لا يمكنكَ أن تقطع الممر وتلتقط واقيًا ذكريًّا أو سدادة حيض قطنية أو مرهم بواسير. أخذ البائع المال منِّي وغلَّف العُلبة المستطيلة في حقيبة ورقية بُنية. ثمَّ عدتُ أدراجي إلى المنزل، وظهر الخطَّان الأزرقان على الفور، وظننتُ أنني سأنفجر من الغضب.

من فوري، خَبرتُ بداية الأعراض. شعرتُ بألم حادٍّ في بطني، وصارت ساقاي ثقيلتين وأردتُ التهام شطائر البرجر. خَبرتُ أيضًا إحساسًا طاغيًا بأن جسدي قد غدر بي حين سمح لهذه البذرة الصغيرة أن تتخذ جذورًا. يا له من جسدٍ ضئيلٍ جاهل، ألم يُدرك أن لا شيءٍ على ما يرام منذ يوم الزفاف، أو من وقتٍ أبكر، منذ أن واقفتُ على الزواج من راشد، وربما كان من قبل ذلك، حين اتخذتُ قرارًا مخالفًا لقدر الحب -ألم يُدرك أنه ما كان يجدر به أن يرتكب هذا الفعل الوحيد، هذا الفعل الذي حُرِمَت منه أمي، ولخَّص معادلةً ظلَّت بداخلي بلا حل؟

بقيتُ أُفكر في الأمر طيلة أسبوعين. وفي كل صباحٍ، أريد له أن ينتهي. وفي كل صباحٍ ألعن هذا الوجود الذي يزداد حضوره تأكيدًا في غضون لحظاته الأولى من الحياة، عمَّا سيكون عليه حضوري يومًا. التهمتُ الطعام كالخنزير، أكلتُ كل شيء، ولم يردعني شيء سوى الخلايا التي صارت تحمل اسمي. في كل مرَّة ذهبت إلى دورة المياه، حدَّقتُ إلى سروالي الداخلي الخاوي شديد النظافة. ثمَّ فكرتُ في الإتيان بأفعالٍ خطيرة، كالإسراف في السُّكر أو القفز من أماكن عالية، لكنني لم أتحلَّ يومًا بهذه الشجاعة، وما كنتُ لأبدأ الأمر آنذاك. أقامت دوللي حفلًا ذات يوم، وطُلب من الجميع ارتداء الأبيض والأسود، ووضعت خيمة في الحديقة وعلَّقت سلاسل من أضواء صغيرة تدلَّت من الأشجار. حينها أخذتُ طبقًا مملوءًا بالطعام إلى غرفتي بالأعلى وأكلتُ ما بدا لي جانبًا كاملًا من الشاة.

كان التلفاز يعرض على قناة «ديسكفري تشانيل» برنامجًا عن الطحالب. الطحالب: وحدات البناء الأساسية للحياة. في تلك اللحظة، ومعدتي تكتظُّ

بقطع اللحم، أبديتُ ارتباطًا عاطفيًا. رُحتُ أُفكر في لقاء شخصٍ يقربني قرابة الدم، وهو أمر لم يحدث لي من قبل قط. ذو قُربى. تشبثتُ ببطني وتراجعتُ عن كل ما همستُ لها به. وفي خلفية المشهد، راح صوت ذكوري نشيط يقول: «*إن العشب البحري الضخم ما هو إلا طُحلب* بُنِّيٍّ كبير قد ينمو *ليصل طوله إلى* خمسين *مترًا*»، فابتسمتُ وابتسمتُ لنفسي دهشةً على هذه المصادفة العجيبة.

أخبرتُ راشد.

لا أدري كيف كانت تجربته في العام الأول من زواجنا؛ فقد بدا دومًا مستبشرًا ومبتهجًا، وكنَّا قد قضينا بضع عطلات معًا، عطلة شهر العسل في تايلاند، وأسبوعًا في لندن، ورحلة عمل إلى هونج كونج تطفلتُ عليه فيها. كان محقًّا بشأن السفر إذ خفَّف من حدَّة العيش في دكَّا. أحاطتنا الحفلات وأمسيات العشاء العائلية والزيارات من وإلى دانموندي لرؤية جدتي. وُلِدَ طفلُ سالي ونديم في الصيف، وشاهدناهما يتعثران ببلاهة حول الأبوة والأمومة. مرَّت الشهور، وقرأتُ خلالها الكثير من الكتب. ولمئات المرَّات شاهدتُ مقطعًا على يوتيوب لجلين جولد يعزف تنويعة جولدبيرج الثالثة عشر، عدا أن هذه هي الترنيمة الوحيدة لكَ التي احتفظتُ بها. ومع إنه لم يصل إليَّ أي ردٍّ من بارت، كان جزء منِّي متشبثًا باحتمالية أنه سيطلب حضوري فجأةً إلى ديرا بوجتي، ولهذا لم أبحث عن عمل.

ما إن أخبرتُ راشد أنني حُبلى، بدا الحال كأنني تسللتُ إلى داخل رأسه وأضأتُ المصابيح كلها. لم يعرف كم أوشكتُ ألا أنطق بشيء، كم من المرَّات فكرتُ في الإجهاض. لكنها -ويجب أن أُخبركَ بهذا يا إيلاجا، مع أنه سيؤلمك- كانت لحظة وصالٍ بيننا. ولمَّا استيقظتُ في الصباح التالي، وجدتُ صينية على منضدة السرير، بها شاي وفيتامينات وباقة من زهور التوليب. ويعلم الله كيف اشترى باقة التوليب. غمرتني البهجةُ حين وافق على عدم إخبار والديه، وقضينا الأسابيع العديدة التالية نمارس مؤامرة فريدة. في كل مرَّة نتطلعُ إلى بعضنا، تتسع أعيننا ونبتسم. ومع كل فرصةٍ تأتيه، يضع يديه على بطني. فعلنا أمورًا قد فعلها الناس على مر الأزمان. حزرنا نوع الجنين. وتجادلنا على الأسماء. وأصدرنا أصوات هديلٍ له، ولبعضنا أيضًا. أخبرني مرارًا كم أبدو جميلة. ومارس الحُب معي بعاطفةٍ جياشة. كل شيءٍ احتجتُ إليه، وللمرَّة الأولى في زواجنا استشعرتُ الغياب التام للسخط.

عندئذٍ، كما ظهرت فجأةً، تلاشت عقدة الخلايا الصغيرة من تلقاء نفسها. تجمعنا حول مقدمة طاولة عشاء دوللي ذات الكراسي الاثني عشر، تجمَّع خمستنا -راشد وأنا، دوللي وبلبل، وشقيقه جُنيد- وقُدِّمت إلينا للتَّوِّ كعكة الترايفل، الطبق المُفضَّل لدوللي، في إناءٍ زجاجي كبير. كان راشد يُمرِّر إليَّ الإناء، وحين التفتُ لآخذه منه، شعرتً بألمٍ حادٍّ مباغت يشُقُّ أحشائي. قبضتُ على مرفقه والألم يحتدم، أتطلَّع بفزعٍ وبقعة من الدماء تنتشر في حجري متجهةً إلى ركبتي. كان راشد لا يزال ممسكًا بالإناء، فحطَّه من يده. انهمك الآخرون في الأكل، وشوكات الحلوى تقرقع على أطباق البورسلين، وكريمة الكاسترد والجيلي تُلطِّخ أطباقهم.

نهض راشد وطلب من والده وشقيقه أن يُغادرا الغرفة. اعترض جنيد قائلًا إنه لم يُنهِ حلواه بعد، لكن بلبل رأى النظرة على وجه راشد وأمر الولد بالخروج فورًا. ولمَّا خرجا، قلتُ لدوللي: «أنا آسفة، ولكن أخشى أني أفسدتُ كُرسي العشاء». لُطِّخ التنجيد بالدماء تلطيخًا يتعذَّر معه الغسيل، عرفتُ هذا حتَّى قبل أن أنهض، لأنني كنتُ أجلس آنذاك في حوضٍ من الدماء، أما بقيَّة ذلك الكثير الملعون، الذي قلَّما تمنَّيت وجوده، ورغبت به مؤخَّرًا، هذه البقية افترشت النسيج الكُحلي والقشدي وصبغته. أنهضتني دوللي وراشد عن ذلك الكرسي، رويدًا رويدًا، ولفَّت دوللي شالًا حول خصري، وصعدنا الدرج إلى دورة المياه، حيث رقدتُ هادئة بملابسي في المغطس. مضى بعض الوقت، والمغطس يمتلئ بدوائر من لون ورديٍّ باهت وداكن تتسرَّب إلى الماء، قبل أن أدع راشد ينزع قميصي عبر رأسي. ثمَّ رقدتُ في موضعي هذا لوقتٍ طويل، أسبح في الذرات المتبخرة لطفلي، غارقة تمامًا في وحدةٍ أليمة.

وبعد رؤية الطبيب والفحوصات والتأكد من أنه لا ضرر جسيم قد وقع، اقترِح أن أقضي بضعة أسابيع في المدينة الساحلية الجنوبية «شيتاجونج»، حيث تمتلك عائلة راشد منزلًا ريفيًّا. سبق أن زرتُ المكان مرَّتين -إحداهما في عطلة صيفية رفقة والداي، والأخرى بُعَيد الزفاف، حين أقامت دوللي وبلبل حفل استقبالٍ لذلك الفرع من العائلة. وافقتُ دون جهدٍ حين عُرِضَ عليَّ الأمر، لكني لم أرغب في مجيء أحدٍ معي. ظننتُ أنهم قد يرفضون ذهابي بمفردي، لكنني وجدتُ شيئًا من السلطة قد خُوِّلَ إليَّ بعد ما حدث، وسُمِحَ لي بإملاء الشروط، أقله في الوقت الراهن.

أصررتُ أيضًا على ألا يعلم والداي شيئًا، وخاصَّةً أمي. كانت أمي تستعدُّ آنذاك لمحاكمة «حُسين هاشمي قبول» مُجرم حربٍ سيئ السمعة قضى سنواته الأربعين الأخيرة يتباهى بمآثره في وقت الحرب، متحدِّيًا أي أحدٍ أن يُقاضيه. استثمر في العقارات بُعيد التحرير، ثمَّ أنشأ مصنعًا للأسمنت، وصار مُورِّدًا لجميع شركات البناء في العاصمة، وكان رجلًا ذا سلطةٍ نافذة - وفي الحكومة الأخيرة، أُوكلت إليه وزارة. عرف الجميع بارتكابه الفظائع، وبأنه كان واحدًا من الرضاكار[1]، لكن هيئة المحكمة تريد شهودًا، وعثرت أمي على عائلةٍ عرفته في عام 1971، مزارع ووالده العجوز الذي رأى قبول يعطي الأوامر للرضاكار بجَزِّ رؤوس جميع الرجال في المنطقة وإضرام النيران في منازلهم. التقتْ المحامين ليلَ نهار، لتهيئة الشهود، والعثور على المستندات الداعمة، وتمشيط المنطقة بحثًا عن أي أحدٍ من شأنه أن يدعم روايتهم. ولهذا لا يمكننها أن تعرف شيئًا عن حازوقتي البسيطة. في كل مرَّة أراها أُخبرها عن مدى روعة كل شيء، والغيوم تتبدد من على صفحات وجهها، وأرى أنه ما من مكانٍ في ذهنها لأي شيءٍ عدا الأحاديث البسيطة.

حزمتُ حقيبةً من ملابسي القديمة، واستقللتُ أول طائرةٍ إلى هناك في صباح أحد أيام الأربعاء. حاول راشد إثنائي عن قراري في اللحظة الأخيرة، لكنني مضطرة إلى ترك بعض المسافة بيننا. كُسرت تعويذة الحب. لا يسعني التوقف عن التفكير في تلك النظرة على وجهه حين أدركَ ما كان يحدث، التأنيب البسيط الذي كان ليُعرب عن نفسه، لولا أنه قمعه، ليحميني من إدراك الحقيقة: وهي أن هذا الجنين كان لينقذنا، ومن دونه، سننجرف مع الريح مرَّة أخرى. أوصلني راشد إلى المطار، قاطعًا الوعد بأن يلحق بي في رحلة يوم الجمعة. ثمَّ انتظرني سائق على الجانب الآخر من الرحلة، ورحَّب بي ناظر المنزل، جوشيم، عند الباب الأمامي.

كانت فيلا خوندكار منزلًا متواضعًا من طابقين، بناه والد بلبل في خمسينيات القرن العشرين. له غرفة معيشةٍ شاسعة تفتح على حديقة

---

(1) الرضاكار (شرق باكستان): كان الرضاكار قوة شبه عسكرية معادية لبنغلاديش، نظمها الجيش الباكستاني في ذلك الوقت في شرق باكستان، التي تسمى الآن بنغلاديش، في أثناء حرب تحرير بنغلاديش في عام 1971. منذ حرب عام 1971، أصبحت مصطلحًا تحقيريًا (يعني ضمنًا خائن) في بنغلاديش بسبب الفظائع العديدة التي ارتكبها الرضاكار في أثناء الحرب. (المترجمة)

منحدرة. وفي الخارج، هيمنت زهور الجهنمية وبراعمها البرَّاقة التي تشبه اللهب على المشهد، وخلف تلك الحديقة انتصبت أشجار قديمة، يزداد انحدار الأرض من ورائها، ليختفي السيارات وأسفلت المدينة من المشهد. كانت «شيتاجونج» نسخة مُصغَّرة من دكَّا؛ لهما الوتيرة الحركية نفسها، والجداريات السياسية ذاتها، واللوحات الإعلانية لغسول الشعر والرحلات الجوية الطويلة وباقات الهواتف النقَّالة نفسها. لكن هنا والمنازل ترتفع عن الشوارع، احتفظت المدينة بروحها القديمة كمحطةٍ على التلة، مكان تجد فيه الهواء منعشًا وخفيفًا ولطيفًا لقربه من البحر.

في المنزل الشاغر، تملك الطاهية كومولا اليد العليا. أمرتني بأن أغسل يدي، ثمَّ أحضرت لي صينيةً وأمرتني بأكل الطعام. أدهشني إدراكي بأن شهيتي لا تزال قوية؛ إذ ذكَّرني هُلام الجوافة والخبز الأبيض بمواسم الصيف في طفولتي، حين اعتادت نانو أن تُعِدَّ كمياتٍ كبيرة من الشجرة في حديقتها، وكنتُ أغرز المعلقة مباشرةً في الإناء وأحرق لساني بالمعجون السكري المُشبِع. ملأت كومولا مغطس الضيوف وأمرتني أن أرقد فيه، لكن هذا بعدما منحتني جلسة تدليكٍ بزيت الزيتون. كان الزيت دافئًا، ويدا كومولا بهما من الخشونة ما يبعث على الارتياح، فخلدتُ إلى نومٍ عميق تلك الليلة واستيقظتُ منتعشة.

جاء راشد يوم الجمعة، وعبَّر لي أني صرتُ أفضل حالًا، ثمَّ قال وهو يُخشخش بمفاتيح السيارة في جيبه: «دعينا نمرح. أنا أعرف جميع مَن في هذه المدينة». وقفت كومولا عند مدخل الباب، تحمل في يدها طبقًا من بودنج الأرز. أجبتُ راشد بأنني لن أذهب إلى أي مكان؛ أعرف مدى رغبته في مساعدتي على إصلاح الوضع، وإسعادي للخروج منه، عدا أنه كان جليًّا في هذه الحالة تحديدًا أن ما من شيءٍ في جعبته سيكفي. ورُحتُ أجرف بودنج الأرز إلى طبقي وأتظاهر أني لم أرَ إحباطه.

خرج راشد بعد العَشاء ولم يَعُد إلا في وقتٍ متأخِّر من الليل؛ صعد إلى الفراش بجانبي وراح يُمرِّر يديه على جسدي صعودًا وهبوطًا. همس بأنفاسٍ تعبق بالكحول: «ضاجعيني»، فامتثل جسدي لوتيرة الحركات، وحاولت أن أستزيد طمأنينة من تقارب جسدينا، لكنني أتوقُ لانتهاء زيارته، فيسعني البقاء وحيدةً في المنزل مُجدَّدًا. ماذا سأقول لكَ يا إيلاجا لو كنَّا على اتصال؟ أي أغنيةٍ ستُخبرك الآن عن سُبل الوصال المعقدة التي وُعدتُ بها ثمَّ سُلِبت

مني؟ كنَّا قد توقفنا عن تبادل الرسائل بُعيد الزفاف، وجاءت آخر رسالة بعثتها إليك بلا تشفير تنقل إليكَ الأخبار في أرق صورها. قلتُ: «**متزوجة. سعيدة. الوداع**».

رحل راشد عن شيتاجونج ظهيرة اليوم التالي، وعلى مدار الأسبوع التالي امتثلتُ للروتين: إفطار مُبكر، ثمَّ جولة في أرجاء الضيعة برفقة جوشيم، حاملًا في يده عصا طويلة يُشير بها إلى الأشجار وينطق باسمها. وبعد ساعاتٍ قليلة من القراءة، أتناول غدائي في المطبخ برفقة كومولا والخادمات الأخريات. استنفد الأمر منِّي بعض الجدال لإقناعهم بالسماح لي بتناول الطعام معهم، لكنني أخبرتهم أني أجلس وحيدةً إلى طاولة العشاء الطويلة بمفردي. كان في المنزل طاهية أخرى، وخادمة وحارس وفتاة صغيرة تتولَّى أمور الغسيل وإزالة الغبار عن أثاث دوللي. وفي المساء، آخذُ حمامًا، ثمَّ مزيد من القراءة، ثمَّ أغطُّ في النوم على صوت الريح من النافذة المفتوحة. وسمعتُ كومولا تقول للآخرين: «الكنَّة لا تُحب مُكيف الهواء».

استغرقتُ في التفكير بشأن العودة إلى الديار حين تلقيتُ مكالمةً من صديقة أمي روبانا. كانت روبانا قد شغلت تفكيري بالفعل في يوم اتصالها تحديدًا، ورحتُ أسترجع آخر مرَّة رأيتها فيها. كان هذا بُعيد زفافي بأسابيع قليلة في منزل «سويتي»، واحدةٍ من بنات عمومة دوللي البعيدين. وجَّهت سويتي دعوةً إلى مجموعةٍ كبيرة من الأصدقاء ذوي مظهرٍ غايةً في التأنق -للحضور إلى منزلها في «باريدهارا»، والتزمت روبانا بملابسها العادية وقلة تبرُّجها. امتدت معرفتي بروبانا إلى الطفولة، ودومًا ما كنتُ أتوجسُ منها. بدت ملولة في تلك الليلة، وكثُرَ تطلعها إلى هاتفها وتجوالها في أنحاء الحديقة وهي تقبض يديها على فنجانٍ من الشاي. تَبِعتها فتطلعت إليَّ من أسفل إلى أعلى، وبِندي حمراء كبيرة مُنقَّطة على جبهتها، ثمَّ سألتني عمَّا أفعله، ليس: ما الذي تفعلينه يا عزيزتي؟ بل «ماذا تظنين نفسكِ فاعلة؟». أقله، هكذا سمعتُ سؤالها. ماذا أظنُّ نفسي فاعلة! هذا سؤال أطرحه على نفسي عادةً. يُشعرني بقليلٍ من التحسُّن كما يفعل ذكر الأمور بوضوح.

أخبرتني في المكالمة:

- كنتُ أفكر فيكِ. سمعتُ أنكِ في شيتاجونج.
- أجل، في منزل حميي.

- آه، صحيح، التلة. هل راشد برفقتكِ؟

- كلا، أتيتُ بمفردي.

- أتفرين حقًّا؟ امرأة حكيمة.

كانت روبانا امرأة متزوجة، لكن لم يرَ أحد زوجها قط. وتخيلتُه رجلًا ضئيل البنية، مُسبَّل الذقن، يتجول في الأرجاء مرتديًا تنورة لونجي ولا يجرؤ على رفع صوته عن الهمس.

- أعرفُ أحدهم يعمل في مشروعٍ في «سيتاكُندا»، تبعد قرابة ساعة منكِ. هل سمعتِ من قبل عن تفكيك السفن؟

تفكيك السفن. أجل، أعرف ما يعنيه هذا. أماكن مُحددة على الشاطئ حيث يُفككون السفن. وكل بضعة أشهر، أقرأ قصةً في الجرائد عن واحدٍ من العمال الذين يموتون في حريقٍ أو يسحقون أسفل الهيكل المعدني الصلب.

تابعت روبانا:

- ثمَّة باحثة بريطانية ترغب في إعداد فيلمٍ وثائقي، لكن لا أحد من العمال يتحدَّث إليها. يمكنكِ الذهاب إلى هناك ومساعدتها في إحراز نجاحات. مهمتكِ الترجمة. لدينا بعض السكان المحليين هناك، منظمة غير حكومية تُسمى «Shipsafe - شيب سيف»، لكنها لا تفيد بأي طريقة.

إن بادرة أن يأمرني أحدهم بالعمل، أرجحية أن أُحدِث تغييرًا حقيقيًّا، أضفت بُعدًا منطقيًّا لما أهدرته. فباستثناء «موبي ديك»، لا يسعني تذكر عنوان كتابٍ قرأته طيلة الشهور الاثني عشر الأخيرة. ألقيتُ اللوم على بارت وعلى عملية التنقيب الفاشلة، لكني في حقيقة الأمر لم أكن سوى امرأةٍ عنيدة، متشبثةً بلقبي المرموق، «عالمة حفريات»، دون أن أُدرك أنه قد سُلِبَ منِّي وأنه يجدر بي أن أقبل بالأمر بدلًا من أن أصير واحدةً من هؤلاء الناس الذي كرهتهم دومًا. ولكن لماذا لم يقل لي أحد شيئًا؟ أمي التي تُزحم كل يومٍ بمئاتٍ من أنشطةٍ فعَّالة عن الحياة والموت، ظلَّت على صمتها بينما كنتُ غافيةً معظم عامٍ كامل.

أجبتُ: «لا أعرف شيئًا عن الأمر».

- لا يُهم. استخدمي ذكائكِ.

تعلَّلتُ بسوء صحتي، وسمعتُ روبانا تزفر تنهيدةً في الهاتف. كانت تُقيِّمني، وتختبر حالتي المزاجية، ثمَّ وجدتني دون جدوى.

- يا لسوء الحظ. ربما لن تناسبكِ على أي حال. سيتعيَّن عليكِ الانتقال من المنزل الفاخر إلى أرباع المكاتب، فهذه هي الطريقة التي تمكنكِ من الدخول الفوري. لا أتصوَّر أنكِ ستبقين على قيد الحياة دون مُكيف الهواء.

حينها تفاجأتُ بنفسي أخبرها عن ديرا بوجتي. والحافلة التي استقلتها طيلة الليل إلى كشمور. وأسرَّة المخيم. والحفر بالإزميل في الشمس. إذ فرصة مغادرة هذا المنزل، وعدم العودة إلى دكَّا، بل الذهاب إلى مكان آخر، هي احتمالية لم أجرؤ على التفكير بها. ماذا سأقول للجميع؟ إذا قَبلتُ الوظيفة، وأجبرتني تلك الوظيفة على البقاء بعيدًا عن هنا، عندئذٍ الأمر خارج عن إرادتي.

قلتُ لروبانا أخيرًا: «أنتِ عرَّابة ساحرة».

***

أخبرتُ راشد في العطلة الأسبوعية التالية حين جاء لرؤيتي. فقال: «لكنني هنا لإعادتكِ إلى البيت». وخلَّل خصلات شعره بأصابعه الطويلة الخشنة. كنتُ أستنزفه، لكن لا يمكنه أن يحرمني من هذا، لا سيما بعد ما حدث. لا بُدَّ وأن كُرسي العشاء قد أُبعِد عن الطاولة. وتفكَّرتُ في مكان الكُرسي، أهو مُلقًى بإهمال في أحد الأركان في المستودع، أم أُعيد إلى المتجر ليجري استبدال القماش، ومَن تُراه سيُنجز هذه المهمَّة، وكيف سيشرحون الأمر، وهل اضطروا إلى دفع المزيد من المال مقابل تقزز العمال من العمل؟

تركتُ لراشد مهمَّة إذاعة الخبر إلى كلٍّ من والديَّ ووالديه. حاول أن يُقنعني بالبقاء في فيلا خوندكار، وأن يُرافقني السائق ذهابًا وإيابًا، لكنني رفضتُ، على أمل أن تكون الإقامة في سيتاكُندا غاية في السوء، إذ استشعرتُ بلهفةٍ مفاجئة للفرار من فسحات المنزل الفاخرة غير المسكونة. ألقيتُ الوداع على كومولا وجوشيم، وقد عنيتُ ما قلته حين أخبرتهما أنني سأفتقدهما، ووعدتهما بأن أعود متى احتجتُ إلى نومٍ ليليٍّ عميق أو وجبةٍ شهية.

وفي اليوم التالي، أقلَّني بلال، مُنسِّق منظمة «شيب سيف» في سيارة جيب متهالكة. صعدتُ إلى المقعد الأمامي بجانبه، وازدادت سرعتنا في أثناء هبوط التلة. كان بلال حديث الزواج، وراح يُقلِّب صور زفافه على هاتفه بينما يقود بنا للخروج من المدينة. ألقيتُ تعليقًا على لُطف عروسه. لم يختلف مظهرها عمَّا بدوتُ عليه قبل عامٍ فحسب، وصَفٌّ من زهورٍ صغيرة يملأ فراغ شعرها المفروق. اتخذنا طريقًا يحاذي البحر؛ ومصافي النفط تصطفُّ على أحد جانبي الطريق، والجدران العالية تفصل الطريق عن الساحل على الجانب الآخر، وعلى سطح الماء تطفو ناقلات نفط عملاقة وسفنُ حاوياتٍ في انتظار تحميل شحنتها أو إفراغها. ثمَّ عدنا إلى اليابسة، ومن فورنا علقنا في الزحام. منكفئًا على عجلة القيادة، أخذ بلال في الآن نفسه يتأمَّل جمال زوجته ويشكو أن شيتاجونج لم تعد أفضل حالًا من دكَّا وبعد أن ازدهرت التجارة. أشار إلى بوابةٍ وقال: «أترين»، كأنني سأفهم ما يعنيه. كانت اللافتة تقول: «**منطقة تجهيز الصادرات**». ثمَّ تبدَّد الزحام وأسرعنا في طريقنا، مُخلِّفين من ورائنا المباني المنخفضة والأسلاك المُعلَّقة للمدينة، مستقبلين سماءً صافيةً شاسعة.

قطعنا بضعة أميالٍ على طريق دكَّا-شيتاجونج السريع حين اختفت التلال الناعمة التي تقاطع الأفق، وباغتنا منظر المخلفات المعقدة للسفن المُفككة. أشار بلال إلى ساحات خُردة شاسعة تبدو فيها المخلفات كأنما أُنقِذت من منطقة حرب: مُبرِّدات مُعطَّلة، أنابيب أكسجين، صفوف متتابعة من عوامات الإنقاذ، مقاعد مرحاض، غسَّالات، وأقفاص معدنية أشار إليها بأنها مكابس، ثمَّ سلسلة من متاجر التحف التي تحوي -كما أخبرني- بوصلاتٍ وحُليًّا ومصابيح نحاسية وأشياء أخرى وُجدت على متن السفن. ثمَّ مررنا على عددٍ من متاجر الأثاث، تعرض واجهاتها المفتوحة أرائك متهالكة وأسرَّة مزدوجة وخزانات لحفظ الملفات ومكاتب، وقال إنهم يتظاهرون أحيانًا بأن البضاعة آتية من السفن، في حين أنها مصنوعة على قارعة الطريق.

ظلَّ بلال يختلس نظراتٍ فضولية نحوي، هذا لأنني نادرًا ما أصدرتُ صوتًا أو أعربتُ عن غرابة المنظر، وهو أمر لا بُدَّ غاية في الندرة؛ ربما اعتاد أُناسًا يتحدَّثون عن غرابة ما يحيط بهم، مثل لمحةٍ على مستقبل سوداوي حيث كل شيءٍ إما منقَذ وإما شبه متهالك. لكني شعرتُ بالخدر نحو كل هذا، مسرورة برؤية شيءٍ يماثل الفوضى التي أشعر بها بداخلي. لم أُفِق إلا حين مررنا

عبر بوابات «Prosperity Shipbreaking - بروسبيرتي شيببريكنج»، ورأيتُ ناقلة نفط في المراحل الأخيرة من تفكيكها، ديناصور من المعدن، مُقطَّعة إلى أشلاء ترقد على جانبها والشفرات المعقوفة لمروحتها مكشوفة، حينها عجزتُ عن كبح نفسي من قذف اللعنات بصوتٍ مرتفع. قلتُ مندفعة: «اللعنة!»، فأجابني بلال مبتسمًا، كأنما ربح لتوِّه رهانًا.

كان مكتب «شيب سيف» على طريق صغير أُحسِنَ رصفه متفرع من الطريق السريع، وعلى بُعد بضع خطواتٍ فحسب من الشاطئ. ضمَّ المكتب غرفتين فحسب -أولاهما في الأمام ذات شرفةٍ تطل على مرجٍ عشبي صغير حيث زرع أحدهم بصلًا وكزبرة، والغرفة الأخرى متصلة بالمطبخ الذي كان بمنزلة غرفة اجتماعاتٍ صغيرة. خُصِّص لي مكتب خشبي صغير ذو سطح زجاجي في الغرفة الأمامية. ثمَّة حارس مسؤول عن إبقاء المكان نظيفًا، أعدَّ لنا كاري السمك معقول المذاق على الغداء. وفي المساءات، عليَّ أن أعتمد على نفسي.

ملأ بلال الغلَّاية بالماء وتشاركنا أقداح الشاي على مكتبي الجديد. سألته بضعة أسئلةٍ عن زفافه، فأراني صورة أخرى، هذه المرَّة كانت الصورة له جالسًا على كُرسي الزفاف مع عروسه أسفل ستارةٍ باللونين الأحمر والأصفر. ثمَّ استدعى جبريلا، الباحثة البريطانية التي استُدعيتُ لمساعدتها.

وصلت جبريلا مؤخَّرًا إلى شيتاجونج بعدما قضت أربع سنواتٍ في «Rainbow Warrior - رينبو وورير»، وجاءت إلى هنا لاستكمال المقابلات الشخصية المبدئية للفيلم، وبعدها سيصل المُخرج وطاقم العمل في غضون عدَّة أشهر. نطقت ببعض الكلمات البنغالية التي تعلمتها في لندن قبل الانطلاق في رحلتها إلى شيتاجونج.

سألتُ بلال: «لماذا لم تنجح المهمَّة؟».

رأيته يتطلَّع إلى الحديقة في الخارج، ثمَّ أجاب أخيرًا وهو يرفع كتفه: «إنها أجنبية. تطرح الكثير من الأسئلة».

- أليس لهذا السبب تحديدًا هي هنا؟

- هل تمانعين التدخين؟

سأل بلال وأخرج عُلبة «Benson & Hedges - بينسون & هيدجيز» قبل أن أتمكَّن من الجواب. وأحضر منفضة سجائر من فوق مكتبه على الجانب الآخر من الغرفة، ثمَّ قال: «لا أثق بها».

حاولتُ الضغط عليه بمزيدٍ من الأسئلة، لكنه لاذ بالصمت، مسترخيًا في كُرسيه وهو يسحب أنفاسًا قوية من سيجارته. وبعد مدَّة طالت، قال: «إنها صنعة قاسية. طيلة سنوات، ظللنا نعمل بأناةٍ وصبر مع المُلَّاك. وفجأةً، جاءت هي لتخبرنا عن مدى سوء الأمور. إن إنتاج فيلمٍ لن يُغير شيئًا».

لا أود أن أُسحب إلى جدالٍ عن الغرض من الصنعة. كان لبلال ندبة طويلة تمتد على طول عضده، أظهرها وهو يُطفئ عُقب سيجارته في الأرض. سألته عن الندبة، فأجابني أن والده التقط شفرة حلاقة وشقَّ بها لحمه ذات مرَّة حين كان في نحو الثانية عشرة، لأنه ضبطه يُقبِّل ابنة عمه. قال وهو يضع إصبعًا على شفته: «قبَّلتها على الشفاه. ضبطتنا الخادمة وجرَّتني إلى الخارج من أذني. وكان أبي يحلق ذقنه».

بيد أن القصَّة تبعث في نفسه الارتياح، فجذب كرسيًّا آخر أمامنا ومدَّد ساقيه.

قلتُ: «أحيانًا يُفضل الناس الحديث إلى الغرباء».

- لا أحد سيُخبر تلك المرأة بأي شيء.

***

كانت الشقة ألطف حالًا من المكتب، ذات نوافذ مفتوحة على جانبين، أحدهما يُطل على الطريق، والآخر يُطل على الشاطئ البعيد. ثمَّة غرفتا نوم ومساحة جلوسٍ صغيرة، وطاولة عشاء وكُرسي وبضع وسائد مربعة كبيرة على الأرض. أخذتُ أنا الغرفة الشاغرة الأصغر حجمًا. وبعدما أفرغتُ حقيبتي وبسطتُ الناموسية، جذبتُ الكرسي نحو النافذة وأكلتُ النودلز التي حزمتها كومولا من أجلي، وأنا أُنصت إلى الأزيز البعيد للمصهر على حافة الشاطئ. سرعان ما أعقب الشفق ظلامًا دامسًا، وإذ أوشكتُ أن أطفئ المصباح الفوقي في محاولة للخلود إلى النوم، انفتح الباب الأمامي ودخلت جبريلا.

توقَّفت لهُنيهة، ثمَّ أدركت مَن أكون، فراحت تقفز وألقت بذراعيها حولي. كانت في الأربعينيات من عمرها، طويلة القامة مفتولة العضلات، ولها شعر

بُنِّيٌّ مُحمَرٌّ. قالت: «شكرًا ليسوع، أنتِ هنا». أجبتُ ابتسامتها بأخرى. ودون الجلوس أو حتَّى حطَّ حقيبتها الكبيرة المتدلية من كتفيها على الأرض، بدأت في إمطاري بالأسئلة. لماذا كان العمال في عمر صغيرة؟ مِن أين جاؤوا جميعًا؟ أين آباؤهم؟ ولماذا بحق الإله يختار أحد هذا الشاطئ، بمياهه الشفافة ورماله الناعمة، لتدمير السفن، عوضًا عن اختياره لحمام الشمس والسباحة والوقوع في الحب؟ لقد جاءت إلى هنا منذ شهرٍ ورفض العمال الحديث إليها.

- يبدو الأمر كأن أفواههم مخيطة.

أعرف سبب ذلك بالفعل، بعد خمس دقائق من لقائي إياها. هناك طريقة لباسها على سبيل المثال. قميصها ذو الزِّرين المفتوحين أكثر من اللازم. كانت قد شمَّرت أكمامها لما يتجاوز مرفقها، لتكشف عن العضلات البارزة لعضديها. وارتدت سروالًا ضيقًا من الجينز، وبرزت مؤخِّرتها لأنها قد حشرت قميصها في السروال. كيف سيعرف أحد منهم أين يضع عينيه، ناهيك بفتح أفواههم وإخبارها بشيء؟ وضعت قرطًا في أنفها، وثُبِّت ثلاثة في كل أذن، واستقرَّت قطعة صغيرة من الحُلي فوق شفتها، حيث تبرز شامة أو وحمة. ذكَّرتني بإعلان سجائر كلاسيكية، حيث تستعرض المرأة عضلاتها ثنائية الرأس. هجين من ذاك ومن الهيبز وراكبو الدرَّاجات. شعرتُ نحوها بشيءٍ من التقزُّز، يُخالطه الافتتان بوجودي في حضرة شخصٍ خارج كليًّا عن ثقافة القوم.

عرضت عليَّ جبريلا الغرفة الأكبر، لكني رفضت. وقالت: «أقله استريحي على الفراش لبضع دقائق. لا يوجد مكان مريح للجلوس». ثمَّ فتحت زجاجة تكيلا، وأصرَّت عليَّ أن أتناول قليلًا.

- هذا الخراء هو الشيء الوحيد الذي يُبقيني في حالة عقلية سليمة.

كنتُ سأجيبها بالرفض، ثمَّ فكَّرت: اللعنة، ليس الأمر كأنني حُبلى. احتضنتُ فوهة الزجاجة بشفتي، فأشعل السائل حريقًا طيلة سريانه إلى معدتي. وظلَّت هي تُعرب لي عن مدى سعادتها برؤيتي.

- أخبريني عمَّا سنفعله. لقد وصلتُ إلى طريقٍ مسدودٍ هنا.

أجبتُها:

- لا أدري بعد. امنحيني بضعة أيامٍ لأُفكر بالأمر. حقيقةً لستُ خبيرة في التعامل مع البشر.

- حقًّا؟ أخبرتني روبانا أنكِ بارعة في هذه الأمور. وقالت إن لديكِ فطنة استثنائية. وقالت شيئًا آخر، لا أتذكَّر ما هو.

- أنا عالمة حفريات.

صفعت غطاء السرير بيدها وهي تقول: «أنتِ تمزحين!».

- إن رعاياي في غالبيتهم ميتون.

- أنتِ ثملة.

- في الحقيقة، أنا ثملة. ولكن قليلًا.

أجابت مُصحِّحة:

- لا، أعني... أخبرتني روبانا أن قدراتكِ مهدرة. لا أدرك ما عنته بذلك، ولكني افترضتُ أنكِ تعملين في وظيفةٍ بلا مستقبل أو شيءٍ كهذا. لكنكِ مُغرمة بالديناصورات، هذا ما لم أتوقَّعه.

ضحكتُ وأنا أسترخي على الفراش. ثمَّ قلتُ: «حسنًا، إن روبانا وأمي لهما تعريف خاص جدًّا للحياة الهادفة».

- كما أنكِ أشدُّ إثارةً ممَّا تصوَّرت.

- لقد تعرَّضتُ للإجهاض.

أفصحتُ عن هذا قبل أن أدرك ما أفعله.

- آه، اللعنة، أنا آسفة لكِ.

مرَّرت إليَّ الزجاجة، فتناولتُ جرعةً أخرى. ازداد استرخائي على الفراش ورأيتُ السقف يسبح من فوقي. وحين شعرتُ بإرهاقٍ يصعب معه الإبقاء على عيني مفتوحتين، اتخذتُ طريقي إلى فراشي الخاص، ورأسي يطرق، ثمَّ سقطتُ بظهري أسفل الناموسية.

في اليوم التالي، صحبتني جبريلا إلى الشاطئ. كانت هذه أول رؤية متكاملة لما هو عليه «بروسبيرتي شيببريكنج». وأنتَ تقرأ هذا الآن، ترى صورتكَ عن المكان واضحة في ذهنك بنفس وضوحها في ذهني. ما أذكر أنني فكرتُ فيه حين وقعت عيناي على المكان، هو أنه مكان يسعني فيه أن أُعاقب نفسي بقدر ما أريد دون أن يلاحظ أحد؛ هذا لأنه كان أقل المناظر الطبيعية حيويةً في العالم، ليس لأنه قبيح، بل لأنه جميل، وخَرِب.

كانت السفينة التي لمحتها في اليوم الماضي -واسمها هو «سبليندر» كما أُخبرتُ لاحقًا- راقدة على جانبها، ومروحتها تشير نحو السماء. تفكَّك جسرها، وقُطِّع جسمها إلى شرائح كما يُقطَّع اللحم من الذبيحة. وعلى حافة الشاطئ، عمل المصهر بسرعته القصوى؛ كان الهواء مشبعًا بالرائحة القابضة للمعدن المحترق. وقفتُ هناك لوقتٍ طويل غمرني فيه شعور بأنني على حافة العالم، حيث يتسنَّى للمرء أن يرى أو يفعل أي شيء. أشارت جبريلا إلى رجلٍ يبعد عنَّا مسافة، مُعلَّق يتدلَّى من سطح سفينة بارتفاع ناطحة سحاب، مربوط بحبلٍ وحيد حول خصره. ثمَّ قالت: «أيمكنكِ تصديق هذا الهراء؟».

تألَّفت ترسانات تفكيك السفن من مربعاتٍ صغيرة من الواجهة البحرية. وإذا تطلعتَ من الطريق السريع، أمكنكَ أن ترى الجدار المرتفع ذا البوابات المزدوجة بعد كل مئة ياردة أو ما شابه. ولكن ما إن تدخل إلى واحدة من الترسانات، يمكنكَ أن تنظر إلى الامتداد الكامل للخليج، أن تتطلَّع إلى سفينة واحدة تلو الأخرى في حالاتٍ مختلفة من التفسُّخ. يمكنك التطلع شرقًا أو غربًا وترى ناقلة نفطٍ بطول ميلٍ كامل، أو سفينة حاويات، أو جزءًا من شيءٍ كان في سابق عهده متعلقًا بالبحر وصار مجرَّد مساحة ممتدة من معدنٍ متداعٍ. وإذا أمعنت النظر، إذا صببت كل تركيزك على النظر حقًّا، سترى الهياكل الضئيلة لأشخاصٍ يتدلون من السفن، يُفككونها أجزاء بمواقد اللحام والمطارق.

دفعتني نظرتي الأولى إلى هذا المشهد للشعور بحزنٍ عميق. أو بالأحرى، قَبَضَت على الحزن الكامن بداخلي بالفعل وعظَّمت من أثره، فشعرتُ أني جُبِلتُ من شيءٍ لا يمكن تطويعه، معدن صلب دخيل. قضيتُ بعض الوقت لأدرك أن ما أفعله في حقيقته رثاءً، وربما أتوصل الآن إلى فهم الأمر، بعد كل تلك السنين. لا شك أنني أرثي الحمل. لم أنتبه إلى حاجتي بأن أشارك شخصًا آخر الدماء نفسها؛ لم أُفكر في ذلك من قبل، وإذ تعرَّضتُ للإمكانية، وإذ سُلِبت منِّي تلك الإمكانية، عظَّم هذا من حِدَّة اشتياقي، في صدمةٍ مضاعفة من الرغبة في شيءٍ هو جديد في خصائصه، لكنه قديم كذلك.

أزيدكَ من الشعر بيتًا، استرجعتُ باكورة شعوري بالمرارة حين رأيتُ هذين الخطين الأزرقين وأدركتُ أن الأمر لم يكن عدم رغبتي في إنجاب طفل، بل هو عدم رغبتي في إنجاب طفلٍ من راشد. كنتُ قد سمحتُ لنفسي بالانجراف لهُنيهة مع احتمالية أن يجمعنا طفل معًا، عدا أنني في الأصل لا

أرغب في إثقال روحي بوجودٍ سيربطنا معًا إلى الأبد. لم يكن راشد هو الرجل المنشود. أما المعرفة التي اهتديتُ إليها في ذلك اليوم الأول على الشاطئ، فأشبه بحبةٍ صغيرة من الشك أُضيفت إلى كل شيءٍ آخر، مثل حبات الساعة الرملية. ومثلما هو الحال مع كل حبات الرمال الصغيرة الأخرى، دفعتُ بها جانبًا ومضيتُ كسابق عهدي، رافضة أن أفكر في كل الأمور مليًّا.

حاولت جبريلا إقناعي بلقاء العمال من فورنا، عدا أنني رغبتُ في أن أصير شخصًا مألوفًا على الشاطئ أولًا قبل أن أقترب من أحد. قضيتُ معظم أيام الأسبوع الأول في مكتب «شيب سيف» أطَّلعُ على المستندات التي جمعها بلال عن الصنعة. كثُرت القصص المشكوك في صحتها عن كيفية بدء الأمر -عاصفة هوجاء في خليج البنغال، سفينة رست على الشاطئ، ثمَّ جماعة من الجرَّافين، واكتشاف الصلب، وفي نهاية المطاف، أحال رجال الأعمال الحظ العسر إلى أرباح.

كان ميرزا علي -مدير الترسانة البحرية- هو أول وجهات اتصالي. أطلَّ من مبنًى صغير ذي سطحٍ من القصدير المُجعَّد ونوافذ تُواجه الشاطئ. وفي الداخل، أخذ يرشف وفريق عمله الشاي ويتجادلون عن أي سفينةٍ سيُفككونها. انتظرتُ حتَّى يدعوني علي للقائه، ولمَّا فعل، عرفتُ ما عليَّ فعله. إن عامًا كاملًا قضيته زوجةً لراشد أجاد استعدادي لتلك اللحظة. ارتديتُ ساريًا ورشفتُ الشاي معه، وبثثتُ في جنباته الارتياح إذ أثنيتُ على تسييره لعمله. وسرعان ما باح علي بإحصائياتٍ عن عدد أطنان الصلب التي باعتها ترسانته إلى مواقع الإنشاء. استمعتُ إلى حديثه في تهذيب، وأنا أتبين سترته الطويلة البيضاء وطاقيته للصلاة، والزبيبة المضيئة على جبهته التي تُميزه كرجلٍ يصلي خمس مرَّات في اليوم. كرر سؤاله عن مدى ارتياحي، مشيرًا إلى عدم صلاحية المسكن في شقة شيب سيف، لكني ابتسمتُ وطمأنته بأن كل شيءٍ على ما يرام. أدركتُ سبب إرسال روبانا إياي إلى هنا، وهو بلا شكٍّ بسبب الطبقة الاجتماعية لأن علي سيسعد بحضوري، ويهدأ ارتيابه الطبيعي، ثمَّ أسهِّل طريق جبريلا إلى داخل الشاطئ.

تزامن وصولي مع شراء سفينة جديدة تُسمى «جريس»، وسرعان ما دعاني علي لمشاهدة وصول السفينة. وقال: «إن إرساء السفينة تجربة فريدة. مزيج من المهارة ومشيئة الله». دعاني للمجيء ولأرى الإرساء بنفسي، ووافق

مُكرَهًا على السماح لجبريلا بمرافقتي. لكنني قلتُ: «أن ترافقني ضيفةً عليك»، مدركةً أن علي سيرغب في الظهور أمامي بمظهر المضياف.

***

وفي صبيحة وصول السفينة جريس، أُعلِمتُ وجبريلا بوجوب استيقاظنا قُبيل الفجر بساعة واتخاذ طريقنا إلى الشاطئ. من خارج نافذتي، كان الوجود غارقًا في الظلمة، عدا بضع شوائب بلونٍ برتقالي تنبعث من مصابيح الكيروسين لمسكن العمال. وفي الأفق، أمكنني سماعُ هدير الموج يتمايل نحو الخليج.

طرقتُ باب جبريلا. كان بدرٌ جديدٌ قد حلَّ في أثناء الليل، وارتفع المد والجزر بمرور الساعة. وصاحت جبريلا: «هل حان الوقت؟».

كانت جريس باخرةً سياحية خرجت من الخدمة. يبلغ طولها نحو ألف قدم، وبذلك هي أكبر باخرة رُكَّاب وصلت إلى شاطئ بروسبيرتي مطلقًا. أراني علي صورةً فوتوغرافية لسفينة هوائية بيضاء ذات بيص أحمر، وأسطح برَّاقة، وصفٌّ من نوافذ ضئيلة. سيستغرق الأمر منهم ثلاثة أشهر، وربما أربعة، لتفكيكها. كانت سفن الرُكَّاب قليلة وعلى مسافاتٍ متباعدة على الشاطئ؛ وحين تناقلت صورة فوتوغرافية لها في أرجاء المكتب، ازداد الحماس حيال وصولها. بقيت الباخرة لبضعة أيامٍ في ميناء شيتاجونج، مجتازةً إجراءات التفتيش الجمركي، منتظرةً ارتفاعَ المد إلى أقصى ذروته. أما السبب وراء إرسائهم السفن في هذا الموقع تحديدًا، فهو ضحالة المياه لما يقرب من ميل، ثمَّ الخروج إلى مياه شديدة العمق فجأةً، وهو ما يُسهِّل على البواخر دكَّ هيكلها دكًّا في الرمال والمد لا يزال عاليًا. ولما يتراجع الماء، ستُترك السفينة في موضعها، جاهزة ليشرع العمال في جسمها ويبدؤون في تفكيك أجزائها. وكان هذا هو الجواب على سؤال جبريلا في تلك الليلة الأولى.

يرجع السماح بوجودي ووجود جبريلا في الموقع إلى رئيس علي. لسنواتٍ طويلة، شنَّت شيب سيف الحملات لحظر الصنعة بأكملها. كانت روبانا قد نجحت في تحصيل بضعة أوامر توقيف قضائية من المحكمة، لكن أثرها لم يزد على إبطاء العمل لبضعة أشهر؛ وسرعان ما بُذِلَت الأموال في الجيوب المعنية، وجرى تجاهل الأوامر القضائية، وبدأت السفن في الوصول مُجدَّدًا. ولمَّا اقترحت جبريلا وطاقم الفيلم رواية قصة مُفككي السفن، قررت روبانا

تجربة مسلكٍ مختلف. ذهبت إلى بروسبيرتي، أكبر ترسانة سفن، لاقتراح مساومة: إذا سُمِح لمؤسسة شيب سيف بالدخول إلى الموقع وكتابة التقارير عن ظروف العمل على الشاطئ، ستُزكّي منح شهادة امتثالٍ من وزارة البيئة للترسانة. وفي إطار هذه الاتفاقية، ستسمح الشركة لفريق جبريلا بتصوير فيلمٍ عن العمال.

قُدِّم هذا المقترح إلى مالك بروسبيرتي، رجل يُدعى هاريسون ماستر. أسس هاريسون، وهو رجل استهل طريقه ببداياتٍ عسيرة، سلسلةً من القطاعات الصناعية على ساحل شيتاجونج: صناعة ثياب، أسمنت، غاز طبيعي، ومُخصِّبات. واشترى تلةً على حافة بحيرة -تزيد شسوعًا على تلة بلبل- ومنها يُراقب إمبراطوريته. أعجبته فكرة أن تكون ترسانته هي الوحيدة المختارة لتصير موضوعًا لفيلم، وتأثَّر بالتفكير في ارتفاع شأنه عن الشركات الأخرى في المنطقة، ليس في حجم أعماله فحسب (لأنه قد أنجز هذا بدوره)، بل في جودة تنفيذه للعمل. وبهذه الكيفية مُنِحتُ وظيفتي: سأجري وجبريلا مقابلاتٍ شخصية مع العمال، وأكتب تقارير عن تفكيك سفينة واحدة، وهي جريس، ثمَّ نُقدِّم ما توصلنا إليه. وبهذا تُصوِّر جبريلا فيلمها، ويحصل هاريسون على شهادته.

طرقتُ باب جبريلا مُجدَّدًا، فاندفعت خارجةً من الغرفة، بشعرٍ مُحكَم في منديل رأس. ميَّزتُ قميصها الضيق وسروالها الجينز الذي ينتهي أسفل ركبتها ببضع سنتيمترات. كنتُ قد ذكرتُ لها شيئًا عن طريقة لباسها، عدا أنها بطريقة أو بأخرى استنتجت أن المقصد وراء حديثي هو أنه يجدر بها تغطية رأسها.

تنفَّس الصبح في الأفق، وعلي ينتظرنا على الشاطئ. جاء ثلة من العمال كذلك، وشكَّلوا معًا حزبًا صغيرًا، بعضهم يرفع يديه فوق عينيه ليرى مَن سيستطيع استجلاء السفينة أولًا. أبرق علي بزجاجة عصير تفاح فوَّار خالٍ من الكحول، على استعدادٍ ليفتحها ما إن يهبط طاقم السفينة جريس. وعلى مبعدةٍ منَّا على الشاطئ، نُصِبت خيمة وأُعِدَّ الإفطار. سيساعد القبطان في مناورة جريس إلى ترسانة بروسبيرتي، حريصًا على أن تظل في وضعٍ منتصب تمامًا في أثناء الرسو. يا لها من مهارةٍ فريدة! كان علي قد أوضح الأمر كله لي في اليوم السابق، مشيرًا إلى رايةٍ حمراء في الماء، وقال: «ما إن يعبر القبطان الراية حتَّى تصير السفينة في أمان».

انبثق نور الصباح ونحن ننتظر، ثمَّ جاءت، بريق فضي في الأفق. وقفنا نشاهد اقتراب البريق وتضخمه. ووصل المزيد من الرجال، يمسحون عن أعينهم آثار النوم. بدأ منحنى السفينة في الظهور، حينها أمكننا أن نرى بريق جسم السفينة، نظم من المنحنيات يبرز من بقايا الظلام، وفجأة تجسَّدت أمامنا، كأنما انعطفت بزاويةٍ حادة؛ بيضاء شامخة وعتية. قال علي: «يُهيأ لكِ أنها ستدهسنا، لكن هذا مجرَّد إيهام».

صار مخورُ جريس مسموعًا، عزَّزه اندفاع الماء إذ تقترب؛ ثمَّ توقَّفت لدقيقةٍ كاملة قبل الدفع الأخير إلى الشاطئ، ونخير المُحرِّك المتباطئ، واحتكاك المعدن بالرمال؛ كل هذا وعلي والآخرون يرفعون أيديهم في الهواء كأنما يستدعونها من السماء؛ ثمَّ رست، فانفلق خط الشاطئ إلى جزأين، بحضورها الشامخ، وثِقلها الجلي، أطنان فوق أطنانٍ من الصلب هي دون البحر لتطفو فوقه. وأمام جسم جريس الضخم، غرقنا في الضآلة والوهن. تمتم علي بدعاء بصوتٍ خافت، ثمَّ نفخ الهواء من وجنتيه، ناشرًا بركته في الأرجاء.

سِرنا نحوها. كانت مطلية بلونٍ برَّاق حتَّى اضطررنا إلى النظر بعينين نصف مغمضتين وحمايتهما. قال علي: «أترين. قلتُ لكِ إنها نقية». احتشد العمال ثلاثة أو أربعة في أعماق الماء حول جسم السفينة. بدوا مرتعدين، لكن علي طمأنني: «لقد فعلوا هذا مرَّات كثيرة من قبل. إنهم ذوو خبرةٍ، وسنتخذ جميع الإجراءات الوقائية اللازمة». لكنَّ الوقوف أمامها آنذاك، وبيصها الأسود ينغرزُ عميقًا في الرمال، تبدو شاهقة للغاية، هل تساءلوا كيف سيتسنَّى لهم تفكيكها؟ أقل من الخمسين عددًا، لا يملكون سوى قوة سواعدهم أمام كتلة السفينة -سفينة جُمِّعت أجزاؤها في مكانٍ آخر، مكانٍ يملك الآلات والسقالات والخوذات وبطاقات الدخول والحد الأدنى من الأجور- ومع ذلك، تلك هي وظيفتهم أن يجلبوا إليها الموت. سيلمسون كل بقعةٍ من جريس؛ وسيترك ثِقلها آثاره على أيديهم، وفي أثناء سير الأمور، ورغم طِيب نواياهم، ربما تسلب حياةً أو اثنتين وهي في طريقها للزوال.

صفَّق العمال وهتفوا، أحدثوا أصواتًا ليجعلوا من أنفسهم نِدًّا. وبعد بضع دقائق، برزت هيئة على طرف سطح السفينة. وازن ذراع الدفة وصعد إلى السطح، فبدا كأنما على وشك أن يُلقي بنفسه من السفينة، لكنه في حقيقة الأمر وضع قدمه على سُلَّم مُموَّه عُلِّق على جانب السفينة.

اندفع علي وسط الحشد، لكنَّ العمال لم يتحرَّكوا، مأخوذين ببهاء أجمل شيءٍ وأحدثُ شيءٍ طُلب منهم تفكيكه. أخبرني علي أن جريس قد انحرفت لخمسة أيامٍ في المحيط الأطلنطي بعدما مات قبطانها على متنها، إذ أضرم النيران في نفسه في غرفة المُحرِّك. أُرسل اثنان من زوارق السحب ليسحباها إلى الشاطئ، وبعد أسبوعٍ رست في «بورتسموث». وبعد بضعة أشهر، أبحرت ثانيةً، ليتفشى فيها فيروس هذه المرَّة. بقيت جريس في الميناء لشهرٍ كامل، وعُزِل رُكَّابها حين كان الطعام والدواء يُقذفان إليهم بالمروحيات. ولهذا قرر مالك الشركة، وهو سويدي يؤمن بالتطيُّر، أن يوقف سيل خسائره، وخرجت جريس من الخدمة، لا يتعدى ذكرها حاشية في تاريخ السفن المنحوسة.

تلقى القبطان مساعدةً في النزول من أذرعٍ كثيرة امتدت إليه، لتوسيد هبوطه. كان يرتدي زيًّا أبيض ذا طيَّاتٍ زرقاء ذهبية، مُحكَمًا حول كتفيه وفخذيه. مدَّ يده وصافح يدَ علي، حين قال الأخير: «مرحبًا بكَ أيها القبطان».

أجاب القبطان، وهو يحطُّ عنه قبعته ويُخلل بساط الشعر الناعم أسفلها بأصابعه: «نادني جاك». افترشت جبهته بقعة من الحُمرة، فأضاف قائلًا: «الطقس حار هنا، أليس كذلك؟».

قلَّبت جبريلا عينيها، وقالت: «هذه ليست بعثة استكشافية إلى القطب الشمالي».

فرقع غطاء القنينة. وهبط بقية الطاقم، ثمَّ قدَّم لنا جاك رجلين كوريَّيْن، ومهندسًا من الهند، وثلاثة رجالٍ من نيبال صعدوا على متن السفينة في لشبونة وعُرِض عليهم ركوب مجاني مقابل الطهي والتنظيف.

تهلل وجه علي وهو يسألني: «إذن يا سيدتي، ما رأيكِ بها؟».

اتخذ الآخرون طريقهم بالفعل نحو الشاطئ باتجاه الخيمة. وسارت جبريلا رفقة جاك، تعبث الريح بمنديل رأسها، كاشفًا عن خيوط شعرها النحاسية.

أجبتُ علي: «يصعب عليَّ تصديق أنها ستزول قريبًا».

- في غضون أربعة أشهر، لن تزيد على خردة.

توقَّفت وأدرتُ عينيَّ إلى جريس، أتخيَّلها أشلاء، مثل «سبليندر».

- أصحيح أنها على حالها تمامًا كما تركوها؟

سرد علي فضائل السفينة التي ستهلك قريبًا، فقال: «كازينو، سينما، مطاعم، حوض سباحة».

- وماذا سيحدث لكل هذه الأشياء؟

- ستُباع يا سيدتي. سيأتي الناس من دكًّا غدًا، وسيعطوننا سعرًا.

عقد ذراعيه على صدره، ثمَّ أضاف بنبرة صوتٍ راضية:

- تهتم الفنادق بهذه الأمور.

لسببٍ أو لآخر، أحزنني ما سمعته، وبقيتُ أتوقَّف وأتطلَّع إلى الخلف.

تابع علي:

- هذه هي دورة الحياة. تُبحر سفينة، فتأتي أخرى إلى هنا.

ثمَّ تطلع إليَّ، وأوضح:

- لستِ سعيدة يا سيدتي.

تأمَّلني لهُنيهة، ومضى قائلًا:

- ما رأيكِ لو أخذتكِ في جولةٍ خاصة، هل تودين ذلك؟

عاينتُ السُّلَّم الضيق الذي يصل إلى الأعلى. لازمني دومًا خوف طفيف من المرتفعات، ولم تُغرِني فكرة أن أكون وحيدةً برفقته على متن سفينة مهجورة.

- لا أدري.

- سأضمن لكِ سلامتكِ بشخصي.

فقلتُ وأنا أردد شعار الهزيمة خاصتي: «لستُ من النوع المُغامر».

تناولنا فطورنا في الخيمة، جالسين على كراسٍ خشبية إلى طاولاتٍ مستطيلةٍ طويلة. كان الهواء في الداخل عابقًا برائحة العفن. وأصرَّ علي أن أنضم إليه في الطاولة الرئيسية، والتي زُيِّنت بمفرش مائدةٍ باللونين الأبيض والأحمر، وباقة صغيرة من الورود، في مشهدٍ أشبه بنسخةٍ مُهلهلة من زفافي. أما جبريلا فانغمست في تعليم جاك كيفية الأكل بأصابعه، وشمَّرت له الأكمام وهي تُوضح أهمية الاقتراب من الطعام، وتشمم رائحته على يديك. ثمَّ فتح علي زجاجة مياه معدنية، وملأ كوبي.

سألت جبريلا جاك: «أصحيح أن السفينة ملعونة؟».

- هذا ما يقولونه.

ومزَّق قطعةً من الخبز وغمسها في حساء الكاري أمامه.

قال علي: «انتهى زمنُ الحظ السيئ، بما أنك الآن على شاطئ بروسبيرتي بيتش».

وفي خضم توقه إلى تغيير دفة الحديث، أخبر جاك أنني عشتُ في أمريكا. فسألني جاك:

- إذن ماذا تفعلين هنا؟

أجابت جبريلا: «نصوِّر فيلمًا».

رفع حاجبيه: «آمل ألا يموت أحد في أثناء تفكيك هذا الشيء!».

نقرت جبريلا على ذراعه، وقالت: «مريع هذا الذي تقوله».

أخذ علي قضمةً من خبزه: «إن صنعة تفكيك السفن مهمَّة لبنجلاديش. إننا بحاجةٍ إلى الصلب. الكثير من المنشآت في كل مكان». وأشار جنوبًا، نحو المدينة.

- مهلًا، على قدر اهتمامي بالأمر، أنتَ تملك موقع عمليات تدوير هائل هنا.

أنهى جاك طعامه، واستُدعيَ نادل بإناءٍ من الماء وقطعةٍ صغيرة من الصابون.

سأل علي: «هل ستتناول الحَلى يا سيدي؟».

- ماذا؟

أوضحت جبريلا: «يقصد الحلوى».

- آه، بالطبع. رائع.

ثمَّ عاد النادل بصحنٍ من بودنج الأرز في طبقٍ مسطح من الفخار. وأخذ جاك يبحث عن ملعقة.

قالت جبريلا: «استخدم يديك».

مبينةً لجاك أنه يجدر به غمس أصابعه في الطبق الفخاري.

- ما رأيكما في أن آخذكما على متن السفينة، متعة واحدة أخيرة قبل أن تُحطَّم؟

اتسعت عينا جبريلا: «حقًّا؟».

- أجل، لِمَ لا؟ علي، أتلعب معنا؟

- بلا شك، كنتُ أقول ذلك للسيدة زبيدة للتَّوِّ، يجدر بنا الذهاب إلى هناك.

حين رُنتُ بناظريَّ إلى الأفق في تلك اللحظة، ورأيتُ جريس، ببياضها الناصع وشموخها الأخَّاذ، شعرتُ بوخزةٍ في صدري، وأدركتُ أن التفكيك الذي أُوشك أن أشاهده سيتضمن التخلِّي عن شيء، هذا لأنني اعتدتُ على تصور حيوات الأشياء التي ماتت منذ أمد، وسأفعل الشيء نفسه مع جريس. لن أتصور فحسب الحيوات التي عُمِّرت على متنها، والرحلات والعطلات، والطعام الذي أُكِل، والجبال الجليدية التي تفادتها، ومحار البرنقيل الذي التصق بجانبها السفلي، والدلافين تتبعها في صحوتها؛ بل سأتصور السفينة نفسها، إحباطها من قضاء قليلٍ من الوقت طافية، حزنها على ترحيلها إلى ساحة الخردوات، وألمها من تفككها. غمرتني هذه المشاعر كلها، وربما أيضًا واتاني حدس بأن جريس ستطرح مزيدًا من الكنوز عمَّا أعرفه، وأنها لغز غامض يتعدى حدود إدراكي. تطلعتُ إلى جبريلا وسمحتُ لها بقبول الدعوة، إذ إن جزءًا منِّي تمنَّى لو أنزلق وأسقط من على السلم المعدني إلى المياه الضحلة الدافئة في الأسفل.

***

إنني على الشاطئ الآن يا إيلاجا، وتميمتنا جريس قد وصلت. إنني على وشك اللقاء بـ «مو». وأنور كذلك. هل بدأت تُبادلني الحب؟ مَن أخدع بحديثي، بالطبع لا تُبادلني الحب. أترى كيف أشاكس نفسي، هنا في مختبر التحضير، وفي الشقة الخاوية لا يسليني سوى نينا، أُحدِّث نفسي أنها مسألة وقتٍ، وكلماتٍ، قبل أن تعود إليَّ، مُدركة حقيقة أن احتمالية بقائنا معًا ستتطلب سلسلةً من احتمالاتٍ أقل استقامةً وأقل انتشارًا، كلاهما معًا، سيمياء لستُ مبتكرتها ولا عالمة فيها.

ما فتئ الثلج يتساقط لثمانين ساعة. بقيتُ مختبئة في المختبر، أحيا على الوجبات الخفيفة من ماكينات البيع. قالب «Nature Valley - نيتشر فالي». شيتوس. ماء فيتامين. التصق لساني بمقدمة فمي. واتهمتني ديانا بفقدان حسي التاريخي. اليدان اللتان رتبتا عظامها، وأزالتا طبقات الأرض التي تراكمت عليها وأثقلتها طيلة خمسين مليون عامًا، لا بُدَّ لهاتين اليدين أن تكونا خفيفتين طليقتين، لا كمدتين، تلك الكلمة المُحرجة، لا تشتاقان

للمسةٍ بشرية، لا تشتاقان للأخاديد البارزة في شريان حياة شخصٍ آخر، بل تشتاقان لشيءٍ آخر كُليًّا، لزوجٍ من أجزاء متحركة واعية بكل ما هو عتيق، ويدوم. انزعجتُ من تأنيبها، مدركة أنها على حق.

***

في الصباح، غيَّر علي رأيه. وقال وهو يهز رأسه: «جولة خطيرة للغاية».

تطلعتُ إلى جريس، وتفاجأتُ بنفسي أُصِرُّ على أن الجولة ستمرُّ على خير. وساندني جاك وجبريلا في ما قلته، إذ علَّق جاك: «إن الأمر بسيط. وأخذتُ أصعد هذا الشيء وأهبطه عشرات المرَّات».

وقالت جبريلا: «لنصير مستكشفين».

كانت قد بدَّلت العصابة بمنديل الرأس، وتنطَّقت بحذاء حِرَّفي ذي رقبة بلونٍ بنيٍّ باهت، ارتدته فوق بنطالها. مرَّر علي يده على جبهته، رافعًا طاقية الصلاة عن رأسه، ومهندمًا شعره، ومعيدًا الطاقية على رأسه مُجدَّدًا. ثمَّ قال: «لم نسمح بهذا الأمر من قبل البتة. ولن أسامح نفسي لو حدث مكروه».

قال جاك: «بحقك يا رجل».

كان يرتدي سروالًا قصيرًا وقبعة بيسبول تحمل شعار «يانكيز». تناقلت شائعة بأن حملة استكشافية صغيرة ستصعد على متن السفينة، وتجمَّع ثلة من العمال حولنا. بدأتُ في التعرُّف إلى بعضٍ منهم، ولمَّا مررتُ بهم، أطرقوا إلى أقدامهم للإقرار بأنهم يعرفون مَن أكون. حلَّ منتصف النهار آنذاك، والضوء ينعكس شديدًا بلا هوادة على الجسم الأبيض. وصار متعذَّرًا الصعود إلى هذا الارتفاع، إذ لا بُدَّ أن هناك مئات من عوارض السُّلَّم الصغيرة، ضيقة وأسطوانية وزلقة.

تقدَّمتنا جبريلا، ثمَّ تبعها جاك. بَيد أنهما يصعدان بسهولة، تُدغدغهما الريح في منظرٍ بديع، كأنما يركبان تلفريكًا فوق جبلٍ مُقمَّم بالثلوج. ثمَّ حان دوري. كانت عوارض السلم باردة وارتجفت ساقاي حين لامستا الدرجات الأولى.

نادى علي من الخلف قائلًا: «تطلعي إلى الأمام فحسب يا سيدتي».

بدأتُ الصعود. براشيم[1]. آلاف وآلاف من البراشيم. أنَّى لهم أن يحِلَّ جدائل هذه الآلة؟ علتنا سماء صافية آنذاك، وشمس تتعامد كليًّا على الوجه، ومن بعيدٍ سمعتُ صيحة نورسٍ وحيد.

سمعتُ علي يقول: «قطعنا نصف الطريق».

أُخمِدَ صوته بفعل الريح وتزايدت المسافة الفاصلة بيننا. لم أدرك ما كنتُ أفعله، لكني صعدتُ مندفعة، أخطو الخطوة وراء الأخرى في تعاقبٍ سريع.

لم أتمالك نفسي فاختلستُ النظر إلى الأسفل: خطأ -ارتبكت معدتي على إثره. وتوقَّفت فجأة. كان الحشد قد ازداد من أسفلنا. هل سيتلقَّفونني؟ أظنهم سيفعلون؛ أراهم معتادين على إنقاذ بعضهم بعضًا، وهم يقضون كل يومٍ على المحك يتعاملون مع مواقد اللحام والأحبال مربوطة حول خصورهم. حدَّثتُ نفسي أن أخطو خطوةً فخطوة. صارت راحتاي زلقتين، لكنني اندفعتُ قدمًا وصعدتُ في ثبات، أضع يدًا على الأخرى، وأُجهِدت عضلتا بطن الساق للإبقاء على موضع قدمٍ قوي، مدركةً أنني لو توقَّفت، فسيغلبني الشعور بالسقوط، وأخيرًا تقوَّس السلَّم على جسم السفينة وجذبتُ نفسي إلى أعلى ثمَّ إلى فوق السلم، لأجد نفسي على مربعٍ أخضر شاسع رُسمت في منتصفه دائرة بيضاء. كان هذا مهبطُ مروحية.

ارتفعت بقية السفينة جريس من فوقي، ثلاثة طوابق أخرى من قاعات مناسبات، وصالات رقص، ومطاعم، وأي ملذَّاتٍ أخرى تضمها السفن السياحية. تنحيتُ جانبًا، ثمَّ تبعني علي، يلهث ويهمس بدعاءٍ آخر بصوتٍ خافت. أما جاك وجبريلا، فقد عبرا إلى الجانب الآخر من الدائرة البيضاء، وكانا يميلان على حاجز السفينة ويتطلَّعان نحو الأفق. غارق كل شيءٍ في هدوء وضياء. استشعرتُ بشرتي تحترق أسفل الشمس المتعامدة. ثمَّ تبعنا جاك، الذي قادنا على سطح السفينة ودار بنا حول الممشى، عابرين الأبواب المغلقة لمقصورات الركاب. وفي الطرف القصيِّ امتد حوض السباحة.

سأل جاك، رافعًا ذراعيه إلى الأمام: «ما الذي يريد الجميع رؤيته أولًا؟ ما رأيكم في غرفة المُحرك؟».

---

(1) البراشيم هي مثبتات ميكانيكية دائمة، عبارة عن مسامير غليظة تتألف من محور أسطواني ناعم ورأس. يُستخدم في الطائرات والغواصات والسفن. (المترجمة)

ناولني علي مصباحًا يدويًّا، وقال: «ستكون الغرفة مظلمة. من فضلك يا سيدتي، خذي حذركِ».

سألت جبريلا، وهي تسدل عصابة الرأس عن شعرها لتستقر مُعلَّقة حول رقبتها: «حيث قتل ذلك القبطان نفسه؟».

- أجل.

تأبَّط جاك ذراعها وشرعا في السير إلى الطرف الآخر من السفينة، مارين بكومةٍ من قوارب النجاة. اندفع علي للحاق بهم، مشيرًا إليَّ بأن أتبعه.

تخلَّفتُ عنهم، مختلسةً النظر من على الحافة. البحر ممتد من جانبٍ واحد على مرمى بصري، والشاطئ منبسط على الجانب الآخر، والخيمة لا تزال منصوبة هناك منذ حفل الأمس، ومن خلفها يبرز مسكن العمال، وأكواخ البامبو التي تتراص حولها، وفي الأفق، يمتد طريق دكَّا-شيتاجونج السريع، والأسواق تُحيط به من الجانب الآخر، سرعان ما ستُزَّين بالغنائم المسلوبة من جريس. استرجعتُ ذكرى صعودي إلى مثل هذا الارتفاع من قبل، خلف جدارٍ زجاجي في الطابق الأخير من ناطحة سحاب جديدة في «موتى جهيل»، أو ذات مرَّة حين أتى راشد لزيارة بوستن وصعدنا إلى أعلى مبنى «جون هانكوك»، عدا أن الوضع مختلف هذه المرَّة، لأن كل شيء من حولنا شديد الاستواء، مسطح من النحاس الخَرِب، والخليج بأذرعه الممتدة. لا أرى كائنًا حيًّا في مرمى البصر، لا نورسٍ ولا سمكة تُعكِّر صفو الماء، ما لم يَرْنُ بصرك نحو الرمال، إلى الرجال المنتظرين على الشاطئ.

ما يزالون مجتمعين في الأسفل، في ثلةٍ من ثلاث أو أربع. لوَّح إليَّ واحد منهم.. انتابني التردد، قبل أن أجيبه بمثلها. ولمَّا استدرتُ، اكتشفتُ أن الآخرين غابوا عن بصري. سرتُ مبتعدةً عن مقدمة السفينة، عائدةً صوب مهبط المروحية. وجدتُ بابًا ذا حوافَّ دائرية يؤدِّي إلى درج. هبطتُ السلالم. بَيد أن الدرج يضيق كلما هبطتُ إلى الأسفل. أشعلتُ المصباح اليدوي ووجَّهتُ حزمة الضوء المستديرة في الأنحاء، لكن ليس ثمَّة الكثير لرؤيته؛ كانت الحوائط بيضاء بلا علامات إلا من بعض الخدوش هنا وهناك. انعطفتُ حول زاويةٍ وقطعتُ دهليزًا ومنه نحو الأسفل، إلى أعمق أعماق السفينة، حيث الهواء منعشًا مُشبَّعًا تشوبه رائحة المعدن. وأخيرًا، وفي ما بدا أنه الطابق الأدنى، وجدتُ ردهةً بها أبوابٌ كثيرة على مسافاتٍ منتظمة من بعضها. توقَّفت

واختبرتُ واحدًا منها. كان مغلقًا، وكذلك الثلاثة التالية الذين جرَّبتهم. تأرجح الباب الرابع منفتحًا، كاشفًا عن غرفة صغيرة مربعة ذات سقفٍ منخفض. وجدتُ بها سريرًا مزدوج الطوابق مستندًا إلى أحد الحوائط. مررتُ إصبعي على الكرسي المُثبَّت إلى الأرضية. لم تُبْنَ السفينة لتظل ثابتةً في موضعها؛ بل بُنيت لتتحرَّك، لتتمايل، لتقاوم قوةً أعظم منها نفسها.

على السرير العلوي وجدتُ صبيًّا نائمًا، وذراعه مطروحة على عينيه. فكرتُ في إيقاظه وسؤاله عن الاتجاهات لغرفة المحرك، لكني بدلًا رفعتُ مصباحي اليدوي إلى وجهه ورأيتُ صدره يعلو ويهبط. التفَّت يده القريبة منِّي في قبضةٍ ضعيفة، وكانت أظفار تلك اليد نظيفة أُحسِنَ تقليمها. ولهذا السبب، تسللتُ من الغرفة في هدوء، وأغلقتُ الباب من خلفي.

عبرتُ تلك الردهة وردهةً أخرى، أسير متعرِّجةً بين المزيد من الأبواب المغلقة، ثمَّ صعدتُ بضعة طوابق، حينها لمحتُ ضوء النهار. وصلتُ آنذاك إلى الممشى الذي يدور حول السفينة؛ كانت المقصورات المفتوحة عليه ذات ترف، مزيَّنة بالمعدنِ والزجاج. ثمَّ رأيتُ كراسٍ مخصصة لسطح السفينة، ومطافئ حريق، ومرشَّات ماء، وتلفزيونات وبرَّادات. عبرتُ الممشى ومنه إلى الأسفل ثانيةً. وفي أحد الطوابق السفلى، فتحتُ زمرةً من الأبواب المزدوجة، ووجدتُ مكتبةً صغيرة تحمل كُتبًا ذات غلافٍ مقوًّى ومرتبة بالترتيب الهجائي. كان حضور «ديكنز» وفيرًا فيها، أما «آنَّا كارنينا» فلا أثر لها. بَيد أنه لم يُمَس أي من الكتب من قبل. فتحتُ رواية «روبنسون كروزو» فأصدرت صريرًا، وغرقتُ في بحثٍ دقيق عن عبارتي المُفضلة حتَّى وجدتها: «صادم هو الفرح المباغت صدمةَ الحزن المباغت».

أوشكتُ أن أتكئ وأقرأ الكتاب من أوله، مُستَعبَدةً للكتاب كنتُ وقد أضعتُ طريقي الآن وصرتُ وحيدة، حين سمعتُ أحدهم يدخل إلى المكتبة ورأيتُ أنه الصبي النائم. منتصبًا في وقفته، بدا ضئيلًا جامحًا، ذا شعرٍ قصيرٍ شديد القرب من الصلع، وسروالٍ قصير ممزَّق عند ثنياته. غمرني السرور لرؤيته. فقلتُ له بالبنغالية: «أضعتُ طريقي». أجابني بابتسامةٍ من شفتيه وعينيه وجبهته -ابتسم وجهه كله على إثرها- وعرض عليَّ أن يُرشدني. تبعته عبر بابٍ على الجانب الآخر من الحجرة. ثمَّ هبطنا درجات السلم إلى الطابق الأسفل، ونحن ننظر عبر نافذةٍ مستديرة إلى داخل مطبخٍ شاسع. ومنه إلى ساحة الرُكَّاب ثانيةً، باحة واسعة تفتح إلى ثلاثة طوابق إلى السماء الرحبة.

اسمه هو «مو». بدا أشبه بالكثير من أطفال الشوارع الذين رأيتهم في دكَّا يبيعون الزهور أو عبواتٍ صغيرة مربعة من الفُشار في الشارع. يبتسمون إليكَ كأنهم سيعودون إلى ديارهم ذات مكيفات الهواء وألعاب القطار. حتَّى عندما يتسوَّلون، لا يأتون الفعل إلا ضاحكين من وراء أعينهم، حيلة لا يُتقنها إلاهم، ويكمن السر في أنهم إذا بكوا، أو بدوا تعساء، أو أفصحوا عن تفصيلٍ في حياتهم، تفصيلٍ ربما لا تطيقه، ستسير مبتعدًا دون أن تبذل تاكا واحدة حتى. كان لـ مو نظرةُ واحدٍ من هؤلاء الأطفال الذين أَلِفوا أن يظهروا أنفسهم ودودين وملاصقين، فلا يسعُ مَن يمنحهم فُتاتًا من الطعام أو قروشًا من المال أن يقضي بأن الإبقاء عليه ملاصقًا أقل متاعبًا من التخلص منه. لم أعرف شيئًا عنه، لكني عرفتُ هذا: عرفتُ أن لطفه مجرَّد واجهة، وخلف تلك الواجهة عِقد أو يزيد من الشنائع التي لن أعرفها أبدًا.

لم يسعني الإقرار بما إذا كنَّا تائهين، أم يأخذني مو في جولته الشخصية حول السفينة، ولم أكن أدري سبب تتبعي له، لكنني أردتُ أن أظل في صحبته لوقتٍ أطول قليلًا.

- أختاه، أودُّ أن أُخبركِ بشيء.

- اسمي زبيدة.

- ليلة أمس، تسلَّقتُ السُّلَّم ونِمتُ هنا.

- في تلك الغرفة الصغيرة في الأسفل؟

- لا، في غرفةٍ أكبر بها مفارش سرير.

سألته:

- أكان نومك هانئًا؟

- لم أسرق شيئًا.

توقَّف مو أمام زوجٍ من أبوابٍ مزدوجة. في بادئ الأمر حين دفعتُ أحدهما، ظننتُ أنه مغلق، لكنه كان ثقيلًا فحسب، يُصدر صوت حفيفٍ إذ ينفتح. وفي الداخل، تفاجأتُ بظلامٍ دامس. همس مو: «المصباح اليدوي». أخرجتُ المصباح اليدوي مُجدَّدًا، فانتزعه من يدي. شعرتُ بالأرضية المكسوَّة بالأبسطة تميل إلى الأسفل، فتبعناها، بوقع أقدامٍ صامتة، حتَّى وصلنا إلى منصةٍ خشبية صغيرة. استدرتُ وتطلعتُ من خلفي، ورأيتُ صفًّا وراء آخر من

كراسٍ مُنجَّدة. تبعنا طرف المنصة وصعدنا بضع درجات. ثمَّ التقينا ستائر سميكة تحمل اسم الشركة: «**رحلات بحرية من الجنة**».

نحَّينا الستائر جانبًا، مثقلة بسلسلةٍ سميكة. لوَّح مو بالمصباح اليدوي في الظلمة، فرأيتُ جدارًا من الأحبال والبكرات. مددتُ ذراعيَّ واستشعرت راحة يدي القوس الحريري المصقول لآلةٍ ما، وملمس الخشب الدافئ. حرَّك مو ضوء المصباح بأناةٍ على الآلة، كاشفًا عن سيقانها، مجدولة بالنحاس ومُثبَّتة إلى الأرض، وعجلاتها المنزوعة. مددتُ يدي ورفعتُ الغطاء، بدت الأزرار البيضاء لامعة متنافرة، ثمَّ وضعتُ يدي على رسغ مو النحيف، أوجِّه حزمة الضوء على الأزرار، حيث استقرت قصاصة من الورق، كرمشها الغطاء. كانت هذه نوتة موسيقية، تلاصقت النوتات الموسيقية وبدت لي مستعصيةً على الفهم. وفي الجزء العلوي كُتِبَ: «**شوستاكوفيتش: المقدمات الموسيقية**».

***

تنفَّس علي الصعداء حين لمحني، وأسرع يقول: «ماذا حدث لكِ يا سيدتي؟ لقد قلقتُ عليكِ».

أجبتُ: «أضعتُ طريقي».

لاحظ علي مو، فأمسك بمؤخِّرة عنقه، وقال: «كيف أتيتَ إلى هنا؟ عُد إلى رِفاقك».

علَّقت: «لقد ساعدني في العثور على مخرج».

- إنه لا يعمل هنا.

تدخَّلت جبريلا: «آه، بحقِّكِ، كلنا نعلم أن هذا ليس صحيحًا».

أشدتُ لعلي بضخامة جريس: «إنها فاتنة».

ثمَّ أخبرتُ الآخرين أن ثمَّة شيئًا يجدر بهم رؤيته في القاعة الكبيرة بالأسفل. وأطلق علي مؤخِّرة قميص مو.

قال جاك: «تقصدين البيانو. يا لروعته».

أخبرنا علي أن مالك الفندق، السيد ريزا، سيفحص البيانو إلى جانب الغنائم الأخرى كلها على سطح السفينة. لكنه لم يبدُ متفائلًا إذ قال: «لا سوق للبيانو في بنجلاديش. لسنا أُناسًا متحضِّرين إلى هذه الدرجة».

أردفت جبريلا: «ليس في الآلات الموسيقية الغربية، ولكنكم تملكون تراثًا موسيقيًّا ثريًّا خاصًّا بكم».

في الليلة الماضية، وبناءً على طلب جبريلا، رُحتُ أُلخِّص المعالم البارزة في الثقافة البنغالية: طاغور.. القاضي نذر الإسلام.. حركة اللغة، حتَّى إنني أخبرتها عن بيجوم رقية ومدينتها الفاضلة الخيالية. وتجمَّعنا أمام حاسوبي المحمول وقرأنا «حلم السلطانة» معًا، ثمَّ سخرت من هذه العبارة: «يحسُن بالرجال ألا يفعلوا شيئًا، معذرةً، فهم لا ينفعون ولا يشفعون».

حثثتُ الجميع على اللحاق بي إلى الطابق السفلي، وإلقاء نظرةٍ من كثب على البيانو. عُدنا إلى القاعة وتجمَّعنا حول الآلة، تُلقي مصابيحنا مخاريط صفراء من الضوء على سطحه العاكس. غمرتني دفعة من فخرٍ حين أفلتَ أحد من ورائي شهقة اندهاش. أما أنا فأُولعتُ به من فوري.

تطوَّعت جبريلا للعزف على البيانو. جذبت مقعد العزف ورتبت يديها على المفاتيح. لم تكن بارعة للغاية -ظننتُ أنها قد تعزف لشوستاكوفيتش، لكنه يفوق قدراتها- ومع ذلك تردَّد الصوتُ رنَّانًا في أرجاء الغرفة. شعرنا بالنوتات الموسيقية أسفل أقدامنا. وبَيد أنه ما من أحدٍ يريد رفع مصباحه اليدوي ثانيةً، ومن ثمَّ تبدَّد المشهد، واستترت جبريلا نفسها في الظلمة إلا من قدمها على الدعَّاسة النحاسية.

قطعت عزفها بغتةً، وتردد صوتها من قلب الظلام: «يحتاجُ إلى توليف نغماته، لكنه آلة لطيفة -ثمَّة شيء إنساني حياله. (سمعنا الغطاء يُقفل) يحسُن بكَ ألا تبيعه إلى الفندق يا سيد علي».

فعلَّق جاك: «ثمَّة رجل، عازف هذا البيانو، أحبَّ هذا الشيء كثيرًا. أظنُّ أنه مَجَريٌّ. كان عليكِ رؤية دموعه حين أخبرناه أن السفينة قد بِيعت».

جررنا أقدامنا عائدين عبر القاعة. حاولتُ أن أتخيَّل الرجل المجري العجوز يعزف المقدمات الموسيقية والسفينة جريس تشق البحر وهي في طريقها إلى هنا، ثمَّ سألتُ جاك عمَّا حدث له.

أجابني بعينين تطرفان من ضوء الشمس الاستوائية وهو يفتح الباب: «لا أدري. ما إن تصلي إلى الشاطئ، يذهب الجميع كل في طريقه».

***

لستُ امرأً يؤمن بالتطيُّر، لكنَّ البيانو والنوتة الموسيقية كانا يرهصان بشيءٍ.. مثل إشارة دخان. لم أنسَ أمرك طيلة العام الذي مرَّ يا إيلاجا، لكني وجدتُ طريقةً أبعدكَ بها عن تفكيري، هذا لأن لديَّ سلفًا الكثير من التعقيدات، والكثير ممَّا أندمُ عليه. أَلِفتُ الشعور القاتم للوحشة الذي حملته معي أينما ذهبت طيلة الوقت، وحدَّثتُ نفسي أن الأمر لا يقتصر عليكَ فحسب، بل يشمل ديانا أيضًا، وراشد والطفل الذي أرغب فيه الآن؛ حياتي بأكملها، وممَّا يسَّر عليَّ الأمر، بطريقةٍ أو بأخرى، أن عمَّمتُ الحزن على كل شيء. من حين لآخر، أرمق هاتفي، يُغريني الاتصال بكَ، لكني لم أتخطَّ الدَّفعة الأولى قط: لن أدري من أين أبدأ. ثمَّة الكثير ليُقال، وكنتُ أعاني امتلاءً مفرطًا بتلك الكلمات غير المنطوقة، لكنَّ البيانو منحني عذرًا آنذاك -دافعًا قاهرًا- ومن ثمَّ هاتفكَ وتركتُ رسالة، أُجاهد أن أُبقي صوتي هادئًا: «**مرحبًا، هذه أنا، زبيدة. لقد مرَّ وقتُ طويل، أعرف ذلك، لكني آملُ أن نتكلَّم. من فضلك عاود الاتصال بي**».

***

بينما كنتُ أنتظرك لتعاود الاتصال بي، سمحتُ لنفسي بتكوين صداقةٍ مع مو. راح يركض مع بضعة فتيانٍ آخرين في شيءٍ أشبه بعصابةٍ في أنحاء الترسانة، ومع أنه كان أضأل حجمًا من معظمهم، بَيد أنهم يعتبرونه قائدًا لهم أو ما شابه. رأيتُه ذات مرَّة يسوق زمرةً من ستة أو سبعة فتيان إلى الماء، ولمَّا ارتفع الماء حتَّى خصورهم، دفعهم إلى الداخل، واحدًا تلو الآخر، كما لو كان يدفع زوارق ورقية، ثمَّ حثَّهم على رفع أيديهم والطفو على ظهورهم، جميعهم في صفٍّ واحد، فأخذوا يصيحون وهم يشعرون بدغدغة المياه المالحة في آذانهم. لم أكن أدري أيَّ عملٍ يوكله علي لـ مو، ولكن رغم الخشونة التي يُعامله بها، أحسبُ أن بينهما شيئًا من العاطفة، وأن وضع مو، إن لم يكن مريحًا، فأقله وضعًا مأمونًا (وفي هذا الصدد، كما هو الحال في أمورٍ أخرى، كنتُ مخطئةً يا إيلاجا. أتساءلُ عمَّا إذا ستلين تجاهي لصدقي، أم أنك ستنفر منِّي لمعرفتكَ بمدى جهلي، ليس في أمري فحسب، بل في أمور الآخرين أيضًا).

لم يعد بوسعي تأجيل لقاء العمال. رتَّب علي المقابلة الأولى، وعُقدت في مكتبه. وأعدَّت جبريلا كاميرا وميكروفونًا مفلطحًا. وفي المساء، بعد انتهاء

الوردية، توافدَ قرابة دزينة من الرجال عبر المدخل، يرتدون خوذاتٍ وأحذيةٍ مطاطية سميكة برقبة. غُلِّفت أيديهم في قفازات حماية، واتشحت سيقانهم بنوعٍ من أحذية التخويض السميكة المضادة للماء، تعرَّفتُه من مشاهدة برامجَ تلفاز عن الصيادين. بدأتُ بسؤالهم عن أسمائهم، فأنشدوها بصوتٍ عالٍ. روبل! سورين! مالك! ثمَّ مضوا يُخبرونني عن مدى روعة بروسبيرتي شيببريكنج، وعن لُطف المُلَّاك معهم، وأنهم يتلقُّون أجورهم دومًا في موعدها، وأنها أفضل وظيفةٍ يمكن لأيٍّ منهم أن يأملها، وأنهم ألحقوا أطفالهم بالمدارس -ليس الفتيان فحسب، بل الفتياتُ أيضًا- وأنهم شاكرون الرب على إرساء نعمة ترسانة السفن في هذا الجزء من البلاد حيث يعيشون.

أخبرتني جبريلا آنفًا أن لديها مقاطعَ من هذا النوع من اللقطات. ولهذا رُحتُ أطيل في الحديث، لعلَّ حديثي يُشجعهم، حديثًا نفسيًّا عن أنني لم أزُر شيتاجونج من قبل قط، وأنني أتطلَّع إلى رؤية المعالم البارزة، مثل باتينجا، والتلال، وبحيرة فوي. وأخبروني بدورهم قليلًا من القصص عن عائلاتهم. سألتهم من أين أتوا، وكانوا جميعًا من قرى في نطاق بضعة أميال. رأيتُ أحدهم يرفع عينيه، فخَبِرتُ لحظةً عابرة من الأمل، لكنه ظلَّ يرفع عينيه، مارًّا بوجهي، عاليًا حتَّى استقرَّتا على المروحة المُثبَّتة إلى السقف من فوق رؤوسنا. وبعد مُضي نحو العشرين دقيقة، التفتُّ إلى علي وقلتُ: «ربما هذا ليس المكان الأفضل للحديث».

رفع علي وجهه عن هاتفه مُوبِّخًا: «أنتم! قولوا شيئًا للأخت. لقد قطعت طريقًا طويلًا إلى هنا». ثمَّ شرعوا يتحدَّثون جميعًا في آن واحد، يكرِّرون الحديث نفسه الذي قالوه أول الأمر، عن كرم الرب عليهم وسخاء وليِّ نعمتهم، علي.

نهضتُ قائلةً إليهم: «شكرًا لكم». وأخذتُ أحزم مُسجل الشرائط والمُفكرة. كنتُ قد توقَّعتُ شيئًا كهذا، ومع ذلك وجدتُ الأمر مُحيِّرًا. حاولتُ تدقيق النظر في وجوههم وهم يُغادرون عسى أن أتذكر أسماءهم، ولكن ما إن صرفهم علي حتَّى رحلوا يُزاحمون بعضهم بعضًا وهم في طريقهم إلى خارج المكتب ويقطعون الطريق نحو الشاطئ. قال علي وهو يستعرض صبَّ فنجانٍ من الشاي لي: «أنتِ تضيعين وقتكِ. الجميع سعداء هنا».

اندفع آخر الرجال إلى الخارج، وحذاؤه طويل الرقبة يُجَرجَر على الأسمنت الرمادي. فإذا بفكرةٍ تخطر ببالي. قلتُ: «هؤلاء ليسوا الرجال الذين يسحبون الألواح المعدنية الكبيرة تلك إلى الشاطئ».

- لا يا سيدتي، هؤلاء هم القطَّاعة.

- أيمكنني التحدُّث إلى الرجال الآخرين؟

- مَن، السحَّابة؟ يا سيدتي، هؤلاء الفتيان جُدد، جاؤوا حديثًا من القرية. لا يعرفون كيف يتحدَّثون إلى شخصٍ في مكانتك.

إذن هذا ما يُلقَّبون به. السحَّابة. كنتُ قد رأيتهم يُفككون آخر أجزاء السفينة «سبليندر». تفكك كل شيءٍ، ولم يتبقَّ سوى نقل الرفَّاس إلى شاحنةٍ تنتظر على الطريق. ربط جماعة من الرجال الحبال حول شفرات الرفَّاس، وجرُّوا تلك الحبال على أكتفاهم. وبينما هم يجرُّون أقدامهم عبر المياه الضحلة، ذكَّروني بالأفلام الإنجيلية التي حثَّني أبواي على مشاهدتها في طفولتي، والتي فيها الناس يتعرَّضون للتعذيب والسياط وهم يبنون أهرامات، وأجسامهم نحيفة تنضح بالعرق. هؤلاء الرجال بوجههم الرمادية وأفواههم المُطبقة بإحكام فتظنَّ أنهم عاجزين عن الكلام حتَّى تتعالى صيحاتهم «هيا! هيا! هيا!» مندفعةً من أفواههم. يرتدون تنانير اللونجي ويطوونها بين سيقانهم، عُراة الأقدام، وأحيانًا يُمنطقون قمم رؤوسهم أو يغطون أفواههم بتلك الأقمشة المثلثية ذات المربعات التي كان لها سابقًا لون زاهٍ لكنها مُدنَّسة الآن بالقذارة والرمال والعرق. يعبق كل شيءٍ برائحة الكيماويات التي تقذفها السفينة ورائحة احتراق المعدن في أثناء معالجته، لكن وجوههم لا تحمل أثرًا لأي اشمئزازٍ، ولا إدراكًا بأن الهواء الذي يتنفسون مسمَّمٌ.

أجبتُ: «لا أُمانع».

- إنهم أمِّيون.

- لن أُطيل عليهم، بضعة أسئلةٍ فحسب.

- لِمَ لا تعطيني قائمة الأسئلة؟ سأسألهم ومن ثمَّ ستحظين بمعلوماتك.

- لا يسير الأمر على هذا النحو يا سيد علي.

رمقني بنظرةٍ يقصد بها حملي على الشعور بأنه يأخذني على محمل الجد. ثمَّ قال: «بلا شك. أنا أحاول المساعدة فحسب».

عُدتُ أدراجي إلى الشقة وأخبرتُ جبريلا بكل شيء. فقالت وهي تُفتِّش في حقيبتها عن سيجارةٍ: «قلتُ لكِ إنها مكيدة. لا مجال أن يسمح لنا علي

بالتحدُّث إلى الجميع. وحتَّى لو سمح لنا بذلك، لن يتحدَّث العمال أمام رئيسهم. علينا أن نلتقيهم في مكانٍ آخر».

- وكأن بإمكاننا دعوتهم إلى هنا.

أجابت بوجهٍ مستنيرٍ وأنفاسٍ عميقة: «تلك فكرة رائعة. دعينا نفعل ذلك. يمكنكِ الطهي».

- أنا طاهية بشعة، وهذه فكرة شنيعة.

- لِمَ لا؟ يبدون جائعين هؤلاء الحمقى المساكين.

- لا، ليس صحيح. في الحقيقة، يبدون بصحة جيدة تمامًا. علاوةً على أنهم يرتدون جميع الملابس الوقائية الصحيحة. هل رأيتهم يرتدون تلك الأشياء حين يخرجون إلى السفن؟

أجابت جبريلا وهي تُطفئ سيجارتها في الحوض: «كل هذا لأجل العرض».

حين هاتفتني روبانا، كان عليَّ أن أعترف لها بأنني لم أُحرز تقدُّمًا يُذكر. أخبرتني أن أواصل المحاولة، متفقةً معي على ضرورة خروج الرجال من مكتب علي، وتحديد الرجال الذين لم يتجمَّلوا لأجل الفيلم فحسب. وقالت: «اخترقي الطبقات».

وفي أحد أيام الجمعة، عُدتُ إلى فيلا خوندكار. شعرت كومولا بشيءٍ من الرضا حيال رؤيتها لملابسي المتسخة. لِمَ لَمْ آتِ في وقتٍ أبكر؟ جلستُ في الحديقة وتنشَّقتُ عبير الياسمين، متخلصةً من سُخام الأسابيع القليلة الماضية، مسترجعةً ذكرى البيانو، ومو، والأسرَّة المزدوجة الصغيرة التي تستقر في قاع السفينة. لستُ بعيدةً عن الشاطئ الآن، لكن ربما تمخَّض هذا كله بسهولة عن مجرَّد حلم، رؤيا لماضٍ حالك أو مستقبلٍ مرير، أبعدُ ما يكون عن حدود خيالي، وتساءلتُ، مرارًا وتكرارًا، عن سبب عدم معاودتك الاتصال بي، وما الذي أجبركَ على ألا تتعجَّل، أهي امرأة أخرى، وقعتَ في حبها، أم الأسوأ من ذلك، هل أنزلتني منزلة المعارف العابرين الذين لا يتطلبون ردًّا فوريًّا؛ شخص عرفته ذات مرَّة إلا أن احتمالية إقامة علاقةٍ جادَّة معه اندثرت إلى الأبد؟ ومع توالي اليوم وراء الآخر، وتراكم أسباب صمتك المبتدعة واحدًا وراء الآخر، ترسخت صورتك في ذهني، كخمرٍ تعتَّق في برميله.

***

أعلمني علي أن أول شيءٍ سيفعلونه هو تقييم كل شيءٍ على متن جريس وتثمينه، ثمَّ بيعه. أمامه ثلاثة أسابيع فحسب للتخلص من كل البضائع. وما إن تتجرَّد السفينة، ستبدأ عملية التفكيك. ما زلتُ في مأزقٍ مع العمال، وفي كل مرَّة أسأل علي إن كان هناك آخرون يمكننا لقاءهم، يُماطلني، قائلًا بأنه سينظر في الأمر، وأن المكان المناسب لم يُعثر عليه بعد، يبتسم لي ويُطمئنني طيلة الوقت بأن راحتي وسلامتي لهما الأهمية القصوى. وفي ظل غياب العمال الحقيقين، بدأتُ في تسجيل لحظات تفكيك السفينة وتوثيقها بإسهابٍ ممل، أي ما الذي يتحمَّل كل عامل مسؤولية فعله. وإلى الآن، أعددتُ قائمةً بالمِهن: رئيس عمال، بائع، مهندس، مُنظِّف خزَّانات، قطَّاع، سحَّاب، لحَّام، مُشغِّل مرداس. لكل طاقمٍ قائده الخاص، وتسلسله الخاص، وتقع الفِرق نفسها في نوعٍ من الترتيب، حيث يمثِّل المهندسون قمة الهرم، والسحَّابة قاعدته.

عُدتُ ذات يومٍ إلى الشقة، لأجد جبريلا في المطبخ برفقة مو. كان الاثنان ينحنيان على الموقد معًا ويتطلَّعان إلى رغيفين من خبز البوري يتحمَّران في مقلاة الزيت. وقفتُ عند مدخل الباب وتتبَّعتُ مدى البساطة التي يُعاملان بها بعضهما، ومو حاملًا ملوقًا معدنيًّا طويلًا وجبريلا متعجِّبةً من الكيفية التي ينتفخ بها البوري في قببٍ صغيرة مثالية. شيء ما حيال المشهد أثار حنقي، فاتجهتُ إلى غرفتي ووضعتُ عنِّي مفكِّرتي وكاميرتي. وفاحت رائحة الزيت والعجين المقلي في أرجاء الشقة.

صحتُ أُنادي من غرفة المعيشة: «جبريلا! أيمكنكِ المجيء هنا لدقيقة؟».

لمَّا خرجت جبريلا من المطبخ، تفرك راحتيها في بنطالها الجينز، خفضتُ صوتي وقلتُ: «ما الذي يفعله هنا؟».

- أتقصدين مُحمد؟ هناك غرفة ومرحاض خلف المطبخ، أتعرفين ذلك؟
- أجل، رَبع الخَدم.
- حسنًا، ليس لدينا رَبع خدمٍ من حيث أتيت، لذلك لم أعرف. فعرضتُ عليه أن أسمح له بالبقاء هناك، ومن ثمَّ سيتولَّى هو بعض أمور الطهي من أجلنا. وكان يُريني...
- خبز البوري، أعرف.

ميَّزتُ النظرة على وجه جبريلا، مزيج من السذاجة والسمو الأخلاقي. لكني أضفتُ:

- لديه مكان مناسب تمامًا للعيش في المسكن.

- هذا مكان قذر.

- لا يسعنا تغيير كل شيء، ثمَّ الرحيل والمضي في شؤوننا.

- مَن قال أي شيءٍ عن الرحيل؟ أنا لن أرحل، هل سترحلين؟

- ليس الآن، ولكن في نهاية المطاف. لا تتظاهري بأنكِ ستعيشين هنا إلى الأبد.

- حسنًا، إذن هو سيبقى.

تساءلتُ عمَّا ستقوله أمي في هذا الموقف. تذكَّرتُ ذات مرَّة حين عيَّنت إحدى ضحايا الحروق الحمضية للعمل في منزلنا، وكانت تُخرجها من المنزل وتُصِرُّ عليها لخدمة الضيوف. كان اسمها ليمي. أذكر كعكة الفاكهة التي تُعِدُّها في أيام الجمعة، ونظرات التحديق التي يرمق بها الناس يديها المشوَّهتين وهي تجرف مسحوق اللبن إلى فناجين الشاي.

سألتُ جبريلا: «هل ستدفعين له أجرًا؟».

- إنه بحاجةٍ إلى عائلة.

- إذن أتريدين الآن أن تتبنيه؟

رفعت جبريلا ذراعيها في اعتراض: «لم أقل ذلك. كل ما أريده -أريد أن أفعل شيئًا. لقد وقفنا مكتوفي الأيدي ولم نأتِ بفعلٍ واحد. لا تقولي لي إنكِ لم تضيقي ذرعًا مثلي تمامًا».

حين عُدنا إلى غرفة المعيشة تفاجأنا بـ مو قد أعدَّ الطاولة، ووضع خبز البوري في المنتصف. تراجع إلى الوراء، ووقف يتأمَّل صُنع يده، مفارش الطاولة، والكؤوس المملوءة لثلاثة أرباعها بالماء، وبرطمان المُخلل مفتوحًا، وبداخله ملعقة.

سألته: «مِن أين أنتَ يا مو؟».

- سيبرُد الطعام.

لاحظتُ أنه يرتدي قميصًا نظيفًا بأزرارٍ وسروالًا، كلاهما ذو مقاسٍ كبير بعض الشيء. ثمَّ جلستُ وجبريلا إلى الطاولة. وفي بهجةٍ رُحنا نُمرِّر طبق البوري بيننا.

علَّقت جبريلا: «مذهل! أخبريه أن هذا أفضل بوري في العالم كله».

سألتُه: «أين تعلَّمت الطهي؟».

- إنني أصنع كل ما يطلبونه منِّي مهما يكن.

أخذت جبريلا تطوي رغيف البوري إلى أرباعٍ وتدسها في فمها، وهي تقول: «اسأليه، هل يعرف الرجال الذين يعملون على الشاطئ؟».

ترجمتُ له، فأجابني: «أعرفهم جميعًا. دومًا يأتي الفتيان الجُدد إليَّ أولًا».

صفَّقت جبريلا يديها معًا لتنفض عنهما فُتات البوري، ثمَّ قالت: «ربما يمكنه تقديمنا لهم».

طلبتُ منه: «هل يمكنكِ إعداد الشاي يا مو؟».

لمَّا اندفع مو إلى المطبخ، قالت جبريلا: «لقد مرَّ على وصولنا هنا قرابة شهر ولن يُخبرنا أحد بشيء. ربما يمكنه المساعدة».

يا لها من فكرةٍ أشد ذكاءً من تلك التي اقترحتها سابقًا، لكني ما زلتُ مترددة. لأسبابٍ أولها هو أن الآخرين ربما يعتبرون مو واشيًا لو عرفوا أنه يساعدنا. وأخبرتُها بذلك.

- ولكن لو تحدَّثوا معنا، يمكننا مساعدتهم. يمكننا أن نُدرجهم في الفيلم.

حين عاد بالشاي قلتُ: «مو، أيمكننا الذهاب ولقاء بعض من أصدقائك؟».

حطَّ الصينية عن يده أمامنا ومرَّر إليَّ كوبًا، ثمَّ سألني: «أيُّ أصدقاء؟».

قالت جبريلا: «أصدقاؤك من الشاطئ. نريد أن نُصوِّر فيلمًا عنهم».

كررتُ كلماتها باللغة البنغالية، فالتفت إليَّ، وسأل: «أي فيلم؟».

- فيلم عن الشاطئ، عن السفن وعن العُمال.

أيقنتُ -وجزء منِّي يأمل- أن يُجيبنا بالرفض. لكن جبريلا ركعت أمامه وتعلَّقت بياقته، تُسوِّيها وتُمسِّدها، ثمَّ قالت: «إنه أمر غاية في الأهمية. هل ستساعدنا؟».

قلتُ: «نريد التحدُّث إلى الرجال. ولكن ليس الرجال الذين اختارهم علي من أجلنا، بل آخرين».

سألني: «هل تريدان التحدُّث إلى عُمال الوردية الصباحية أم الوردية المسائية؟».

سألتُه: «في أي وردية تعمل؟».

لم يحر جوابًا، بل نظَّف الأطباق واختفي في المطبخ. تبعتُه إلى مؤخِّرة الشقة، حيث الغرفة الشاغرة ذات النافذة الصغيرة المربعة على أحد جانبيها. كان الظلام حالكًا بها، والأرضية الأسمنتية مُغبَّرة. سألتُه: «هل تود الإقامة هنا؟» فأجابني: «لبعض الوقت فحسب، حين لا يحتاج إليَّ علي».

أمعنتُ النظر فيه من كثب؛ نما شعره رأسيًّا من فروته، ولمَّا مددتُ يدي لأداعب رأسه، شعرتُ بخشونةٍ متسقة، واستشعرتُ الانحدار الطفيف إلى قمة رأسه، والأوتار المستقيمة عند مؤخِّرة عنقه.

قلتُ: «أحضر أغراضك».

أومأ إليَّ، وتطلعنا إلى الغرفة معًا، الأرضية الرمادية، والشَّبَك بدائي التثبيت إلى أُسكُفة النافذة. قال مو إن عليه الذهاب، وسيأتي بحقيبته لاحقًا. ثمَّ تردد وقع خطواته وهو يسير مبتعدًا بقدمين عاريتين، مغلقًا الباب من خلفه فأحدث طقطقةً حادَّة.

وهكذا جاء مو ليعيش معنا، وليصير حلقة الوصل بيني وبين طاقم الرجال الذين عملوا على الشاطئ. أنَّى لِي ولجبريلا أن ننتمي إلى هذا المكان، أن نعرف كل الرجال الذين يجرُّون هياكل السفينة على الرمال المشوبة بالمعادن. حدثَ كل شيءٍ من شأنه أن يحدث في الفصول اللاحقة لهذه القصَّة، بسبب موافقة مو؛ حتَّى وجودك أنتَ يا إيلاجا.

***

بُنِيَ المسكن الذي ضمَّ عمال بروسبيرتي بأمرٍ من والد هاريسون ماستر. كان رجل أعمالٍ من النوع قديم الطراز الذي يعرف أسماء جميع عمَّاله، ويهتم بالسؤال عن أحوال زوجاتهم وأطفالهم، ويأمرهم بالخروج من الشاطئ في غضبٍ لو أنهم أساؤوا الرد على رئيس العمال، أو عُرف أنهم في واحدٍ من المواخير في المدينة. كان هذا ما أخبرني به دولو، واحد من رجال مو الذين وافقوا على الحديث معنا. ثمَّ تُوفي رجل الأعمال وورث ابنه الترسانة وعيَّن علي، وبهذه الكيفية جاؤوا جميعًا إلى هنا، محشورين في المسكن، لأن الابن لم يؤمن بأهمية توسعة المرافق، وعلى أي حال تراهم ممنونين لوجود المسكن من الأساس، هذا لأن الرجال في الشُّطآن المجاورة لا ينالون شيئًا، بل يعيشون على أي سفينة يُفككونها، وهذه أخبار سيئة، فإن لم تقتلك الحرائق،

ستقضي عليك الأدخنة المنبعثة من الناقلات مع الوقت. ولا يعني ذلك أن ثمَّة الكثير من مظاهر الحياة على أي حال.

كان الرجال الذين اختارهم مو لفيلمنا هم أفقر العمال وأقلهم مكانةً في الموقع، هؤلاء الذين يأخذون أيًّا من بقايا المعادن المنقوضة من السفينة ويجرُّونها عبر الشاطئ إلى المصهر. جاء السحَّابة من شمال البلاد، حيث تنعدم الوظائف ويُحلِّق شبح المجاعة فوق رؤوسهم كل شتاء. أما الرجال الذين قدَّمهم إليَّ علي فكانوا سكانًا محليين؛ يُمنَحون الوظائف في مقابل السماح باستخدام أرضهم. يتمتعون بنفوذٍ كبير لدى علي، يُحدِّدون أجورهم بأنفسهم ويتصرَّفون كأنهم مشرفون على العمال الآخرين. وأما هؤلاء الرجال -بل الفتيان- القادمون من الشمال يُستَأجَرون في الشتاء، ويُدفع لهم الأجر بالساعة، ويعودون إلى ديارهم في نهاية الموسم، وجيوبهم لا تحوي إلا ما يزيد قليلًا عمَّا كانت تحويه عند وصولهم.

قبل أن يُوافقوا على التحدُّث إليَّ، كان عليَّ أن أُجيب عن بعض أسئلتهم. أشار مو إلى فتًى شابٍّ يكبره، لكن لا يكبره بكثير، وقال: «يريد شوجا أن يعرف إذا كنتِ متزوجة».

غطَّى الفتيان الآخرون أفواههم وغرقوا في الضحك.

- نعم، أنا متزوجة.
- هل لديكِ أطفالٌ؟
- لا.
- ما اسم والدكِ؟
- فرحان بشير. اسمه المستعار هو جوي.
- كم لديكِ من الأشقاء والشقيقات؟
- لا يوجد. أنا فحسب.

قال شوجا: «يا الله! هل ماتوا؟».

قال مو: «اصمت أيها اللعين!».

قلتُ: «كان أبي واحدًا من المناضلين لأجل الحرية».

طلب شوجا رؤية صورة لوالدي. فناولته هاتفي، ومرَّره على الجميع. ثمَّ التفت إلى جبريلا، وسألها: «هل هذا هو لون شعركِ الحقيقي؟».

أجابت وهي تبرز من خلف الكاميرا: «أجل».

سأل مو: «لماذا جئتما إلى هنا؟».

أجابت جبريلا: «لأننا نريد أن نعرف عن حيواتكم».

بدا هذا الجواب مُرضيًا له. هنا، في هذه الحجرة، كان مو في موقع المسؤولية، إذ أجلس نفسه إلى جانبي، يُشير بيديه إلى الآخرين ليتحدَّثوا أو ليصمتوا. ثمَّ قال أخيرًا: «يمكنكِ أن تبدئي الآن».

بحلول الأسبوع الثالث، كنتُ قد حَفِظتُ أسماء الجميع، وشرعوا هم يُنادونني بـ «أختاه» بدلًا من «سيدتي». التقينا في واحدةٍ من الغرف الكبيرة في المسكن، والفتيان يتكدَّسون على الأسرَّة المزدوجة، وأجلسُ أنا بينهم رفقة ميكروفوني، وجبريلا تتوارى خلف الكاميرا. تبدأ الجلسات في المساء، بعد انتهاء الوردية، وتستمر لساعاتٍ عديدة من الليل. ظلَّ مو يراقبني من كثب، يجلس إلى جانبي ويقود الحديث، قائلًا: هذا الفتى لديه معلومة مهمَّة يُخبركِ بها، أو اسألي هذا الفتى عن قريته، حيث الماء مُشبَّع بالزرنيخ، وأجل، أنتَ أيها الوغد، إنها تريد أن تعرف عن الزرنيخ أيضًا. تكمن الحكاية كلها في ما تحتاج إليه هي. لم نُخبره بهذا الأمر على وجه الخصوص، لكنه عرف بطريقةٍ أو بأخرى أننا هناك لنكشف ما في الأعماق، ولسماع كل التفاصيل الصغيرة التي شكَّلت الأشخاص الذين أقاموا الترسانة. لم يَحْتَجْ مو إلى درسٍ في وسائل العمل الميداني الاثنوجرافي ليعرف هذا، بل هي معرفة بالفطرة، هذا لأنه أشبهَ الروحاني المنفعل، يقرأ أفكارنا ويقول للآخرين ما نريد منهم أن يعرفوه.

تأخرنا في البدء ذات ليلة؛ إذ فكَّك طاقم القطَّاعة جزءًا كبيرًا من المعدن من ناقلة النفط التي تستقر إلى جانب جريس. وحاول السحَّابة تثبيت حِبالهم لشد هذه القطعة على الشاطئ، ولمَّا توارى الضوء إلى زوالٍ، استسلموا، لكن عليَّ دفعهم للمحاولة مُجدَّدًا، وقضوا ساعاتٍ عدَّة يُحاولون تحريكها بمختلف السبل دون طائل. وسيتعيَّن على القطَّاعة أن يُقطِّعوها إلى أجزاء صغيرة في اليوم التالي، ثمَّ يُحاولون مْجدَّدًا.

حين وصلتُ كان الفتيان مُتعبين، وأجسامهم تميل إلى الأمام وهم يقفون مستقيمين على أعقابهم أمامي. توَّصل مو إلى فكرة أن يقُصَّ عليَّ كل واحدٍ منهم حكايته: من أين جاء، وكيف حال قريته، وعائلته، والأناس الذين خلَّفهم

من ورائه. في الأسبوع الماضي، أخبرنا فتًى اسمه رسول أن شقيقه قد جاء إلى الشاطئ ليعمل سحَّابًا في العام السابق. كان يبعث إليهم بالمال كما وعد، وبعد ثمانية أشهر انقطع المال. حاولوا الاتصال بأحد أقاربهم، ابنُ العم الذي هيأ له الوظيفة، لكن تعذَّر العثور عن أيٍّ منهما. ولهذا أرسلوا ابنهم الثاني للعثور على شقيقه، ولكن لمَّا نزل رسول بسيتاكُندا، أدرك مدى عُقم عملية البحث، مع البوابات المغلقة أمام كل واحدة من الترسانات، والأميال وراء الأميال من الأراضي. لم يعرفوا حتَّى اسم الشركة، ولا اسم رئيس العمال المسؤول. ولذا بَقِيَ رسول فحسب، يضحك له الحظ لأنه عمل سحَّابًا لصالح بروسبيرتي، وهي واحدة من أفضل الشركات. لم يعد إلى دياره منذ عامين، يبعث بالمال إلى والديه فحسب، كما كان يفعل شقيقه من قبله.

والآن صار دور واحدٍ من الفتيان الأكبر سِنًّا. نظَّف حلقه وأرجح ثِقله على قدميه. مستأنسًا بالتمهُّل، صوَّب فمه إلى مسجل الشرائط، متوقِّعًا الإيماءات وهزَّات الرأس التي ستُصاحب حديثه، من الرجال الذين يُدركون شعورَ أن يكونوا في موضعه، الذين عانوا مثل معاناته، ورأوا من الفظائع مثل ما رأى، وذاقوا المرارة كما ذاقها.

- حدث الأمر في أثناء الـ «موجنا» منذ سبع سنوات.

استهلَّ حديثه، مشيرًا إلى المجاعة التي اعتصرت شمال البلاد بين مواسم الحصاد.

- ظننا أن لدينا ما يكفي من الأرز. وكنَّا عائلةً من أمي وأبي وزوجتي وأطفالي الثلاثة وطفل آخر في طريقه.

عرفتُ ما هو موشك أن ينطق به، وكذلك يعرف الكثيرون، لكننا جميعًا ثبَّتنا أعيننا عليه وكلنا آذان صاغية. نفد الأرز قبل موسم الحصاد بشهرين. وراح يعرض جهوده للاستئجار، لكنَّ العمل متوقِّف. خرج والده إلى الحقول ذات يومٍ ولم يعد. ومع ذلك لم يكن لديهم ما يكفي. كانت له ابنة، ذات أعوامٍ ثلاثة، وكانت هي أول مَن رحل. ثمَّ حلَّ الشتاء، وحلَّت معه حُمَّى ضربت القريةَ كلها. مسح الرجل وجهه مرارًا وتكرارًا بيده اليمنى، وهو يبوح لنا بقصته بيده اليسرى. وحين وصل بحديثه إلى موت زوجته، نكَّس رأسه بين ركبتيه، تهتزُّ ذراعاه إلى الأمام والخلف، كأن بإمكانه أن يمحو القصَّة من ذاكرته. وهو يعمل الآن لإطعام الطفلين المتبقِّيَيْن، تاركًا إياهما في الشمال رفقة أخيه.

قال مو:

- قل اسمكَ في مسجل الشرائط.

أجاب: «بلال».

طلبتُ من الرجال إخباري بما حدث في ذلك اليوم، وأخبروني أن القطَّاعة أحيانًا يقطعون أجزاءً ضخمة من السفينة، قطعًا يعرفون أن السحَّابة لن يقدروا على جرِّها عبر الشاطئ. قال أحدهم: «يفعلون ذلك لتعذيبنا». سيُضيِّع السحَّابة الوقت في محاولة هذا أو ذاك لتحريك القطعة، وهم يعرفون طيلة هذا الوقت أن الأمر لن ينجح. ثمَّ يُجبرون على الانتظار بينما يُقسِّم القطَّاعة الأجزاء الكبيرة إلى أجزاءٍ أصغر. عرف المديرون بما حدث، لكنهم لم يتدخلوا. ثمَّة نظام على هذه الأرض؛ تسلسل هرمي يجب المحافظة عليه والامتثال له، والسحَّابة من الشمال يحتلُّون أقصى قاع الهرم.

مرَّرتُ بينهم قنينة من الشاي؛ أخذوا يرتشفون منها في صمتٍ، وهم يُحدِّقون إلى مصباح الكيروسين. غادرتُ وجبريلا، قاطعَيْن وعدًا بأن نعود في الأسبوع المقبل. خرجنا إلى الظلمة برفقة مو. شعَّ القمر بنورٍ ضعيف، لكننا ما زلنا قادرين على رؤية هيكل جريس. أُضيئت الظلمة بنيرانٍ صغيرة والوردية الليلة يعملون على الألواح المتبقية من ناقلة النفط. ثمَّ عبرنا بوابات بروسبيرتي.

كان على مو أن يعود إلى الشاطئ ليُنجز أمرًا كلَّفه به علي. فقلتُ له: «سنكون بخير. الشقة ليست بعيدة». أخبرنا أنه سيسير معنا، لكنني أصررتُ عليه، وأخبرته جبريلا أن يمضي في طريقه، وأننا سنراه بعد ظهيرة الغد حين يأتي لطهي العشاء. ظلَّت الحكايات تتردَّد في ذهني. وبينما كنتُ أُنصتُ إلى بلال، بذلتُ كل ما بوسعي لأظل جامدة المشاعر، أما وإني الآن لم أعد في حضرته، راح الشعور بعُمق خسارته يترسَّب بداخلي رويدًا رويدًا. خيم الهدوء وأمكنني سماعُ صوت الماء يضرب الشاطئ. سرتُ وجبريلا في صمتٍ حتَّى وصلنا إلى المنزل. وكدتُ أركض صاعدة الدرجات القليلة الأخيرة، إذ انتابني شعور غريب، كأن أحدهم يتبعني. وبعدما دلفنا إلى الشقة، أرادت جبريلا أن تتحدَّث بشأن الاجتماع، لكني سلَّمتُ إلى الصمت مُغلَّفة بذكرى وجه بلال، وشفتيه الرفيعتين الحزينتين تتفوَّهان بقصَّة موت ابنته. اقترحت جبريلا الخروج، لكن لم يكن هناك مكان نذهبُ إليه في تلك الساعة المتأخِّرة،

ولهذا هاتفتُ كومولا وسألتها إن كان بإمكاني المجيء رفقة صديقة، ولا عجب من موافقتها وسؤالنا عمَّا نريد أن نأكل.

استعارت جبريلا سيارة شيب سيف، ثمَّ اتجهنا بها صوب المدينة والنوافذ مُنسدلة، وسرعان ما شعرتُ بالتحسُّن. غمرني الحرج حين دخلنا المنزل؛ إذ راحت جبريلا تتطلَّع إلى كل شيء من أعلى إلى أسفل، وأمكنني القول بأنني أُقولَب الآن في بقعة جديدة من الضوء. أحضرت لنا كومولا صينيةً من الأيس كريم والفاكهة المُعلَّبة، وبدأ الثِّقلُ الذي سكنني آنفًا في التبدُّد.

قالت جبريلا، وهي تدسُّ ملء ملعقةٍ من الفاكهة المكعبة في فمها: «لا بُدَّ أن هناك شيئًا يمكننا فعله لأجلهم. كيف أمكنكِ أن تتحمَّلي هذا؟».

- إننا نفعل شيئًا. أنتِ تعدِّين فيلمًا.

قرقعت ملعقتها على جانب الإناء. ثمَّ قالت: «يبدو الفيلم استجابةً بائسة». ثمَّ سألت وهي تُشير إلى طبقها الفارغ: «هل هناك المزيد من هذا؟».

- سأسأل كومولا.

في الطابق السفلي، قالت كومولا إن الفاكهة نفدت، لكن هناك بعضًا من بودنج الأرز المتبقِّي في المُبرِّد. كانت تمضغ ورق التنبول، وتبطَّن فمها بالحُمرة. ذكَّرتني بـ نانو، ولا أقصد أن نانو تمضغ التنبول -لأنها لا تفعل-، بل ذكَّرتني بالنظرة التي ترمقني بها، نظرةُ حبٍّ تتوقَّع أن يتدفَّق من اتجاهٍ واحد فحسب.

في الصباح أعدَّت لنا كومولا عُجَّة البيض وجلسنا في الحديقة رفقة فناجين الشاي. شعرتُ بامتنانٍ نحو جبريلا لأنها لم تسألني عن تفسيرٍ لإقامتي في المنزل أو عن زواجي. ولمَّا لم ترغب أيٌّ منَّا في العودة إلى بروسبيرتي، طلبنا من جوشيم اصطحابنا في نزهةٍ طويلة في أرجاء الضيعة. وبعد الغداء، خططت جبريلا القليل من الأفكار لأجل الفيلم بينما عكفتُ على قراءة ملحوظاتي التي دوَّنتها في الليلة الماضية. وأخيرًا، استعددنا على مضضٍ للعودة إلى سيتاكُندا.

غيهب الغسق حين بدأنا رحلة العودة، نحمل أوانيَ بلاستيكية من بقايا كاري الدجاج وحساء الدال. داعب نسيم عليل شجرات التمرهندي ونحن نعبر الممرَّ إلى السيارة. شعرتُ بالتجدُّد؛ ستُوَفَّق قصَّة بلال لتصير جزءًا من فيلمنا، ومع أنها لن تُعيد إليه ابنته، ستكون مبادرة مميزة. أراني أخيرًا أُحرز شيئًا

من التقدُّم، ليس على مستوى هذا المشروع فحسب، بل على مستوى حياتي أيضًا. لن يكون الفيلم بديلًا عن ديانا أو عن زمزم، لا شيء يُضاهي موت ابنة بلال، لكن أقله يسعني أن أحقِّق إنجازًا واحدًا صغيرًا، محاولةً واحدة لإحداث صدمة في العالم.

بينما كنَّا نتجه جنوبًا إلى سيتاكُندا، لمحتُ فسحة فضاء الطريق السريع، وجمعًا من سياراتٍ قليلة تصطفُّ على جانب الطريق، ومن خلفها يمتد الشاطئ. قلتُ: «لا بُدَّ أن هذه هي «باتينجا». هل نتوقَّف؟». ابتهجت جبريلا مع إمكانية السباحة، وسرعان ما أُحبِطت حين أخبرتها أن عليها النزول إلى الماء مرتديةً ملابسها كلها تقريبًا. ثمَّ قلتُ: «يمكنكِ أن تشمِّري بنطالكِ قليلًا، ولكن لا تشمِّريه إلى ما فوق ركبتيكِ».

ازدحم الشاطئ بنساءٍ يرتدين قمصان سلوار وسراويل يُمرجحن أطفالهن فوق الماء. رقدنا على بطوننا وسمحنا للموج أن يلكزنا برفقٍ نحو الشاطئ. ومن بعيدٍ، سمعنا صوتَ نايٍ من بين صياح النوارس وصراخ الأطفال. قالت جبريلا، وقميصها ينتفخُ كبالونٍ من أسفلها: «هذا ليس سيئًا للغاية. المياه ممتعة». ولمَّا قاربت الشمسُ من الأفق، صعدنا على صخرةٍ كبيرة على الشاطئ وانتظرنا لتجفَّ ملابسنا. قلتُ: «لا أريد المغادرة»، وأومأت جبريلا موافِقةً.

أخيرًا قررنا أن الوقت قد حان للرحيل. كانت جبريلا قد صفَّت السيارة أمام سلسلةٍ صغيرة من المتاجر. صارت السيارة في مجال رؤيتنا، وكانت جبريلا تدسُّ المفاتيح في يدها حين رأينا رجلًا يسير باتجاهنا مُتعمِّدًا. ثمَّ توقَّف وقال: «ميجنا». ظننتُ أنه يُنادي شخصًا من ورائي، فتخطَّيته، لكنه استدار ورفع صوته مناديًا: «ميجنا! ميجنا!». أمسكت جبريلا بذراعي وكدنا نصل إلى السيارة، لكنه تبعنا ووقف أمام وجهي مباشرةً. لملمتُ شتات صوتي وسألته عمَّا يريده. فأجاب: «ألا تعرفينني؟». هززتُ رأسي نفيًا وحاولتُ دفعه جانبًا، وفي تلك اللحظة فعل ما فعله. وضع يداه على ذراعيَّ وأدارني نحوه ثمَّ ثبَّتني حيثما كنتُ أقف، وأصابعه تنغرز في لحمي. صحتُ في وجهه ليتركني وشأني، لكنه قال مُجدَّدًا: «ميجنا، لا تغضبي». ظلَّ يقول: «ميجنا، ميجنا، ميجنا». وأنا أحاول المصارعة للتحرُّر من قبضته، وبعد بضع ثوانٍ كانت جبريلا تصيح هي الأخرى، ولمَّا سمع صوتها تركني الرجل وتطلَّع إلى جبريلا، ثمَّ أطرق رامقًا ملابسي، قميصي الطويل ذا الأكمام الطويلة وبنطالي الجينز، فتراجع إلى الخلف، ووضع يده على فمه. قال: «يا الله!» وهو يهزُّ

رأسه، ثمَّ استدار ورأيته يجلس على الطريق هناك. ثمَّ جاء رجل آخر من العدم وجرَّه بعيدًا، واختفى الاثنان داخل دُكَّان حلاقة. دفعتُ بنفسي سريعًا إلى داخل السيارة وبكيتُ كما لو أن هذا الرجل قد ضربني ولكمني في وجهي وكسر أنفي.

***

كان هو يا إيلاجا. كان أنور. لا يسعني تصوُّر شعوره آنذاك، مُعتقدًا أنني المرأة التي يبحث عنها، ليُدرك أنني لا شيء سوى امرأةٍ غريبة. لا بُدَّ أنه كان خائفًا، لأن بإمكاني الأمر باعتقاله. في الواقع، ما إن عُدتُ إلى المنزل حتَّى هاتفتُ راشد وكان هذا بالضبط ما طالبني بفعله: قدِّمي بلاغًا إلى الشرطة. تجادلنا؛ فقلتُ إن الرجل لم يفعل شيئًا حقًّا، وقال راشد إنني حمقاء إذ أشعر دومًا بالأسف حيال أُناسٍ لا يستحقون هذا الشعور. ثمَّ قال إنه سيسافر في رحلة عمل إلى الصين وأنه سيغيب لبضعة أسابيع، وربما شهرًا. هل أريد رؤيته قبل أن يُغادر؟ قلتُ: لا، يتأجَّج الغضب بداخلي آنذاك لأنه متسرع في الزجِّ برجلٍ إلى السجن. ولعلَّنا يومًا ما سنخوض جدالًا آخر أسوأ حالًا حيال الرجل نفسه. انهرتُ قائلةً: «أراكَ حين تعود»، وألقيتُ بسماعة الهاتف فانكبَّت على وجهها.

***

هكذا اصطدم أنور بحياتي؛ بالتصدِّي لي في الشارع والإصرار على أنني شخص آخر. سرعان ما نسيتُ اسم المرأة. ميجنا. لا تُمثِّل لي شيئًا، أليس كذلك؟ لا تُمثِّل لي شيئًا عدا أنها كل شيء. لكن هذه حكاية أحتفظ بها لوقتٍ لاحق. أرجو ألا تُعاتبني على سرد القصَّة بأناةٍ يا إيلاجا. تلك الأمور تستغرق وقتًا، ويبدو أن لديَّ كل الوقت الذي في العالم، لأنكَ ما عُدتَ تظهر عند إشارات المرور؛ أنتظرُ أحيانًا في المقهى على الجانب المقابل من الطريق، أقرأ «أنَّا كارنينا» وأتطلَّع كل بضع دقائق لأنظر إن كنتُ استحضرتُكَ أم لا، لكن لا أثر لكَ هناك ولا في أي مكانٍ آخر في هذه المدينة قارسة البرودة.

أنتَ على وشك الوصول إلى الشاطئ؛ أفضل الأحداث وأشدها سوءًا على وشك الوقوع. تلك الذكريات، إذا كنتَ قد اخترت الإبقاء عليها، ستكون أكثر ما يؤلمك. الذكريات التي ستجعلك تريد التوقُّف عن القراءة، وحرق هذا الخطاب،

وألا تُفكِّر بي ثانيةً. ولذا، وقبل أن تستكمل القراءة، اقرأ ما يلي أولًا: قصة حبٍّ أخرى، مسعًى آخر، هُما مصير أنور، رجل رفض قدره وقَبِل به في الآن نفسه، رجل احتجَّ في صمت طيلة حياته على الكثير من الظُّلمات التي قضى العالم بصبِّها عليه. اقرأ قصَّته برفقٍ يا إيلاجا؛ وَدَعْ نظرتك لهذه الصفحة تلين؛ تذكَّر أن لا شأن له البتة في معاملتي إياك، لذا انظر إليه نظرة عطف وارفق في حُكمكَ، رفقتُكَ بالبريء الذي هو عليه.

***

شهادةُ أنور[1]

1. كيف ظفرتُ بكل شيء

يتلذذ رئيس العمال برفع العمال الجدد مربوطين بالأحبال ليختبر مدى قوتهم. بعضهم لم يتسلَّق قط ما هو أعلى من شجرةٍ في قريته. في الديار المكانُ مستوٍ، شديد الاستواء. أنا هنا منذ تسع سنوات، أعرف ما يشعرون به، لذا أقول لهم: لا تنظروا، لا تنظروا! أمسكوا المصباح اليدوي في يدٍ، هكذا، وركِّزوا أعينكم على برغيٍّ واحدٍ فحسب. أُريهم وأقول: من هنا إلى هنا، وأفرِّج أصابعي مسافة بوصة، أو لعلَّها بوصة ونصف البوصة. حينها سترى أعينكم هذه المسافة فحسب، ولن ترى غيرها. هل فهمتم؟

لا أُخبرهم بالقصَّة كاملة. والقصَّة الكاملة هي: إذا نظرتَ إلى الأسفل، تموت. سترى العالم قد تقلَّص أسفل منك. تدعو الإله فلا تتلقَّى جوابًا. تُردِّد الشهادتين. تجد أن الإله ليس هناك. تُبلِّل سروالك. لكن لا أحد يتطلَّع إليكَ. لا أحد يهتم لحياتك التافهة القذرة. الناس في الأسفل شذرات وأنتَ شذرة. ينظر الإله إلى الأسفل ولا يرى سوى نملٍ دقيق أسفل منه. تختنق. تُحرِّك ساقيك. تصرخ. يتمايل البناء، يتحرَّك، يقذف بكَ إلى الأعلى، يرميكَ من فوق. انتهى

(1) كان هذا الفصل قصة قصيرة نشرتها الكاتبة منفردة قبل أن تدرجها في أحداث الرواية. وحملت القصة العنوان نفسه. (المترجمة)

أمرُك، مدهوسًا. يجرفون أشلاءك من فوق الرصيف؛ ولا يُكاتبون عائلتك حتَّى. وبعد أشهر، سيذهب أحد إلى قريتك ويُبلِّغ الخبر لأهلك. وبهذا تُرسم نهاية حياتك.

لم أقل أيًّا من هذا كله؛ بل اكتفيتُ بما ينفعهم.

هذا الفتى الجديد لن يسمع لأحد. جاء إلينا مختالًا -لمحتُ خيلاءه من فوري، والهيئة التي تتحرَّك بها ساقاه وسرواله المتدلي، رأسه مضطرب فوق كتفيه، يومئ، ولا ينكِّس نظرته حين يتحدَّث رئيس العمال، بل يرفع رأسه، ويُسلِّط كلتا عينيه على الرئيس. عين بعين. يبتسم رئيس العمال. أعرف تلك الابتسامة؛ وتعني أنني سأنتزع هاتين العينين من جمجمتك من فوري. سرعان ما ستصير مثل بقيتهم، لا تُوليني إلا قمة رأسك ولا تُغمغم إلا سرًّا.

يقول الفتى: «إني مُتعلم يا سيدي. شهادة المدرسة الثانوية».

يُجيب رئيس العمال: «سيصحبكَ كراين إلى الأعلى». فيقول الفتى كأنما مُنح هديةً: «أجل يا سيدي».

مع كل هذا التعليم ولا يتبين حتَّى متى ستُشنَق رقبته.

لاحقًا أسأل الفتى عن أهله. إننا في وردية النوم نفسها، تبدأ في الثانية بعد الظهيرة، والسقيفة حارة كأحشاء حيوان. لا يمكنك لمسُ الإطار المعدني للسرير، بل تقفز على الفُرش وتدعو الله أن يأتيكَ نسيمٌ رطبٌ.

يقول إنه بهاري، قالها بشيءٍ من الصرامة، كأنه يقول: أنا بهاري، أستعبث معي؟ لم أرَ قط مثل هذا الفخر في قبيلة، فأجيبه: «وماذا إذن؟ لا أحد يهتم».

استولى الجيش على قريتنا، فتعين عليَّ المجيء إلى هنا لكسب بعض المال. يرفع الفتى كتفيه في غير اكتراث، لكنني أرى حين يغلق عينيه أنه سينغمس في حُلمٍ عن الجامعة، وسماع اسمه عند تفقُّد الحضور، والحصول على شهادته وقضاء حياته مرتديًا قميصًا بأزرار ومنعَّمًا بشيءٍ من الاحترام. يومًا ما لعلَّ أحدهم يُناديه «يا سيدي»، ويشتري سكوتر ويرتبط بزوجةٍ حانقة.

أما الآن فهو هنا. يقول: «اللعنة! هذا المكان في الداخل أشبه بمقلاة زيت».

أجيبه أننا ما زلنا في مارس. انتظر بضعة أشهر، ثمَّ ترى بنفسك الجحيم بعينه. وبعدها ألقي على مسامعه نصيحتي المتواضعة. فأقول: «ابقَ بعيدًا

عن رئيس العمال وأغلق فمك. ولمَّا يستدعيكَ ليُعنِّفكَ، مهما كان ما فعلته، لا تطرق برأسك إلى الأسفل». يومئ الفتى، لكني أعرفُ ما يحسبه، يحسبُ أنه لن يكون عند نهاية الحبل.

أستلقي على سريري وأحاول النوم. هذا الشهر سأحتل السرير في المنتصف. إننا نتناوب: حامد ومالك وأنا. السرير العلوي هو أشدهم حرارةً، لكنكَ تجدُ نسيمًا لو تيسر لكَ الشعورُ به، آتيًا من نافذة صغيرة على جانب السقيفة. والسرير السُّفلي أبردهم، لكنه قريب إلى الأرض ورائحة المرحاض النتنة قوية. أما السرير في المنتصف فهو الأسوأ، كأنكَ محشور بين مؤخِّرتين، خصوصًا لأن مالك يحتل السرير العلوي هذا الشهر. تُصدر قواعد السرير صريرًا وهو يُمتِّع نفسه لينام. اعتدتُ على إيقاعه الثابت، ولم أقل شيئًا. للرجل احتياجاته، هنا في وسط الصحراء. أما عن نفسي، فعجزتُ عن فعلها. أمدُّ يدي إلى الأسفل فيتجسدُ وجه ميجنا في رأسي. لن تسمح لي بالنوم. أرى دمعاتها النادرة وهي تطلب منِّي البقاء -«ماذا سأفعل حين يُولد الطفل؟». أذكرني وأنا أقول لا، وأرفع كتفي بلا مبالاة. أدعوها بالعاهرة، مع أنني أعرف أنها مرَّتها الأولى، وصرَّحتُ لها بحبي وأنا أعني ما أقوله، عدا أن عمِّي كان هناك أيضًا، ويصيح في قائلًا: «دبي، دبي يا بني، إنها كالجنة، فيها مراكز التسوُّق والتلفاز ومكيفات الهواء. تزوَّج ابنتي وستجد تذكرة الطائرة في يدك». أقول لميجنا: «أنتِ عاهرة». وأُوليها ظهري تاركًا إياها هناك، عدا أنني لم أتركها، هذا لأني كلما حاولتُ أن أتحصَّلَ على شيءٍ لنفسي: شيءٍ من النوم أو معدة ممتلئة، تتجسدُ في ذهني وتتجسدُ فيه بقوة. أريد أن أعرف ماذا فعلت بالبذرة الصغيرة التي زرعتها بداخلها، أين تعيش الآن؛ هل تعرفني؛ هل حظيت بعيني أمها؟ أرقد في الظلام ويهجرني النوم. يتنهَّد مالك، ويتقلَّب في سريره، وتزداد الغرفة حرارةً وتنتشر الرائحة النتنة.

***

سرعان ما تنتهي وردية النوم ويحين وقت العودة إلى الموقع. يُوشك الفتى البهاري أن يختبر الضربة الأولى على الرأس، لكنه لا يعلم شيئًا، بل يرتدي زيه الرسمي فحسب كأنه الشيخ نفسه. أضطرُّ إلى إلقاء الماء على وجه مالك ليستيقظ. ينهال علي باللعنات ويقفز هابطًا من سريره. تتذبذبُ الأرض

من تحتنا؛ وهذا يعني أن الوردية التالية تنتظر بالخارج -يحلُّ الليل، ويبدأ الطقس يبرد قليلًا، يا لهؤلاء الأوغاد المحظوظين.

***

ننزل من الحافلة عند المقصف. ويتخذ حامد مجلسه في نهاية الطاولة حتَّى يتسنَّى للناس أن يجلبوا له الخطابات. هو الوحيد من بيننا مَن يعرف القراءة. ندفع له قلةً من الدراهم ليقرأ علينا الأخبار الآتية من الديار. يقرأ علي خطاباتٍ من زوجتي السوداء تقول فيها: «اعتنِ بنفسك، لا تنسَ أن تأكل، وهل يبردُ الطقس، ألديكَ شالٌ؟». يضحك الآخرون دومًا ويُرددون: «ستقول لكَ كيف تستنجي الخراء من مؤخِّرتك». أضحك معهم. يا لها من فتاةٍ غبية. ولا أُكاتبها بدوري.

يقول حامد إنه أحيانًا يُغيِّر ما في الخطابات، هذا لأن للفواجع التي يقوى المرء على تحملها حدًّا معقولًا. في الأسبوع الماضي، قرأ في الخطاب أن والدة شوتو قد تُوفِّيت. هذا الوغد المسكين لم يمضِ على وجوده هنا سوى شهر واحد، وما برح يبكي في كل مرَّة يُضطر إلى الوقوف في القيظ، يحمل القرميد على رأسه. ولهذا أخبره حامد أن أمه بخير، بل في أفضل حال حقيقةً، بما أنه بدأ يُرسل إليها المال لعقاقير الربو. وحين يغلظ طبع شوتو كبقيتنا، سيُخبره حامد بالحقيقة. عندئذٍ لن يتوقَّف حتَّى لالتقاط أنفاسه.

***

مدير المقصف هو رجل فلبيني، شحيح لدرجة أننا لا نحصل إلا على كسرة خبزٍ، وحساء دال، وقليل من الخضراوات، رغم أنهم يقتطعون ثمن الطعام من أجورنا. وحين يحلُّ العيد يعطينا اللحم، أعني العظام والدهن فحسب. ثمَّة أمر واحد قاله عمي كان صحيحًا -الكثير من المشروبات الغازية قدر ما تريد، تأتيكَ مباشرةً من الصنبور.

يقول حامد: «طارق بهاي، أنجبت شقيقتك صبيًّا تامَّ الصحة».

يقول طارق بهاي: «ما شاء الله».

طارق هو الأقدم هنا من بيننا، واتخذ الطريق الديني. هناك طريقان يُخيَّر المرء بينهما هنا، طريق الله أو طريق مَن يعتقد بأنه ما من شيءٍ في الأعلى سوى شمسٍ ستقتلكَ سواء صليت صلواتك الخمس أم لا.

نغسل أيدينا ونتجه صوب الموقع. تُضاءُ المصابيح، وتومض المباني. نصل إلى «دبي مول»، يذكر طارق بهاي أنه لم يكن سوى كومةٍ من الحُطام قبل سنواتٍ قليلة، ويقول الفتى البهاري: «لِمَ لا نتنزَّه هنا؟». فنتطلع جميعًا إليه كأنه وُلِدَ البارحة. ويتراءى لي أنه أغبى حتَّى ممَّا ظننتُ.

أقول: «لا يمكنكَ الدخول إلى هناك».

- لماذا؟ أهناك قانون يمنع؟

- لا يجب أن يُسنَّ قانون لذلك.

يقول منطلقًا، كأن ما سيفعله أيسر شيءٍ في العالم: «سأدخل. هل سيرافقني أحد؟».

أظنُّ أن حامد سيرافقه -هؤلاء الأشخاص المُتعلِّمون دومًا يبقون معًا- لكن مالك هو مَن انفصل عنَّا وانضم إليه، ورحتُ ألعن نفسي إذ لم أجرَّه إليَّ قبل أن يفوت الأوان، وأخبره ألا يُفكر حتَّى في شم ريحه، هذا المكان سيقتلك.

ينصرف بقيتنا نهزُّ رؤوسنا في أسف. في هذا الشهر، أُوكلتُ وحامد العمل في الحفرة. هناك مبنيان سيرتفعان جنبًا إلى جنب. نُطلق عليهما اسم «العروس والعريس». العروس على وشك الانتهاء، أما العريس فلا يزال في مرحلة الأساسات. يقولون لنا: «خمسون-خمسون».. خمسون طابقًا للعروس، وخمسون طابقًا للعريس. مَن يدري ماذا سيُطلقون عليه ما إن ننتهي من بنائه؟ «برج العرب الشيخ آل مكتوم آل ما أدري ماذا»، لو قلتُ ما قلته جهرًا لانتهى أمري. أضحك في نفسي ويلقي حامد بذراعه حول كتفي، ويغرق في الضحك معي مع أنه لم يسمع المزحة. إن برجَيْ العروس والعريس يدفعاني للتفكير في زوجتي السوداء. كانت أقبح وأنحف فتاةٍ رأيتها في حياتي. ألقيتُ نظرةً واحدة عليها وأُقسم إن بضع دمعاتٍ احتشدت في عينيَّ. أبهذه الفتاة أرتبط طيلة حياتي؟ قالت أمي: «تزوَّجها فحسب. لن تراها حتَّى لسنوات. مَن يدري ما سيحدث بين الفينة والأخرى؟ لكن امنحنا حفيدًا، شيئًا يؤنس رفقتنا طيلة غيابك».

أدِّيتُ واجبي. شرعت الفتاة في البكاء حتَّى إنني شعرتُ بقليلٍ من الأسف عليها، مع أنني رحتُ أُفكر: لمرَّتين أتيتُها، وفي المرتين تنفجر الفتاة في البكاء -أهناك خطب بي أم ماذا؟ في اليوم التالي اصطحبتها إلى السينما، ولكن حتَّى شاه روخ خان نفسه لم يستطع مسح الحزن عن وجهها.

***

نهبط إلى الحفرة؛ تحيل الأضواء الساطعة المكان إلى زرقةٍ رمادية. نجد الحفَّارين مستيقظين ونبدأ في نقل المخلَّفات؛ ويبدو كل شيءٍ جافًّا مسلوب الحياة.

ألتقطُ مِشنَّة. وأتساءلُ عمَّا إذا خرج مالك والبهاري من مركز التسوُّق دون اقتلاع أعينهما، وبينما أنا غارق في تصوُّر شعورهما، راح رجلان يرتديان أوفرولًا أزرق يُحدِّقان إلى بجعات دبي ذوات الرقبة الماسية تلك، ثمَّ أشعرُ بلكزةٍ في جنبي، وها هو مالك غارق في الضحك حتَّى أمكنني رؤية تجويف سنِّه الذي فقده العام الماضي بعدما عضَّ على قطعةٍ من الحلوى اشتراها من الفلبيني. حينها قال: «تستحق العناء. لم أتذوَّق شيئًا لذيذًا في حياتي هكذا». أما الآن فراح يُحدِّثني عن مركز التسوُّق، والهواء البارد الذي يجفِّف عرقك إلى ذرَّات ملح، والأسقف العالية، والنساء، النساء، لا يُغطِّين سيقانهن، لا، بل لا يُغطِّين حتَّى نهودهن. «النهود يا رجل.. كأنكَ لا تُصدِّق». يصفعني بقوةٍ على ظهري، فتهتزُّ سلَّتي حتَّى أحسَّ بمذاق المخلَّفات. أقول: «عُد إلى العمل». لكنه ينشغل بالحديث أيَّما انشغال، ثمَّ ينضم إليه الفتيان الآخرون، حامد وحتَّى طارق بهاي. يتراءى لي أنهم جميعًا يُفكِّرون أنهم هم اللاحقون، هم داخل مركز التسوُّق البارد برودة المثلجات، فاغرو الأفواه، مُحدِّقو النظرات، يأخذون قطعةٍ صغيرة من الجنَّة عائدين بها إلى الحفرة ليتأمَّلوها.

أسوأ ما في الأمر أن الفتى البهاري قد صعد إلى أعلى برج العروس ولم يحدث شيء. لا شيء على الإطلاق. راح يتأرجح كالقرد ويضحك طيلة الوردية. يتضح أن هؤلاء القبليين يُحبون الطفو على قمة المباني، يعرجون إلى الأعلى فيصير العالم بأكمله ممتدًّا من أسفلهم.

***

طيلة الأسبوعين التاليين، يدأب مالك والبهاري كل يوم على العروج إلى دبي مول في طريقهم إلى الموقع. يتأبطون الأوفرولات في حقيبة بلاستيكية ويخرجون مرتدين السراويل والقمصان. وذات يوم، يأتي مالك إلى سريري ونظَّارات شمسية تنسدل على عينيه، ويقول: «انظر! أنا جيمس بوند الآن».

أتجنَّب الانخراط معهما؛ فلديَّ ديون أسدِّدها، ولا يمكنني المخاطرة.

لمرَّةٍ واحدة، لمرَّة واحدة فحسب، أميلُ إلى التجربة. يعتزمان الذهاب إلى السينما -ليس المكانُ الرخيص الآيل للسقوط بجوار المعسكر، بل أتحدَّث عن

سينما جديدة، ذات مكيفات هوائية، ومقاعد مثل الوسائد. كان البهاري يعرف رجلًا يعمل في كابينة التذاكر، ظلَّ يتودَّد إليه منذ اليوم الأول، يذهب إليه ويتحدَّث عن الديار، ويقول بالهندية: صديقي هذا، ويعود بالإنجليزية يقول: وصديقي ذاك. ثمَّ استسلم الرجل أخيرًا، عرض متأخِّر في ليالي الإثنين عادةً ما يكون فارغًا، تعالوا مع طاقم التنظيف واجلسوا في الخلف. أربعة منكم بحدٍّ أقصى. لا تتسبَّب في فصلي وإلا أخبرتُ الشرطة بكل شيء، حتَّى الفتاة.

للفتى البهاري حبيبة. ليست حتَّى امرأةً سوداء أو صينية قبيحة، بل شقراء بيضاء الوجه حسناء، عاملة في متجر تبيع العطور. يميل على الطاولة فتبتسم كأنما رأت نجمًا سينمائيًّا. نتجمَّعُ قرب البهاري، لعلَّنا نشمُّ قبسًا من ريح تلك الفتاة.

***

بينما ننقل أكياس الرمل إلى مبنى العريس، ينشب جدال بين البهاري ومالك عمَّا سيشاهدونه. يقول مالك إن عليهم مشاهدة الجزء الجديد من الفيلم الهندي «Dhoom - دووم». لكن فتانا يريد مشاهدة فيلمٍ إنجليزي.

- ما الذي ستفعله بفيلم إنجليزي أيها الوغد الصغير؟

لكنَّ البهاري لا يُفكر في نفسه، بل يُفكر في فتاته، وهو يُحرِّك يده في الظلمة، يحتضن ركبتها بيده، ويتحسَّس طرف تنورتها بإصبعه، وما الذي سيجعلها تستسلم له. هل فيلم ممل به قبلات زائفة ومطاردات حول الأشجار، أم فيلم به فتاة سيئة، وألسنة وشعر أشقر ومدينة نيويورك؟

للفتى البهاري وجهة نظر، لكني أنقل الرمل فحسب، وأتجنَّب الانخراط في المشكلات. أرسلت الزوجة خطابًا آخر. تسير أيامُ إبريل قُدُمًا ويزداد المطر شيئًا فشيئًا. في الأسبوع الماضي، عاد أخي، الذي يعمل في مصنع غزلٍ، إلى المنزل بقدمٍ مُصابة. وهو بحاجةٍ إلى عملية جراحية. هل بوسعي إرسال بعض المال؟ حسنًا، أزجُّ بالخطاب أسفل فُرشي.

أرسل مالًا، أرسل مالًا. هذا كل ما يريده الجميع. أنا مُضطرٌّ إلى طلب سُلفة، ولهذا أقتربُ من رئيس العمال صاغرًا. يتدلَّى المسواك من جانب فمه، ويلفه مرَّة وراء أخرى. ثمَّ يقول: «أنتم أيها البنجلاديشيون لا يمكنكم

الاحتفاظ بأي أموال. لا. انظر إلى هذا -وأشار إلى دفترٍ أسود كبير، وأسطرَ من الأسماء- الجميع يستلف، ولا أحد يدَّخر. ستغرقون في الديون، جميعكم».

يفتح فمه، فيسقط المسواك، باليًا متلألئًا من اللعاب. هل يجدر بي التقاطه؟ أحدِّق إلى قدميَّ. ثمَّ يسألني:

- كم تريد؟

لا أنطق بشيءٍ لوقتٍ طويل، ولا أدري ما السبب. سيذهب البهاري ومالك إلى السينما الليلة. سيسترخي في ذلك الكُرسي ويُلقي بذراعه على فتاته. سيرتشف المشروب الغازي بالقشَّة وستنفذ الموسيقى خلاله، حُرَّة انسيابية.

ثمَّ أقول: «لقد كنتُ أمينًا يا سيدي».

يتكئ رئيس العمال بظهره على الكُرسي، فيُصدر صريرًا يُشبه صوت فأرٍ يحتضر.

- لا شك، أنتَ لم تسرق قط.

- أجل يا سيدي. وأفعل دومًا ما تُمليه عليَّ.

أرفعُ ذقني قليلًا فيدرك ما أتحدَّث عنه، عمليات التستر البسيطة، إبعاد بضعة أكياسٍ من الأسمنت عن الشاحنة، خسارة بعض المال. أما الرئيس، الشيخ ذو الزوجات الثلاث، الذي يرتدي طاقية صلاة ويُخبرنا أن نُناديه بـ «السيد الحاج» لأنه يسافر إلى السعودية كل عام ويُقبِّل قبر النبي -لن يلحظ اختفاء أشياء قليلة هنا وهناك. ولا يُشكِّل جُوالًا من البراغي وبضع عُلبٍ من الطلاء أهميةً له.

إذن أنتَ تقول لي: لا، ويحسن بي أن أكون ممنونًا؟ يتدلَّى من فمه مسواك جديد. أُفكر الآن في ميجنا، وشعرها السميك بخصلاته الانسيابية المجنونة؛ أُفكِّر في رائحتها الطيبة وهي تُخبرني أنه يجدر بي أن أكون رجلًا معتدًا بنفسه. فأجيبها: لا شيء لأعتدَّ به.

أتفاجأ بنفسي أقول: «أجل يا سيدي. إن الأمانة على هذا النحو ليست هينة».

- وأفترضُ أنكَ تريد شيئًا مقابل عنائك؟

ها هو ينهض، يسير نحوي، سيمنحني شيئًا، القليل من المال وتربيتةً قوية على الكتف، تربيتة ودودة. أظنُّ أن عليكَ طلب حقك. كل ما عليكَ فعله

هو الطلب. ها هو رئيس العمال قريبًا الآن، قابضًا على ذقني بيده، رافعًا إياي لتتواجه أعيننا، وللحظةٍ رأيته يُحدِّق إلى شفتي وظننتُ أنه سيُقبِّلني. فتح فمه، ثمَّ بصق، يُحلِّق المسواك خارجًا من فمه، مستقرًّا تمامًا على وجهي.

- اغربْ عن وجهي أيها القذر. أتبتزني؟

يحكم يده في قبضة، ويسدِّدها إلى خدِّي. أُطرَحُ أرضًا، ألعن ميجنا وشعرها وحكمتها الغبية. أُحاول التحقير من نفسي. يواصل ركلي. أشعر بحذائه في بطني. أتلوَّى ألمًا، فيواصل ركلي مجددًا. يتفجَّر وجهي. وينخلع سن. وأتذوقُ الدماء.

- مَن أخرجكَ من المزبلة التي تدعوها بلدًا؟

- أنت.

- بصوتٍ أعلى!

- أنتَ!

- ومَن منحكَ وظيفة حين أتيت زاحفًا؟

- أنت.

- كرِّرها!

- أنتَ!

ثمَّ أُشرِع في إصدار أصوات التوسُّل، أُخبره عن أخي، وعن ساقه، وعن اضطراره إلى الجلوس في حفر الطين تلك لثماني عشرة أو عشرين ساعةً في اليوم، ينسج على النول، حتَّى اعتصر البرد فخذيه. قلتُ: «أرجوك يا رئيس العمال، اغفر لي زلتي».

- أيها الحثالة. اغرب عن وجهي.

يعود البهاري ومالك من السينما والابتسامات تغزو وجهيهما حتَّى أمكنني رؤية أسنانهما الخلفية. فأظهرُ لهما وجهي المكدوم.

يسأل مالك: «ماذا حدث لك؟».

- رئيس العمال. هذا ما تجنيه حين تخطر لكَ أفكارٌ رنانة.

- أفكارٌ تخطر لكَ أنتَ؟

- نعم، أنا. مفاجأة!

يتطلَّع البهاري إلى وجهي، وإلى عيني المتورِّمة. فأقول محاولًا الضحك:

- أقبح من ذي قبل.

يهزُّ رأسه نافيًا، ويقول:

- هذا ليس صحيح. لا يمكنهم فعل ذلك.

- بل يمكنهم فعل ما يحلو لهم. إنها بلادهم.

- سنذهب إلى الشرطة. لا يُعقل أن تُضرَب وتصمت.

يبهجني حديثه الطفولي. فأقول: «لا تشغل بالك. اجلس. احكِ لي عن السينما. (وربَّتُ على السرير) هيا أقبل يا مالك».

لكنه كان يقطع الممر الضيق بين أسرَّتنا جيئةً وذهابًا.

- الوغد.. الوغد.

يلتفتُ إلى البهاري، فأسأل: «إذن ماذا شاهدتما؟».

يجيبني رافعًا حاجبيه: «فيلمًا إنجليزيًّا. به الكثير من التراشق بالأسلحة».

- هل استمتعت به فتاتك؟

يستلقي على السرير، رافعًا يديه إلى وجهه ويقول: «اللعنة يا رجل».

بالكاد أستطيع تذكر ذاك الشعور، المرَّة الأولى التي تذوقتُ فيه ثغر امرأة.

- خذ حذرك!

كان هذا كل ما استطعتُ النطق به.

- إنهن يُلقين عليكَ اللعنة ومن ثمَّ ينتهي أمرك.

يحشر مالك نفسه في سريري هو الآخر، ويقول: «إذن ماذا ستفعل بشأن أخيك؟».

- سيتعيَّن على أخي الانتظار.

- اسمح لي أن أُقرضك المال.

- وماذا تمتلك أنتَ؟

- لديَّ مال، لديَّ مال.

- لا يا أخي. لن آخذ قوت يومك.

لا أتمالك نفسي؛ إذ ظل لساني يتفقد السن المفقود، والفجوة الهلامية في محله. يحاول مالك الاستزادة في الضغط عليَّ لكنني أعجزُ عن أخذ ماله.

- آه، كدتُ أنسى يا أخي. لقد أحضرنا لكَ هدية.

يخرج البهاري من جيبه عُلبة من الحلوى، فأنهمك في مضغها بجانب فمي السليم.

ثمَّ أقول لهما: «ناما الآن. سيطول الأمر لو حلمتما به».

***

في اليوم التالي، يأتي رئيس العمال إلى المعسكر. ويقول: «لديَّ مهمَّة».

يوشك برج العروس أن ينتهي، وما تحتاج إليه هو تلميع نوافذه. سيأتي الشيخ عبد الله ابن الأغنياء لقصِّ الشريط وينبغي أن يكون كل شيءٍ في أبهى صوره.

- الوقت ينفد والمهام بحاجةٍ إلى الإنجاز في أسرع وقت.

يقول البهاري: «أنا لها».

يقولها مع أن برج العروس عاليًا، شديد الارتفاع، عمَّا ألفه قط، لكنه يريد الخروج مع فتاته، إلى مطعمٍ أنيق هذه المرَّة، به أُناس يبتسمون ويسألونكَ إن كنتَ تريد ثلجًا في مشروبك الغازي ويُحضرون الأطباق إلى الطاولة.

ثمَّ يضيف: «أريد ضعف الأجر».

يبتسم رئيس العمال ويقول: «حسنًا».

أرى شيئًا في عينَيْ المدير، فأرفع يدي أيضًا، وسرعان ما يشاهدنا مالك نغادر في شاحنة. يأخذنا رئيس العمال إلى ردهة برج العروس، شاغرًا ومتألقًا، حينها أشجِّعُ نفسي بابتسامة بسيطة، هذا لأنني أعرف أنني أقمتُ هذا البناء بيديَّ، ويد مالك والفتيان الآخرين، ونحن نعمل خلال نسائم الصيف الحارقة. يجوب البهاري بنظره في الأرجاء، حالمًا بالوقت الذي يمتلك فيه المكان بأكمله. كانوا قد فصلوا المصعد الخارجي، ولكن هناك آخر في مؤخِّرة المبنى، حيث يدخل ويخرج الطهاة وعمال النظافة والحُراس، وها نحن نصعد إلى الأعلى، فالأعلى، إلى سطح البناء. يقول رئيس العمال وهو يُناولنا زوجًا من الخوذات: «ارتديا هذه». ثمَّ يندفع فاتحًا بابًا ضخمًا، فنصير على سطح البناء، مستويًا ومفتوحًا إلى السماء. أتساءلُ إن كان البهاري يظنُّ أنها ليست

فكرة جيدة في نهاية المطاف، لكنه ليس مَن يعترف بالهزيمة. أضعُ يدي على ظهره، لكنه ينفضها عنه، مهرولًا إلى حيث أشار رئيس العمال، إلى شرفة صغيرة معلَّقة عند حافة المبنى.

تُثبِّتنا الكُلَّابات والأحبال إلى جوانب الشرفة. يقول رئيس العمال: «سأُنزلكما على امتداد المبنى إلى الأسفل. اعملا على طابقٍ واحد على حدة، رويدًا رويدًا. ثمَّ اضغطا الزر واصعدا إلى طابقٍ آخر».

يريني كيف أُشغِّل الرافعة. وأكتشفُ أنه ما من شيءٍ يُثبِّتنا إلى جانب المبنى؛ بل نحن مربوطان إليه من الأعلى فحسب. هذا الشيء سيتأرجح. أتطلَّع إلى البهاري مُجدَّدًا، متسائلًا إن كان يجدر بي إيقاف الأمر برُمَّته، لكنه يضحك كأنه العيد. يقول رئيس العمال: «لا تقلق». ثمَّ يغمز بعينه.

في أثناء هبوطنا إلى الأسفل، يتعلَّق البهاري بالحافة ويصدر صوتًا خافتًا غريبًا ظننتُه هلعًا، ثمَّ يستدير إليَّ وهو يقول: «**أنا أطير!**». هذا الوغد يضحك، يبسط ذراعيه إلى الخارج ويهزُّ كتفيه كأنه بطل في استعراضٍ غنائي لفيلمٍ هندي. تشبه النوافذ المرايا؛ أمكننا أن نرى انعكاساتنا. يحيطني البهاري بذراعه ونُحلِّق إلى الأسفل، كملائكةٍ تهبط من الجنة، بطل خارق وإله وأُناسٍ لا يعيشون على أكل الخراء.

كلما نظَّفنا نافذةً، نصعد إلى الأعلى طابقًا آخر. إننا نُضفي اللمعة على تلك العروس وها هي تبدو حسناء. نشعر بريحٍ هنا، والشرفة المُعلَّقة تتأرجح قليلًا، وتزداد تأرجحًا كلما ارتفعنا. نُمسكُ بالشرفة بيدٍ واحدة ونُنظِّف بالأخرى. نغسل النافذة، ثمَّ أضغط الزِّرَّ، فنرتفع إلى الأعلى. وتزداد الريح قوة.

يُخبرني البهاري: «سأتزوَّجها».

رجل يتزوَّج عن حب. لستُ أهلًا له، لكن ما من شيءٍ لا يستحقُّه البهاري. إنه يريد كل شيء.

أقول: «افعلها إذن. أتراها ستعتنق ديننا؟».

- إنني مسيحي أيها الأحمق.

قضينا معًا كل هذا الوقت، ولم أعرف حتَّى. تلك هي مشكلتي. أظنُّ الجميع متشابهين، لكن ليس ضروريًّا أن تمضي الأمور على هذا النحو. حتَّى أنا لا يتحتَّم عليَّ أن أظلَّ كما أنا. يمكنني أن أكون مختلفًا. تهدأ الريح وننعم بهُنيهة

من السكون حتَّى يسعني التفكير في كل السُبل التي أصير بها مختلفًا. لكن قبل أن يبدأ حلمي في رِفعة شأني، تعصف الريح مُجدَّدًا. عدا أنها هذه المرَّة تأتي مُحمَّلة بالرمال. وبعد دقيقة يصير الهواء مُثقلًا به، مثقلًا لدرجة أني لا أستطيع شيئًا سوى تبيُّن البهاري على الجانب الآخر، متشبثًا بكلتا ذراعيه. أصيح، مبتلعًا ملء فمي برمال الصحراء: «ستمرُّ الريح. لا تقلق. تمسَّك».

ننتظر، نُدير ظهرينا إلى الريح، وتتضاءل أجسادنا، تتضاءل بقدر ما نستطيع. أزحفُ نحو البهاري وأمسك بأوفروله، وأتأبط ذراعه بذراعي. نتأوَّه والرمال تغزو آذاننا، وملابسنا، أشبه ببصاق كريه. ترتفع الشرفة من جانبٍ واحد ثمَّ يرتفع الجانب الآخر. أجذبُ ذراع الرافعة، لكنَّ الخيار المكفول هو الصعود إلى أعلى، وليس إلى الأسفل. اتجاه واحد فحسب، ولهذا أُعمِل الزِّرَّ لنصعد إلى الأعلى، ببطءٍ قدر المستطاع. نقترب من السطح وفجأةً تهتزُّ الشرفة وتتوقَّف، أضغط الزِّرَّ وأستمرُّ في الضغط عليه، لكن لا يحدث شيء. أزحف إلى الجانب الآخر، لأرى إذا كان بإمكاني تحريك الأحبال. لكنني أعجز عن تحريكها. أسأل نفسي إن حان الوقتُ للبدء في الدعاء، لكن ما من إلهٍ سيستجيبُ لي الآن، ليس بعد كل ما وجهتُه إليه من سباب. أظلُّ أُكرر: «ستمُرُّ العاصفة، ستمُرُّ العاصفة». لكنَّ البهاري عاجز عن سماعي الآن، في مكانه على الجانب الآخر، والريح شديدةُ الهبوب، وفي لحظاتٍ نتأرجح يمينًا ويسارًا كالأرجوحة، وهو كل ما دفعني لإبقاء ذراعي حول قضبان السُّدَّة؛ يُعجبني ما أُعلِّمه لهؤلاء الفتيان حين يأتون إلى هنا أول مرَّة، وهو أن يُركزوا على جزءٍ صغيرٍ من المبنى، وليس ارتفاعه الشاهق كأنه يتساقط من أسفلي، هذا الجزء الصغير أمامي، وأوصي في هذه اللحظة أن تقف ثابتًا راسخًا في موضعك، ثمَّ أرى البهاري، وذراعه مرتخية، والأحبال التي تربطه إلى الآلة تُحلِّق مُتحرِّرة، وجلبة سقوطه يبتلعها حفيف الصحراء، ذاك الثعبان الحرباوي.

***

أعود إلى الديار وأظفر بكل شيء. لأن البهاري مات دفعوا لي مقابلًا لسكوتي. أنا النذل الجشع الآن. أنا الشخص الذي تغيَّر. كانت شخصيتي القديمة لتبقى، ربما لتحرص على أن يحظى البهاري بقبرٍ مناسب، وربما ما كنتُ لأقبل هذا المال النجس، وربما أحدثتُ جلبةً حيال الأمر، ولكن ما إن ناولوني ذلك المظروف حتَّى رحلت. يخبرني مالك أن الشيخ سيتخلَّص من

رئيس العمال. ما كان يجدر بنا أن نكون هناك في الأعلى دون معدَّات حماية أفضل. هذه حادثة لا يمكنهم إخفاءها، كقصص الفتيان الذين يقفزون من الأعلى لأنهم يفقدون أمهاتهم ولا يستطيعون تحمُّل يومٍ آخر. كنَّا في الأعلى ساعةً كاملة؛ رآنا الكثير من الناس، أُناسًا حقيقين ذوي مكانة. يقول مالك: «يمكننا فرض طلباتنا. أن نطلب أجورًا أفضل، وأجورًا على ساعات العمل الإضافية ومكان جيد ننام فيه».

لكنني لا أهتم لأيٍّ من هذا. لأنني حين أوشكتُ أن أموت، حين كنتُ معلَّقًا في الأعلى والعاصفة تهبُّ في وجهي، كل ما أمكنني التفكير فيه هو طفلي. طفلي الذي يسير الآن بلا ذكرى عن والده، طفل سيتطلَّع إلى نفسه في المرآة ولا يدري من أين حصل على ملامح الوجه تلك. طفل لا يعرف سوى ما أخبرته به ميجنا، رغم أنها لو نطقت بالسوء، فهو عين الحقيقة، هذا لأني كنتُ نذلًا حين تركتُ هذا الطفل يأتي إلى العالم بلا اسم. والآن أريدُ كل شيء، أريد مُبرِّدي وجوربي واسمي وأريد ميجنا، هِبتي الصغيرة من الجنة، وها أنا قادم لأظفر بها.

***

2. أنا جليس الطرقات

أنا جليس الطرقات. أجلس عند عتبة الباب والناس يأتون. في الصباح، يُثرثرون إليَّ بالقيل والقال. زوجة فلان تركته. فقد كل أمواله في القمار فانصرفت عنه. كوبُ شاي وحديثُ في السياسة. أنا رجل مهم الآن، تسعى الأحزاب ورائي -إلى مَن سأنضم؟ حزب العوام.. الحزب الوطني البنجلاديشي؟ يريدونني، يريدون أموالي، وتأثيري على القرية. أجلسُ عند عتبة الباب وهم يتملَّقوني. أقول للموالي أن يذهبوا إلى الجحيم، لا شيء صحيح من شؤون الرب المزيفة. أقول لهم إنني رأيتُ الرب. إنه مخلوق من رمالٍ بصقها في عينيَّ مباشرة.

تزداد قصَّتي ضخامةً مع كل شفاهٍ تعبرها. في بادئ الأمر، كنتُ على ارتفاع خمسين طابقًا، ثمَّ مئة طابق. طيلة ساعتين في تلك الشرفة المرتفعة.

ثمَّ ست ساعات. ثمَّ عشر ساعات. مُعلَّق بحبل. ثمَّ مقلوبًا رأسًا على عقب. كنت محظوظ الطلعة، وإلا لكنت ميتًا كالشاب الآخر.

حتى مُرشد يتملَّقني. مرشد الذي استولى على قيراطين من عمي ليُرسلني إلى دبي، ويُكدِّس جيوبه بالأموال التي يأخذها من كل لعينٍ يريد السفر إلى الخارج. يُسمِّن بطنه بجيف اليائسين. والآن يقول لي: هيا نتشارك.. سأعطيكَ عشرة بالمئة. وإذا ساومته، سأستخلص منه خمسين بالمئة، لا مشكلة. ولكنني لستُ عازمًا على الاستزادة في تدنيس يديَّ بعد الآن. ولم أَرد حتَّى على خطابات عُصبتي؛ انتهى بناء برجي العروس والعريس، والآن يعملون على بناء نادٍ للجولف على جزيرة اصطناعية، يأتون بالرمال من البحر. لقد انتهت تلك الحياة. مات البهاري وقبضتُ أنا المال المُلطَّخ بدمائه، والآن سأجلس هنا عند عتبة بابي وأدعُ الناس يأتون إليَّ.

بعد كل الزيارات التي أتلقاها في الصباح، أخرج للتنزُّه في أنحاء القرية. أرى ثمار الفلفل الأحمر مثل أحمر شفاه يغطي حدود منازل القوم. أرى الأرز، بلونه الأخضر الداكن، ثمَّ الأصفر. أحوم حول المسجد لكنني لا أدخل؛ إن بُني المسجد في موضعه ليمنحني السكينة، فأنا لا أستحقها.

أسير إلى السوق وأُلقي نظرة. حلَّ الشتاء وحُصِدت كل الزروع الرائعة من الأرض. زروع ما كنتُ أنعم بها قبلًا إلا بعيني، والآن تنعم بها معدتي. أما زوجتي المُقتصدة فلا يُعجبها إسرافي. منحتها بعض المال -القليل فحسب- وبدلًا من أن تُقيم حفلًا كما أخبرتها، وتدعو الجميع وتذبح شاةً، اشترت بقرةً صغيرة وثور. أجدُ الحليب في كوب الشاي كل صباح. ثمَّ تبيع بقية الحليب، وتنهمك في تسمين الثور -وحين يأتي العيد ستبيعه وتشتري بثمنه اثنين آخرين. أُغضِبها فأقول: سأذبح الثور بنفسي، فماذا هي فاعلة؟ سأُطعم القرية بأكملها، وسيأتي إليَّ المتسوِّلون بحثًا عن الفتات، سأصير ملكًا متوَّجًا على القرية، ولن تُراودني المزيد من الأحلام عن تشبُّث أصابعي بتلك الشرفة، والبهاري موشك أن يتزوج بفتاته المسيحية، يسقط من السماء مثل حَصَاة.

بعد الغداء أغطُّ في النوم. لا أحد يُزعجني فيقول أطعِم البقرة، أو اجلب العشاء، أو انزع الخضراوات من الأرض. أنام لساعتين أو ثلاث. وحين أستيقظ أراهم عند عتبة الباب مُجدَّدًا، يُخبرونني كم كنتُ شجاعًا، وكم أنا محظوظ.

وحدها أمي ليست سعيدة. وتظلُّ تردِّد على مسامعي: «الابن! الحياة لا تساوي شيئًا بلا طفل. كلا، لن أتوقَّف عن التذمُّر. طلِّق تلك السوداء، لم تعد بحاجةٍ إليها. اعثر على زوجةٍ أخرى. بيضاء وشابة. ستمنحكَ ابنًا بحلول الربيع القادم ويمكنني حينها الموتُ في طمأنينة».

لن أفعل. في الليل حين تُقدِّم لي العشاء، تُنصت شاتي لتحرُّكاتي من الخارج حتَّى يصير طبقي نظيفًا. ثمَّ تأتي وتسكب إناءً من الماء على يديَّ، وتُناولني قطعةً من الصابون. تجفِّف يديَّ بطرف ساريها. ثمَّ تأكل بمفردها. وفي الفراش، أستطيع سماع أنفاسها وتنهُّداتها وهي تنقلب من جانب إلى آخر، تُحاول ألا تُزعجني والدماء تتأجج بداخلها. ترغب في اللمسة. ومع أنها نحيفة ومن مظهرها لا تجد فيها شيئًا سوى العظام، أعرف أن بداخلها دماءً، أعلم أن دماءها ترغب في التحرك والدوران في أنحاء جسدها، لكي تعرف أنها امرأة. تنبسطُ يداي لألمسها، لكنني أسحبها مرَّة أخرى. لا شيء بداخلي تجاه ذاك الجسد، لا شيء من السكينة. تتحرَّك يداي مُجدَّدًا، تُحلِّقان عبر الوادي القابع بيننا. أمدُّ يدي وأضعها على ردفها. ترقد ساكنة بلا حراك لكني أسمع نفسًا قصيرًا ينفلت من بين شفتيها. تثقلُ يداي على جسدها، كأنما ستبقيان هناك، ثمَّ أشعرُ بنفسي موشك أن أتحوَّل، فأزحزح نفسي قليلًا بالقرب منها، وحينها يتجسَّد البهاري وميجنا في ذهني، وتتسمَّم اللحظة. أدفعها عنِّي بخشونة. وأقول هادئًا وبي ما بي من القسوة: «تحرَّكي إلى جانبكِ على السرير». ثمَّ أستدير، وأتجاهل النفس العميق الذي تُحاول كتمه، كأنه مثقال ذرَّةٍ من الأنين.

***

إنها الجمعة، أتجوَّلُ في القرية وهذه المرَّة أظنُّ أني لن أتجنَّب المسجد. الوقتُ مُبكر على الصلاة، والأرض شاغرة. انعطفتُ حول الزاوية ودخلت من الباب الصغير في مؤخِّرة المسجد. بُني هذا المسجد منذ وقتٍ طويل. كُسيت أرضيته ببلاطٍ أبيض وأزرق ذات يوم، قبل أن يقتلع الناس تلك البلاطات ويُلصقونها فوق أبواب منازلهم. أُلحق بمؤخِّرة المسجد حجرة صغيرة عاشت بها ميجنا رفقة أمها. عاملة النظافة في المسجد وابنتها. جاءا معًا إلى هذه القرية حين كانت ميجنا لا تزال رضيعة. أدخلُ إلى الحجرة الآن، وأُزيح

الستارة الخفيفة من على الباب. أنتظرُ لرؤية المهد، وتقويم «غانيش»[1] الذي علَّقته أمها أسفل النافذة. جابت أمها القرية وقالت إن زوجها مُتوفًّى، وما من أحدٍ يعتني بها، فاستضافها الإمام في ذلك الوقت، وقال إن الحجرة خالية ويمكنها أن تنتفع بها.

ماذا توقَّعتُ أن أجد؟ أمُّ ميجنا والحجرة على وضعها تمامًا كما أتذكَّرها؟ إنها خالية، لا فُرش ولا أقصوصةً من ثياب. والرطوبة تأكل الجدران والسقف كأن الحجرة مقبلة على الانهيار. وضعتُ يدي على الحائط فتقشَّر الطلاء بسهولة. الوضع الذي اتخذته ميجنا وهي تُبرِز لي ما بين ساقيها، تلك الفاسقة الصغيرة. يسترجع عقلي كل ما فعلناه في تلك الغرفة بينما كانت أمها في الخارج تكنس المسجد أو تزرع الفول في قطعة الأرض الصغيرة في المقدمة. وفي الليل، كنتُ أنقر على النافذة، فتتسلَّل خارج الفراش الذي تشاركته مع أمها وكنَّا نستلقي أسفل شجرة التمر هندي ونُلامس بعضنا كأنها نهاية العالم.

أغرق في الحلم غرقًا لدرجة أنني لم أسمع المولى حتَّى تنحنح وبصق بصقةً كبيرة إلى جانب قدمي. أستدير فإذا به يجذب شعرات لحيته ويتطلَّع إليَّ، ثمَّ فجأةً يمدُّ ذراعه إليَّ وأظنُّ أن فاتني لُطف الجميع معي الآن، ولذلك لا أدري ماذا أفعل، ثمَّ أتذكَّر وألعب دوري ونتبادل عناقًا ثلاثي المرَّات، لا تتبادله إلا في العيد مع أخيك. أنا رجل مهم الآن، والجميع يريدون أن يكونوا ذوي صلةٍ بي. الآن يتطلَّع إلى رقعة الطلاء التي تقشَّرت في يدي ويقول: «عار أن يكون المسجد في تلك الحالة السيئة، أنتَ تذكر كم كان هذا المكان أفضل بكثير. تعالَ يا بني، وتناول معي كوب شاي».

نذهب إلى كشك الشاي، فيخرج لي صبي الشاي أفضل مقعدٍ لديه. أعرض المقعد على المولى وأتقرفص على كعبي. نشرب الشاي، ويقول هو: «القرية تتغيَّر. يخرج الفتيان، ولا يعودون أبدًا».

فأُجيب مُنهكًا من جلوسي القرفصاء: «يريد الجميع السفر إلى الخارج».

---

(1) غانيش هو تقويم هندوسي نسبةً إلى الإله غانيشا، وهو واحد من أشهر آلهة مجمع الآلهة الهندوسية وأكثرها عبادة. يُعرف بكثير من السمات، أهمها رأس الفيل، وتجعل التعرُّف عليه سهلًا. (المترجمة)

يرتشف شايه بصوت شفطٍ عالٍ، ثمَّ يقول: «إنهم يتركون النساء وراءهم وهذا لا يأتي بالنفع، أليس كذلك؟».

- أظنُّ ذلك.

- في أوقاتٍ كهذه، المسجد هو ما يُحافظ على تماسك القرية.

أومئ موافقًا، وأشرد مفكرًا: إلى متى يتحتم عليَّ البقاء هنا؟ استغرق الأمر منه خمس دقائق تقريبًا لإنهاء شايه، يرتشف ويشفط، يرتشف ويشفط. وأخيرًا ينهي شايه وينهض واقفًا. فأنهض بدوري، وركبتاي تشكواني. ثمَّ يقول: «المسجد هو مكان أنفقتَ فيه كثيرًا من الوقت يا بُني».

يتطلَّع إليَّ ولا ينطق بشيءٍ لوقتٍ طويل، ثمَّ أدرك أنه يُخبرني بعلمه عن اعتيادي التسلُّل إلى هنا، بعلمه عنِّي وعن ميجنا، ثمَّ يقول: «لدينا صندوق تمويل، كما تعرف، صندوق تمويل للمسجد. صار لنا ست سنواتٍ ندَّخر، وجميع الفتيان المسافرين بعيدًا يبعثون بالمال».

ثمَّ تستقر يداه خلف ظهره كأنما قُبض عليه وحينها أعرف ما عليَّ فعله. فأقول: «سأدفع. أيًّا كان ما تبقى، سأدفع».

أسمح له بعناقي ثانيةً، عناقًا أقوى هذه المرَّة، حتَّى أمكنني شمُّ زيت الورد في شعره ولمس حبيبات الرمل في لحيته.

- سبحان الله! أنتَ ابن بارٌّ بالقرية.

ثمَّ يُضيف كأنما طرحتُ عليه سؤالًا:

- ماتت المرأة التي اعتادت أن تُنظِّف هنا. كانت مريضة بالتيفويد على ما أظنُّ. ثمَّ اختفت ابنتها كذلك.

كان يعلم طيلة هذا الوقت ما أريد بالضبط؛ بعض معلوماتٍ عن ميجنا، لكنه انتظر حتَّى لفظتُ المال، ثمَّ ألقى بالأمر على مسامعي.

لا أستطع النوم في تلك الليلة. وللمرَّة الأولى أتساءلُ حقًّا عمَّا حدث لميجنا بعدما سافرتُ إلى دبي. أرى الأمر كمشاهد من فيلمٍ: أُغادر، ولم أُلقِ عليها الوداع حتَّى. يبدأ بطنها بكشف سِرها. تُخبر أمها. فتقول الأم: فتاة مُقززة. ثمَّ ماذا يحدث؟ يتركان القرية معًا؟ يحزمان أشياءهما ويستقلان حافلة -ولكن إلى أين؟ مَن سيستضيفهما؟ مَن عليَّ أن أسأل؟ لا أدري.

في اليوم التالي، وقبل أن يُنادي المولى في القرية للصلاة، أحزم حقيبة. تُشاهدني شاتي، لكنها لا تنطق بكلمة. أُريها أين أضعُ المال، مؤمَّن في صندوق أسفل الفراش. والمفتاح في سلسلةٍ حول رقبتي، يتدلَّى إلى جانب قلبي. أمسك بالسلسلة، وأسدلها عبر رأسها. كأننا نتزوجُ من جديد، نتزين بالأكاليل وما شابه. تلمس قدمي. تُشبه زوجةً في فيلمٍ قديم، بالأبيض والأسود، لا تقل شيئًا ولا تطرح سؤالًا، بل تتقبَّل فحسب أنني نذل ولا تجفل.

ما يزال عليَّ مواجهة أمي. لا أستطيع التفكير في ما سأقوله، ولذلك أخبرها بالحقيقة. أقول: «سأذهب للبحث عن ميجنا». تصفع جبهتها، كأني أعرف ما ستفعل. ثمَّ تقول: «أخبرتُك أن تبحث عن زوجةٍ جديدة، لا أن تنبش عن فتاةٍ رميتها في الماضي».

أقف هادئًا، مُدركًا أن عليها التصريح بكلماتها قبل أن أتمكَّن من التوضيح. تقف هي الأخرى. وأظنُّ أنها مُقبلة على ضربي، كما في السابق حين كنتُ ألتهمُ السكر، حين كان أبي يعمل في السكة الحديدية وكان لدينا سكر. أسألها: «أتعرفين إلى أي مكانٍ قد ذهبت؟».

يجول في خاطري: لو أنها ستضربني على أي حال، لربما أحصل منها على بعض المعلومات كذلك.

- اختفت الفتاة يومَ غادرتَ إلى البلد الأجنبي، ولم يرها أحد مُجدَّدًا.
- وأمها؟
- ميتة. قالوا إنها ابتلعت سم فئران.
- قال المولى إنها أُصيبت بالتيفويد.
- الشيء نفسه، أيًّا يكن. لن تعثر عليها أبدًا.
- أخبرتني ميجنا أنَّ عائلة أبيها من الجنوب. بالقرب من شيتاجونج.

ترفع كتفيها في غير معرفة، وهي تقول: «لا أدري».

لكنها تطرق إلى قدميها فأعرف أنها تكذب.

- أنتِ تعرفين شيئًا. أخبريني. أخبريني.

الآن يرتفع صوتي. فترفع يدها كأنما مُقبلة على صفعي، ثمَّ تقول: «اسم القرية هو شوندونباهار. لها عمٌّ هناك. أما البقية فلا أعرف».

أنا آسف إذ رفعتُ صوتي. سألمس قدميها طلبًا للصفح. ثمَّ تقول هي: «أسترحل عنِّي وتتركني مع هذه السوداء مُجدَّدًا؟».

كضربٍ من التغيير قررتُ أن آتي بفعلٍ لطيف. أمسك بيد أمي، وأصحبها إلى حيث هي شاتي، تضع القش في النار. وأقول: «لقد أعطيتُ المفتاح إلى شاتي. هيا.. أريها المفتاح». تبرز شاتي المُفتاح من داخل بلوزتها وترفعه عاليًا لكنها تشيح بناظريها، فلا يتسنَّى لأمي أن ترى ابتسامة الاعتداد بالنفس على شفتيها.

- أترين؟ إنها تحفظ المال. الطعام وكل شيء. إذا احتجتِ شيئًا، اطلبي منها. إذا احتجتِ دواءً، ستأتيكِ به. وإذا رغبت هي، فبإمكانها أن تُلقي بكِ في الشارع. تذكري ذلك.

تغرق أمي في صدمةٍ تعجز معها عن ملاحظتي وأنا ألمس قدميها قبل أن أرحل.

وقبل أن أُغادر، آخذ بعض المال من الصندوق وأتركه للمولى. العقد شريعةُ المتعاقدين، حتَّى لو لم أحصل إلا على فُتاتٍ في المقابل.

تأخَّر الوقت وأنا مغادر. أستقل عربة ريكاشة إلى محطَّة الحافلات على الجانب الآخر من السوق. ستأخذني الحافلة إلى العبَّارة، وستنقلني العبَّارة إلى الجانب الآخر من النهر.

***

على جانبي الطريق الذي أقطعه تفيض جميع حقول الأرز بالماء. لماذا؟ أسأل الفتى الجالس إلى جواري في الحافلة. أراه جائعًا، يمكنني استشفاف الأمر من نظرته المُحدِّقة إلى حنجرتي، كأنما يريد قضم قطعةٍ منها. لم أرَ أرز الشتاء لعشر سنين كاملة، لكني أعرف مظهر حقوله، بألوانها الصفراء والبنية والخضراء. وها هو جافٌّ الآن، في يناير حيث البرودة القارسة والمطر الشحيح. يقول الفتى بكتفٍ متدلِّية: «ذاك ليس أرزًا. إنه روبيان».

أمعنتُ النظر. لكنَّ المياه قاتمة. أحاول شمَّ رائحتها. تزحف الديدان الصغيرة في الأرجاء مثل حيوان جربٍ كبير.

تتوقَّف الحافلة وينهض الفتى، وهو يقول: «أنا أعملُ هنا. تجني مالًا كثيرًا من العمل في مزارع الروبيان، إذا أردتَ يمكنني أن أذكرك عند رئيسي».

كنتُ مخطئًا. الفتى ليس جائعًا، بل يُحدِّق إلى حنجرتي مُفكرًا: هذا الوغد العجوز بحاجةٍ إلى وظيفة.

أسأل بعض الناس الآخرين عن أمر الروبيان. فيقولون إن الماء صار مالحًا لأن الروبيان يُحبه على تلك الشاكلة. أتساءل إن كان هذا هو سبب شكوى شاتي من الماء في بئرنا. لا أُصدقها، بل أظنُّ أن الماء لذيذ كديدنه. أقول لها: أتريدين أن تعرفي معنى الملوحة؟ قِفي في السماء حاملةً مِشنَّةً الرمل على رأسك، وستعرفين مذاق الملوحة -ومذاق عرقكِ سيجعل شفتيكِ تنكمشان عن أسنانك. الملح هو أمواجُ البحر تتلاطم بالشاطئ، تهزأ بك حين يجفُّ حلقك وتعجز عن ابتلاع ريقك، ولا تزال أمامك ساعة كاملة قبل جرس الغداء. الملح هو الدمعُ الذي يزدري وجنتك حين ترغبُ في امرأةٍ ولا يسعك العودة إلى الديار.

لكن لعلَّها مُحقة، لعلَّ مياه القرية مالحة ولساني لا يعرف الفارق. وهو أمر آخر سلبني إياه هؤلاء الأوغاد.

تجلس امرأة عجوز إلى جانبي، تفوح برائحة زيت الخردل. بعدما نتجاوز «باغربات»، يصير الطريق ممهَّدًا. تُخرج مثلثًا من مقبلات «البان» وتدسه في فمها. وبعد دقائق قليلة، ستميل عليَّ وتبصق من النافذة. تزداد سرعة الحافلة، فأشعرُ بالريح تُداعب خديَّ، وقطعًا أحسبُ أني سأعثر على ميجنا. في مكانٍ ما تنتظرني رفقة طفلي. أُفكِّر في ذلك وأستغرق في النوم ورأسي مُسنَدٌ إلى الجزء العلوي من النافذة إلى أن تُوقظني السيدة العجوز، كما هو متوقَّع، حين تُبرز رأسها من النافذة إلى الطريق، وتسعل ملء فمها من مخاطٍ برتقالي إلى هواء الشتاء العبِقِ برائحة الروبيان.

***

أصلُ إلى باريسال ومن هناك أستقلُّ حافلةً أخرى. نعبر نهر «ميجهنا» على عبَّارة في منتصف الليل. الطقسُ بارد وأُحيط نفسي بذراعيَّ. أغطُّ في النوم وحقيبتي مربوطة حول ساقي، ولمَّا تشرق الشمس، أرى الأرض مختلفة، تكتلت الأشجار، وعلا الطريق وهبط، وتناثرت التلال المُظلمة على جانبي الطريق. أهبطُ من الحافلة وأصعد عربة ريكاشة وأتجه إلى القرية. ما نزال في الصباح الباكر، وطبقة رقيقة من الضباب تجعل الأحياء حزينة،

وللمرَّة الأولى أتساءل ماذا لو لم أعثر عليها في نهاية المطاف، أو حدث ما هو أسوأ، ماذا لو تزوَّجت من وغدٍ آخر وهو مَن يُربي طفلي.

أقول لها: ها قد أتيت. أنا بطلُكِ. وجوقة بوليوودية تتبعني أينما أذهب. يُصفقون صُحبة جيشٍ من الراقصين. سأمنحكِ كل مالي، وستُغتفر جميع آثامي، سنعيش معًا في سلامٍ مع بذرتنا السحرية الصغيرة.

تقبع القرية في نهاية طريق ترابي ضيق. جمع من بيوتٍ يُشكِّل دائرة، أكواخ مبنية من الطمي والصفيح. إن قُرى كهذه منتشرة في أنحاء البلاد شمالًا وجنوبًا. أُلاحظ الآن أشياء تصنعها زوجتي لتجعل من منزلنا بيتًا لطيفًا، سياج صغير من شجيرات الحنَّاء ونقش رسمته على إطار بابنا. يبدو المكان دونه خاويًا على عروشه، كأنما لم يُحبه أحد، والحقيقة هي أن الأرض مُستغلَّة لأجل الطعام، والهواء الزهيد لتجنيب الموت، والماء للشرب وتنظيف ما خلف أذنيك لكي يتسنَّى لكَ الصلاة إلى الله دون قذارةٍ في ثناياك.

أسألُ في الأرجاء عن عائلة ميجنا. يعجز اثنان أو ثلاثة عن مساعدتي. ثمَّ يرشدني فتًى إلى الاتجاه الصحيح. أقف أمام مدخل بابٍ مفتوح وأنظِّف حلقي. يخرج إليَّ رجل، رجل عجوز له ذراعان قويتان وصدر ضعيف، يلفُّ شالًا حول رأسه وكتفيه.

أقول: «إني أبحث عن عائلة فاطمة أنصار، إنهم من هذه القرية».

- مَن أنتَ؟

- أنا ابنُ عمٍ لها -من الجانب الآخر.

- من جانب كولنا؟

- أجل، لابونشورا.

- تفضَّل، تفضَّل.

يدعوني إلى الداخل، إلى غرفة شديدة الظلمة حتَّى أُضطر لإغلاق عيني لهُنيهة. ولمَّا أفتحهما أتبيَّن سريرًا وموقدًا وكومةً من الخيار على الأرض. يجلس القرفصاء ويُقشِّر واحدة ثمَّ يعرضها عليَّ. مذاقها لاذع لكني لا أهتم. لم أتناول طعامًا منذ الليلة الماضية وينهش أحشائي جوع شديد.

يقول بتأنٍّ: «لابونشورا! أقطعتَ كل هذا الطريق؟».

أعددتُ جوابي مسبقًا ولذا أقول: «امتلكت بعض الأشياء هناك: بقرةً وقطعة أرض صغيرة. ولمَّا ماتت، ظلَّت الأرض كما هي هناك، لذلك أنا أبحث عن عائلتها. أريد شراء الأرض، وأتيقن أن مَن يملكها الآن قد قبض ثمنها».

- امتلكت قطعة أرض؟

- كاتا[1] واحدة بنغالية. حقل يجاور حقلي. تظنُّ زوجتي أنه يحسُن بنا زراعة السمسم، تعرف طباع النساء. لن تسمح لي بنسيان الأمر.

يلتقط خيارة أخرى فأتمنى أن يعرضها عليَّ. يتطلَّع إليَّ في غرابةٍ وأعرفُ في ما يُفكر، لماذا لم أستولِ على الأرض فحسب، وأزرعها بما أشاء، مَن سيقول غير ذلك؟ إنها امرأة وهي ميتة في نهاية المطاف.

أقول: «الأمر هو أن الناس أخبروني أنها لعنت الأرض».

يتطلَّع إليَّ ويومئ بتأنٍّ، ثمَّ يقول: «أرى أنها ربما كانت ساحرة».

- لذلك لو حرثتها، فلا شيء سينمو. سأقصم ظهري ولا أنال إلا الجدب. هذه مضيعة للجهد.

- لن تنال منها حبَّة أرزٍ واحدة.

- ولا حتَّى بذرة سمسم.

يناولني ثمرة الخيار فأواريها في حلقي.

- أنتَ تبحث عن الابنة.

ينهض ثمَّ يتخذ بضع خطواتٍ نحو الفراش، ثمَّ يضيف:

- إنها عائلتها الوحيدة.

لم أنبس ببنت شفة، بل حبستُ أنفاسي بدلًا.

- تلك الفتاة قتلت أمها.

أنتظره ليُفرغ ما في جعبته.

- انتزعت الحياة من بين شفتيها.

أُتمتم بما يتوقَّع منِّي أن أقوله: «إنها مشيئة الله» وما إلى ذلك. ثمَّ يمسح عينيه، البيضاوين على أي حال.

---

(1) الكاتا هي وحدة قياس رسمية في بنجلاديش والهند الشرقية ونيبال، تختلف قيمتها اختلافًا جذريًا من مكانٍ إلى آخر، وعليه في النص وهو في بنجلاديش تُقدر الكاتا الواحدة بـ 67 مترًا مربعًا. (المترجمة)

أُحاول أن أسأل بتأنٍّ فأقول: «ماذا حدث لها، أعني الابنة؟».

- ما كنَّا لنبقيها لدينا، ليس وهي تنتظر فمًا قادمًا لنطعمه. جاءت إلينا، لكننا رفضنا استقبالها. وصرفناها.

- أعادت إلى كولنا؟

- حاولتُ إقناعها بذلك. لكنها قالت إنها ستعمل بجدٍّ وستقبل أي وظيفة في أي مكان.

يفرك فكَّه بيده، كأنها لا تزال موجودة في الغرفة، تُحاول إقناعه بالموافقة.

- قالت إنها ستذهب إلى شيتاجونج. فأعطيتها أجرة الحافلة.

ربما يُخامره الشعور بالأسف عليها الآن. ثمَّ يقول: «كانت تحمل بين أحشائها ابن زنا. لا يسعني استقبال هذا في بيتي».

- أجل، لا تعرف ماذا ستفعل النساء اللاتي على هذه الشاكلة.

أتجمَّد من وطأة الأرض الطينية وأريدُ طعامًا حقيقيًّا لأتناوله.

- تُقيم علاقةً مع أي أحد.

- بلا أخلاق.

- عاهرة.

حين سمعتُه ينعتها بالعاهرة، أردتُ أن أكسر ذراعه، لكنها ليست سوى الكلمة كنتُ أستخدمها بنفسي طيلة الوقت. أنعتها بالفاسقة متى أردتُ نسيانها، وطمس وجهها من أحلامي. لذا أفكِّر، لعلَّ هذه هي الكلمة التي يستخدمها الناس حين يُحب المرء أحد لا يُفترض أن يقع في حبه. وبهذا القدر أكتفي وأرحل عنه، مودِّعًا إياه بعدما منحته القليل من المال، وأخذه دون أن ينبس بكلمة، لعلَّه كان يائسًا، أو لعلَّه استطاع استشفاف أنني أُخفي شيئًا، وكلانا يعرف أنه لو أخذ المال، فإذا سأله أحد، سيلتزم عدم إخبارهم شيئًا ذا شأن، بل سيكتفي بأن قريبًا للمرأة الميتة قد جاء لتقديم واجب العزاء.

وبينما أخفض رأسي خلال مدخل الباب الحزين، يقول الرجل: «ازرع شجرة كاكايا. إنها تنمو غاية في الصلابة».

***

شيتاجونج! أمر منطقي. مدينة كبيرة حيث يسعها التواري. لكن إلى أين ستذهب. وأنَّى لي أن أعثر عليها؟ أُخرج جوالي وأُهاتف شاتي.

أقول: «لن أعود قريبًا».

لا تسألني أين أنا، ولا لماذا سأتأخَّر، ولوهلةٍ يزعجني الأمر، ثمَّ أحدِّث نفسي أنه أمر باعث على الارتياح؛ إذ ثمَّة شخص لن أُضطر إلى الكذب عليه.

تقول: «ماذا أقول لأُمك؟».

يخامرني شيء من الضيق، فأقول لها: «ناوليها الهاتف».

أستطيع تصوُّر أمي ممسكةً بالهاتف بكلتا يديها، فأقول: «أمي، كوني لطيفة مع شاتي. سأعود ما إن ينتهي عملي».

تنخر في أذني فأعرف أن نخيرها لن يُحدث فارقًا، ما تنفكُّ عن تعذيب زوجتي إذ تدفعها لتنقية الحصى من الأرز، وتضطرها للسير ثلاث مرَّات يوميًّا إلى البئر، وطهي حساء دال طازجًا كل صباح مع أنني اشتريتُ مُبرِّدًا يُبقي كل شيء باردًا. لماذا إذن أشعر بالسوء؟ إنها امرأة، وهذا ما تفعله كل يوم، تأكل الخراء من الصباح إلى المساء، لا بُدَّ أنهن لا يمانعن، لا بُدَّ أنهن يُدركن هذه الحقيقة منذ لحظة ولادتهن. حين تعرف ما هو متوقَّع، تصير الأمور أقلَّ وطأة. هذا ما أُحدِّث به نفسي وأنا أنتظرُ في المحطة.

***

3. أسافر إلى المدينة

تحتكُّ إطارات الحافلة بالرصيف إذ تتوقَّف في المحطة، ويجول في خاطري: ليست مدينة كبيرة إلى هذا الحدِّ. مقارنةً بدبي، ومقارنةً بدكَّا، هي مجرَّد قرية. ما من مجالٍ أنني سأفقد ميجنا في هذه المدينة. المشكلة في الشوارع الكثيرة فحسب. ولكن يمكنني السير في كل واحدٍ على حدة، وأطرقُ كل باب. ليست المرَّة الأولى التي أتخيَّل نفسي فيها بطلًا، وأغنية لطيفة تُصاحبني، وأنا أندفع عبر الأبواب وأرفع وجهي إلى الشمس، وكتفاي تهتزَّان وتترنَّمان.

- سأعثر على فتاتي، وليهلك العالم بأكمله.

أول ما فعلت هو العثور على فندقٍ للإقامة، مكان أستطيع فيه رفع قدميَّ عن الأرض. أريدُ مكانًا لطيفًا، حتَّى إذا جلبتُ ميجنا والطفل، أستطيع أن أقول لهما: «ها قد أتيت، انظرا، غرفةً كاملة لنفسي، وحوض في زاوية الغرفة، ومروحة كهربائية، ومصباح أنبوبي، أنا والدك قد أتيتُ لأنقذك، وأمنحكَ كل ما أردت الحصول عليه في حياتك. فكَّرتُ حتَّى في غرفةٍ مزوَّدة بمكيف هواء، لكن هذا بالكثير حتَّى في حُلمي البوليوودي. أعثرُ على الفندق قُرب المحطة، فندق النور. مكان نظيف، يُمكِّنني من جلب امرأة ستُفكر: لقد حقَّق الرجل شيئًا لنفسه، صار الذكر رجلًا، ليس مجرَّد فتًى هرب إلى خارج البلاد مثل نعجةٍ مذعورة. تقع دورة المياه في نهاية الممر، فأقصدها لأغتسل. ثمَّ أهبط إلى الطابق السفلي، لأتناول بعض الطعام في المطعم، حيث أتشارك طاولة مع بضعة رجال، لا يختلفون عنِّي على ما أظنّ، حتَّى ناداني أحدهم: «يا عم». فحدَّثتُ نفسي: «اللعنة! أبدو أكبر سنًّا عمَّا أنا عليه، أو على الأقل أكبر سنًّا ممَّا أشعر».

يقول: يا عم. ماذا تفعل في شيتاجونج؟

أَلَّفتُ قصةً في أثناء رحلة الحافلة.

- إني أبحث عن شقيقتي.

جذبتُ انتباههم. خمسة أو ستة رجال -فتيان- تنغمس أصابعهم في الأرز والدال.

- ألمَّ بها خطب عصيب.

إنها القصَّة نفسها، القصَّة الحقيقية، عدا أنني أَقُصُّها عليهم كأنني لستُ الخسيس في الحكاية.

- شابٌّ من قريتي، كلنا نعرفه معرفة جيدة، يعيش على الجانب الآخر من بضعة حقول، قال لنا إنه سيتزوَّجها. لكن صبية هذه الأيام.. كلهم أوغاد.

- إذن ماذا حدث، هل ذهبا سرًّا إلى القاضي؟

- لا. قال إنه سيذهب إلى القاضي. لكنه هرب. حصل على تذكرةٍ إلى بلدٍ أجنبي ولم يُعرها اهتمامًا. ثمَّ سمعتُ أنها جاءت إلى هنا، ولذلك جئتُ أبحث عنها.

- ولماذا تأتي إلى هنا؟ ألديكم عائلة هنا؟

أُنهي طعامي. ألعقُ أصابعي والدال يجفُّ بين أظفاري. هناك شابٌّ واحد جالس إلى الطاولة يبدو أكبر سنًّا من الآخرين، يُذكِّرني بحامد. حقيقةً الأمر كله يُذكرني بدبي، رجال يجلسون إلى طعامهم بعد يومٍ من العمل، وللمرَّة الأولى يوخزني فقدان عُصبتي، ودبي، والحفر الرملية، والبرجين العروس العريس.

- تعقَّد الأمر بوجود طفل. لذا جاءت إلى هنا.

ها هم الآن يعرفون القصَّة بأكملها. أستطيع استشفاف ظنِّهم بها عاهرةً لأنها كشفت عمَّا بين ساقيها.

لا أدري لِمَاذا أهتم بما يظنونه، لكنني أهتم. ولذا أقول: «أظنُّ أنه فرض نفسه عليها».

يقول أحدهم: «خنزير ملعون».

- ألديك صورة لها؟

- لا.

بالكاد أذكر وجهها. أراه كل يوم لكني أُفكِّر الآن كم أتمنَّى لو كان لديَّ صورة لها، شيء أعرضه على الناس في الشوارع هنا.

يشير الشابُّ الأكبر سنًّا إلى أحد أصدقائه، شابٌّ ضئيل أبيض البشرة، له ندبة تمتدُّ من أنفه إلى شفته. ثمَّ يقول: «شومون يظنُّ في نفسه فنانًا. لماذا لا ترسم صورةً لشقيقته».

أومأ الآخرون بالموافقة.

- سيرسمها. إنه بارع.

كانوا جميعًا سائقي ريكاشة، يعيشون في جمعٍ من الأكواخ خلف الفندق. وفي هذه الليلة يجتمعون للاحتفال؛ إذ رُفع الحظر عن عبور الريكاشة الطريق الرئيسي للتَّوِّ، وصارت يوميتهم تزيد قليلًا عمَّا كان من قبل. يعيش شومون مع عائلةٍ من زوجة وثلاثة أطفال وأبوين وشقيقين صغيرين. أما الشابُّ الآخر، سلام، فعلى وشك الزواج، وهو مع ذلك مجبول على إرسال المال إلى أهله في القرية. أما أوال، الشاب الأكبر سنًّا، فله ذراعان تُشبهان حبلًا مجدولًا، ولحية غزاها الشيب، وخمس بناتٍ وطفل آخر في طريقه إلى هذا العالم.

ولزيادة الدخل قليلًا من جانب آخر، يرسم شومون على ظهور عربات الريكاشة. نساء يذبن بين أذرع مُحبيهن، بوجوهٍ وردية ونهودٍ ترتفع كالجبال.

- سيرسم لشقيقتك صورة تُشبه نجوم السينما.

لستُ موقنًا إن كنتُ أريد صورةً لميجنا تبدو فيها على تلك الهيئة. لكني أجبتُ: نعم، ربما.

***

في اليوم التالي أذهبُ إلى محطة القطار. فتاة تأتي إلى المدينة، هذا يعني أنها قد تكون إما في موقف الحافلات وإما في محطة القطار وإما في مرسى العبَّارات.

طيلة كل هذا الوقت لم أُحاول حتَّى التفكير في ما كانت تفعله ميجنا طيلة السنين العشر تلك. في عالم أحلامي، تنفق وقتها في مكانٍ أنيس مرتديةً الأصواف وترتاد صالون تجميل. أما كل الأفعال الأخرى الَّتي قد تأتيها، كالتسوُّل في الشارع، فلم أُفكِّر بها. ومع ذلك أذهب إلى محطة القطار، هذا لأنها لو كانت متسوِّلة، فما من شكٍّ أني سأجدها هناك. وقبل أن أذهب أهاتف شاتي على الجوَّال. تجيب اتصالي بعد الرنين الأول، كأنها ممسكة بالهاتف في يدها. أقول لها: «أنا في شيتاجونج».

أسمع حفيف أنفاسها على الجانب الآخر، ثمَّ تقول: «جيد».

- هل تبكين؟

- لا.

- ماذا حدث؟ هل فعلت أمي شيئًا؟

- لا. إنها ليست بخير، وأغلبُ الوقت مستلقية على الفراش.

- ما الأمر إذن؟

- راودني حلم أنكَ لن تعود أبدًا.

***

أنفق يومي بأكمله في محطة القطار، أُفكر في ما قالته شاتي. أُقُصُّ حكايتي على جميع المتسوِّلين في المحطة. يرفع الناس أيديهم ويسألوني عطية، فيجول بخاطري أنه لم يمضِ طويلًا على تسوُّلي أنا الآخر، إلى رئيس

العمال ليُقرضني مالًا لأجل ساق أخي. والآن أخي في صحةٍ جيدة، حتَّى أنه أنجب طفلًا، صبيًّا يتجوَّل في القرية مثل أميرٍ أبيض صغير. لا أحد يعرف ميجنا. ثمَّ تقول امرأة عجوز: أجل، لقد رأيتها، أعطني بضع بيزاتٍ وسأُخبرك أين رأيتها. غباشُ عينيها جليًّا، تُعانيان من الجندل.. أعلم أنها كاذبة. رميتُ لها ببضع عملاتٍ معدنية ولم أُكلِّف نفسي سماع ما تقوله. أظنُّ أن شاتي على حق، لو أني عثرتُ على ميجنا فلن أعود أبدًا، بل سأقيم في فندق النور إلى الأبد، مُحدِّقًا إلى مروحة السقف طيلة اليوم ورأسي مستقرٌّ في حجرها.

أعثر على مسكن شومون خلف الفندق. هناك عالم كامل في الخلف، أكواخ من الصفيح والورق متلاصقة جميعها معًا. أقول له: «تعالَ واجلب الآخرين معكَ، سنتناول العشاء. وأنا سأدفع».

نلتقي بمالك الفندق، رجل ودود. يسألني إلى متى سأمكث عنده، فأقول أسبوعًا، عشرة أيام، هذا كل شيء. يومئ مشيرًا إلى طاولة في الخلف، حيث يجلس ضابطان يطلبان الشاي. انتشرت حكاية شقيقتي. ويعرف الجميع أن الشرطة لن تُساعد في شيء. سيفرضون عليكَ كتيبة قوَّات الاستجابة السريعة، ثمَّ فجأةً تتفاجأ أنكَ مَن تُلقى بالسجن. يقول مالك الفندق: يدين الشابُّ لي بمعروف، مشيرًا إلى الضابط على اليسار. أرى تاجًا مستديرًا من الصلع عند قمة رأسه.

- لو أخبرته أنني مَن بعثكَ إليه، فسيفعل اللازم، ولن يتلاعب بك.

أومئ بالموافقة لكنني لا أُصدِّق ما قاله. أطلبُ من شومون أن يبدأ في رسمته. أقول: «الوجه فحسب. وسأدفع لك لقاء تعبك».

يقول: «لا تدفع شيئًا. (يتطلَّع مَن حوله إلى البقية الذين يؤمِّنون على حديثه) بل هي خدمة من أخٍ إلى أخيه».

في اليوم التالي يأتي بألوانه وقصاصة من الورقة. أصف له ملامح ميجنا: عيناها الصغيرتان الداكنتان وشعرها الغجري. لا أذكر حقًّا شكل أنفها ولهذا رسم أيَّ أنفٍ يريده. ثمَّ تذكرتُ بضعة تفاصيل أخرى لم أدرِ حتَّى إنني تذكَّرتها، كطابع الحُسن في منتصف ذقنها، وحقيقة أن وجهها طوليًّا أكثر منه مستديرًا. وحين ينتهي، يُريني الصورة، فأُصابُ بدهشة، هذا لأن الصورة لا تشبهها تمامًا، لكنها أيضًا لا تبعد عن تفاصيلها كثيرًا، وها هي أخيرًا، وردية الملامح بعض الشيء لكنها هي، تُحدِّق إليَّ. ولا أُصدِّق ما أراه.

أقول: «سأشرع في البحث عنها الآن. شكرًا لكَ يا أخي».

أمنحه بعض المال، لأجل الألوان والورق فحسب، فيقبله.

يقول فتيان الريكاشة: هيا ننسخ اللوحة. هذا صحيح، أوزعها في أنحاء المدينة مذيَّلةً برقم هاتفي. أعجبتني الفكرة. أُنفق خمسين تكًّا لقاء وجبات الكشري الأصفر للجميع، وعشرين أخرى لقاء النسخ. وقبل أن يشرعا في السؤال من أين لكَ هذا المال، أقول: «إن والدينا، أعني والديَّ أنا وشقيقتي، قلقان بشأنها، لذا باعا قطعةً من الأرض لكي يتسنَّى لي المجيء إلى هنا والبحث عنها. ظلَّا طيلة كل هذا الوقت غاضبَيْن لأنها هربت، لكنهما الآن عجوزان يقولان عفا الله عمَّا سلف، وعلى أي حال لم يكن خطأها، لقد فرض الوغد نفسه عليها، ويعرف الجميع أنه هو البذرة الفاسدة، إذ رحل إلى بلاد الغُربة ولم يعد قط. لان أبواي لها الآن، وكل ما يريدانه هو أن يعرفا أين هي، وماذا حدث للطفل. ولذا باعا قطعة أرض صغيرة وأرسلاني إلى هنا».

أقصُّ الحكاية فتمنحني شعورًا جيدًا حتَّى إنني أبدأ في تصديقها، وأتمكَّن من ذرف بضع دمعات يتساقطن على خدَّيَّ. يُربِّت الفتيان على ظهري، ويقطعان الوعود بأنهم سيلصقون الصور في كل أنحاء المدينة. يقولون: «ستجدها يا أخي. لن يطول الأمر الآن».

يُلصق شومون وفتيان الريكاشة صورة ميجنا في كل مكان. أتلقَّى مكالمتين على جوَّالي، يقولان إنهما يعرفان أين هي. يقول الأول: «إنها تعمل في متجر في «تايجر باس» لاقِني هناك». ولكن حين أذهب إلى هناك، لا أجد سوى شابٍّ يطلب المال. يقول: «أرجوك، أحتاجُ إليه لأجل جراحة أبي». أُعطيه عشرًا وأقول له أن يغرب عن وجهي. والمرَّة الثانية المتصل هو امرأة، وتتعاظم أمنيتي لدرجة أن أظنَّ أنها تُشبهها. وحين تقول: «مرحبًا؟». أقول: «ميجنا؟». لكنها تُجيب: «رأيتُ الفتاة التي تبحث عنها جالسة أمام محل حلاقة. تشبه الصورة تمامًا».

أطلبُ المزيد لكنها لا تمنحني سوى العنوان. نافيد نابيت، على الطريق المتجه إلى باتينجا. أسأل: «ماذا كانت ميجنا تفعل؟». فتُجيب: «لا شيء، جالسة هناك فحسب». لا أُصدِّقها، فمحل الحلاقة لا يقع في المدينة حتَّى، بل قرب الشاطئ، فلماذا تذهب إلى هناك؟ ثمَّ أُغلِق الخط.

في اليوم التالي مباشرةً يتبدَّل حظِّي. يعود شومون من العمل، ونجلس رفقة أكواب من الشاي. يقول مالك الفندق: «لا تُسدِّدا حسابًا. أنتَ زبون منتظم لدينا الآن. الشاي مجَّاني». كنتُ قد سدَّدتُ أجرة الأسبوع مُقدَّمًا، ولذلك يعرف أنني أهل لهذا. وفي الصباح سأدفع أجرة أسبوعٍ آخر.

يلتصق شومون بالطاولة، ويقول: «لن تُصدق ما سأقوله. لقد عثرنا عليها».

- ماذا؟

- أنا وراجيب، كنَّا نسأل في الأنحاء كما تعرف. ثمَّ ذهبنا إلى ديوانهات.

يُشعل الفتى الجالس أمام الفندق ومعه جرَّة كبيرة من الزيت -الغاز في شعلة موقده.

- أخبرتُكَ أنها ليست هناك.

كان حيًّا فقيرًا، أكبر الأحياء الفقيرة في المدينة. وظلَّ شومون طيلة الأسبوع يُلِحُّ عليَّ أن أبحث هناك وأنا أقول: «لا، هذا ليس مكانًا يُشبه ميجنا. لن ينتهي بها الحال أبدًا في مكانٍ كهذا».

- إنها ليست هناك يا أخي. بل نعرف الزعيم الكبير في ديوانهات فحسب.

- أي صنفٍ من الزعماء هو؟

يغلي الزيتُ الآن، والصبيُّ يُلقي بقطع السمبوسك الصغيرة فيه ويُشاهدها تتراقص.

- الرجل الذي يعرف كل ما يدور. الرجل الذي يسعه اكتشاف المُختبئ. هذا الصنف من الرجال.

يسعني أن أُجسِّد مَن يصفه في رأسي: سيجارة، وقميص مفتوح حتَّى منفرجه، وجسد دُهنِي المظهر.

- لا أريد الانخراط مع رجلٍ كهذا.

لكن شومون يبتسم ابتسامة عريضة لدرجة أن توارت الندبة على شفته. ثمَّ يقول:

- أرينا له الصورة وقال إنه يعرف أين هي!

يقلي الصبي الجليبي الآن، ممسكًا بكيس من العجين ويرسم الدوائر بذراعيه.

يُتابع شومون:

- أسمعتَ ما قلته؟ سنعثر على شقيقتك.

أخشى أن أُعرِب عن بهجتي. فأقول: «ماذا قال بالضبط؟».

- قال إنه يعرف أين هي، إنها هنا في شيتاجونج.

- أكانت هناك طيلة الوقت؟

- لا أعرف.

- هل أعطاك عنوانًا أو ماذا؟

بدأ الأمر ينالُ منِّي الآن، كأن شيئًا يزحف على ساقيَّ. سأستعيد فتاتي، سأعثر عليها حقًّا. وسنشعر كأن السنين العشر الماضية لم تكن. اللعنة! الله أكبر. الله أكبر. تهرب الكلمات من فمي قبل أن أُدرك حتَّى ما أقوله، ثمَّ أُدرك ذلك: في رأي البعض، لا تتجلَّى عظمة الله في الأوقات التعسة فحسب، كأن تكون مُعلَّقًا على ارتفاع مئات من الأقدام في السماء، ولكن في لحظة النعيم كذلك، حين تظفر بكل ما تريد ولا تُصدِّق حُسن حظك، وتُفكر في أنه لا بُدَّ من شيءٍ آخر وراء هذا الأمر، قوة قادرة على تلبية أمنيتي -لا يسري الأمر بأن أرغب في شيءٍ طيلة عشر سنوات ثمَّ أظفر به فحسب، هذا نعيم كثير، ولطف فائض من الدنيا، ونحن جميعًا نعلم أننا لا نعيش في هذا النوع من الدنيا، على الأقل، بالنسبة لمَن يُدرك هذه الحقيقة منَّا- ثمَّ إنني أريدُ أحدًا أشكر له صنيعه، أو على الأقل أريد أن أشعر بأن أحدًا قد أسدى إليَّ هذا المعروف، لينعم قلبي بالسكينة.

أقول: «الحمد لله». ثمَّ أُضيف: «إذن أين هي؟».

تغزو أنفي الآن رائحة الجليبي وهي تطفو في حمامٍ من الشربات. أطلبُ طبقًا وآكل منه واحدة مباشرةً، فتحرق لساني. ثمَّ أقول: «أعطني العنوان».

يقول شومون، واضعًا يده على الطاولة: «الأمر هو أن هذا الرجل لا يُقدِّم خدمةً دون مقابل».

أدفع بطبق الجليبي نحو شومون، لكنه لا يلتقط واحدة. أستعدُّ لرفض الأمر، لكنني أتساءلُ في نفسي عن مقدار المال الذي يمكنني جمعه. فأسأل: «كم يريد؟».

- كم تملك أنتَ؟

- لديَّ الكثير.

يأخذ نفسًا عميقًا ثمَّ يُجيب: «اثنان[1]».

هذا يزيد عمَّا معي.

- ليس معي سوى 1.70 فحسب.

يجوب شومون الغرفة بناظريه كما لو أنه سيجد الثلاثين الأخرى في أحد الأركان، ثمَّ يقول: «حسنًا، سأنظر في ما يمكنني فعله». ثمَّ ينهض، وهو يدفع بقطعة سمبوسك إلى فمه ويتركني ومذاق ميجنا المُحلَّى على شفتي.

***

في تلك الليلة أظلُّ مستيقظًا في الفراش، أُفكر في ما عليَّ فعله. أُحدِّق إلى مروحة السقف الساكنة؛ فقد أطفأتها لأن الطقس صار باردًا في الليل الآن، وأستطيع رؤية صبغةً داكنة من الغبار على أنصُلها. أظلُّ أُؤجِّل الجواب على سؤالٍ بعينه طيلة كل هذا الوقت، وهو: ما الذي سأفعله مع ميجنا حين أعثر عليها. تقول نفسي المُتمنِّية أنني سأصحبها إلى مكانٍ لطيف وسنهرب معًا، نُمسك بأيدي بعضنا ونرقص بين الأشجار، هذا الصنف من الأمنيات. لكني أعرف شعور البُعد عن الديار، شعور العيش بلا أهل، ولن أُعيد الكرَّة مُجدَّدًا. وبعد كل تلك السنوات الطويلة، لن ترغب ميجنا هي الأخرى في هذه الحياة بعد الآن.

لذا ليس أمامي سوى حلٍّ واحد.. أن أُعيدها إلى الديار برفقتي، لا أقصد أن أُعيدها إلى القرية فحسب، بل إلى داري. عروسًا لي هذه المرَّة. أُعيدها إلى الديار وأُخبر الجميع بالحقيقة كاملة. والطفل الذي سأعترف به، ثمَّ يحظيان معًا بداري واسمي، وتظفر ميجنا أخيرًا ببعض الاحترام. سيُجبر أهالي القرية على ابتلاع كل الخراء الذي تلفظوه عنها ويتملَّقونها كما فعلوا معي بالضبط. ستمتلك ما أمتلكه. هكذا يسير الأمر، هذا هو السبيل الوحيد. فأنا مدين لها.

والآن ليس أمامي سوى أمر شاتي. أستمر في التفكير لوقتٍ طويل، أنه حين تعود ميجنا سأبعث بشاتي إلى أبيها. وأُطلِّقها تطليقًا. طلاق.. طلاق.. طلاق. ولكن، حين وصل الأمر إلى هذا الحد، حين مرَّ عليها وقت تعيَّن فيه

(1) يُقصد بها هنا: 2 لَك، واللَك يساوي مئة ألف تكًّا، إذن المقصود هنا 200 ألف تكًّا بنغالية. (المترجمة)

أن تنحاز فيه لأحد، اختارت الانحياز إليَّ دونًا عن عائلتها. اعتنت بأبي حتَّى وفاته. والآن تحفظُ أرضي، وتتقلَّد مفتاح الصندوق حول رقبتها، وتعتني بأمي. يجدر بي أن أمنحها شيئًا مقابلًا لذلك.

يمكنني أن أمنحها بعض المال وأُودعها فترحل إلى طريقها، ولكن إلى أين ستذهب؟

ثمَّ أزور الفكرة التي لطالما تجنَّبتُها. أنا الرجل المهم في القرية الآن، وأستطيع أن أنعم بزوجتين. زوجتان، فِراشان. لم أمسَّ شاتي قط، ولن أمسَّها. تستطيع العيش في منزلي، والاعتناء بخضرواتها وتسمين بقراتها.

أعلم أن ثمَّة احتمالًا بعدم نجاح الأمر، هذا لأن ميجنا لن تتحمَّله، ليس إن كانت هي الفتاة نفسها التي عرفتها منذ عشرة أعوام. ولكن هذا أفضلُ ما أستطيع التفكير فيه. يزعجني عدم الارتياح من الأمر لكنني أتخذُ قراري النهائي. سأتصل بشاتي في الصباح وأُخبرها بكل شيء.

أنا مستيقظ. يهجرني النوم وأنا أُفكِّر في ما سأقوله لميجنا حين أراها. ستُنزل غضبها عليَّ، هذا أمر أعلمه غاية العلم. وأُحدِّث نفسي أن تستعد لذاك البركان. لعلَّها لن ترى وجهي وسيتعيَّن عليَّ العودة إليها ثلاث أو أربع مرَّات. لكنها ستلين إليَّ قريبًا، ومَن يدري، لعلَّ السنين ألانت من طبعها شيئًا، ولعلَّها أدركت أنني كنتُ شابًّا مفتونًا بفكرة السفر إلى الخارج -ما من أحدٍ يمكنه فعل أي شيءٍ حيال الأمر حين يصطدم بك. لقد واتتني فرصة واستغللتها. أترين، لقد أبليتُ بلاءً حسنًا، وأثقلتُ جيبي ببعض المال الآن، شيء أُبرزه ليُلخِّص السنين العشر الماضية، دار ومُبرِّد. وماذا حققت هي؟ حسنًا، لقد أنجبت طفلي، هذا أول شيء. وأولت ذاك الطفل تربية حسنًا؛ هذا أمر أراهن عليه. ثمَّ المدرسة وما إلى ذلك.

أنهض وأرتدي ملابسي قبل شروق الشمس، أطوي شرشفي على الحامل وأُرتِّبه، في حال لو وقعت المعجزة وجاءت معي الليلة. أهبطُ إلى الطابق السفلي، بالكاد أبتلع ريقي، لاذع وكريه في فمي. ينتظرني مالك الفندق في الطابق السفلي، حاملًا كوب شايٍ في يده. يريد التحدُّث معي لكني لستُ في مزاجٍ يسمح، بالكاد أبتلعُ الشايَ الذي ناولني إياه. جُلُّ ما أريد هو الجلوس في هدوءٍ رفقة أفكاري. وسرعان ما يأتي شومون، يجلس على الطرف المقابل لي، ويقول: «هل أحضرتَ المال؟»، لا مرحبًا، ولا شيء آخر.

عقدتُ المال في تنورة اللونجي، مئة ألفٍ وسبعين ألفًا لا غير، حيلة تعلَّمتها من عمي. اعتاد أن يطوي أجوره في عُقدٍ من تنورته، بضع ورقاتٍ في كل عُقدة، يطوي ويعقد، يطوي ويعقد. ثمَّ يرتدي قميصًا فضفاضًا فوقه، وهكذا لا تبدو سوى رجلٍ ذي كرش، ربما رجل كسول، يُحب أكل شحوم البقرة.

أقول لشومون: «أجل، أحضرتُ المال. خُذني إليها».

- بل ابقَ أنتَ هنا، وسأذهب لأعطيه المال، ثمَّ أعودُ إليكَ بالعنوان.

ثمَّة شيء حيال طريقة حديثه لا تُعجبني. وهذه الندبة فوق شفتيه تبدو متعرِّجة وملتوية، وتباغتني رغبة بألا أُسلِّم إليه المال.

- لا، بل سآتي معك. بهذه الطريقة حين يُخبرنا أين هي، سأذهب إليها على الفور.

- لستَ مضطرًّا للمجيء.

أطلبُ كأسًا من الماء، وأناولها إلى شومون عبر الطاولة. أطرق ناظرًا إلى الكأس، ثمَّ أرتشف رشفة.

- لِمَ لا نسير على الخطة التالية: سأعطيه المال، ولمَّا يُخبرني بالعنوان سأُهاتفك على الجوَّال؟

أُجيبُ بنبرةٍ ودود: «يا رجل! سآتي معكَ، انتهى الأمر».

- حسنًا، اسمح لي أن أُجري اتصالًا.

يُخرج جوَّالًا من جيب قميصه ويتجه إلى الخارج. لهُنيهة يختفي عن أنظاري، ثمَّ أراه يتحدَّث ثانيةً، ممسكًا بالهاتف إلى أذنٍ منحنيًا إلى الأمام ليحجب ضوضاء الشارع.

يغزوني القلق الآن؛ لا أُطيق الانتظار لرؤية ميجنا، وحموضة معدتي ترتفع إلى حيث يسكن قلبي في صدري، كل شيءٍ حولي خانقًا، وأعجزُ عن التنفس. أحطُّ عن يدي كوب شايٍ آخر. ثمَّ يأتي مالك الفندق مُجدَّدًا، يحاول ملاقاة عيني، لكني لا أستطيع التحدُّث إليه الآن. يعود شومون وأوال برفقته.

أقول: «حسنًا، هيا بنا».

يضع أوال ذراعه على كتفي. فأقول: «يا أخي، أما تجرُّ الريكاشة اليوم؟».

أعرف مدى احتياج عائلته للمال. فإذا تعطَّل يومًا، سيسقطون في الهاوية.

- هذا يوم مهم لكَ يا أخي. سأعمل في الوردية المسائية.

أُسرُّ لمجيء أوال. لو أن ذاك الرجلَ من ديوانهات حاول خداعنا، سيجد ثلاثتنا في وجهه. أصعدُ وأوال إلى ريكاشة شومون، ثمَّ يُدير الأخير البدَّال، متخذًا طريقه على امتداد الطريق الرئيس. لا نجد الزحام سيئًا، فلم نتوقَّف إلا عند بضع إشاراتٍ فحسب. إن ساقي شومون قويتان سريعتان. أُلقي بعملةٍ معدنية إلى امرأةٍ عجوز عند تقاطع الطرق. بهذه الطريقة أبعث برسالةٍ إلى الرب أني لستُ جاحدًا بما هو آتٍ. تُذكِّرني المرأة بأمي، عليلة ضعيفة كما هي. أخبرتني شاتي هذا الصباح حين هاتفتها لأُبلغها باحتياجي إلى المزيد من المال. لم أطلب الكثير، بل ما يكفي لإعانتي طيلة أيامٍ قليلة أخرى هنا. هل أخبرتُها بما اعتزمتُ عليه الليلة الماضية؟ لا. في الصباح بدت لي أسوأ فكرةٍ خطرت على بالي. والأفضل أن أعود بميجنا إلى الديار فحسب وأتعامل مع الأمر لاحقًا. ما من أحدٍ سيأتي بأي فعل حين تعود فجأةً وتقول كذا وكذا. لعلِّي أشعر بالأسف على شاتي. أو ربما كنتُ جبانًا، مَن يدري. ستكتشف الأمر قريبًا جدًّا، والأفضل أن أدعها تنتظر.

يقع الحي الفقير خلف مركز تسوق جديد. يدفعني مركز التسوُّق إلى التفكير في البهاري، لكنني سرعان ما أصرفه عن ذهني. نهبط من ريكاشة شومون ونتوغَّل في زقاقٍ خلف مركز التسوُّق. نعبر جسرًا ممتدًّا على قناةٍ ما هي إلا مصرف مفتوح، ثمَّ نصير داخل الحي الفقير: صفوف وراء صفوفٍ من الأكواخ ورائحة العفن متفشية. حجرات مظلمة، وقطط وأطفال نحيلة، وأكوام من القمامة.

أتبعُ شومون بينما نتوغَّل في أحشاء ديوانهات. أعجزُ عن تبيُّن السماء، بسبب الأسلاك المُعلَّقة في كل مكان، بين المنازل وفوق الأسطح الصفيح. تنعم ديوانهات بالكهرباء. ثمَّ يُخبرني أوال أن بعض الأكواخ تنعم بوصلة تلفاز أيضًا، ويقول: «أوغاد محظوظون». لكني لا أحسبُه محقًّا. بل أنا الوغد المحظوظ. لم أُضطَرَّ يومًا إلى الانتقال إلى المدينة. هناك في القرية، مهما كنتَ جائعًا، ستستيقظ كل صباح وتشم رائحة الأرز، وتشمُّ رائحة الطمي والأرض والروث. الروثُ ورود ذهبية مقارنةً بخراء الإنسان. إننا نحكم العالم، وتفوح من فضلاتنا روائح تسوءُ عن فضلات أي حيوان -لهذا ينبغي أن نحظى بالعقول، عقولٍ ذكية، لا هدف لها إلا العثور على سبلٍ لتغطية رائحتنا الكريهة.

في نهاية صفٍّ طويلٍ آخر، نتوقف ويدسُّ شومون رأسه إلى الداخل. يعود إليَّ ويقول: «حسنًا، والآن أعطني إياه».

أنا أفضلُ من هؤلاء الناس. تتعامد الشمسُ على وجهي وأملكُ دارًا ورقعة أرضٍ صغيرة. بل إني أُفكر أنه قد حان وقتي للعودة إلى التكسُّب بالعمل. لن تدوم أموال الدم هذه إلى الأبد، بل ستجفُّ، وعلى أي حال أريد أن أرى نفسي مستغرقًا في العمل مرَّة أخرى، ينزُّ جبيني بالعرق على شيءٍ أفعله، فيكون ليومي بداية ونهاية. أُفكر في كل هذا ونحن نسير، ولهذا حين يطلب شومون منِّي المال، لا أكون مستعدًّا لتسليمه إياه.

أقول: «أريد لقاء هذا الرجل. أريد التأكُّد من أنه يعرف ميجنا».

- يعرفها، يعرفها.
- وماذا عن الطفل؟
- ماذا تقصد؟
- لو كان يعرف مكان ميجنا، فهو يعرف مكان الطفل. ماذا قال إذن عن الطفل؟

يستدير أوال حين ظنَّ أنني غير منتبه، لذا أندفع متجاوزًا شومون وقبل أن أُدرك الأمر، أصير بداخل الكوخ.

أستغرق دقيقةً لأستوعب ما يحدث. ثمَّ أراهم جميعًا، مالك الفندق، وفتيان الريكاشة، والفتى الذي يصنع السمبوسك. جميعهم. موجودون في حجرةٍ بها طاولة وكرسيان، ومصباح أنبوبي مُثبَّت إلى جدار الصفيح، والضوء يغمر كل شيء. أوشكُ أن أناديهم بأسمائهم، ثمَّ أرى بقعةً برتقالية على شفتي مالك الفندق. في الحقيقة، أُلاحظ الآن أنَّ لهم جميعًا شفاهًا برتقالية. ظلوا جالسين ها هنا، يمضغون أوراق التنبول، وينتظرونني.

أُبادر بالصياح. تخرجُ كلمات من فمي لا أدري كنهها. لعنات.. سِباب.. تهديدات. جالسون جميعًا في مواضعهم يُحدِّقون إليَّ، لا يتحرَّكون، بل يتطلَّعون إلى عيني، وللحظةٍ أُفكِّر، هل أنا مجنون؟ أيجلس هؤلاء الناس حقًّا هنا ويُحدِّقون إليَّ؟ أم أنها خدعة من عقلي، والحقيقة أن لا شيء يحدث، وبعد كل تلك السنين من إخفاقي في العثور على ميجنا، لا شيء أسوأ من وقوع أمرٍ سيئ، ولذلك يُهلوس عقلي بأمرٍ سيئ، بل ويتمنَّاه -والحقيقة هي أن هؤلاء الرجال هم أصدقائي، وفي غضون لحظاتٍ سنجلس معًا ونتناول

الشاي ونضحك على فعلٍ وقح. أسمعُ صوتًا من ورائي وأرى رجلين آخرين -رجلَي الشرطة اللذين رأيتهما من قبل أيضًا، رجلا الشرطة الذين تعرَّفتهم في الفندق، الرجل السمين ورفيقه. رفعوا عصيِّهم، وقبل أن يُعميني الألم وقبل أن أفقد وعيي، أظنُّ أنني على الأقل لستُ مجنونًا، على الأقل أُبرِّئ نفسي من ذلك.

***

هاتفتُ أنور قبل أن أرحل إلى كامبريدج. استغرقتُ وقتًا للتفكير في قصَّته -خصوصًا تلك اللحظة التي تعرَّض فيها لخيانة أصدقائه. سألتُه: ماذا يظنُّ بهم الآن؟ أكان غاضبًا منهم إذ منحوه أملًا ثمَّ سلبوه إياه، أم غفر لهم خيانتهم؟ فقال: طال به الأمد وهو يُضمر تخيلاتٍ عن انتقامه منهم. لا، ليس منهم فحسب، بل من رئيس العمال في دبي أيضًا، ومن عمِّه، الذي أقنعه بترك ميجنا في بادئ الأمر. قال إنه يستلقي في الفراش أحيانًا في الليل ويُحصي كل السُّبل التي يموتون بها. مرَّت هذه الحقبة الآن، وقرَّر من قبل أن يُبقي ذكرياته عن تلك الأحداث بمنأى عن فِكره، ويُحدِّث نفسه بأن ما حدث كله قد وقع لشخصٍ آخر. أما الآن إذ أعزمُ على تجسيد القصَّة بالأسود على الأبيض، يسعه أن يقول هذا: إنه ممنون لهم، لأن حدثًا أدَّى إلى آخر، وفي الأثر الكُلِّي، كان هو المنتصر. كان حريصًا على أن يقول: إن إحجامه عن الركوع صاغرًا أمام قَدَره ليس من الدين في شيء. لكن لا يسعُ المرء أن يظلَّ غاضبًا من الماضي. ليس إلى الأبد.

أتمنى لو أُجابِه أنور في تفاؤله. أتمنَّى، وأنا أدوِّن قصَّتنا، أن أشعر بامتنانٍ لوجودها من الأصل، ولوقوعي في حبك واكتشافي لما هو أبعد، لما هو أعظمَ من أحجية أصولي، لما هو أكبر من الحياة البسيطة التي تصوَّرتها لنفسي. لكنني أشدُّ توقًا وطمعًا من أنور، وأريد المزيد، وعلى أي حال كما ترى كنتُ أنا مَن أقصاك. ما من أحدٍ آخر لديَّ لألقي باللائمة عليه، وما من أحدٍ لأقتله في أحلامي.

***

4. يُزَجّ بي في السجن

يسكب أحدهم كأسَ ماءٍ على وجهي فأستيقظ. رأسي الثقيل ثِقل فيلٍ يُخبرني أنني هنا منذ وقتٍ طويل، لكن نافذةً صغيرة تُخبرني أن النهار لا يزال طالعًا. وأن اليوم لا يزال قائمًا. وذاك يعني أنه ما من وقتٍ مرَّ عليَّ وأن الأسوأ لم يأتِ بعد.

يبصق رجل الشرطة، أقصد الضابط السمين، بلغمًا ثخينًا في وجهي. أحاولُ مسحه عن وجهي لكن يديَّ مُقيدتان وراء ظهري. يظل البلغم والبصاق رطبًا على وجهي. يبذل الضابط جهدًا لينهض، وأتكوَّرُ على نفسي كالكُرة، منتظرًا رفسةً من قدمه. لا يرتدي زيَّه العسكري. أرى الضابط الآخر أيضًا، يقف إلى جانب الباب. وأُميِّز الآن نُدوبًا على وجهه، لعلَّه أُصيب بالجدري في سنٍّ كبيرة. الغرفة مُعتمة لكن يمكنني تمييز المزيد الآن، سرير عند ركن الغرفة، وسطل على الجانب الآخر. وباب معدني يخلو من المقابض.

يتحدَّث الاثنان معًا، ولا يوجِّه إليَّ أحد حديثًا. ثمَّ يأتي الرجل المُصاب بالجدري ويشدُّني من إبطي. أزيدُ من ثِقل جسمي فيُجاهد لرفعي. يحلُّ الرجل السمين وِثاق يديَّ -هل سيطلقون سراحي؟ لا يتكلَّمان؛ وأخشى أن أسأل.

ما إن يحلَّا وثاقي، أشعرُ بقيودٍ معدنية في موضع الحبل حول رُسغي. يتنفَّس الضابط السمين بالقرب من أذني، والآخر يجذبُ شيئًا، وقبل أن أُدرك ما يحدث ترتفع ذراعاي إلى أعلى، كذراعَيْ دمية، مشدودتَيْن بقوةٍ كأنني لم أرَ أحدهما منذ وقتٍ طويل وأمدُّ ذراعيَّ على اتساعهما لعناقه، وعلى تلك الهيئة يتخشَّبُ جسدي، وأعجزُ عن الحركة.

ثمَّ أخيرًا يتحدَّث الضابط السمين. يقول: «لقد تبوَّلتَ على نفسك». أطرق برأسي ناظرًا إلى الأسفل وأراه على حق. تنورتي اللونجي غارقة في البلل. والمالُ بلا شكٍّ مفقود -يمكنني استشعارُ غيابه من فوري.

أرتجفُ خوفًا ويتملَّكني الغضب. أقول: «سرقتم أموالي!».

- هذا صحيح يا وغد القرية.

- إذن لماذا أنا هنا؟

- لا يُعجبنا أن نرى جرذانًا صغيرة تأتي من القرى بحثًا عن حبيباتهم العاهرات.

- إنها شقيقتي.

يتطلَّعان إلى بعضهما وينفجرا في الضحك.

- أتحسبُ أنَّا قنِعنا بما قلته، ولو ليومٍ واحد حتَّى؟ اللعنة، مرَّت أسابيع ونحن نضحك على الأمر.

أقول:

- ثمَّ ماذا؟ لقد أخذتما أموالي. وأبرحتماني ضربًا. فلماذا إذن أحضرتماني إلى هنا؟

- لم تستطع أن تترك شومون يُنهي مهمته، وأصررت على تعقُّبه. ورأيتنا جميعًا. أتظنُّ أننا أردنا ذلك؟

أُدرك الأمر الآن. لقد دنَّستُ عملهم المُتقن. كانوا ليختفوا، ولن يُصدِّقني أحد، لكني الآن صرتُ أعرفُ أين يعيشون.

- ماذا حدث لشومون؟

- جلبكَ الوغدُ إلينا، أليس كذلك؟ لقد اعتنينا بأمره.

إذن هو ميت الآن.

- جيد. هل تعتزمان قتلي أيضًا أم ماذا؟

- عسانا نفعل، أو عسانا نتركك هنا لتتعفَّن. لن يلاحظ أحد. أتُدرك وجود زنزانات مجاورة لك؟ في كل واحدةٍ منها مئة أو مئة وخمسين رجلًا. وسرعان ما تتشابهون جميعًا، صرتَ قذرًا تفوح منكَ رائحة البول النتنة كالآخرين جميعًا. لا أحد سيعرف حتَّى باختفائك. أو...

يباغتني بصمته ويتطلَّع إليَّ كمَن يحمل حديثه كل المقاصد.

أحاول التفكير في ما عساي أعتبره أسوأ الأحداث السيئة. لعلَّه يزيد في ضربي، وهو أمر سيئ. أذكرُ السنَّ الذي سقط من فمي بعدما ركلني رئيس العمال في وجهي، ظلَّ السنُّ اللعين يؤلمني لأسابيع وعجزتُ عن تناول أي شيء. لكنه التأم وصرتُ معتادًا على الخشونة الطفيفة في فكِّي، ولم يعد أمرًا مهمًّا. أو لعلَّه يأتي بما هو أسوأ؛ يتفنَّن في تعذيبي، كما يحدث في الأفلام الهندية، وينتزع أظفاري، أو شيء من هذا القبيل. يرتجف جسدي. ثمَّ يجول

بخاطري: لا تراه يُحاول استخلاص معلوماتٍ منّي، فما الفائدة من تعذيبي إذن؟ لا، لن يفعلا ذلك.. لكنهما سيلقّنانني درسًا. أريدُ أن أُحرِّك عيني إلى مؤخِّرة رأسي فلا أُضطَرَّ لرؤية ما سيُقدم على فعله. لا أريد أن أبقى في الغرفة معه ومع نفسي والسرير وشريكه المجدور. يتحدَّث الآن عن كل السُّبل التي بوسعه أن يُحطِّمني بها، وتنسجم كلماته مع أفكاري انسجاما.

يشرع في فك إبزيم حزامه. وأنا أتطلَّع إليه. أرى شاربًا من العرق أعلى شفته. عليه أن يبذل جهدًا في خلع الحزام من سرواله، إذ يبدو ممسكًا بكامل النصف العلوي من جسده، يبدو لو أنه خلع الحزام سيترهَّل جسده إلى الأسفل كما ينساب الشراب.

يستلُّ حزامه ويمسك به في يده، وللحظةٍ واحدة طالت كأنها عام كامل، يخطر ببالي أنه سيفعل بي غير ما حسبته، كأن يضاجعني مثلًا، وهو أسوأ، أسوأ كثيرًا من أي شيءٍ جال بخاطري، وعلى إثر الفكرة تشرع ساقاي في الحركة، تتحرَّكان، وأنا معلَّق كما أنا من ذراعيَّ، ولمَّا يهاجمني إحساسُ الوخز، إحساس بالعقدة الجلدية على صدري، والإبزيم يضرب بعمق، أصيحُ متألِّمًا، وفي الآن نفسه أتنفَّسُ الصعداء، لأن ما يحدث ليس أسوأ الأقدار السيئة، حتَّى صُدمتُ بالجلدة الثانية، ثمَّ الثالثة.

***

لا أدري أين أنا، لا أُميِّز شيئًا سوى البراكين على صدري، لمدَّة أعجزُ عن تحديدها، لعلَّها أيام، أو حتَّى أسبوع. أظنُّ أن أحدهم يدخل، يضع شيئًا على البراكين المشتعلة، أهو الضابط السمين أم الضابط المجدور، السمين أم المجدور، المجدور أم السمين، يضع شيئًا باردًا على جسدي، لكني لستُ موقنًا من شيء، فأنا أغفو وأصحو، وحين أكون صاحيًا أريد أن أغفو، وأن يتركوني لأحلامي، لا أريد أن أميِّز مُربَّع الضوء الآتي من النافذة، ولا صلابة السرير، ولا شعور بولي الذي ينساب من بين ساقيَّ ويظل قابعًا بينهما، يقيم الحقيقة الدامغة على انعدام وجودي، إنسان بلا أهل ولا كبرياء، هو الحثالة بعينها.

إنه شومون. يسكب الماء عليَّ، فيؤلمني جُلُّ جسدي كأنما أستحمُّ بالملح، ثمَّ يُغطيني بضمادة، ويُغلفني بغطاء. وبعد حينٍ يعبر الباب إلى الخارج دون أن ينبس بشيء. يتحدَّث إلى أحدهم على الجانب الآخر، ثمَّ أسمعه يسير

مبتعدًا، وبعدها يُفتح الباب ثانيةً ويُوضع طعام أمامي، حساء الدال والأرز. تُدهشني حقيقة أن يديَّ لا تزالان تُطيعان أوامري، فآكل طعامي، ثمَّ أغطُّ في النوم ثانيةً، كما لو أن أحدهم قد سحق حبَّة منوِّمة في طبق أُرزي.

يعود شومون في اليوم التالي، وفي اليوم الذي يليه. ولمَّا أشعرُ بشيءٍ من القوة، أكيل السباب في وجهه.. فلا يقول شيئًا. أمدُّ يدي لأصفعه لكنها لا تأتي سوى بصفعةٍ رقيقة، كأنما أمنحه تربيتًا لطيفًا على خدِّه.

يقول: «يلزمكَ أن تأتي بمزيدٍ من المال».

- اغرب عن وجهي.

- سيطلقان سراحك؛ هذا ما أخبراني به.

- وأخبراني أنهما اعتنيا بأمرك.

يرفع قميصه، فإذا بضمادةٍ تلفُّ صدره بأكمله. ثمَّ يقول: «من حُسن حظِّي أن أخذني أبي إلى المشفى».

- أنا لستُ محظوظًا.

- بلى.

يقول ثمَّ يُطرق ناظرًا إلى يديه، ويُضيف:

- يريدان لَكّتان.

- ليس لديَّ هذا المبلغ.

- اتصل بوالدك.

- والدي ميت.

- أكان كلُّ ما أخبرتنا به كذبًا؟

يقولها كأنما جُرحت مشاعره.. الوغد.

- على الأقل لستُ سارقًا.

- لم تكن فكرتي.

أشيح بناظريَّ عنه، وأقول: «اغرب عن وجهي». فيرحل.

***

راح يُناكِدني ويزيد في مناكدته. يرفع جوَّاله ويقول: «اتصل بأحد، اجلب المال. إنهم يعتزمون نقلك إلى المُعتَقل؛ حينها لن أقدر على إخراجك».

تمضي بضعة أيامٍ والبراكين المشتعلة في صدري تبدأ في الخمود. ما يزالُ الألم يُناكفني، ولكن في معظمه حين أُحاول النهوض لأجلس، أو أسعُل. أشرعُ في التفكير حيال خروجي من هنا، ولمَّا يأتي شومون، أنتشل منه الهاتف وأتصلُ بالرقم الوحيد الذي أعرفه. ثمَّ تُجيب شاتي بعد الرنين الأول مباشرةً.

أقول:

- يا زوجتي، أنا واقع في مأزق.

- أأنتَ على قيد الحياة؟

قبل أن أقول لها يا له من سؤالٍ غبي تطرحينه، تجتاحني موجة من الامتنان بأنها طرحت سؤالًا كهذا، كأنها لم تهتم لأي شيءٍ آخر عداي.

أقول مسترخيًا: «أجل».

- سبحان الله!

- أحتاجُ إلى مال.

- كم تريد؟

- لكَّتان.

- أين أنتَ؟

أقول: «أين أنا يا شومون؟».

يُخبرني.. فأخبرها.

- سأُرسل إليكَ أخاك.

- لن تجدي لكَّتين في الصندوق. من أين ستأتي بالباقي؟

أسمعُ أنفاسها على الجانب الآخر من الخط، أنفاسُ هُرَير. ثمَّ تقول:

- لا تقلق، سأُوفِّر البقية.

- إني أعطيتُ مالًا إلى المسجد. استعيديه؛ تكلَّمي مع الإمام.

- حسنًا.

يأتي أحدهم ويطردنا بعيدًا. هذا هو مكانه، حيث سيُقيم كشكه لبيع أطباق شوتبوتي[1]. شرعنا في السير مُجدَّدًا، ثمَّ أُخرج الجوَّال من جيبي، وأقول: «سأبيع هذا وأحصل على بعض المال مقابله. ربما ألف تكَّا».

- حسنًا.

- من أين جئتِ بالمال؟ هل عُدتِ إلى المسجد كما أخبرتك؟ أوافق المولى على إعادة المال؟

- لقد أنفقه بالفعل.

- الوغد.

- سيُسقَّف المسجد بسقفٍ جديد، وهذا سيجعل الجميع يُفكِّرون بك.

- ما تركته لكِ لم يكن كافيًا، من أين حصلتِ على البقية؟

- الثور. بِعتُ الثور.

- أكان غاليًا إلى هذا الحد؟

- كان حيوانًا سمينًا.

أستحضر كل الأوقات التي دفعت نفسها إلى خارج الفراش في الصباح لتُقطِّع القشَّ من أجل ذلك الثور. وكنتُ بدوري أشكو الأمر، وأقول إنه يُزيد رائحتها سوءًا في القرية، ولِمَ لا تفوحُ منَّا رائحة مختلفة، كشذا أهلِ المدينة، بما أننا الآن نملكُ المال؟

- ماذا قالت أمي؟

- كانت تبكي المُبرِّد والتلفاز.

اللعنة! لا شك أن بيع الثور لم يكن كافيًا.

أقول أخيرًا:

- هيا بنا إلى باتينجا.

***

(1) شوتبوتي هي أكلة بنغالية من مأكولات الشوارع. يتكون الطبق من خليط من البازلاء البيضاء والبطاطس والحمص والبصل والبيض المسلوق والفلفل الحار. وكلمة شوتبوتي هي كلمة بنغالية ترجمتها الحرفية باللغة الإنجليزية هي طعام حار. (المترجمة)

يجلس الناس على الصخور الكبيرة ويتناولون مُقبِّلاتهم وهم يتطلَّعون إلى البحر. أنظرُ إليه بدوري وأرى زوجًا من السفن في الأفق. تبسطُ شاتي طرف ساريِها وتجلسُ عليه. أُلاحظ الآن أن كل خطوةٍ تخطوها تُبطِئُ فيها، كأنما تقصد ذلك. لا مجال للحوادث لديها. ترفع ركبتيها إلى صدرها، وعلى تلك الهيئة، وهي متكوِّرة تمامًا على نفسها، تُشبه الدمية كثيرًا.

أقول: «أخبريني عمَّا سنفعله حين نعود إلى الديار».

- سنزرع بذور الخردل.

- ثمَّ ماذا؟

- ولدينا خضراوات نحصدها.

- أخبريني عن هذه الخضراوات.

- باذنجان، وقرع، وقرنبيط. والفاصولياء. والسبانخ.

- وماذا سيحدث أيضًا؟

- لا شيء. سيسير كل شيءٍ كما كان من قبل.

أُفكر في ما كان من قبل، وكيف كانت الحياة حين كنتُ لا أملكُ المال، قبل أن أُسافر إلى الخارج. أُفكر في وجه أمي، وفي المرَّات الكثيرة على مدار اليوم التي ستُخبرني فيها أنني أفسدتُ حياتي. تتتابع الصور كفيلمٍ سينمائي أمام عيني، أشعرُ بالحنق في كل مرَّة يُوقظني بها ذاك المسجد بسقفه الجديد وطلائه اللامع. وأسمعُ صوت تلفازي، مهما كان من اشتراه، في أنحاء القرية حين أُحاول النوم، والصوتُ يتردَّد في رأسي مُخبرًا إياي أنه ما كان يجدرُ بي أخذُ ذلك المال في المقام الأول، لا، ليس قبل أن أُفكِّر في البهاري وعائلته.

أقول: «لا أقدرُ على العودة إلى الديار».

تنهض وتشرع في السير نحو الماء، قافزة من فوق الصخور، فأتبعها.

- ليس الأمرُ كما تظنين.

تتوقَّف، ثمَّ تتطلَّع إليَّ، وتقول: «لم أسألكَ شيئًا قط».

كلامها صحيح، حتَّى إنها لم تنطق اسمي قط. أقول: «لا أقدر على العودة إلى الديار».

اطلبي منِّي شيئًا آخر. ثمَّ أُضيف: «أتريدين البقاء هنا معي؟».

- على أحدٍ أن يعتني بأُمك.

يبدأ حلول الظلام، والزحام كثيف شديد الآن، والضوء بألوانِ الصخور.

أقول: «أريدُ طفلًا». فتتطلَّع إليَّ مُجدَّدًا وأُدرك أنها ظلَّت تُفكِّر في الأمر نفسه، وأنَّ ما ستقوله حقًّا هو رغبتها في ما هو أكثر من طفل، رغبتها في أن تكون زوجة، زوجة حقيقية. أُسائِل نفسي إن كنتُ حقًّا قادرًا على منحها ما تريد. يحسُن بي أن أسمح لحلمي بميجنا بالرحيل. يجدرُ بي أن أطردها من رأسي كما فعلتُ في المرَّة الأولى؛ ومرَّة أخرى ها أنا أُريقُ دماءً من أجلها. يجدر بفعلي ذاك أن يكون ذا أهمية، يجدر به أن يفتح فرجةً من الباب المضروب بيننا لبقية حياتي. لأجل شاتي. أمدُّ يدي وأمسكُ بيد زوجتي، ثمَّ نستنشق ملوحة الأمواج، فتُذكرني رائحة المحيط بذاك الماء الذي تقاطر منِّي وأنا أستحمُّ، بالأمس فقط. نسير مبتعدين عن البحر مارِّين بالناس، وهم يبسطون سِلال نزهاتهم، ويُوبِّخون أطفالهم، ويكسرون قشور بيضٍ مسلوق.

نصلُ إلى موقف الحافلات، فلا تُفلت يدي. ثمَّة شيء يتحرَّك بداخلي؛ ويا لها من غرابةٍ ألا أدري حتَّى كنهه في بادئ الأمر، ثمَّ أُدرك الأمر. إنها دمائي، تنبض بالداخل. تنبض بشدَّةٍ تُؤلم صدري، وساقيَّ أيضًا. في الحافلة لا نجد سوى مقعدٍ شاغر، فأقف إلى جانب شاتي وهي تجلس. حلَّ الظلام على المحيط، والحافلة تبتعد. أرى السفن في البحر، ثابتة شامخة، لكن يدي تتحرَّك، تقبض على مؤخِّرة عنق شاتي، ثمَّ ها هي أذنها، وها هو فكها. هنا يتراجع الجلدُ وينتشر الشعر. أنا لا أنظرُ إليها، بل أُحدِّق إلى خارج النافذة وأقرأ جميع لافتات الدكاكين، لكني أراها للمرَّة الأولى، أراها بإبهامي، إبهامي الخشن، ها هو خدها، ثمَّ أقرأ «**مطعم موهونا للبرياني والكباب**»، وها هو فكُّها، ثمَّ أقرأ «**إخوان القاضي لتجارة الأسمنت**»، وها هو ذقنها، ثمَّ أقرأ «**نافيد نابيت (للرجال)**»، وفي الأسفل، أزدادُ شجاعةً والدماء تتفجَّر بداخلي الآن، والجلدُ ما بين نهديها ناعم كالحليب، ثمَّ تُباغتني ذاكرتي بذكرى، فأُقرفص إلى جوارها وإبهامي ما يزالُ على جلدها، وأهمس: «أرجوكِ يا زوجتي، اغفري لي. أنا لا أستحقُّ صفحكِ عني، لكن إذا استطعتِ إلى ذلك سبيلًا، أرجوكِ حاولي».

ثمُّ أقفزُ من الحافلة وهي تسير، وأرتطمُ بالرصيف ارتطامًا عنيفًا. أبكي من الألم، وبعد بضع دقائق يُساعدني أحدهم لأنهض. أنفضُ الغبار عن ملابسي، وأسير متجهًا إلى محل الحلاقة، مسترجعًا المكالمة الهاتفية التي

تلقَّيتها قبل أسابيع قليلة، إذ أخبرتني أن ميجنا كانت تُقيم هنا، على الطريق المؤدِّي إلى شاطئ باتينجا، أمام محل حلاقة له اسم مُتناغم.

***

يحلق نافيد إبطَ شابٍّ مُبين أنه موشك أن يتزوج. يفوح برائحة زيت جوز الهند ويتلألأ كل شيءٍ في هيئته. أقصدُ لُبَّ الموضوع في حديثي مع نافيد، وأقول: «أنا أبحثُ عن ميجنا. هل هي هنا؟».

يُمسكُ بالشِّفرة عاليًا ويتطلَّع إليَّ ثمَّ يقول:

- أأنتَ من أهلها؟

- أجل.

يسحب الشفرة إلى أعلى، جامعًا الرغوة، ثمَّ يمسحها بشرشفٍ يتدلَّى على كتفه.

- مكثت هنا لبضعة أشهر. حين جاءت إلى المدينة، سمحتُ لها بالبقاء هنا.

- مع مَن؟

- لا أحد. بل بقيت هنا.

يشير إلى الأرضية، بين الكُرسي والحائط. يمسح إبطَ العريس، ويتحرَّك إلى الجانب الآخر. يخفض العريس ذراعًا، ويرفع الأخرى، ويرغي نافيد الصابون.

- ماذا حدث؟

- وكيف لي أن أعرف؟ سمحتُ لها بالمكوث هنا ما دامت تدفع لي. لقد كانت محظوظة أيضًا. سرت شائعات بين الناس، ولم تكن زوجتي سعيدة بوجود فتاةٍ كتلك.

- هل رأيتَ الطفل؟

- لا. لكن زوجتي قالت إنها في حالةٍ سيئة، وكان عليها الذهاب إلى المشفى.

- ألم ترها بعد ذلك؟

- ليس منذ الحين.

يُنهي عمله، ثمَّ يتحقَّق منه بأن يُمرِّر إصبعه على الإبط الناعم.

يخيِّمَ الظلام الآن، وتشتعل مصابيح الكيروسين جميعها. أفتقد شاتي، وما من مجالٍ لتقبل بي الآن. أعثرُ على دُكانٍ وأبيع الهاتف، فيناولونني سبعمائة تكًّا مقابلًا له، وأنا الذي دفعتُ لشرائه خمسة آلاف تكًّا. والآن أصيرُ عاجزًا حتَّى عن الاتصال بمَن في الديار.

أحتاجُ إلى طعام. أحتاجُ إلى مال، إلى وظيفة، إلى طعام. لا أُصدِّق أني عُدتُ إلى هذه الحالة بعد كل ما مررتُ به؛ تعود بي الذكريات إلى طفولتي، حين كنتُ جائعًا طيلة الوقت، لا أبرحُ كاحلي أمي طلبًا لكسرةٍ من شيء.

ولكن هأنا ذا. لا جدوى من الغرق في العواطف. يقول نافيد أن أفضل ما أقوم به هو البحث عن عملٍ في الترسانات. أقول: «لا.. أنا بنَّاء، ولستُ هدَّامًا». أعثر على موقع بناءٍ فيستأجرني رئيس العمال، مقابل خمسين تكًّا في اليوم، وطبق أرزٍ بعد الظهيرة، ومكان أنام فيه. أوشك البناء أن ينتهي؛ إذ يعملون على الأرضيات الآن. يُعطيني رئيس العمال زوجًا من قفازاتٍ مطَّاطية، ويأمرني بإزالة أكوام الطوب التي تُقطِّعها النسوة العجائز على جانب الطريق، وأجلبها إلى حيث يخلطونها بالخرسانة لصنع الأرضيات الفسيفسائية، وتُخلَط شظايا الطوب مع الرمال لتبقيها صلبة.

تجلس النسوة في صفٍّ منفرجاتِ السيقان يُكسِّرن الطوب بمطارقهن الصغيرة. مغطاة وجوههن بالغبار. يَلُفُّ بعضهن، الماهراتُ منهن، شرائط من مطاطٍ حول أصابعهن، فأشعرُ بالأسف نحوهن، وهن يجلسن أسفل الشمس الحارقة، يطرقن على أصابعهن، لكنني لا أرفع صوتي بشيء، لا أقول، يا أنتن، أتخبزن اليوم، هل أُساعدكن ببعض الماء -لا أقول هذا لأنني جديد وأعرف أن الجميع يراقبونني. أضف على ذلك، لماذا أهتمُّ ببضع عجائز شُمْط على أي حال.

أرفع طوبهن المكسور، وأعتلُ المشنَّة على رأسي، ثمَّ أشقُّ طريقي عابرًا بالموقع إلى الخلَّاطة، أُفرغ حمولتي ثمَّ أعود لأجلب المزيد. لا يزال صدري مُضمَّدًا لكنَّ الجُرح اندمل، وعاد بوسعي تبيُّن في أي موضعٍ ستصير الندبة ثخينة، بالقرب من عُنقي تمامًا. لو تأتَّى لي ارتداءُ قميصٍ ثانيةً، أعني قميصًا أنيقًا ذا أزرارٍ وياقةٍ مُدعَّمة، ستظهر الندبة، كأنني واحد من هؤلاء الذين خضعوا لعملياتٍ جراحية في القلب.

لا أُصادقُ أحدًا، بل أُصادق مكانًا صغيرًا أعددته للنوم إذ أُعلِّق تنورتي اللونجي على حبلٍ بيننا؛ أخلو إلى نفسي، وآكلُ أرزي بعيدًا عن بقيتهم.

***

أحاول التأثير في نافيد، وأخيرًا يسمح لي بسؤال زوجته إن كان بإمكاننا العثور على شيءٍ يخصُّ ميجنا في المشفى. أُخبره بكل شيء، عن ميجنا، وعن الطفل، وعن محاولاتي في إصلاح الأمر بعد كل تلك السنين. ما من شيءٍ آخر لديَّ لأخسره، ولا حاجة بي لنسج قصةٍ جديدة. ترتسم حول عينيه خطوط عميقة نتيجةً لتدقيقه النظر في وجوه الناس وإمعانه عند استعمال الشفرة على رِقابهم، ولكن حين أُخبره بذلك، بالقصَّة الحزينة الكاملة، حين أرفعُ قميصي وأُريه السياط التي تلقيتها من إبزيم حزام الضابط السمين، يلين وجهه، وأحسب أنه قد يساعدني، وقد لا يفعل، لكنني على الأقل نطقتُ بالحقيقة.

***

5. أعثرُ على ميجنا

حين وصلتُ إلى المدينة في بادئ الأمر، تركتُ آثار أقدامي في المدينة كاملة مرتديًا صندلي وحاملًا صورة ميجنا في يدي. سِرتُ في الطرقات يدور رأسي في كل اتجاهٍ، أحدِّق إلى وجوه جميع النساء، ألمس شعر إحداهن الطويل، وأُحسِّس على اليدين الصغيرتين لأخرى. رأيتهن ينظرن إليَّ، غاضبات أحيانًا، وممنونات تقريبًا في أحايين أخرى، كأنه ما من أحدٍ يتطلَّع إليهن بتلك النظرة، نظرة تخلو من أي نوعٍ من الرغبة أو المخاطر، بل مجرَّد نظرةٍ صريحة، حينها جال بخاطري أن النساء يستحققن نظرةً إلى ما في أعينهن، وأتساءلُ متى كانت المرَّة الأخيرة، لو أنه حدث أصلًا، التي منحتُ فيها شاتي هذا النوع من الوِصال البشري. لعلَّه لم يحدث قط. ولكن وقتما وصلتُ إلى دُكان نافيد، بِتُّ منصرفًا عن الأمر، إذ توقَّفت عن التحديق إلى كل كائنٍ حي كأنني لو أمعنتُ التحديق إليهن لعلَّهن يتحوَّلن إلى فتاتي.

ثمَّ أراها. فتاة حقيقية من لحم ودم، تقف أمامي مباشرةً كأنها هدية مُغلَّفة هبطت من السماء. إنه المساء؛ أنهيتُ ورديتي وكنتُ في طريقي إلى دُكان

نافيد. كانت رفقة امرأةٍ أخرى، امرأةٍ أجنبية، لكنني لم ألحظ ذلك في بادئ الأمر، بل وقفتُ هناك كالمقذوفُ بحجر. ها هي أمام ناظريَّ، لا تبعدُ سوى مدِّ ذراع. إنها هي. شعرُها مثل كومةٍ من أسلاكٍ كهربائية، وعيناها منحرفتان، وجميلة جمالًا يحبس أنفاسي، ثمَّ مرَّت بجواري، فناديتها. «ميجنا... ميجنا». تُتابع السير كأنها لا تعرف اسمها، فأُحاول مُجدَّدًا، بصوتٍ جهوريٍّ، حتَّى مؤخِّرة عُنقها مطبوعة في ذهني، لأنني عانقتها، عانقتُ كل ما فيها، ولمَّا أراها تُتابع السير، أقول: «إنه أنا، ألا تعرفيني؟». يلتفت الآخرون من حولنا، فأركض لاحقًا بها. تراني فتتوقَّف. ثمَّ لا أتعرفُ النظرة المطبوعة على وجهها. أنتظرُ سيلًا من السباب ليخرج من فمها، ولكنها بدلًا تقول: «مَن أنتَ؟» كأنها لم ترني قط في حياتها كلها. أقولُ مُجدَّدًا: «إنه أنا». ثمَّ يجول في خاطري أمرُ الشارع المُظلم، فأضعُ يديَّ على كتفيها، وتتلوَّى هي لتتحرَّر من بين يديَّ، في هذه اللحظة أُدرك الأمر. إنها تتظاهر. يجول بخاطري: هاها، مُضحك جدًّا، لا تتصرَّفي هكذا. تضطرب وتتلوَّى فأُضطر إلى إطلاق سراحها. وحتَّى آنذاكَ أقفُ في موضعي فحسب وهي تستديرُ مبتعدةً عنِّي، غارقة في الاشمئزاز، ثمَّ أرى الأجنبية إلى جوارها تقول شيئًا بالإنجليزية. ويبدآن في الصراخ. تستدير ميجنا مبتعدة ويخرج نافيد من دُكانه. أركضُ خلفها فيُشدُّ ذراعيَّ ويقبض عليهما وراء ظهري. هو أقوى ممَّا يبدو عليه، ولا أستطيعُ الإفلات من قبضته. يصيح مُخاطبًا ميجنا: «معذرةً يا سيدتي». تستدير وأُلاحظ ملابسها، لا تُشبه ما ترتديه حبيبتي ميجنا في شيء، ليس في هذه الحياة، وعبيرها العالقُ في يديَّ هو شذًى آتٍ من مكانٍ آخر. هذه ليست ميجنا. بدأتُ أُجَنُّ، فأرى حبيبتي ميجنا في وجه امرأةٍ أخرى، وحين أتطلَّع ثانيةً، أراها لا تُشبه فتاتي في شيء، لا شيء على الإطلاق. أُقرفص هناك، على الرصيف وأبكي بين يديَّ؛ حتَّى الرب يمارس الحِيل، يُخادعني برؤيتها، وهي مجرَّد خيالات في رأسي، وهو المكانُ الذي لا تُوجد أبدًا إلا به.

***

يشعر نافيد بالأسف على حالي، ويُقنع زوجته باصطحابنا إلى المشفى. نختارُ يومَ جمعةٍ وأشتري شيئًا من الثياب، سروال نظيف وقميص، فلا أبدو وغدًا حقيقيًّا. كانت لديَّ بعض المقتنيات في الفندق، لكن ما من مجالٍ للعودة

من أجلها. لو أني رأيتُ فتيان الريكاشة هؤلاء، لتمزَّقت كل جروحي وبدأت تنزفُ ثانيةً.

تتمتَّع زوجةُ نافيد بطولٍ فارع وجمالٍ ملموس، لها بشرة بيضاء كالحليب الطازج، وتُعامله كمَن يعرف أنه كان يجدر بها اختيارُ زيجةٍ أفضل. دائمُ التوتر في وجودها، يُخبرها كم هو جميل مظهرها، يتملَّقها في كل تعليق، أما هي فتركنها جانبًا مثل حواشٍ أسفل ثيابها. أتهذَّبُ وأُمطرها بالشكر والعرفان بقدر ما أستطيع التحمُّل، وبداخلي مسرور من مظهرها الراقي، لأن زوجةً قروية لن تُساعدنا في الوصول إلى شيءٍ في المشفى.

أُفكر بأمر شاتي، زوجتي القروية. يهجرني النوم ليلًا مُدركًا أن هناك امرأتين في هذا العالم يكرهاني. أفتقرُ إلى عبارات الاعتذار فلا أُحاول حتَّى الاتصال بها، ولكنها تزورني في أحلامي الآن، تمامًا إلى جانب ميجنا. أتذكَّرها على الشاطئ، ورائحة شعرها في الحافلة. وأقضي أنها تستحق ما هو أفضل، هذه العصفورة الصغيرة.

نستقل حافلةً إلى الجانب الآخر من المدينة. وفي طريقنا أُخبرهما بكل شيءٍ أعرفه عن ميجنا، أي شيءٍ سيساعدنا في العثور عليها. اسمها، سِنُّها. تساعدني زوجة نافيد في إحصاء الشهور، ونهتدي إلى توقيت وجودها هناك. تتوقَّف الحافلة، ونسير ما تبقى من الطريق. إنها الكلية الطبية، ما من أُناسٍ راقيين هنا. عند المدخل يسعكَ أن ترى أنها مكان للفقراء، هناك يستلقي المرضى في الممر، أو يتكوَّرون على السلالم، يمدُّون أيديهم ويقبضون على كاحليكَ، ويبدؤون قصَّةً طويلة ويتسوَّلون بضع بيزات. اللعنة! المهم أن زوجة نافيد تعرف طريقها هنا، عند مؤخِّرة المبنى، ثمَّ بضع سلالم تفوح برائحة البول، ثمَّ ممر آخر يعجُّ بأُناسٍ يقرفصون على الأرضية ويشيرون إلى أطرافهم العفنة، وبطونهم المُتقرِّحة، ينتظرون رؤية أحدهم، أو يصيحون طلبًا لطبيبٍ أو ممرضة، أو أي شخصٍ يرتدي معطفًا أبيض.

تلمح زوجةُ نافيد ممرِّضةً فتتجه نحوها في خُيلاءٍ وهي تُصفِّق، ويتحدَّثان لدقيقة. ثمَّ تعودُ إلينا وتمدُّ يدها إليَّ قائلة: «أعطني بعض المال». لقد سمعتُ هذه العبارة من قبل، وهي تثير الهياج في دمائي، لكنني أُدرك أن هكذا تسير الأمور، ولذا أناولها كل ما أملك، إلا من قليلٍ احتفظتُ به لأجل الطعام. تدور على عقبيها وتتوارى داخل الجناح.

يجوب نافيد المكان لشراء السجائر. وأُجيل أنا النظر في ما حولي. هذا رجل معه فتاة صغيرة. طفلة بين ذراعي أبيها، كلاهما ضعيف مُنهك، ثمَّ تسعل الفتاة، ويتخشَّبُ جسدها، ثمَّ تهدأ ثانيةً، وتُرخي رأسها على صدره. أتطلَّع إليه فيومئ إليَّ. ثمَّ يقول: «داءُ السل». لقد سمعتُ بهذا المرض من قبل، سلب بعض الناس في قريتي حياتهم قبل بضع سنين. هذا ما جاء به الخطابُ في دبي، وعلى إثره أرسلتُ بعض المال.

- هل تلقَّت علاجًا؟

- لقَّمناها الحبوب لستَّة أشهر. لكن حالتها تزداد سوءًا.

أنظرُ إلى الفتاة. ثمَّ تفتحُ عينيها، عينين ناعستين، وتمنحني ابتسامةً بطيئة. فأقول: «مرحبًا».

يسألني الأبُ: «ألديكَ أطفال؟».

فأُجيبه: «نعم، ذاتُ تسعة أعوام. تعيش مع أُمها».

يومئ إليَّ. وتبدأ الفتاة في السعال ثانيةً، يُعانقها بقوةٍ، ويضع يديه على جبينها. ثمَّ أرى شفتيه تتحرَّكان. إنه يدعو.

يعود نافيد. ويفتحُ علبة السجائر، ثمَّ يعرض عليَّ واحدةً، فنشعلها معًا. أسأله عن زوجته، فيُجيب: «أنا نفسي لا أُصدق سبب موافقة أهلها. أحسبُ أني كنتُ شابًّا وسيمًا».

أقول: «لم تعد كذلك»، فيلكزني في أضلعي. أجفلُ، وأُدرك أن الجُرح ما يزالُ مُتقرِّحًا.

ينقضي الوقت، فنجلسُ على أرضية الممر مثل الجميع. نُفكِّر في الخروج لجلب كوبٍ من الشاي، ونترك رسالةً مع والد الطفلة، لكن زوجة نافيد تعود، وتعقد يديها على صدرها حين ترانا جالسين على الأرض.

- المكانُ قذر هنا، هيا بنا.

- هل عثرتِ على شيء؟

تتوقَّف، وتطرق ناظرةً إلينا، وتقول: «لا».

أسألها: «ماذا حدث؟».

- سأُخبركَ عندما نخرجُ من هنا. هذا المكانُ موبوء بالمرض، أخرجاني من هنا.

وفي لمح البصر يقف نافيد على قدميه، ممهِّدًا الطريق أمامها لكي تعبر فلا تُلامس أحدًا.

وبمجرَّد أن نهبط إلى الطابق السفلي، أتوقَّف وأجبرها على إخباري بكل شيء. في الخارج، الطقسُ حارٌّ وعيناي تُصابان بالدوار في وهج الشمس. تُكوِّر زوجة نافيد يديها في قبضتين وتضعهما على ردفيها. ثمَّ تقول: «يُوحي مطلعكُ بأنكَ وغد مجنون، لكنكَ في داخلكَ مجرَّد دودة مثل الجميع».

أراها لا تُخبرني بشيءٍ لا أعرفه. فأقول: «هل وجدتِ الطبيب؟ وماذا قال؟».

- أتظنُّهم يحتفظون بكل أوراقهم في كومةٍ صغيرة مُرتَّبة ومتى ما يأتي أحدهم من الشارع ويسألهم شيئًا، يُخبرونه بما يريد معرفته من فورهم؟

أنظرُ إلى نافيد، ثمَّ إلى زوجته. ينعقد لساني ويجفُّ حلقي.

- لم تعثري عليه.

- بالطبع لم أعثر عليه. ولا أحد سيتحدَّث إليَّ حتَّى.

ثمَّ تمرِّر يديها على قميصها كأنها لا تُصدِّق أن أحدًا سيرفض التحدُّث إلى امرأةٍ حسنة المظهر مثلها.

يتدلَّى رأسي فأحسبُ أنه قد يسقط من فوق جسدي ويتدحرج على الأرض. ثمَّ يضع نافيد يده على كتفي ويقول: «لقد حاولنا».

نجرُّ أقدامنا إلى حيث تنتظر عربات الريكاشة. ثمَّ يساعد نافيد زوجته على الصعود إلى إحداها، وأُلوِّح إليهما وأنا أقول: «سأقطع الطريق سيرًا»، وقدماي ثقيلتان ثِقل السفن.

***

6. ترسانة السفن

أحلم طيلة الوقت بطفلتي، بشعرٍ داكن كشعر أمها. تأخذ عنِّي أنفي، وعن ميجنا عينيها الضيقتين. وربما تأخذ عنِّي شفتيَّ. لديَّ شفتان جميلتان، أو أقله هذا ما اعتادت ميجنا أن تُخبرني به. مَن يدري ماذا تبقى منهما؛ وأنا الذي لم أتطلَّع إلى المرآة منذ وقتٍ طويل.

ينتهي بناءُ المبنى في شوراستا. سيأتي النجَّارون لتركيب الأبواب؛ ورُخام المطبخ في طور القصِّ. يدفع لي رئيس العمال أجر الأسبوع الماضي، وأعود إلى الشارع مُجدَّدًا.

أتنقَّل بين المباني من واحدٍ إلى آخر فيقولون لا وظائف لدينا. أو لعلَّ لديهم وظائف، لكن ما إن يتطلَّعوا إلى وجهي ويروا الحياة مسلوبةً منه، يرفضون رفضًا قاطعًا. سرعان ما ينفد مالي. يقول نافيد أن بإمكاني النوم في الدُّكَّان، ولذا أُعِدُّ سريرًا هناك لبضعة أيام. أريدُ أن أطلب من زوجة نافيد أن تُعلِّمني بعض الحروف، لكنني لم أرها منذ ذلك اليوم في المشفى. لا أُصدِّق أنني قضيتُ كل هذا العُمر دون أن أتعلم شيئًا واحدًا حتَّى. لقد نعتتني بالدودة، وهي على حق -أنا حشرة صغيرة دَبِقة تزحفُ خلال القاذورات وتأكل فضلات الآخرين.

ينهشني الجوع، ولكن حين يعرض عليَّ نافيد قُوته، أرفض. يتدلَّى بطني ويؤلمني وأنا وحيد في الدُّكَّان في أثناء الليل تُصاحبني رائحة الصابون والشعيرات الدقيقة التي عجز نافيد عن التقاطها بمكنسته.

في النهار، حين لا أبحث عن عمل، أنظرُ داخل الدكاكين على امتداد الطريق السريع، وأرى غرائب كثيرة. في أحدها، أرى مصابيح معدنية عملاقة، وسلاسل طويلة للغاية. ساعات وآلات نحاسية. ثمَّ يُخبرني صاحب الدُّكَّان أن جميعها من السفن التي تتفكَّك على الشاطئ. يبيعون كل القطع والأجزاء هنا، المقتنيات الرخيصة. والبقية تُشحن إلى دكَّا. هو رجل طيب، عجوز لديه الكثير من وقت الفراغ. يُخبرني أن لا شيء كان هنا من قبل، ثمَّ هبَّت عاصفة وانجرفت سفينة إلى الشاطئ وعلقت في الرمال. كان هناك رجل أجنبي، قبطانُ سفينة، هو مَن أسس الصنعة. لا أُصدِّق العجوز، بل أدعه يتحدَّث فحسب -ماذا تبقَّى لكَ إذن في كهولتك إلا آذان الشباب؟ ما عاد بإمكاني أن أنسب لنفسي الشباب لكني أفعل، أنسبه لنفسي لأنني أخفقتُ إخفاقًا مقضيًّا وما يزالُ أمامي الكثير لأفعله، مثل إنجاب طفلٍ إلى هذا العالم، وتربيته تربيةً سليمة، وتعليمه أن يحترم الأكبر سنًّا ويُنصت إلى حكاياتهم، مهما كانت طويلة أو مُختلقة.

يسألني العجوز: «أتبحث عن عمل؟».

- هل تعرف أحدًا؟

- دومًا تجد عملًا في تفكيك السفن. يمكنني التوسُّط لك. سيأتي الرجل لبيع شيءٍ، وسأطلب منه. عُد إلى هنا غدًا.

أُخبره كم أنا ممنون لصنعه.

يقول: «إنه عمل شاق، وخطير أيضًا».

- لا أُمانع.

في اليوم التالي، أُنظِّف نفسي بأفضل ما أستطيع وأرتدي السروال الذي ابتعته من أجل المشفى. وحين أعود إلى الدُّكَّان، يُخبرني صاحب الدُّكَّان أن أنتظر في الخلف. أرى رجلًا مستقلًّا شاحنة صغيرة في الشارع، مُكدَّسة عن آخرها بالخردوات. كل ما يسعني رؤيته هو سيقان معدنية، وأسلاك، وأشياء اعتادت أن تعمل لكنها الآن مجرَّد قطعٍ مكسورة.

وفي مؤخِّرة الدُّكَّان، أجدُ سريرًا عاليًا ذا قضبانٍ معدنية، يُذكِّرني بمسكننا في دُبي. أتساءلُ أين هم هؤلاء الفتيان الآن، مَن يبني ومَن عاد إلى الديار. أجلسُ على السرير وأنتظرُ لوقتٍ طويل، ثمَّ أسمعُ وقع خطواتٍ تتجه نحوي، فأنهض، وأُسوِّي قميصي.

يأتي صاحب الدُّكَّان، ويقول: «ها هو الرجل الذي كنتُ أُخبركَ عنه».

الرجلُ قصير بدين، له أنف يُشبه أنفَ كلبٍ، كأنه أُلصق مهروسًا في وجهه. يتنفَّس بصعوبةٍ ويتعرَّق مثلما يتعرَّق البدناء. يتطلَّع إليَّ كأنني دجاجة يُفكِّر في شرائها، ثمَّ يقول: «عملتَ في الإنشاءات، ها؟».

يُخبره صاحب الدُّكَّان: «إنه معتاد على العمل الشاق».

أقول، آملًا أن يستميله حديثي: «عملتُ في الخارج، في دُبي».

يتأثَّر الناس دومًا بالحديث عن البلاد الأجنبية.

- هل أنتَ مُتعلِّم؟

- لا يا سيدي.

- خسارة. كان بإمكاني أن أستعين بكَ مساعدًا. ولكن لا بأس. تعالَ إليَّ غدًا وسأوكل إليكَ عملًا على السفينة. لدينا بعض الناقلات التي نحتاجُ إلى الإفراغ منها. أظهر هذه إلى الرجل على البوابة، وسيدعكَ تدخل.

يناولني بطاقته. وقبل أن يسعني سؤاله عن الأجر، يخرج من الباب، وأنفاسه التي تُشبه أنفاس الكلاب تتسارع وهو يسير مبتعدًا.

***

لمَّا كنتُ صبيًّا، دفعني أبي إلى حَفْر الكَنِيف. كان من المفترض بالفضلات أن تنصرف في النهر، لكن لمرَّتين أو ثلاث في العام، يعلق الصرف، وتُحشَر الفضلات وتطفو على الأرض. أرسلني إلى هناك بمعول، ولم يقل شيئًا، بل أشار إلى النهر فحسب. كانت رائحة التعفُّن قوية لدرجة أن مجرَّد التفكير فيها دفعني إلى التقيُّؤ لأسابيع بعد مُضي الأمر. كرهتُ أبي لإجباري على فعل ما فعلت، لكنني أرى الآن أنه كان يجدر بي الانتظار، لأنني مُعلَّق إلى جانب سفينة بحبلٍ واهٍ حول خصري، وأُدرك الآن، أن هذا هو الجحيم بعينه، لا الكَنيف، ولا الصحراء، ولا حتَّى وجودي هناك في الأعلى متشبِّثًا بالزجاج رفقة البهاري. بل هذا ما أستحقُّه بعد كل ما اقترفته من سوء: هذا العمل في نهاية العالم.

أفعل ما يأمروني به. يُخبروني أن أصعد إلى قمة سفينة مُفكَّكة، وأتدلَّى من هناك مثل أفعى الأشجار، فأفعل. يُخبروني أن أربط حبلًا حول خصري وأقطع من لحم وحشٍ معدني، إذن أنا لها. لا كلمة، لا تعقيب. لو كان البهاري هنا، لشعر بالخزي منِّي. ما الذي لم يكن ليقوله عن الطريق البائس الذي اخترته، محفوف بالجُبن ولا أعرف الشجاعة. ماذا عساي أفعل أيها البهاري؟ بعد موتك، بعدما تملَّكني الفزعُ بسببك إلى الأبد، كان الأمر الوحيد الذي استطعتُ التفكير فيه هو الرغبة في الاختباء في ساري ميجنا، وطفلتي، لا أريد سوى حماية طفلتي. محفوف بالجُبن لا أعرف الشجاعة. في رأسي، يقول البهاري: ذهب موتي هباءً، فأقول له: الناس أمثالنا دومًا يموتون هباءً. يهزُّ رأسه في عصبية، كديدنه، كأن عظامه لم تستحل ترابًا، كأن كل أمنية اشتهاها لم تتوارَ في رمال الصحراء مثل قطرة ماء على وُريقة شجر.

الآن صار كل يومٍ هو يوم الكَنيف. كل يومٍ أخلدُ إلى النوم وسُمٌّ يجري في دمائي. تلقَّيتُ تعليمًا ليومٍ واحد من رجلٍ ناولني موقد لحام وقال: «عندما أقولُ لكَ أن تقطع، اقطع». واليوم أنا أعلى الجانب الشرقي من السفينة. الحبلُ حول خصري، والنظَّارات الوقائية على عيني، نظَّارات سيُقتطع ثمنها من أجري. تخرج الشرارات من موقد اللحام وتستقرُّ على ساقيَّ كأنها قافلة من نمل، والشمسُ تحرقُ ظهري، وكل هذا مقابل خُردةٍ من المال. ومقابل هذه الخُردة القليلة تتناثر على جسدي جُروح من المعدن، وذراعاي توشكان أن تسقطا من حمله؛ جوعان لدرجة أني سآكل أي شيء، وأنام في أي مكان، وظمآن ظمأً لم أعرفه قط، ولا حتَّى في السجن.

أجدُ تجمُّعًا من الأكواخ خلف الترسانة، ثمَّ يعرضون عليَّ سريرًا لديهم مقابل ما أحسبُ أنه نصف أجري تقريبًا. ليس لديَّ خيار، ولذا آخذُ حاجاتي وألحق بالأكواخ. أُقرر في الأغلب أن أنفرد بنفسي، ولكن بعد أيامٍ قليلة أسمحُ لنفسي بمصادقة أحدهم. له شخصية متشائمة، وهو وغد حقيقي، وهذا يُبيِّن لي صدقه على الأقل، فلا وجود لخُدعٍ في اللحظة الأخيرة تجعلني أحسبه مكسبًا ثمَّ أُدركُ أنه هنا ليحُزَّ عنقي.

نتشارك السقيفة مع أربعة آخرين. في اليوم الأول، يوجِّهني إلى حشيَّةٍ قشٍّ إلى جانب الباب، ويقول: «هذه لك. ستقسم ظهرك لكن لا أحد يهتم للرجل المُستجد».

إنه من الشمال، حيث لا يوجد طعام كافٍ أبدًا. يقول: «ستموت على هذا الشاطئ. سيسقط عليك شيء ذات يوم، وتتكسَّر عظامك مثل قشرة بيض. أو يلحق بكَ حريق. أو ربما تتسمَّم».

أُجيبُ: «شكرًا لك. لا أحد سيفتقدني، ولذا لا أُمانع».

- آه، حقير بائس آخر لا يُحبه أحد. ستجد الكثير منَّا هنا، أليس كذلك؟

يتجاهله الآخرون.

- ستموتُ وحيدًا مثل بقيتنا. لكننا على الأقل لن نفوقُك سعادة.

يصعد إلى فراشه، ويطلق ضراطًا في اتجاهي، ثمَّ يخلدُ إلى النوم.

سريري ليس مكسورًا، بل مائلًا. أنامُ وقدماي تنخفضان عن رأسي بعدة سنتيمترات. وفي اليوم التالي، أجدُ قطعةً من الخشب، وأُصلحه. يُعجب صديقي، دولال، بما صنعته. ويُخبر الجميع كم أنا رجل نافع، وسرعان ما أُصلِح كل أنواع الأشياء. الصنبور الراشح عند نهاية تجمُّع الأكواخ حيث نصطفُّ لتفريش أسناننا؛ وسُلَّم خشبي مكسور. لستُ خبيرًا لكني أتبين خطواتي لإصلاح الشيء. أفعل كل ما أفعله في الليل؛ وفي أثناء النهار أتدلَّى من الحبل الواهي اللعين، رفقة موقد اللحام، وقطعُ المعدن المُربعة العملاقة التي تُجرُّ على امتداد الشاطئ. نهتفُ ونحن نربو السفينة: «هيه يا، هيه يا، هيه يا». انظروا، إننا نُخرج القمامة. وأقدامنا تغوص في الرمال الرمادية المُشحَّمة. «هيه يا. اسمع، ليس لي أحد في هذا العالم».

أُفكر في العودة إلى الديار، لكن ما من مجالٍ لأُقبل على هذا الفعل. لن تفتح شاتي بابها لي، ليس الآن. وهناك بارقة من أمل أني سأعثر على ميجنا

والطفلة. ولكن كيف؟ يُنهكني العمل في السفينة حتَّى بالكاد أستطيع تحريك ساقي في آخر اليوم. ولم أرَ نافيد حتَّى منذ أن ذهبتُ لإخباره أني لن أنام في دُكانه بعد الآن.

سيحلُّ العيد الأسبوع القادم وسيمحنوننا يوم عُطلة.

أعودُ إلى الشاطئ. صرتُ أجوفَ من الداخل الآن، لقد سئمتُ واكتفيت. ظننتُ حين بدأتُ أن بإمكاني البحث عنهم لسنين، سيغزو شعري الشيب وسأظلُّ عاكفًا على البحث عنهم. لكن عظامي هامدة. أنا أحمق وحظي عاثر. ويتحتَّم عليَّ أن أستسلم. أنا أحمق كبير تزيد حماقتي إذا لم أُدرك أنني لن أعثر على فتاتي وطفلتي، وأن العالم قد ابتلعهما وأنني لن أراهما ثانيةً.

السقيفة غارقة في الهدوء. للآخرين أماكن أخرى يذهبوا إليها. لا أحد سيعود إلى قريته، فهذا مقصد شديد البُعد للأغلبية. لكنهم ليسوا هنا. أزحفُ على حشيَّة القشِّ. والآن أتمنَّى لو أنها ظلَّت مائلة، لأني لا أُطيق سماع صوتِ الدماء تنبض في قلبي.

أُغلِق عيني، مبتغيًا النوم. لعلَّ النعاس غلبني لدقيقة، ثمَّ أشعر بأحدهم إلى جواري، يتنفَّسُ في وجهي. أشمُّ رائحة خمرٍ؛ فأفتحُ عينيَّ وأرى دولال، ثملًا، ووجهه يبعدُ عدَّة سنتيمترات عن وجهي ويضحكُ كالأحمق. أضيق ذرعًا بحياتي كأنني ثمل بدوري، ولذا أقول: «لا أدري حتَّى إن كان طفلي ابنًا أم ابنة».

يومئ.. جدِّيًّا، ليس كمَن يسخر منِّي، ثمَّ يُريني ما في يده.. إنها زجاجة. أرتشفُ منها، فينزل السائل حارًّا لاذعًا، إلى معدتي مباشرةً. وفي غضون خمس دقائق، أصير ثملًا. حمدًا لله. تنحلُّ عقدة لساني وهو لا يُنصت إليَّ على أي حال، لذا أحكي له القصَّة السخيفة بأكملها. يستفيق أحيانًا، ويعلِّق بأشياء من قبيل: «يا لك من أحمق» أو «اللعنة» يا أخي، توقَّعتُ ذلك»، ولكن في الأغلب يظلُّ صامتًا، ولمَّا أفرغ من حديثي، يُردِّد بعضًا ممَّا قلته للتَّوِّ، مثل: «البهاري الوغد المسكين»، أو «رجال الشرطة، إنهم جميعًا محتالين».

بعدما أُنهي القَصَّ، يظلُّ صامتًا لوقتٍ طويل وأظنُّ أنه غطَّ في النوم. أظنُّ أنه يجدر بي النوم أيضًا، فالوقتُ يتأخَّر على أي حال. أُوشكُ أن أتوجه إلى دورة المياه حين ينهض جالسًا في سريره يصيح: «أنا عبقري!... هناك مكان واحد مفتوح في يوم العيد».

يقفز من فوق السرير، ويجذب ذراعي بقوةٍ أضطرُّ معها لصفع يده صفعةً قوية.

نهبط إلى الطابق السفلي ونندفعُ إلى الشارع الخالي، لا عربة ريكاشة ولا بائع سجائر لرؤيتنا ونحن نسير متمايلَيْن. كل شيءٍ غارق في الهدوء، كل الدكاكين مُقفلة، والجميع يستريحون في بيوتهم رفقة آبائهم وأطفالهم. أقولُ لدولال: «الشارعُ أشدُّ حزنًا من السقيفة». أريدُ العودة إلى الداخل، لكنه يقول: «لا تقلق يا أخي، ستشكر لي صنيعي» ثمَّ يُعيد الزجاجة إلى يديَّ، ويجري السائل في دمائي، لذا أتبعه فحسب. أُحدِّث نفسي: مَن يُبالي على أي حال. أحمل الحزن بداخلي، فتعدو الأماكن كلها واحدة.

ندور حول العطفة ونسير لما بدا لي وقت طويل، مع إنني لستُ موقنًا، فكل شيءٍ يتحرَّك حولنا. يتحدَّث دولال طيلة الوقت عن العيد، ونرى دماءً على أرضية الشارع خلَّفتها الأبقار التي ذُبحت لتوِّها. اضطرت شاتي لبيع الثور، وربما جاء به أحد إلى هنا، ثور سمين جيد يُناسب طاولة أحد الأثرياء. وربما يأكل كبده الآن، ذلك الوغد.

أخيرًا نصل إلى المكان المنشود. أرى مبنًى متداعيًا من طابقين وشرفة في الطابق العلوي، تتدلَّى منها السواري على أحبال الغسيل. ندخل المبنى ونجد كرسيًّا تجلسُ حوله بضع نساء، يرتدين ثيابًا تُشبه ثياب مَن سيذهب إلى حفل زفاف، عدا أنكَ لو أمعنت النظر، لوجدتها رخيصة. يقُلن: «عيد مبارك».

أعلمُ أين نحن. كنتُ قد ذهبتُ إلى واحدٍ من تلك الأماكن حين كنتُ صبيًّا، قبل معرفتي بميجنا، كنتُ وشقيقي وبعض الفتيان من القرية. أخبرتهم جميعهم أنني فعلتها، متظاهرًا بأنني رجل حقيقي، لكني عجزتُ. كنتُ شديد التوجُّس من المرأة، وفرجها يُحدِّق إليَّ مثل هُرير. لا يسعني تذكُّر ملامحها، عدا معرفتي بأنها سخرت منِّي بأسلوبٍ مملٍّ، كأنها ترى هذا النوع من الهُراء طيلة الوقت. لعلَّ الكثير من الفتيان عجزوا عن إتيانها في اللحظة الأخيرة. فالأمرُ أصعبُ ممَّا يبدو.

أمكنني تشمُّم رائحة عطرٍ حتَّى في ثمالتي. يصفعني دولال على ظهري، ويقول: «ماذا قلتُ لكَ! المكانُ الوحيد المفتوح في يوم العيد!».

تنظر إلينا السيدة ذات الذراعين البدينتين ومساحيق التجميل التي تُغطِّي جُلَّ وجهها، وتتطلَّع إلينا من أعلى إلى أسفل وتقول: «المال أولًا».

يُجبرني دولال على الدفع. وبعدما أخرجُ نقودي، ينطق وجه السيدة بالبسمة. هناك تجمُّع من الفتيات؛ تقول لنا السيدة أن نختار واحدة. في المرَّة السابقة، لا أتذكَّرُ أنهن كنَّ صغيراتٍ في العُمر. لعلَّه الخمر، ولكنَّ الأمر بُرمته يُشعرني بالغثيان -الأطفال والعطر والسيدة وذراعيها البدينتين. لكن هذه المرَّة لن أتراجع. ستظنُّ أنني المسيح البتول بسبب ما لم أمارسه من جنس. أنظرُ إلى دولال، ثمَّ أنظر إلى السيدة، فأراها تضحكُ الآن، وضروسها الخلفية مصبوغة باللون البرتقالي من مضغ وريقات التنبول. لن أتراجع. أُحدِّق إلى الفتيات، وأبحث عن واحدة لا تُذكِّرني بأي أحد. يختار دولال بالفعل واحدة، فتاة طويلة نحيفة، وها هما يتأبطان ذراعَيْ بعضهما كأنه يعرفها منذ أن كان مقيمًا في قريته. أجدُ فتاتي، ثمَّ يلكزني بمرفقه، ويقول: «تمامًا مثل فتاتك ميجنا، أليس كذلك يا أخي؟ هيا، يا ميجنا، إن بطلَكِ قادم! ميجنا! ميجنا!». يقول اسمها كأنها ستظهر أمامنا لو أنه جهر باسمها عاليًا. فقط لو. يرتشف رشفةً أخرى من زجاجته ويتوارى خلف واحدة من الستائر.

تتقدَّمني الفتاة إلى غرفتها. أحاول أن أُثار بالنظر إلى مؤخِّرتها تتمايل أمام وجهي وهي تصعد السُّلَّم. نتوارى خلف ستارة. أجدُ السرير ضيقًا وعاريًا، إلا من ملاءة وبضع وسائد طويلة. هناك تقويم ومرآة ذات زاوية مكسورة. ثمَّ نستلقي على السرير. أتوغَّل بداخلها، برفقٍ كأنما لم تَمُر أعوام عشرة كرهتُ بها رجولتي. ولمَّا أُوشِكُ على الفراغ منها، أجذبها إلى وأقرِّب وجهها من وجهي، فلا أستطيع رؤية شيء، بل أكتفي بلعق أحمر الشفاه على وجهها، وتذوُّق الجنس في فمها، وأتعلَّقُ بها كأنني أسقط من السفينة وهي من ستنقذني، مثل زورقٍ صغير في بحرٍ هائج.

لاحقًا، تقول: «كانت لي صديقة تُدعى ميجنا».

***

تأتي السيدة، وتقول: «انتهى وقتك». أُخرج آخر ما تبقى من نقودي وأدفع مقابلًا لساعة أخرى، فتواصل الفتاة الحديث. إنها هي. كانت ميجنا صديقتها، صديقة جيدة. تتشاركان القوت. أتحلَّى بالصبر، فلا أريد تعجيلها. لم يُحبها الرجالُ دومًا؛ كان لها لسانٌ طليق. لكنها لم تشكُ يومًا، وظلَّت تُردِّد دومًا أنَّ هذا هو قدرها.

تقول الفتاة: «إننا نأخذ الفُتات، من هنا ومن هناك. ونبعث ببعض المال إلى الديار. أما ميجنا، فكانت تقضي دينًا ثقيلًا، يبتلع كل شيء، ولم تدخر بيزا واحدة قط».

- لمَن تقضي الدين؟

- إلى السيدة. مَن غيرها؟

قضاءُ الدين يعنيْ أن على ميجنا أن تفعل أي شيء يُطلب منها. تُضاجعُ المنحرفين.. العجائز.. رجال الشرطة الذين يحصلون على أوقاتٍ مجانية لكي يدعوا السيدة وشأنها.

أودُّ أن أنتزع جلد وجهي. تُشرق الشمس وتسطع عبر الباب، وهذا يعني أنه لم يتبقَّ لي الكثير، لذا أسألها أخيرًا: «هل قالت أي شيءٍ عن طفل؟».

حدَّقت الفتاة إلى المرآة المكسورة كأنما تتأمَّل منها شيئًا لتقوله.

- لا أدري ماذا حدث للطفل. لكن هذا الطفل هو سببُ دينها للسيدة بكل ذلك المال.

تأتي السيدة مُجدَّدًا، وتقول: «اخرج. عُد حين تملك المزيد من المال. وأخرج صديقكَ أيضًا».

تظلُّ واقفةً في مكانها حتَّى أُجرجر أذيال الهزيمة خارجًا من الغرفة. تُرافقني الفتاة إلى الأسفل. ثمَّ أتبيَّن الفوضى التي أحدثها دولال. أُنظِّفه، مُلقيًا ملء كفِّي بالماء على وجهه. ثمَّ أسألُ مُجدَّدًا: «ماذا حدث لها؟» وأنا أرفعُ دولال وأُقيمُ هيئته، واضعًا ذراعه حول رقبتي. ثمَّ أُكرِّر: «ماذا حدث لميجنا؟».

تواصل الفتاة الحديث بينما نُجرجر دولال إلى الباب، فتقول: «سلبها المرضُ حياتها. ماتت العام الماضي».

تتراخى ذراعاي وينزلق دولال إلى الأرض.

وتقول السيدة: «أنتما.. قلتُ اخرجا».

تُساعدني الفتاة على رفع دولال ثانيةً. فأهمسُ لها: «هل دفنتموها؟».

تُراقبنا السيدة ويدها منبسطة على ردفها. فنَجرُّ دولال إلى الشارع.

تقول الفتاة: «أخرجناها ووضعناها في الماء؟».

- أي ماء؟

تشير باتجاه البحر وتُجيب: «استعرنا زورقًا. وذهبنا جميعًا، كل فتاةٍ من الفتيات».

ثمَّ تركض عائدةً أدراجها، ووقعُ خطواتها رقيق كقدمي فأر.

***

أُهاتف شاتي. وأبكي قائلًا: «إنها ميتة». تُنصت إليَّ شاتي في هدوء. ثمَّ تقول: «عُد إلى الديار».

إنها على حق. يا لها من مُعجزةٍ أني لا زلتُ أملكُ دارًا. يجدرُ بي العودة، والبدءُ من جديد، والتكفيرُ عن ذنبي في مكانٍ آخر. هل طفلي ميت أيضًا؟ لن أعرف أبدًا. لو تسنَّى لي رؤية وجه ميجنا لمرَّة أخيرة. لا وجه يُشبه وجهها في هذا العالم، لا عينان تتراقصان كعينيها، ولا شعرَ يتحرر كشعرها وهي تُخرج رأسها من نافذة سيارة. لمرَّة أخيرة فحسب. ثمَّ أُفكِّر في المرَّة التي ظننتُ أني رأيتها بها، تلك المرأة ذات الملابس الراقية، تلك التي احتالت على عقلي. طيلة كل هذا الوقت.. كانت ميتة، كانت طعامًا للسمك، ولا تحظى حتَّى بقبرٍ تتعفَّن فيه.

***

أعملُ ودولال في الوردية الصباحية. لذا لن يتمكَّن من الذهاب إلى العمل بأية حال من الأحوال. أذهبُ إلى المدير وأختلقُ عذرًا. إنه الإسهال. يُلقِّنني المدير كلماتٍ عن الاقتطاع من أجر دولال ثمَّ أعودُ لمباشرة عملي. عيناي ضبابيَّتان؛ فلا أستطيعُ الرؤية عبر النظَّارات الوقائية. يُذيب موقد اللحام جزئيات المعدن. ثمَّ أتذكَّر القرآن، وأردِّد دعاءً لميجنا. ميجنا التي ماتت من المرض. مرضُ قضائها دينًا كبيرًا. كانت عاهرة في متمَّة الأمر، لكن فقط لأنني السببُ في ذلك. كل القصص التي حلمتُ بها عن حياتها: بدايتها الجديدة في المدينة، والطفل الذي يلتحق بالمدرسة -لا شيء من ذلك كان ليحدث بالمرَّة. هذه الرفاهية اللعينة لا تُكتَبُ لأُناسٍ مثلنا. وإن كان لها حظٌّ في الحياة، فأنا مَن سلبته منها.

تصبُّ الشمسُ لهيبها عليَّ. لا رياح، كل شيء غارق في السكون، وأنا أحترق في الحرارة حرقًا، وذنبُ فتاةٍ ميتة يلتفُّ الآن حول رقبتي.

لا أدري كيف ينقضي اليوم. لاحقًا، نقعد لنأكل الفتات معًا. يستيقظ دولال، ويغمز لي بعينه حين أجلسُ بجانبه. يُخبرني عن الفتاة التي ضاجعها، وكم

كانت شهية، وأن هذا هو أفضلُ عيدٍ حظي به مطلقًا. يقول: «يجدر بهم أن يجعلوها جزءًا من اليوم. تذبحُ بضع بقرات، وتشوي كبدها، ثمَّ تُضاجع بضع نساءٍ حسناوات -هكذا الجميع سعداء. يجدر بي أن أصير رئيس وزراء».

أُحدِّق إلى طعامي وأقول: «أتريده؟ خُذه».

يختطفُ طبقي ويقول: «ماذا جرى لكَ؟ أنال منكَ الويسكي؟».

- بل ميجنا ميتة.

يواصل تناول الطعام: «اللعنة».

- وكانت عاهرة. عملت في ذلك المكان.

- لا مشكلة في كونها عاهرة.

يمضغ طعامه بسرعة، كأن أحدهم سيسرقه من فمه مباشرةً. ثمَّ يُتابع:

- لم يقتل العُهر أحدًا قط.

أقصدُ وجهه بيدي. فيصطدمُ بالأرض القذرة، ممسكًا بفكِّه. ثمَّ أرتمي على الأرض بدوري، وذراعاي حوله، أتحسَّس دماءه، وأنا أهذرُ مثل عنزةٍ والرجال الآخرون واقفون من حولنا يُحدِّقون إلينا.

كُسِرت أنف دولال. أتلفَّظُ بالاعتذار لكنه يُلوِّح مُبعدًا إياي. وهو يقول: «يتحتَّم على المرء فعل هذا أحيانًا». ولاحقًا، حين أوشكنا أن ننام وكان يحشر خرقةً بالية في فتحتي أنفه، سألني ماذا سأفعل الآن.

أمضيتُ طيلة اليوم أطرح على نفسي السؤال نفسه. أُجيبه: «أنتظرُ الموت. لم يتبقَّ لي شيء. فقدتُ مالي وزوجتي وطفلي. والآن صارت يداي مُلطختين بدماء هذه الفتاة. أموتُ، ثمَّ يُنزلني الإله إلى الجحيم، وهذا كل شيء».

يردُّ: «أيها اللعين. لم يكن الخطأ كله خطأك. لكنكَ واقع في ثقب، أستطيعُ إدراك ذلك».

يُدخِّن أحدُ الفتيان سيجارة بِيدِي رخيصة، أستطيع تبين الضوء البرتقالي الخافت. أُغلِق عينيَّ وأنتظرُ النوم، أنتظرُ الموت، ألعن الدماء التي تجري عنيدةً في عروقي. أحسبُ أن الإله جعل قتلنا عسيرًا. يلزم المرء سكينًا أو رُصاصة. حتَّى مع انفطار قلبك، لا تزال مواصلًا الحياة.

***

خطرت على بال دولال فكرة. كنَّا نحمل جزءًا من السفينة من الشاطئ إلى الطريق، قطعة كبيرة من المعدن تنخز أكتافنا. عشرة منَّا على كل جانب من المعدن، ودولال خلفي مباشرةً، وفتًى في المقدِّمة يُحصي الخطوات.

يقول: «علينا العودة إلى الماخور. هذه السيدة تعرف شيئًا».

- لا أقدر على ذلك. بالمرَّة.

لا أُخبره أيضًا أني أقضي طيلة الأيام أُفكِّر في ما اضطرت ميجنا إلى فعله. الرجال الذين تحتَّم عليها مضاجعتهم. وكل الأوضاع التي ضاجعتهم عليها. إنه فيلم جنسي يدور في عقلي، عدا أنه ما من شيءٍ ينتصب فيَّ، بل أُثير اشمئزاز نفسي فحسب. أو ما هو أسوأ. أمضي الليالي في الذهاب إلى الماخور. لا أدخل، بل أدور حوله فحسب. تُضاء المصابيح، ثمَّ تُطفأ. وأحيانًا تستطيع سماع ضحكات النساء تُجلجل في الشارع.

أُدرج هؤلاء الناس في ذهني. هذا الرجل ذو الذراعين الطويلتين، يضمُّ حبيبتي ميجنا إلى ما بين ساقيه، ويدفع بنفسه إلى داخل فمها. هذان الشابان اللذان يتشاركان سيجارة، يتناوبان على مضاجعتها وكل منهما يشاهد الآخر. أُفكِّر طيلة اليوم بهذا، وفي الليل أُعبِّئ مُخيلتي بقليلٍ من المزيد. ولا أُخبر دولال بهذه السموم التي تُلوِّث رأسي.

أقول: «لن أعود إلى هناك. سأقتل تلك المرأة إن رأيتها».

- هيا بنا نقتلها إذن. اقطع رقبة هذه السافلة فورًا.

- أنا مُتعَب. ما عاد بوسعي الشجار.

- هذا كذب يا أخي. لقد كسرتَ أنفي.

أكادُ أضحك، لكن ثِقل المعدن يقتلني.

يمضي دولال قائلًا: «لم يتبقَّ لكَ شيء سوى طفلك».

- لعلَّ الطفل ميت هو الآخر. لم يتبقَّ لي شيء.

- لا تكن أحمقَ. لا بُدَّ أن السيدة تعرف مع مَن تركت الطفل. وأين كانت تبعث بالمال.

هذا حديث معقول. لكنني حسبتُ لمرَّات عديدة أنني أقترب، وأنني سأعثر عليهما الآن، ثمَّ انظر إلى ما صرتُ، أنا نكرة. الكثيرون يبحثون عن أهاليهم في هذه المدينة، لكل واحدٍ منهم حكايته؛ حكاية حزينة عن الافتراق في مهرجان

هندوسي، أو حكاية أخرى عن هروب فتًى واختلاطه بأُناسٍ سيئين. هذا يحدث طيلة الوقت. وأنا مجرَّد وغدٍ نادم وحيد في مدينة من الأُناس المفقودين. لا شيء استثنائي حيال حكايتي. لا يفيض حبي لميجنا عن حُب هؤلاء الناس لذويهم المفقودين. ولا ينتمي الطفل إليَّ حتى، ولم تقع عيناه عليَّ قط. إذن لماذا عليَّ مواصلة البحث؟ ما الذي يجعلني أظنُّ أني سأعثر على فتاتي في حين أن فتيات الآخرين مفقودات هن أيضًا؟ أُوقن أني لا أستحق هذا. وما من شكٍ حيال ذلك.

يُلِحُّ عليَّ دولال. فأسأله أخيرًا: «وماذا يعنيكَ أنتَ في كل هذا؟».

نكاد نصل إلى الآلة الآن، تلك الآلة التي تدُكُّ المعدن. نتخذ بضع خطواتٍ أخرى، ثمَّ يصيح الرجل في المقدمة، وكما لو أنها رقصة جماعية نُرخي أكتافنا عن اللوح المعدني في آن، ونحن نقفز إلى الخلف بينما يرتطم اللوح بالأرض.

يُجيب دولال: «هذا العمل البائس يتكرَّر كل يوم. تأتي سفينة، فنُفكِّكها. أحيانًا يموتُ أحد الرجال، أو يُقطع طرف أحدنا، كأن يفقد ساقًا. إن الوضع هنا سوداوي. لذا إذا أُتيحت لكَ فرصة الخروج من هنا فافعل».

نعود أدراجنا إلى السفينة من أجل لوحٍ معدني آخر. وأقول: «حسنًا. ولكن إياكَ أن تؤمن بأننا سنعثر على ذلك الطفل. لن يقرع الخير بابي ثانيةً».

***

في وقتٍ متأخِّر من يوم جمعة، والمكانُ مكتظٌّ عن آخره. يأتي الرجال ويرحلون ورائحة العرق والشهوة تغرقُ كل شيء. أطلبُ مقابلة السيدة. ولمَّا تأتي للقائي، لا تُميِّزني، لكنها ترى دولال، فتقول: «آه العيد، أتذكَّر. أتريد المزيد؟». تمضغ وريقات التنبول مُجدَّدًا، فتترك صبغات خافتة من الأخضر والبرتقالي على شفتيها.

أدعُ دولال يتولَّى الحديث. وأنا في طريقي إلى هنا، قلتُ: «هذه هي أُغنيتك. تريد شيئًا لتفعله، إذن فلتُغنِّ».

تُثير الندوب في صدري الحكَّة. ثمَّ يمرُّ رجل بجانبي أُقسم إنني رأيته على السفينة. لعلَّهم جميعًا يأتون إلى هنا. والرئيس أيضًا. لعلَّ عاهراته أرفع

مكانة، ولعلَّهم أقل. لن تفهم سلوك الأغنياء أبدًا؛ يُفاجئونكَ دومًا بأنهم أكثر انحرافًا من بقيتنا.

يقول: «إننا نبحث عن إحداهن. ميجنا. اعتادت أن تعمل هنا».

- لا أعرف أحدًا بهذا الاسم.

تبصقُ وريقة التنبول في البالوعة. ثمَّ تُضيف: «أنا مشغولة. إذا كنتَ لا تريد فتاةً، فاغرب عن وجهي».

تستدير مُغادرة، فيشدُّها دولال إليه. تبدو ذراعها غضَّة كأنه يعتصر رغيفًا من خبز.

يقول: «أيتها السافلة. نحن نعرف أنها عملت هنا. نعرف أنها عملت هنا حتَّى ماتت. لا جدوى من الكذب».

ترمقه من أعلى إلى أسفل. ثمَّ تردُّ: «أجل، عملت هنا. لكن لم يقتلها أحد، اسأل الجميع. لقد مرضت. حتَّى إنني دفعتُ أجرة طبيبها. وبما أنكَ صرتَ تعرف الآن، اخرج من هنا». وهي تُشير إلى الزقاق.

لكن هذه ليست سوى البداية.

- أخبرينا إذن عن المال.

- أيُّ مال؟

- المال الذي اقترضته.

يُحكم قبض أصابعه على ذراعها، ويصير الآن وجهها قرمزيًّا منتفخًا.

- اسمع يا ابن العاهرة أنتَ. ابعد يديكَ القذرتين عني. أعرف أين تعمل. وسأُخبر الجميع. أعرف بقذارتك. أتريدني أن أُخبر الجميع؟

تغرق في الضحك، وتُرطِّب فمها ببصقة.

يترك دولال ذراعها ثمَّ ينظرُ إليَّ. أرفع كتفي في غير كتراث. أنا لا أهتم.

أقول، وأنا أقفُ بينهما: «اسمعي، لسنا هنا لإفساد عملك. أخبرينا فحسب عن الطفل -نعرف أنها أنجبت طفلًا».

تفرك ذراعها، وهي تُوشك أن تبتعد عنَّا، ولهُنيهة أحسبُ أنها ستواصل الضحك وتُخبرنا أن نغرب عن وجهها، لكنها تتوقَّف وتلتفُّ إليَّ.

تسحب نفسًا عميقًا.

- كانت الطفلة هنا. أنا أُخبركَ فحسب لأنها تُسبِّب من المتاعب أكثر ممَّا تُفيد.

لأنها! فتاة! يتوقَّف قلبي. أموتُ، هنا تمامًا أمام السيدة.

- لكنَّ العاهرة الأخرى أخبرتني أنها كانت في مكانٍ آخر.

تضحك السيدة، وتقول: «إنهن يُخبرنكَ ما أودُّ منهن أن يُخبرنك به. أتظنُّ أني سأدعُ فتاةً ترحل؟ فتاة ستخدمني وأنا في شيخوختي؟ سأتضوَّرُ جوعًا بهذا القدر الكبير من الغباء».

- أين هي؟

تبتسم اللعينة كأنها تستمتع بتعذيبي، ثمَّ تقول: «لقد رحلت».

- ماذا فعلتِ بها؟

تبصق، ثمَّ تردُّ: «نويتُ التخلُّص منها. فقد تسبَّبت لي في الكثير من المتاعب، دائمًا تبكي أمها. ثمَّ جاء رجل، ووضع عينيه عليها».

تُلوِّح بذراعها ضاربةً الهواء، ثمَّ تمضي:

- عزم على الاحتفاظ بها، لا أدري ممَّا كانت تشكو. ثمَّ بالأمس حلقت شعرها بأكمله. تعرف اللعينة أين تجد المقص، لكنها بدت مثل دجاجةٍ صلعاء، تلك العاهرة الصغيرة.

أتلوَّى على نفسي من شدَّة الألم ثمَّ أتقيأ في الشارع.

تبصق السيدة عند قدميَّ، وتقول: «اخرج من هنا، ليس لديَّ أي شيءٍ لك».

ينهمر المطرُ في أوله غزيرًا، كأنما يرشُّ به أحد من السماء. وأخيرًا يُناكد الغضبُ جسدي فأرفع رأسي وأُلقي بها في بطنها. وأسحق بطن السيدة بقبضتي، يسترجع رأسي ذكرى ميجنا والبهاري وشاتي وأبي الذي حملني على حَفْر الكَنيف، وبذرتي الصغيرة المسكينة التي كانت في هذا الجحيم طيلة الوقت، بالكاد تتجاوز أطراف أنامي، حتَّى ارتطمت السيدة بالحائط والدماء تتقرقر على شفتيها، حينها تقول: «اذهب إلى شاطئ يُدعى «بروسبيرتي». ستجدُ فتًى يتسكَّع هناك، إنه شاب. ابنتُكَ برفقته».

***

7. ابنتي تسقط من السماء

أركضُ ودولال عائدَيْن أدراجنا طيلة الطريق والمطر المنهمر كنيرانٍ تتساقط على ظهري وندوبي تنبض بالدماء. يُبطئ دولال متوقِّفًا، ويديه على ركبتيه، لكني أقول: «هيا، علينا أن نجد ذلك الفتى». لن أسمح لنفسي بالتفكير في أي شيءٍ عدا العثور عليه. نركض على امتداد الطريق صعودًا وهبوطًا، نستفسر عن أي ترسانة تحمل اسم «بروسبيرتي». نصيرُ أشدَّ بللًا من الكلاب ما إن نصل إلى جمعٍ من الرجال يلتفون حول بعضهم في الظلمة والمطر. ثمَّ يسأل دولال: «ماذا يحدث؟».

يردُّ أحدهم: «أتعرف ما الذي يفعله هؤلاء الأغنياء؟ يُرسلون شاحنة مُكيفة الهواء لنقل قطعة من الأثاث. أجل، السفينة هناك، هناك كُرسي أسود كبير، أكبر من أي كُرسي رأيته في حياتي. يبيعه المالك إلى ثري أمريكي، ولا يسمح حتَّى لذاك الشيء أن يتعرَّض للهواء، بل يريد نقله إلى دكًّا كعروس، مُغلَّف ومحميٌّ من الحرارة. أتُصدِّق هذا؟ يحصل كرسي على حياة أفضل منَّا».

يُعلِّق دولال: «لا نريد إثارة متاعب، إننا نبحث عن فتى فحسب».

- سيموتُ أحدهم وهو يُخرج هذا الكُرسي.

يخطر ببالي أننا نموتُ دومًا.. ولهذا السبب نحن هنا. إننا موتى حتَّى ونحن أحياء.

يستسلم دولال قائلًا: «هيا بنا نخرج من هنا».

لكني أعاجله: «علينا أن نجد الفتى. لا بُدَّ وأنه هنا».

لا أُبالي بأمر هذا الكُرسي ولا بأمر الأحمق الذي ينقله إلى أمريكا. ثمَّ أقول للجميع: «فتى! إني أبحث عن فتى يتسكَّع هنا».

لا أحد يُنصت. أرفع صوتي، فيُجيب أحدهم: «اسأل سليم، هو المسؤول هنا».

يُشير إلى مقدمة الجمع. ألحق ودولال بالرجال على امتداد الشاطئ حتَّى ينعطفوا إلى زقاق. نتجاوز بضعة أكواخٍ وندخلُ إلى حجرةٍ طويلة. في الداخل، نجدُ فوضى من الأذرع والسيقان. يُعاني الجميع هنا من إصابةٍ ما. يكشفون لي عن أعضائهم المبتورة وندوبهم. يجري الزرنيخ وكل السموم في عروقهم ويُغطِّي جلودهم. إذن هكذا سينتهي بي الحال. حتَّى شاتي لن تقبل

بي وأنا على هذه الحال، ولا حتَّى هي، القديسة التي تغفر كل شيء. لا يسع المرءُ أن يُحب رجلًا مُحطَّمًا إلى تلك الحالة.

أما سليم فهو رجل ضخم الجثة، له ذراعان طويلتان وصدر تُغلِّفه العضلات. يقول بأنهم سيحملون الكُرسي على امتداد السفينة ويُنزلونه إلى الأسفل. في الصباح، حاملين الكرسي عاليًا فوق رؤوسهم، سيسيرون على امتداد الشاطئ إلى المدينة. وهناك فتاة أجنبية ستُصوِّر الحدث كله وتعرضه على التلفاز. أواصل الصياح بأمر الفتى، وأقول للجميع: «إنه يعرف أين ابنتي». يتطلَّعون إليَّ كأنما أجلبُ الجنون إلى داخل الغرفة. أحاول دفعهم للوصول إلى سليم، ولمَّا أجده، ينظر إليَّ من أعلى إلى أسفل، ويقول: «هناك فتًى، لعلَّه هو. تعالى معنا إلى الشاطئ».

سرعان ما اتخذنا طريقنا إلى الشاطئ، نقبضُ على لمبات الكيروسين، والمصابيح اليدوية، أيَّما شيء يُمهِّد لنا الظلام. يهطل المطر غزيرًا حتَّى بدا كل شيءٍ ضبابيًّا، وما عاد بوسعنا رؤية ما يزيد على بضع خطواتٍ أمامنا. نجد بوابات الترسانة مُقفلة لكن كل ما علينا فعله هو الدخول إلى الماء والعبور.

- أيُّ سفينة؟

يُجيب سليم: «السفينة الجميلة. بيضاء كأنها متأنِّقة للذهاب إلى حفل».

يحمل سليم أحد الرجال المُصابين على ظهره كأنه ريشة. نخوض الماء، عابرين بمؤخِّرة ناقلة، ثمَّ مارين بزوجٍ من الرفَّاسات في المراحل الأخيرة من التفكيك، وأخيرًا نراها، سفينة سياحيةً صغيرة نصف مُفككة، وأهم ما يُميزها هو الجمال.

نسأل سليم: «ماذا نفعل الآن؟ أين الفتى؟».

يُجيب صائحًا: «مهلًا! أين ذلك الفتى؟».

لم يره أحد. ننتظرُ خروج الكرسي.

- انظروا! هؤلاء الرجال يبنون منحدرًا إلى منتصف الطريق إلى أعلى السفينة لأن الكُرسي ثقيل جدًّا.

نقف متكاسلين وننتظرُ حدوث شيء. يُرفع المطرُ لبضع دقائق، ثمَّ يهطل زاخرًا ويُلقي برصاصاتٍ من الماء على رؤوسنا. سرعان ما تبدأ دُكنة السماء تستحيل إلى صُفرة وها هو الصبح على وشك أن يتنفَّس، وما إن يبدأ

الضوء يشقُّ طريقه إلى مساحتنا الصغيرة من الشاطئ، نرى شيئًا يخرج من السفينة. يصيح سليم: «إنه هنا. ها هو الكُرسي قادم!».

حُمِّل صندوق على المنحدر. يُمسك به ستةُ رجالٍ، وأحدهم يصيح. الآن وعمَّ ضوء الصباح المكان، أبدأُ في اتخاذ طريقي إلى المقدمة لأرى إن أمكنني العثور على الفتى. ولكن بدلًا، أرى امرأةً. التصق شعرها بظهرها وتصيحُ بالرجال الحاملين الكُرسي. نقول: «يا الله». يُقذف الرعب في قلوبنا ونحن نشاهد هذا الصندوق كجلمود صخرٍ يتدحرج على المنحدر. تزداد سرعته الآن، أسرع ممَّا يجدر به، ونحن نشاهده مسرعًا، متدحرجًا بعيدًا عن الرجال، وبعد ذلك، كأنه قطعةُ صابون، ينزلق من على المنحدر، ونركضُ جميعًا إلى الوراء حتَّى نسمعَ ارتطامًا، شيء صاخب ومدوٍّ دفعنا إلى الصراخ في وجهه كأنه يعزم على ابتلاعنا أحياء.

نتحلَّق حوله وأرى قطعًا من الكُرسي الأسود متناثرة مثل حبات سمسمٍ هائلة. أرى امرأةً، شعرها ملتصق بوجهها، وسيل من دماءٍ يتقاطر من رأسها، ثمَّ فتًى عالق أسفل الصندوق، ثمَّ طفل آخر، برأسٍ نظيف محلوق، في ذلك الحين بكيتُ صائحًا: «فتاتي.. فتاتي.. فتاتي». لأنه حتَّى دون خصلات شعرها، أُدرك أنها ابنتي، ذاك الوجه، ذاك الوجه المُبارك الذي ظننتُ أني لن أراه ثانيةً.

***

أترى الآن لماذا اضطررتُ إلى إخباركَ يا إيلاجا -أو بالأحرى، لماذا اضُطرَّ هو إلى إخبارك؟ لم أكن الوحيدة في شيتاجونج في رحلة بحثٍ عن النفس. لم أكن الوحيدة التي شعرت كأنها الإنسانُ الأوحدُ في العالم. طيلة الوقت الذي قضيته هناك، وأنا أعقد الصداقة مع مو وأتعرَّف العمال على الشاطئ وأقعُ في حبك، كان إلى جواري تمامًا، يحمل في قلبه سِرِّي مثل تميمة تتدلَّى من رقبته.

حان الآن وقتُ الالتفات إلى أمرنا نحن، إلى أيامنا على الشاطئ، ولفقَّاعة النعيم التي لم أتمالك نفسي من فرقعتها.

***

قدومك!

أتعلم يا إيلاجا أنني سُمِّيتُ تيمنًا بالأميرة العباسية زُبيدة بنت جعفر، وهي التي ألهمت مَن دوَّن «**ألف ليلة وليلة**»؟ إن أمي، والتي يُناديها الجميع باسم مايا لكن اسمها الحقيقي هو شهرزاد حق، هي نفسها سُميت تيمنًا براوية تلك الملحمة العظيمة، الأميرة الفارسية شهرزاد. اسم منحه إياها والدها إقبال حق؛ والدها الذي مات بنوبةٍ قلبية حين كانت أمي في السادسة فحسب. أتعلم أن زبيدة بنت جعفر نفسها لم تُسمَّ زبيدة عند ولادتها، بل سُميت سُكينة. واسمي عند الولادة -حسنًا، لن أعرفه أبدًا، أليس كذلك؟ دار جدال لا بأس به بشأن ما إذا كان يجدر بي -مثل أمي والكثيرين ممَّن نعرفهم- أن أحظى باسمٍ مستعار وآخر رسمي. حظوة اختيار الاسم الذي منحته إياي، دادو، جدتي لأبي. اختارت اسم «بتول» وهو ما يعني في البنغالية «دمية»، ولم تقنع بتغيير رأيها، حتَّى بعدما اعترضت أمي أنه ما من ابنةٍ لها قد تُجيب على اسمٍ معناه «دمية».

وسعيًا لتخليص الاسم من معناه، أجرى والداي عليه المزيد من الاختصارات، و«بتول» صارت «بوتلي».. «بوتسي».. «بوو».. «بوتلا».. «بوتلو».. و«بطاطا»، حتَّى علق أخيرًا اسم واحد فحسب: بووتس. إن بووتس هي الفتاة التي كُنتُ عليها في الديار، حين لا يكون من أحدٍ سوى والديَّ وأنا. بووتس هي ما دأبت دادو ونانو والخادمات على مناداتي به. وحين يأتي أصدقائي للزيارة، أبذل قصارى جهدي لأتأكد أن لا أحد سيناديني من المطبخ

أو يزل لسانه بأن لي أشدَّ الأسماء المستعارة إحراجًا في العالم. وفي المدرسة الثانوية، أعلنتُ حذرًا على اسم «بووتس»، إذ صار اللقب وقتذاك يثير حنقي، امتثل أبواي لمطلبي، واستقررنا على تصغيرٍ لاسمي الحقيقي، زي، وهو نفسه الاسم الذي ناداني به راشد وكل أصدقاء المدرسة وحتَّى بعض الناس الذين عرفتهم في الجامعة والدراسات العليا.

في لحظةٍ ما من الساعات الأولى لمقدمكَ إلى شيتاجونج، أذكر أني أخبرتُك باسمي المستعار. رددتَ الاسم بصوتٍ مرتفع بضع مرَّاتٍ. بتول، بتول، بتول. علَّها النبرة المُدهشة التي جعلت منها كلمة أرقَّ وأعذب حين تخرج من بين شفتيك، علَّه إبراز المقطع الثاني، وأنها لا تحمل لديكَ المعنى التافه نفسه لديَّ. بعدما سمعتُكَ تنطقه، بدأتُ أهيم بالاسم، حتَّى إنه صار لاحقًا النَّسق الذي أُشير به إلى نفسي. إن زي هي الفتاة التي كانت عروسًا ذات سلسلةٍ ذهبية مربوطة إلى رأسها؛ أما بتول فهي الفتاة التي مقتت رائحة الحنَّة على يديها وتركت المنزل لتعثر على رقعةٍ متجدِّدة الهواء بين أكوام قمامة العالم؛ بتول هي الطائر المُهاجر جنوبًا بحثًا عن مناخٍ أدفأ، وفضاءٍ تفرد فيه جناحيها.

***

باكرًا في الصباح عاودتَ الاتصال بي؛ بقيتُ مستلقيةً على الفراش أشاهد السماء تُشرق بالصباح عبر النسيج الرقيق لناموسيتي.

- مرحبًا. أنا إيلاجا.

بدوت بعيدًا مختلفًا. ثمَّ سألتني بنبرةٍ رسمية:

- كيف حالكِ؟

أجبتُكَ وأنا أحاول ألا أبكي: «أنا بخير».

- آسف لأنني استغرقتُ وقتًا طويلًا لأعاود الاتصال بكِ.

- أكنتَ مشغولًا؟

- لا.

صارحتني نبرةُ صوتكَ بكل شيء. لستَ مشغولًا، بل غاضبًا. خائب الأمل. ماذا عساي أقول لكَ الآن، وقد عرفتُ كم أخطأتُ في حقِّك؟ بدأتُ أحكي لكَ عن ديرا بوجتي، وأترك لكَ فترات صمتٍ طويلة تُغمغم فيها بتعاطفكَ مع فشلي، ومع زمزم، لكنكَ لم تدع للصمت مجالًا في حديثنا. ثمَّ سألتني عمَّا ارتديتُه في

زفافي، ووصفتُ لكَ في خِزيٍ الساري المُزركش الذي أُلقي بثقله الشديد على كتفيَّ وحزَّ خصري.

ثمَّ سألتني أخيرًا: «هل لي أن أراكِ؟».

فانتقلنا إلى حاسوبينا المحمولين، ولاحظتُ أنكَ أطلقت العنان لشعرك حتَّى غطى أذنيكَ، ثمَّ ومض شيء في التجويف أعلى ياقتك -حجر مسامي رمادي مُعلَّق في سلسلة من جلد صناعي حول رقبتك. كنتُ أتحدَّث إليكَ ومشغولة بتدوين الملاحظات عن كل ما أراه، ولسببٍ ما عجزتُ عن فهمه، ما لاقيتُ هذا التغيير إلا خيانة، إيذان بمرور الزمن، زمن فعلنا فيه كل شيءٍ عدا أن نكون معًا. وما من شكٍ أن هذا الخطأ يقع على عاتقي. لقد تزوَّجتُ راشد -وكل ما فعلته أنتَ هو إطالة شعرك وارتداء سلسلةٍ تتخلل حجرًا.

تأخَّر الوقت متى أنهينا حديثنا. وعدتُكَ بالاتصال مُجدَّدًا في اليوم التالي. وفي اليوم التالي، كان حديثي مُخططًا له. وجاء أول ما قلته لكَ: «أرجوك، تعالَ إلى بنجلاديش». فأجبتني أنتَ: «لا أظنُّ ذلك يا زبيدة». عرضتُ عليكَ كل الحُجج التي أعددتها مسبقًا: قلتُ لكَ إن هذا بسبب البيانو، وأن عليكَ أن تسمع نغماته بنفسك، وأنكَ لن تحظى بفرصةٍ لرؤية بيانو مُثبَّت إلى أرضية سفينة أبدًا، ثمَّ تشاهد السفينة تتفكك. قلتُ لكَ: «هذه لا بُدَّ واحدة من أعجب الأشياء وأغربها التي يتسنَّى للمرء أن يشهدها».

إن النوتة الموسيقية لا تزال هناك -تركتها في موضعها تمامًا كما وجدتها، محشورة بين المفاتيح والغطاء. سيتعيَّن عليك المجيء وسيتعيَّن عليكَ أن تعزف تلك الموسيقى على ذاك البيانو. ليس لديَّ فكرة عمَّا اعتمل في ذهنك، لكنكَ عارضتَ لوقتٍ طويل، ولبقية تلك المكالمة الهاتفية ومكالماتٍ أخرى عديدة تبعتها، وواصلتُ أنا الضغط عليكَ، ثمَّ لِنتَ أخيرًا. ولمَّا وافقتَ ظننتُ أنكَ قد تُحدد موعدًا في المستقبل البعيد، واستعددتُ للجدال مُجدَّدًا، ولأُذكِّركَ أن البيانو قد لا يبقى طويلًا على متن جريس، لكنكَ قلتَ إنكَ ستصل في الأسبوع التالي. أعلم الآن أنكَ من صنف الأشخاص الذين يسعهم فعل ذلك، النهوض والتجسُّد على الجانب الآخر من العالم في فترةٍ وجيزة؛ لكنني في ذلك الوقتُ أذكرُ دهشتي، ثمَّ حسمي الأمر، ليس للمرَّة الأولى -وحتمًا ليس للمرَّة الأخيرة- أن كل شيءٍ حيالكَ مصبوغٌ بالسحر.

***

في مطار شيتاجونج، شاهدتُكَ تساعد رجلًا في تحميل صندوقٍ على شكل مُبرِّد إلى حامل مُتحرِّك، ثمَّ رفعتَ حقيبتكَ من على سير استلامِ الحقائب وجررتها خلفك. كان من السهل عليَّ رصدك خلال ألواح الزجاج التي تفصل الواصلين عن المنتظرين على الجانب الآخر. ارتديتَ قميصًا ذا ياقةٍ مستديرة والسروال الفضفاض نفسه الذي رأيتك ترتديه في ذلك اليوم الأول. ألفتُكَ تعبر قُمرة الجمارك حين تطلع إليكَ ضابط من رأسك إلى أخمصك وأشار لكَ أن تتحرَّك إلى أحد المكاتب. وإذ ساورني القلقُ من توقيفك، شققتُ طريقي نحوكَ ولوَّحتُ لكَ بذراعيَّ.

تطلعتَ إليَّ والتقت عينانا عبر الزجاج. دسَّ ضابط الجمارك يديه عميقًا في حقيبتك وبدأ يُخرج حاجاتك. سروال. قميص. ثمَّ فتح العُلبة ذات السحَّاب التي تضمُّ لوازم النظافة. معجون أسنان. أنتَ وسيم.. هذا كل ما فكرتُ فيه وأنتَ تنظر إليَّ، يميل رأسك إلى الجانب. تبتسم لي في ترحيب. صندل. طرد مُربع ملفوف بقماشٍ أحمر. حاولتَ أن تُوقفه لكنه هزَّ رأسه رافضًا، ومزَّق غلاف الهدية ليفتحها. انسابت بلوزة حريرية بلونٍ أزرق داكن من الورق إلى يديه. وإذ استشعر الحرج، مرَّرها إليكَ. فالتفتَ إليَّ ممسكًا بها وأريتني أنها هدية لي. ابتسمتُ. شاكرةً لكَ هديتك. ثلاثة كتبٍ ذات أغلفة ورقية. ملابس داخلية. قميص كتاني. وصندل آخر. كان قلبي يرتجف في صدري. ثمَّ شامبو. وفي قاع الحقيبة، وجد الضابط حاويةً ثقيلة ذات غطاءٍ أخضر مُقبَّب. أخرجها من الحقيبة ودفع بها إليكَ. حاولتَ أن تشرح له.. لكنَّ الضابط هزَّ رأسه رافضًا أن يسمعك. رفعتَ يديك أن انتظر من فضلك. ثمَّ أدرت الغطاء لتفتحه. ورفعتَ الإبريق وسكبتَ قليلًا من محتوياته في الغطاء المقلوب. ثمَّ عرضته عليه. ماذا يحدث؟ انتظر من فضلك. أشرتَ إلى الضابط ليضع إصبعه في السائل ويتذوَّق، ففعل. ابتسمتَ، ثمَّ ابتسم الضابط. مُعيدًا تغطية الإبريق. ثمَّ ربتُّما على ظهري بعضكما، ورتَّبت خصلة شعرٍ خلف أذنك، وأنتَ تعيد حزم حقيبتك. سروال. قميص. معجون أسنان. صندلان. بلوزة حريرية. وشراب قَيقَب. شاهدتك تُعيد كل شيءٍ إلى مكانه، وتُغلق السحَّاب حول الحقيبة وتشرع في السير نحوي.

تدربتُ مرارًا وتكرارًا على ما سيحدث حين تصل.. ما سنقوله لبعضنا. وآمنتُ أن ما مرَّ بنا من وقتٍ سيُباعد بيننا ويُقرِّبنا في الآن نفسه، خُدعة أحدثتها الانفصال الطويل وعناوين الأغنيات المُشفَّرة. لمَّا وقعت عيناي عليك،

وأومأتَ إليَّ عبر الزجاج، فُوجئتُ بأمر واحد لم أتمرَّن عليه، الأمر الوحيد الذي لم يكن متوقَّعًا مطلقًا. لقد تدرَّبتُ على الدفء، وتدرَّبتُ على الأحاديث المقتضبة، وشيء من الغرابة، وبعض الإحباط أيضًا (امرأً تُفكِّر فيه غالب الوقت، ويُصوِّره خيالكَ في مواقف متنوعة، أنَّى له أن يكون عند حُسن ظنك؟)، لكنني ما تدربتُ على ما حدث، وهو: الرعب. حين رأيتُكَ، شعرتُ أنكَ عائدٌ إليَّ بعد انفصالٍ تسبَّبت فيه حرب؛ شعور يحمل معانٍ عدَّة في آن، شعور بأنني يائسة شجيَّة، مُضطربة الأحشاء، مُثقلة بالرغبة، ومنبوذة كليًّا. شعور مُستبعد، شعور لا يُعقل، أن تخاف أحدًا هكذا خوف، أن تتقزَّز نفسك، لحظة وصوله، إزاء فكرة ابتعاده مُجدَّدًا. وها أنتَ تقترب مني، أُفكر في انفصالي عنكَ، أُفكر في أنني لن أقدر على تحمُّل هذا الانفصال مُجدَّدًا، وأن المسافة بيننا الآن، تلك الأمتار العديدة، هي مسافة هائلة؛ وكلما تقلَّص الفضاء بيننا، وكلما برزت ملامح وجهك، رأيتُ نورًا في أفق رؤيتي، واستشعرتُ رشاقة الطفو، وتضاعفت صورتك في عينيَّ الدامعتين شوقًا للاستزادة من رؤيتك؛ ثمَّ التحام جسدينا وأنتَ تُعانقني من فوق السور الذي يفصل بيننا.

تدرَّبتُ على فن المحافظة على المظاهر، وتساءلتُ عمَّا إذا عرفتَ أنني حين حييتُكَ في تهذيبٍ، إنما أردتُ أن أغرز أظفاري في خدَّيكَ المُلتحيين. لعلَّي أخبرتك لاحقًا أنكَ حين مِلتَ على السور وعانقتني، تملَّكتني رغبة في إلقاء اللوم عليكَ في كل شيء قد حدث في العام الماضي؛ لأنه لولاك، لكنتُ شخصًا أسعد، لكن في حضرتك، تصير السعادة معنوية -وقد سلبتني أنتَ هذه السعادة. لم أُخبركَ بأيٍّ من هذا. أظنُّ أني أتيتُ بكل ردود الأفعال الملائمة، فأبقيتُ قبضتي لنفسي، وأخفيتُ الكلمات تحت لساني، وظلت أظفاري في مأمنٍ بعيدة عن خدَّيك.

قلتُ: «مرحبًا»، وأنا أتنفَّسُ في كتفك، وألامس شعركَ المُرتَّب خلف أذنك.

اضطررنا إلى السير جنبًا إلى جنب لوقتٍ طويل حتَّى وصل السور إلى نهايته. ثمَّ أشرتَ إلى واحدٍ من الكراسي البلاستيكية. وقلتَ: «دعينا نجلس هنا لهُنيهة. ومرحبًا». أخذت بكلتا يدي واحتضنتهما معًا بين راحتيكَ. كنتُ واعيةً لهيئتك، لحضورك الجسدي الذي بدا أنه يُقلِّص كل ما حوله. جذبتُ يديَّ بعيدًا؛ أعرف أن الناس سيُحدِّقون إلينا، ولمَّا حاولتُ أن أطرق إلى الأرض، التي دُنِّست بأعقاب السجائر، تبعتني عيناك. وقلتَ مُجدَّدًا: «مرحبًا».

بقينا جالسين على الكرسيين البلاستيكيين لبضع دقائق، لا نتحدَّث. ناولتُكَ زجاجة مياه فأدرتَ الغطاء وأمسكت بها لبعض الوقت قبل أن تأخذ رشفة. ثمَّ استقمتَ في جِلستكَ وقلتَ: «لم أكن أنوي المجيء. كدتُ أن أرتدَّ على عقبيَّ في المطار وأعود إلى المنزل».

في تلك اللحظة، مرَّ بنا السيد علي. نهضتُ وقدَّمتُكَ إليه. كان مجيئه إلى المطار ليستقبل مشتريًا آخر مُحتمل، بعدما استحوذ السيد ريزا، المشتري الأول، على معظم المعدات في جريس، مُخلِّفًا الأجهزة الكهربائية والأثاث والبيانو. تصافحتما. ثمَّ شرد ذهني لهُنيهة قبل أن أسمعكَ تقول: «وشكرًا لكَ على السماح لي بزيارة سفينتك».

- آه، ستزور جريس. لم تُخبرني الآنسة زُبيدة.

أردتُ أن أفاتح علي في الأمر على مهلٍ، ما إن يعتاد على فكرة وجودك في الأرجاء.

- آسفة يا سيد علي. آمل أنه لا بأس بالأمر. إن صديقي عازفُ بيانو، ولهذا فكرتُ في أنه قد يرغب في رؤية الآلة على جريس.

أجاب علي وهو قابض يديه خلف ظهره: «أجل، أجل بالطبع. أهلًا بكَ. لكن لا بُدَّ أن تمنحاني بعض الوقت لأُرتِّب للزيارة».

قلتُ إننا بلا شكٍ سننتظر إذنه. فهي سفينته هو قبل كل شيء.

فكرتُ قبلًا في لقائك في دكًا لأُريكَ المعالم السياحية: مبنى لويس خان البرلماني، الذي يفيض بالزوايا الحادة الرمادية، أو ضفَّة نهر «بوريجانجا»، وهي ما منحت دكًا ذات يومٍ طموح أن تُطلق على نفسها بندقية الشرق؛ والكثير من المعالم الشخصية، المقبرة التي دُفن بها جدِّي، والمدرسة الراقية التي التحقتُ بها ما إن انتقلتُ إلى جولشان، لكنني قررتُ لقاءك في شيتاجونج. حين أُفكر في الأمر الآن، يتراءى لي استحالة حثِّك على الزيارة لو كنتُ مقيمةً آنذاك في دكًا، سواء كنتُ متزوِّجة أم لا. ففي هذا المكان الآخر وحده أجدُ لقاءنا، وكل ما عقبه، ممكنَ الحدوث.

خطونا إلى رطوبة الصباح الثقيلة، نتدافع عبر الحشود حتَّى وصلنا إلى السيارة. شاهدتُك وأنت تضع حقيبتكَ في صندوق السيارة، ثمَّ تنزلقُ إلى جانبي في سكون المقعد الخلفي.

قلتُ: «شكرًا لكَ.. على القدوم في النهاية. وعلى أنكَ لم ترتد على عقبيك».

وبما أنني لم أدرِ ماذا يُفترض بي أن أقول، سألتُكَ: «هل شاهدتَ أي أفلامٍ على الطائرة؟».

أخرجتَ كتابًا من حقيبة كتفك.. كان رواية أنَّا كارنينا.

أدركتُ في تلك اللحظة أنكَ كنتَ عازمًا دومًا على القدوم، وأنكَ كنتَ تنتظر، طيلة كل هذه الشهور، وصول دعوتي.

علقت السيارة على الطريق الواصل خارج المطار. أنزلتَ زجاج النافذة وسمحتَ للهواء بالدخول، هواءً دافئًا مُشبَّعًا بالرطوبة. ثمَّ عبر بنا قطار، مطليٌّ منذ وقتٍ طويل باللونين العاجي والأزرق، والرُكَّاب يقفون بين القاطرات ويميلون عبر قضبان النوافذ. تحرَّكت السيارة وأغلقتَ النافذة.

قلتُ: «حدث الكثير من الأمور».

فأجبتَ بصوتٍ فاتر: «تزوَّجتِ».

- أجل، أجل تزوَّجت.

تباطأت السيارة حتَّى توقَّفت مُجدَّدًا عند الانعطاف إلى مدينة شيتاجونج. أردتُ أن أصيغ اعتذرًا عن التسرُّع في زواجي من راشد، لكن لو شرعتُ في الاعتذار، فربما أعجزُ عن التوقف؛ وربما أستمر وأعتذر عن المظهر البائس لبلادي، ولوحات الإعلانات الرخيصة للصابون الحلال والهواتف المحمولة ومكيفات الهواء، وتشابُك أسلاك الهواتف المُعلَّقة بين الصواري على جانب الطريق، والطرق نفسها، تُضيِّق من اتساعها القمامة والأُناس الذين يجدلون أطراف شعورهم بأيدٍ ممتدة، كاشفين على أماكن فارغة حيث كان يجدر بأجسادهم أن تجلس، والهواء نفسه، رائحته وقوامه، مُثقل بالفرص الضائعة، كل شيءٍ غارق في البلى والفوضى ولا يحمل قدرًا من جمال؛ وأعتذر أيضًا عن أني لم أنتظرك، ولم أؤمن بأيامنا القليلة معًا وافترضتُ أنها لا تُمثِّل لكَ شيئًا، لكني لو لم أفعل ما فعلت، لربما عجزتُ عن التوقف ولربما بدأت علاقتنا وانتهت بلا شيءٍ سوى سلسلةٍ من الاعتذارات، وهذا هو تحديدًا سبب إعراضي عن أن أكون حبيبتك، هذا لأن كل شيءٍ حيال حياتي يبدو بائسًا حين أتطلَّع إليها في عينيك.

فضَّلتُ الاسترخاء في مقعدي، أنتظر انقشاع الزحام لكي يتسنَّى لي أن أُشير إلى بعض المعالم الأثرية على الطريق.

ولمَّا توقفنا على الطريق الدائري الرئيسي لشيتاجونج، فكَّرتُ في «رجل الدمامل»، وتمنَّيتُ ألا يظهر أمامنا اليوم. ليس لأنني لن أقدر على تحمل الأمر، وهو رؤية رجلٍ عارٍ تبرز أورام صغيرة من كل سنتيمترٍ في جسده، بل لأنكَ ستضطر إلى مشاهدتي أشيح بوجهي وأرفض النظر إليه، وهو أمر سيُخبرك الكثير -بل سيُخبرك كل شيءٍ عن مكاني في هذا العالم.

توقَّفنا.. تغيَّرت إشارات المرور، وتعالت الأبواق من خلفنا. ثمَّ قلتَ: «أخبريني مُجدَّدًا عمَّا حدث لرحلتكِ إلى باكستان».

بينما أسترجع القصَّة، شعرتُ بامتداد الزمان امتدادًا مؤلمًا بين اللحظة التي ودَّعتُكَ فيها في بوسطن، وهذه اللحظة، وها هي كل الأحداث التي شغلت تلك الشهور تعود إليَّ مندفعةً في عُجالة. جالسة أنا في وسط الزحام، شعرتُ أن الآمبولوستوس ليست بعيدة، ولمَّا كنتُ أُنقِّب في الطبقات الحمراء المتتابعة في طُفال بحر التيثس، لم تكن كامبريدج أو شوستاكوفيتش إلا ذكريات بعيدة، وفي تلك الليلة حين التقيتُك أول مرة، بدا كأن حكايتي الطويلة مع راشد لم تحدث قط. يتراءى لي أن كل حلقةٍ من حلقات حياتي تدور في مدارٍ منفصل. تساءلتُ عمَّا كان ليحدث لو أني لم أشرع في التفكير في أمر تبنِّيَّ، لو أني لم ألتقيكَ ذلك المساء، لو أن زمزم لم يكن ابن ديداج بلوش. لطالما حدَّثتُ نفسي أن زواجي من راشد كان حدثًا حتميًّا، لكنَّ الكثير قد وقع لتأطير هذا الحدث، الكثير من قبل والكثير من بعد -بروسبيرتي وجريس وطاقم السحَّابة- لدرجةٍ بدا معها مستبعدًا ألا تقع كل تلك الأحداث نتيجةً لبعضها.

في طريقنا إلى المنزل، فكرتُ في دادو، جدَّتي لأبي. اسمها هو مرونيسا بشير، وُلدت في قرية في تريشال، مقاطعة ميمنسينغ، طفلة رابعة من بين سبعة أطفال. علَّمها والدها، الذي كان مُعلِّمًا، مبادئ القراءة والكتابة، ومع أن عائلتها لم تكن فقيرة، لم يتوقَّع أحد من مرونيسا أن تظل دون زواجٍ بعد البلوغ. كانت في الثالثة عشرة من عُمرها حين تزوجت جدي، وهو في العشرين من عمره، يمارس مهنة المحاماة. وما كاد يمرُّ عقد على زواجهما حتَّى أبرزت مرونيسا خصال الزوجةِ الاستثنائية. تبنَّت التدبير في إدارة نفقات المنزل، وراحت تُوزِّع المبلغ الضئيل الذي يجلبه جدِّي كل شهرٍ ليكفي نفقات خمسة أبناءٍ من الذكور والأقارب المختلفين الذين يأتون للعيش معهم. ثمَّ باشرت شراء قطعة أرضٍ صغيرة في المدينة ونقلت العائلة إلى هناك لكي لا ينشأ أولادها في القرية، حيث تنتهي المراحل التعليمية ما إن تُدَّق

طقوس الحاجة في الحقول. وبعد بضع سنوات، أصرَّت على انتقالهم إلى العاصمة، مع أنهم لا يقدرون على تحمل نفقات هذا الانتقال في ذلك الوقت، وطيلة السنوات القليلة الأولى، حين كان عملاء زوجها قلَّة مُتفرقة، وجدت مرونيسا سُبلًا للخروج من المحنة. ثمَّ اشتهر جدِّي في قضيةٍ ترافع فيها ضد قاضٍ فاسد في محكمة دكَّا العُليا، وصار أول محامٍ بنغالي ينجح في مقاضاة مُشرِّع بريطاني. ثمَّ انشغلت مرونيسا في نسخ المذكرات التي خطَّها عن تلك المحاكمة، بعنوان «شرارة انطلاقي»، وإعدادها للطباعة؛ فكانت لها عينًا ثاقبةً تلتقط التفاصيل المطبعية التي غفل عنها زوجها. تُوفيَّ جدِّي بسرطانٍ في الكبد قُبيل الحرب ببضعة أشهر، ولذا لم يشهد تدمير البلاد وولادتها من جديد. لم يشهد دفن ابنه الأصغر، صريع ثوري أردته رصاصة العدو، لم يشهد جسده محمولًا لأميالٍ طويلة على كتفي ابنه الرابع، أبي، ودفنه في قبرٍ بلا شاهد قُرب القرية التي ساعد في تحريرها. لم يشهد توسُّع ثروة العائلة، ولم يشهد ابنه الأكبر يصير محاميًا ناجحًا، والمنزل يرتفع لطابقين ثمَّ ثلاثة، ولم يشهد وصول النجمة السينمائية «شاليلا مهيندي»، ولا زواج أبنائه الآخرين ولا ميلاد أطفالهم، ولا وصولي من بين يدي امرأةٍ مجهولة. بل شهدت مرونيسا كل هذا، فازدادت شدَّة في شيخوختها، كأن لا يزال لديها عمل تضطلع به، وأطفالًا تُربيهم، وفتيانً يشبون إلى الرجولة. دأبت طيلة حياتها على أن تجلب لجدِّي صينية الصباح وتضعها على الطاولة إلى جانب فراشه، لكي يُوقظه عبير الشاي الفوَّاح، وكانت تُخفِّف حساء الدال الذي يشتهيه فيتسنَّى له أن يتحمَّل أكله مع كل وجبة، وحرصت على كبس قمصانه، واغتسال أطفاله وذهابهم إلى المدرسة، وبكل السبل التي يمكن للمرء حصرها، كانت امرأةً عادية، تفعل ما تفعله الزوجات، قوية الإرادة، لا يردعها رادع، امرأة هي صُنعُ زمانها وعصرها، وعلى بساطتها كانت هي ساحرةُ حياتها.

هؤلاء هن صنوف الزوجات اللاتي سبقنني يا إيلاجا. لا مرئياتٍ، يُشهرن قواهن السحرية، يُضاعفن الكلأ، مخلصات حتَّى النفس الأخير. هذا هو العالم الذي اصطدمت به، ليس العالم الذي يسلك فيه الناس ما يجدر بهم من سلوكيات -لا شك في ذلك- بل عالمُ مَن يتفوقون دومًا على ما هو مُتوقَّع منهم، مهما حقُرت صلاحياتهم.

انعطفنا إلى الطريق السريع وظللتُ أرمقك بنظراتٍ خاطفة لأرى إن استطعتُ تحديد مزاجك، أغاضب أم مُحبَط، أتساءلُ لو أن جزءًا منكَ معتقدًا

أنني لم أتزوَّج قط، لكني أعرف الآنَ أنكَ لم تتخطَّ الأمر كما تصوَّرت، لم تتخطَّ خيانتي لكَ، ورغم كل ذلك، ها أنتَ هنا، وصوتك موسوم بما أحدثته فيك من جُرح.

***

حجزتُ لكَ في بيت ضيافةٍ صغير قُرب الشاطئ، واقترحتُ عليكَ أن نتجه مباشرةً إلى هناك في حال أردتَ الاغتسال، لكنكَ أعلنت رغبتكَ في رؤية الشاطئ أولًا. في السيارة، استعددتُ لألفت نظرك إلى الترسانات المتراصة على الطريق السريع، ولكن ما إن تمهد طريقنا إلى خارج المدينة، غطتَ في النوم، ورأسك مائل على انحناءة ذراعك، وفمك مفتوح قليلًا.

ولمَّا وصلنا بعد ساعةٍ، لكزتُك لكزة خفيفة. وقلتُ لكَ: «لقد فوَّتَ فقرة التشويق».

عبرت السيارة بوابات بروسبيرتي، وظهرت جريس بهيكلها الأوليِّ المخيف، وأقدامها الثلاثة آلاف، ناصعة جليلة.

تملَّكني القلق ما إن ترجَّلت من السيارة، كأنما عليَّ أن أُثبت لكَ أن المشهد يستحق قطعك لكل هذه الطريق. وضعت يدك حائلًا بين عينيك ووهج الشمس، تُمتِّع ناظريك بالسفن في القطاعات المجاورة، بعضها كان في أسابيعه الأخيرة من التفكيك، والعمال من حولها قِطع ضئيلة متناثرة.

قلتُ: «هذه هي».

معًا تطلَّعنا إلى جريس. وقف قلة من الرجال على سطحها، يُنزلون ما بدا أنه حوض استحمامٍ إلى الطاقم المنتظر في الأسفل. قُيِّد حوض الاستحمام بالحبال، وفي أثناء نزوله أخذ يتخبَّط بجسم السفينة. ثمَّ شاهدناه يرتطم بالرمال. حلَّ الرجال الحبال عنه، ثمَّ قلبه اثنان منهم رأسًا على عقب كما يُقلب الزورق، وسارا به إلى الشاطئ. مرَّا بنا، فميَّزتُ رسول بينهما، وناديته، لكنه لم يسمعني. وعلى مبعدةٍ منا، توَّج شيء آخر كبير سطح السفينة جريس.

وضعتَ يديكَ على رأسكَ وحدَّقت إلى السماء. ثمَّ قلتَ: «لا أدري ما يجدر بي قوله. هذا المكان بحاجةٍ إلى لغةٍ جديدة».

أجبتُ مازحة: «ألا تفي كلمة «تقويض» بالغرض؟».

غمرني شعور بالارتياح، هذا لأنه يمكنكِ أنتَ أيضًا رؤية الحال، رؤية حجم ما يحدث.

- كلا، حتَّى «دريدا» سيُعاني.

بدأ المدُّ يعلو ولم يمضِ وقت طويل قبل أن تُغطي المياه صندلينا. اتفقنا على أن نعود لاحقًا، لكنكَ بقيت ساكنًا لوقتٍ طويل، وعيناك تنتقلان بين جريس وبيني. وبعد بضع دقائق، أولينا البحر ظهرينا واتجهنا نحو الشاطئ.

قلتَ: «أمي تُقرئكِ السلام».

- كيف حال عائلتك؟

- إنهم بخير. مؤخَّرًا لم نعد نرى بعضنا كثيرًا. هذا هو حال العائلات الكبيرة، لا أحد يفترض أبدًا أنكَ بحاجةٍ إلى صحبة.

- حين تكون الطفل الوحيد، الجميع يفترض أنكَ وحيد، ولا يسعهم فعل شيءٍ حيال هذه الوحدة. لا أحد باستطاعته أن يحل محل شقيقتك أو شقيقك.

أخبرتني أنكَ لم تُفكر يومًا في الأمر من هذا المنظور، وقلتَ إن أشقاءكَ مُقرَّبون لكَ، وإنك تراهم معظم الوقت، لكنكَ الوحيد من بينهم مَن أراد دومًا أن يُغادر البلاد. وهذا ما أدهشني، فسألتُك: «ألا تتشاركون جميعًا في الروح المُتقدة نفسها؟».

- إنهم يسافرون، لكنهم لا يتمنُّون أن يكونوا في مكانٍ آخر.

أخبرتُكَ أنني دومًا أُلقي اللوم على التبنِّي لإحساسي المستمر بعدم الانتماء. وفي كل مرَّة أريد أن أُقدم على شيءٍ غريب، أو إذا أعجبني شيء لم يُعجب والديَّ -كالشوكولاتة مثلًا، أمي تكره الشوكولاتة- أُحدِّث نفسي أن أمي كانت لتُحب الشوكولاتة. ولا يعني هذا أنها لم تتذوَّق الشوكولاتة قبلًا.

أخبرتني أن الصلة البيولوجية لا تحمل هذه الأهمية، لكن عدم المعرفة لا بُدَّ شعور عصيب. فأعلمتُكَ أنني لم أُفكر في الأمر حقيقةً قط حتَّى التقيتُك.

حان موعد الغداء، فدعوتُكَ إلى الشقة لتناول بعض الطعام. لأول مرَّة نكون بمفردنا، فحرصتَ على ألا تلامسني وحرصتُ بدوري على ألا ألامسكَ. وأتيتُ بحركاتٍ مدروسة فلا نكون على مقربةٍ شديدة من بعضنا. وعلى طاولة الطعام، حرصتُ على أن نجلس قُبالة بعضنا وليس إلى جانب بعضنا، في

حال إذا امتدت أيدينا مصادفةً للطبق نفسه وتقاطع ظهر يدي أو إصبعي بظهر يدكَ أو إصبعك. ومع ذلك لم يخلُ ذهني من التفكير دومًا في شعوري إذا أمسكتُ يدك، وتحسَّستُ بيدي نُتَف اللحية على وجهك. لان الفزع الذي تملَّكني فور رؤيتك للوهلة الأولى في المطار، لكنني ما فتئتُ أشعر به يزبدُ بداخلي. كلما رغبتُ فيكَ، بقيتُ بمنأى عنك. لم يعد الأمر كما كان قبلًا في كامبريدج - إنني متزوِّجة الآن، وثمَّة آخرون نضعهم في الاعتبار -لكنني لستُ مذنبة. لا يسعني توضيح السبب، لكنني لم أستشعر خطأً في الأمر، ليس كأنني أصبُّ العنف على أحدٍ، أو أنقض عهدًا قطعته لأحد. وعلى أي حال، لم أقْدِم على شيء، ليس بعد.

تحدَّثنا بلا انقطاعٍ عن غرابة المكان، قُبحه وجماله، وكيف أحالت النفايات السائلة لون الرمال إلى الرمادي الداكن، ثمَّ أخبرتُك عن أصوات الترانيم المترددة، التي تُشبه اللهفة، والرجال يحملون ألواح الصُّلب الثقيلة على أكتافهم، والسباب الذي يتقاذفون وهم يقطعون الطريق من بقايا سفينة إلى آلة التدوير دون أن يستسلموا أو يتركوا الصُّلب يرتطم بالأرض.

غابت الشمس واستحال الضوء في الشقة إلى الأصفر، ثمَّ البرتقالي، فصار البقاء في حضورك أيسر، وشعرتُ بنفسي تسترخي، وتُضاحكك وأنتَ تقُصُّ حكايةً عن محاولتك الأخيرة لتعلم قيثارة الأُكلال. وصل مو ليُعِدَّ لنا العَشاء، ثمَّ لعبتما أنتما الاثنان لعبة ورقٍ مضت إلى وقتٍ متأخِّر من الليل. خشيتُ أن تبغض جبريلا وجودك، لكنها سرعان ما تأقلمت عليك، وبدا الحال كأنكَ دومًا بيننا، كأنكَ لم تكن في أي مكانٍ آخر عدا أن تكون برفقتي في تلك الشقة المتهالكة المُطلة على البحر. بعدما خلد جبريلا ومو إلى النوم، أخرجتَ البلوزة الزرقاء من حقيبتك. وقلتَ:

- أردتُ أن أعطيكِ إياها في وقتٍ أبكر.

زُين إطار العُنق بزهرةٍ من الحرير، وأُطِّر الطرف بقماشٍ من لوحة ألوانٍ خافتة. شكرتُ لكَ هديتك، وحسبتها أقربُ هديةٍ إلى قلبي أهداها إليَّ أحدٌ من قبل. استرجعت ذاكرتي حقيبة السفر المُكدسة بالسواري التي جاءتني من منزل راشد في صباح يوم زفافنا، والأحذية والحقائب المتناسقة، وأطقم الجواهر الستة، يستقر كل واحدٍ منها في عُلبةٍ من المخمل. ألفت العقوق في مقارنتي تلك التجربة بهذه، لكني لم أتمالك نفسي، حاولتُ وأخفقتُ في

إحجام نفسي عن تخيُّل شكل الحياة برفقتك، الزواج والهدايا والانتقال للعيش معًا ومشاركة بيتٍ واحد، ونُسخٌ من آنَّا كارنينا متآلفة على رفٍّ واحد.

قلتَ: «آه، وشراب القيقب أيضًا. غدًا سأعدُّ البانكيك».

كنَّا قد أوشكنا أن نبلغ الغد؛ وأمكنني تشمُّم حرارة النهار تقترب. اتكأتَ على المساند الأرضية ودسستَ قدميك أسفل منك. فات الأوان آنذاك على العودة إلى بيت الضيافة، ولذا اقترحتُ عليكَ أن تغفو لبضع ساعات. جلبتُ لكَ غطاءً وبسطته على رجليكَ. كانت عيناك مثقلتَيْن بالنوم ورُحتَ تُتمتم بشيءٍ عن مدى سعادتك لمجيئك إلى هنا، وقبل أن أدفع بنفسي نحوك، فلن أحظى بهذه الحرية مُجدَّدًا، انسحبتُ إلى غرفتي وحاولتُ النوم.

قضينا الأيام القليلة التالية في انتظار علي لكي يمنحنا الإذن بالصعود على متن جريس. بدت الأيام أطول وأقصر في آنٍ لأنها برفقتك؛ تفاجأت بنفسي أفعل كل شيء في عجالة يغلفها شعور بالراحة، أتناول الوجبات برفقتك وأستمع إلى الموسيقى عبر مكبر الصوت اللاسلكي الصغير وأشاهدك تخطُّ رسومًا تخطيطية لجريس. خرجنا في نزهاتٍ طويلة على امتداد الشاطئ، وسرعان ما صُبغت بشرتك بالسُّمرة ونحن نتخذ طريقنا عابرين بالسفن نصف المُفكَّكة في الترسانات المتاخمة. تبعكَ مو في كل مكانٍ مثل ظِلك، تعلو وجهه الغبطة، كأنما اجتمع بعد فِراقٍ بصديقٍ غائب منذ زمنٍ بعيد.

أحببتَ الركض في الصباحات الباكرة، وهكذا التقيتَ قلةً من العُمال. وصرتَ معروفًا باسم «بَرمون»، بعدما طلب منك واحد منهم أن تُخبره بما كُتب على قميصك، ولعجزه عن نطق الحرف «ف» في كلمة «فيرمونت»، أذاع خبرًا بأن هذا هو اسمك، برمون. وراحوا يرددون: «جاء برمون من أمريكا».. «برمون يمكنه العزف على الآلة في بطن السفينة».. «برمون يركض على امتداد الشاطئ حتَّى باتينجا». وحين أسير برفقتك نتجوَّل في الترسانة، يجتمعوا حولنا، غير خائفين من علي. لا أدري عمَّا تحدثت معهم، ولا حتَّى كيف تمكَّنتم من التواصل بلا لغة، لكني رأيتُ في إيماءات أيديكم المتبادلة ضحكًا وأُلفة.

قصُّوا عليكَ قصصًا عن السفينة لم أعرفها قط، فأخبروك مثلًا عن وجود حلبة تزلُّج على الجليد، وأن ثلاثة آلاف شخصٍ كانوا يجلسون إلى طاولات العَشاء كل ليلة على متن السفينة، ومن ثمَّ وُجدت مُجمِّدات بحجم شاحناتٍ

عملاقة، وقدور بحجم أحواض الاستحمام، ثمَّ بِيعت جميعها ولم يبقَ منها شيء سوى البيانو. فلا أحد يريده.

***

هاتفني علي ذات يومٍ وأخبرنا أن أحد المشترين قادم لمعاينة السفينة، وسيُرتِّبون صعودًا خاصًّا له، مجموعةُ بكراتٍ يُعالجها رجال من فوق ومن أسفل. وهكذا يتسنَّى لنا رؤية البيانو، ثمَّ ننضم لعلي والمشتري على طاولة الغداء. لمَّا وصلنا إلى الشاطئ، قدَّم علي ضيفه. وقال بانحناءة بسيطة: «رجاءً رحِّبَا بالسيد سخاوات».

تألقت الخواتم الذهبية في أصابع سخاوات وهو يُصافح يدك. تكدسنا على المنصة المستوية ورُفِعنا إلى أعلى على امتداد جسم السفينة جريس، وانعطاف الشاطئ يتراجع من المشهد، والأزرق الخافت لمياه المحيط الهندي تزداد دُكنةً كلما صعدنا إلى أعلى. لم ألمح سوى القليل من المشهد، هذا لأن يدك عانقت مرفقي والتهبت مشاعري إذ لامست براجمكَ أضلعي.

حينما وصلنا إلى قمة السفينة، استبقيتُكَ وتركتُ علي يُرشد سخاوات إلى قاعات المناسبات في الطابق الأخير. كان مو بانتظارنا على جسر النزهة، وبجانبه ثلاثة مصابيح كيروسين تصطفُّ على السور. تركتُه يتقدَّم الطريق، مُدركةً ما سيعتريه من حماسٍ وهو يكشف لكَ عن البيانو. فقد كان اكتشافه هو على أي حال.

إذ اتخذنا طريقنا عبر السفينة، لاحظتُ قلةً من أشياء مفقودة. وعلى امتداد سطح السفينة، شُوِّهت الأبواب بفجواتٍ دائرية صغيرة حيث استقرت مقابضها يومًا. أخبرني علي قبلًا أن السيد هاريسون ماستر قد طلب بضعة أشياء من السفينة لملكيته الشخصية، لأجل بيت ضيافةٍ يحتاجُ إلى تأثيثه في مهلةٍ قصيرة. لعلَّ مقابض الأبواب كانت على تلك القائمة، أو لعلَّها في أحد فنادق دكَّا. فقد تناثرت أجزاء جريس بالفعل على طول البلاد وعرضها.

وصلنا إلى قاعة الاستماع واختفى مو في الداخل. أمسكتَ بالباب مفتوحًا لأجلي ثمَّ دلفنا معًا. غرقنا في عتمةٍ داكنة، وفاحت رائحة الخشب والمخمل المميزة. رفعنا مصابيحنا، ثمَّ همستُ لكَ: «إنه خلف الستارة». لكن مو كان يشقُّ طريقه بالفعل نحو خشبة المسرح. قررتُ أن أبقى في رَبع المستمعين، واخترتُ مقعدًا في الصف الأمامي، وحطَّتُ مصباحي على الأرض. ثمَّ أغلقتُ

عيني وانتظرت، مضطربة أحشائي آنذاك في السكون المُتلبِّد لتلك الغرفة الكبيرة الواجمة، ثمَّ كُسر الصمت، بصرير مقعد البيانو وأنتَ تجلس عليه، ثمَّ النغمة الأولى، تتردَّد مثل علامة استفهام.

أدركتُ أني لم أسمعك تعزف البتة، ليس عزفًا جديًّا، ولكم أسعدني أن أستمع إليكَ دون رؤيتك. لمَّا بدأت الموسيقى، عرفتُ أني سمعتُ الأغنية من قبل، لكني عجزتُ عن تذكر اسمها في تلك اللحظة. تردَّد عزفُكَ رقيقًا، صوتًا خافتًا أحجمته الستائر، وبين فينة وأخرى سمعتُك تتوقَّف وتضغط على إحدى النغمات بضع مرَّات، مختبرًا الصوت. ظننتُ أني سمعتُك تُدندن مع الأغنية، لكني لستُ موقنة ممَّا سمعت.

عزفتَ سُلَّمًا موسيقيًّا، ثمَّ أغنيةً أخرى. علَّني غفوتُ، ليس لأنني مُتعبة، بل لأن الموقف مُنوِّم مغناطيسي به شيء من السريالية، جالسة أنا في قاعة استماع لعابرة محيطاتٍ راسية، أستمع إلى صوت بيانو يُبعث إلى الحياة، تعزف عليه يدا رجلٍ بدا كأنه قادم من عالمٍ آخر. ثمَّ بدأتَ تُغنِّي. صوتُكَ حالم، مُغلَّف بالظلمة ومكتوم بالستائر.

كُلِّي

لِمَ لا تقبل بي كُلِّي

ألا ترى

أني من دونكَ ضائعا

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

خيَّم هدوء كدتُ أسمع فيه كل نَفَس صاحب كل كلمة من كلمات الأغنية. ناغمت أنفاسي أنفاسك، ورأسي خفيفًا بلا أفكار.

قَبِلتَ بالأفضل

فلِمَ لا تقبل البقايا

تلاشت أصواتُ النغمات في النهاية، وسمعتُ أزيز مفصل الغطاء، سمعتُ صرير المقعد وأنتَ تدفعه بعيدًا، سمعتُ الستائر تتباعد، سمعتُ وقع خطواتك المكتومة تقترب نحوي. لم تكن رفقة مو ولم تكن حاملًا مصباحك. لمَّا جلستَ إلى جانبي، ظننتُكَ ستقول شيئًا عن البيانو، لكنك بدلًا همستَ لي بقصةٍ عن طفولتك، شيء يتعلَّق بهذين العامين اللذين قضيتهما في المزرعة، قصة عن شجيرة إكليل جبل زرعتها أُمك خارج نافذة المطبخ ما إن انتقلتم إلى ذاك المكان النائي من البلاد. أحيانًا حين تُمطر، تميل على النافذة إلى الخارج وتتشمَّم نفحةً من شجيرة إكليل الجبل تلك. كان المنزل على حافة تلٍ مُنحدر، والأرض تنحدر بعيدًا عنه من جوانبٍ ثلاثة، والأشجار والجبال من ورائه جليّةٌ ممتدة لأميال. ثمَّ قلتَ: «لمَّا بدأتُ العزف على ذلك البيانو، كان أشبه بشجيرة إكليل الجبل خارج نافذة مطبخنا. وفيما يسعني القول، تجلَّى كل شيءٍ حيال الديار، كل شيءٍ يسعني تذكره، من تلك الرائحة، كل شيءٍ إنسانيٍّ ورائع وعتيق. شكرًا لكِ لأنكِ أريتني إياه».

ابتلعتُ غُصَّةً كبُرت في حلقي وأحكمتُ غلق يدي حول يدك. ثمَّ صفعتني فكرة غرابتك، وثقتك بنفسكَ ثقةً لم أعرفها في أحد قط في الآن الذي تبدو فيه فاقدًا للثقة بنفسك، كأنكَ لم تنجح يومًا في العثور على شيءٍ تخلق بينه وبينكَ رابطًا. حرَّكتَ يدكَ فلامستَ مرفقي، ثمَّ ظهري. تزحزحتُ قريبًا منكَ، راغبة في إخباركَ أنه مهما عظُمَت بهجتكَ لمجيئك إلى هنا فلن تصل إلى مبلغ بهجتي بقدومك، هذا لأنني، وأنا ممسكة بيدك الآن -تغشّاني الوُجد.

أردتُ البقاء في تلك الحجرة إلى الأبد، واستشعار وطأة يدك ودفئها على ذراعي. لكنني بعد هُنيهة، بُوغِتُّ برهاب الأماكن الضيقة، مُدركةً أننا محبوسين في فقاعةٍ ضيقة بلا تهوية، ولهذا نهضتُ في عُجالة وقُدتُكَ إلى الخارج ثمَّ صعدنا السلالم، لا أدري تمامًا إلى أين أتجه، أتتبَّعُ الهواء والضوء حتَّى عُدنا مُجدَّدًا إلى جسر النزهة.

ما إن خرجنا إلى ضوء النهار حتَّى بلغ الأصيل مبلغه، والشمس مباغتةً تنحدر إلى الأفق، والعمال في الأسفل مجتمعين في ظل السفينة، يلتمسون بقعةً من الرمادية وسط البياض الناصع شديد السطوع. حللتَ أزرار قميصك فتلألأ جلدك بين شِقَّي القماش المفتوحين. أشرتُ إلى الرجال لكي يُشغِّلوا البكرات ثمَّ عُدنا إلى الأرض طفوًا كأنما نهبط من منبر، والعالم الحقيقي من أسفلنا في كامل قُبحه وبؤسه.

حدث حادث، حادث لا يمكنني تسميته. سرنا عائدين إلى الشاطئ دون أن ننبس بكلمة. ثمَّ تذكرتُ أننا مدعوَان إلى الغداء مع السيد علي. فقلتُ ربما يجدر بي أن أُحاول وأُعفينا من الأمر.

وكان جوابك: «ربما يجدر بنا أن نُجيب طلبه».

لكني رأيتُ النبض يتفجَّرُ في حلقك.

أمر علي بإعداد مائدةٍ في الطابق الثاني من مكتب شيب سيف. ورُصَّت عدَّة أطباقٍ من اللحم والسمك، يُغطي كل واحدٍ منها بِركة من الزيت. كان سخاوات جالسًا بالفعل إلى الطاولة وحصة كاملة من الطعام أمامه. كدَّس علي الأرز في أطباقنا وخدمنا أنفسنا في سكب الكاري. لم يكن أمامنا أي أدواتٍ مائدة ورأيتُك تصنع أهرامات صغيرة من الأرز، وتضعها بحرصٍ في فمك.

سألتَ: «ماذا سيحدث للبيانو يا سيد علي؟».

- كان بيعه غير ممكن، فلا أحد يريد شيئًا بهذه الضخامة.

تساءلتُ أنا بصوتٍ مرتفع: «وماذا ستفعل؟».

لعق سخاوات الدهن من براجمه، وقال: «يمكننا إرساله إلى أحد المتاجر، لنرى إن كان بإمكانهم بيعه. لكن نقله إلى خارج السفينة سيكون باهظ التكلفة. ولذا هناك احتمالية لتدميره».

قلتَ: «إنه آلة بالغة القيمة».

أشار علي إلى أحد رجاله أن يُنظِّف الطاولة من الأطباق. ثمَّ قال: «سنبذل ما بوسعنا».

عاد الرجل بُعيد لحظاتٍ قليلة بإناءٍ من ماء وقطعةٍ من الصابون، ثمَّ غسلنا جميعًا أيدينا.

قال سخاوات: «شهدنا ذات مرَّة عاصفة في غير أوانها. وعلا منسوب الماء لدرجة أن فاضت جميع السفن. وحُشِرَ حوت في إحدى سفن هارون، أتذكر تلك الحادثة يا علي؟».

قلتُ: «حوت؟».

أجاب علي: «إنه إعصار عام 1991، مضى عليه وقت طويل. مات الكثيرون. وجرفت الأمواجُ أشياء غريبة للشاطئ. كانت إحدى الترسانات المجاورة قد اشترت لتوِّها سفينة سياحية، مثل جريس، وعلق ذلك الشيءُ في المسبح».

- ماذا حدث له؟

- عجزنا عن فعل شيء. لقد مات بعد أيامٍ قليلة.

- أتى الناس من جميع الأنحاء لرؤيته. كان يتخبط في الأنحاء، وجلده شديدُ الجفاف. وكان يُصدر ضوضاءً رهيبة.

أحدث سخاوات إشارةً بيده تُوضِّح معاناة الحوت، وضغط إصبعيه الإبهام والسبابة معًا.

تمنيتُ لو أن سخاوات وعلي لم يُخبراني بهذه القصَّة. أعاد سخاوات ارتداء خواتمه الذهبية في أصابعه القصيرة البدينة واسترخى في الكُرسي وأصدر تجشُّؤًا رقيقًا. على الأرجح كان الحيوان العالق شيئًا أصغر من حوت، لعلَّه دولفين إيراوادي من منبع النهر، أو لعلَّه حوت طيَّار قصير الزعانف. حاولتُ ألا أتصور نهاية حياته، والناس يُحدِّقون إليه وهو يُعاني في المياه الضحلة، ونيسمه يُصفِّر ويُقفَل. ألقيتُ نظرةً سريعةً عليك فوجدتُكَ تزدردُ هذه القصَّة وتكشَّف لي أنها تُغيِّر علاقتك بهذا المكان، لتجعل منها علاقةً أشد فظاعة، وسحرًا بطريقة ما، مكان يُفكِّك فيه الناس السُّفن وتموتُ الحيتان في أحواض السباحة ويجرف المدُّ إليه قذارة العالم كله.

في تلك الليلة، رافقتني إلى مسكن العُمال لأجل مجموعة مقابلاتي التالية. كان الرجال سعداء لرؤيتك، يُصافحونك ويعرضون عليكَ نصيبًا من سيجارةٍ كانوا يتناقلونها في ما بينهم. سمحتَ لهم أن يُشعلوها لأجلك، وأخذت نشقةً ثمَّ جلستَ بينهم على الأسرَّة المزدوجة بدلًا من الجلوس إلى جانبي وجبريلا. جهَّزنا معداتنا وأُنيرت الغرفة بالضوء المنبعث من كاميرا جبريلا.

قال مو: «إنه دوري».

تملَّكتني الدهشة. تجنَّب مو كل أسئلتي وأسئلة جبريلا قبلًا عن طفولته، ولم يُخبرنا إلا بموت والديه ونشأته على الشاطئ.

قلتُ: «أخبرنا. ابدأ بمكان مولدك».

- إن القصَّة ليست عنِّي.

قال بلال مُفرقعًا أصابعه: «إنها عن حبيبته!».

- ألكَ حبيبة؟

تطلعتُ إليكَ وأبقيتَ أنتَ ناظريكَ ثابتين على مو. لم يُجب مو سؤالي عن حبيبته بالإيجاب أو بالنفي، بل قال: «اسمها هو شونا. إنها تعيش مع رجل».

- أي صنفٍ من الرجال؟

- رجل سيئ.

- هلّا أخبرتنا بالمزيد؟

- باعتها سيدة. وهي الآن تعيش مع الرجل. إنه يضربها، وقد رأيتُ الجُرح على وجهها.

ومرَّر إصبعه على خده مشيرًا لمكان الجُرح.

قال بلال: «إنه يكذب».

وأضاف آخر من الطاقم: «إنه دومًا يؤلف القصص».

هزَّ مو رأسه نفيًا: «بل هي الحقيقة. أريد أن أقتله».

ونهض من مجلسه، وأتى بإيماءة طعن. وانتصب أمام بلال ممسكًا بتلابيب قميصه الداخلي الواسعة، وقال: «أريده ميتًا». شاهدناه وهو يشق طريقه من أحد الرجال إلى من يليه، ويقول: «هكذا!»، ويده ملفوفة حول سكينٍ وهمي، يرتفع ثمَّ يهبط.

ذات مرةٍ، سألتُ علي كيف انتهى الحال بمو للعيش على الشاطئ، فأجابني ببساطةٍ أن أقدارًا أشدُّ سوءًا قد تُكتب للفتى، وخمَّنتُ أنَّ علي قصد بعبارته أنه يعتبر نفسه منقذًا لمو من مكانٍ آخر.

قلتُ: «اجلس يا مو. وأخبرنا عن صديقتك».

- ماتت أمها وتركتها مع السيدة.

- وهل عرفتَ أمكَ؟

صمتَ، ويده شبه مرفوعةٍ في الهواء. ثمَّ قال: «أمي كانت عاهرة».

قال أحدهم: «لا تسُبَّ أمك».

وعلَّق آخر: «لا أحد يُصدِّق شيئًا يخرج من فمه. أتذكرون تلك المرَّة حين ادَّعى أن والده قبطان إنجليزي؟ وماذا بعد! لم يأتِ أيُّ إنجليزيٍّ قط ليُطالب به».

سرت الهمهماتُ في أرجاء الغرفة. فوقف مو في منتصف الدائرة، ويده لا تزال قابضة على السكين الوهمي، قال رافعًا نبرة صوته: «أنا لم أكذب قط. لم أكذب قط!».

في تلك اللحظة، نهضتَ عن مجلسك، وسِرتَ نحو مو، وأمسكت به، ثمَّ حملته إلى خارج الغرفة. برزت جبريلا من وراء كاميرتها وراحت تمسح وجهها وهي تقول منتزعة الكاميرا من الحامل: «لا أستطيع التحمُّل أكثر من ذلك. هذا المكانُ جحيمًا».

حاولتُ أن أبدأ الحديث مُجدَّدًا، لكن لم يرغب أحد في الكلام، وبعد دقائق قليلة أغلقتُ مُسجِّل الشرائط وتبعتُكَ إلى الشاطئ. كنتَ ومو جالسَيْن على كُثيبٍ رملي مرتفع، تُحدِّقان إلى جريس، ولا تنبسان ببنت شفة. فانضممتُ وجبريلا إليكما. كانت الرمال باردة وفيرة من أسفلنا. ورحنا نشاهد الومضات الآتية من مواقد لحام الطاقم الليلي، نُنصتُ إلى الأمواج تغزو الشاطئ وتتراجع. وأخيرًا، اقترحتُ أن نعود إلى البيت. تأخر الوقت بنا، فنهضتَ، تنفض الرمال عن سروالك، أما مو فبدا راغبًا عن الحركة. حينها قالت جبريلا: «سننضمُّ إليكما لاحقًا». وأمسكت بيد مو. وهكذا غادرنا معًا واتخذنا طريقنا إلى الشقة.

ما إن وصلنا إلى البيت حتَّى تواريتَ في دورة المياه. ولمَّا فرغت، كنتُ قد سخَّنتُ بعض الأرز وحساء الدال على الموقد، وجلبتُ كل شيءٍ إلى المائدة. تفاجأتُ بخديكَ وذقنكَ شاحبين يتلألأن. فقلتُ: «لقد حلقت ذقنك. لماذا؟».

أمسكتَ بكلتا يدي وقُدتني نحو الأريكة، وأنتَ تقول: «تعالي، اجلسي معي». بدا وجهك عاريًا أمامي. استطعتُ رؤية كل شيءٍ حين ازدردتَ ريقك؛ حركةُ فكك ورقبتك وتفاحة آدم التي تُزين حلقك. فُتِنتُ بثغرك، جميلًا ورديًّا. مِلتَ إليَّ فأغلقتُ عيني، أترقَّبُ لمسة شفتيك، أتوقَّعُ حرارة أنفاسك تطفو وجهي، لكنك لم تُقبِّلني، بل لامست جانب وجهي بجانب وجهك. طغت على الهواء رائحة الصابون. حينها فتحتُ عيني ونظرتُ من فوق كتفكَ إلى القضبان المعدنية الغليظة على النوافذ، والطلاء المتهالك على الدَّرَف، والترابيس الصدئة. الآن ذقنك يستقر على كتفي، وذقني يستقر على كتفك.

وشعرك ناعم ملمسه على شفتي؛ فتحتُ فمي والتقمتُ خصلةً بين أسناني، فامتلأ فمي باللُّعاب.

- إيلاجا.. أنا واقعة في حُبك.

لاحقًا، بعدما طردتُكَ من الشاطئ، بعدما انتهى كل شيءٍ بيننا نهايةً مريعة، أعيد التفكير في تلك الليلة، وأتذكَّر كل شيءٍ حيال عناقك لي، وتقبيلك لي، واعتراض أنفاسك بأصابعي، أتذكَّر تتبُّعكَ لفكِّي بيدكَ، وشعرك ينسدل على بشرتي يُلامسني قبل أن تُلامسني شفتيك. أذكر الكلمات التي تبادلناها، وأذكر حين أخبرتُكَ أنه ما من يقينٍ في هذا العالم عدا حُبي لكَ. أذكر ضحكنا. أذكر وطأة راحتيكَ على راحتيَّ. لا أذكر حديثًا تبادلناه. لا أذكر حزنًا شعرتُ به. لكني أذكر بكاءً. حين بكيتَ، لعقتُ دمعاتك المالحة من على ذقنك. أذكر طرف ظفر إبهامكَ، حسنُ التقليم، يحكُّ بقعةً حساسة في فخذي من الداخل. أذكر فخذي من الداخل. مرحبًا يا فخذي من الداخل. مرحبًا يا زُبيدة، يا بتول، أيتها الأميرة العباسية، أيتها اليتيمة، يا صاحبة الأصل المجهول. مرحبًا يا سيدة راشد، رحبي بفخذكِ من الداخل، رحبي برفيقك، هذا الرجل، هذا الرجل وحده، رفيقكِ الوحيد في العالم، قريبكِ الوحيد؛ لأنكِ لا تعرفين أحدًا دماؤه تُطابق دماءكِ، حسنًا، ها هو رجل يطمس بحضوره الحاجة إلى وجود عصب؛ لأنكما خُلقتما من المادة نفسها، تختلفان وتتشابهان في آن؛ لأن مذاقكِ في فمه هو كل ما ستحتاجين إليه من حميمية، الفراش قاسٍ أسفل جسديكما، فراشُ امرئٍ لم يُغادر هذه البلاد قط، وشذا هذه البلاد هو شذا الشمسِ على حقول الأرز. أكان والداكِ مزارعَيْن أم متسوِّلَيْن؟ أرُزِقَا بأطفال بعدك، أبناء لعلهما احتفظا بهم؟ لا تعرفين ولا تأبهين. أردتِ العثور على والديكِ. أردتِ الاعتذار إلى والديكِ. أردتِ الاعتذار لنفسكِ، ولهذا الرجل، لأنكِ أحببته من أول لحظةٍ التقيته، لكنكِ أوليتِ ظهركِ لهذا اليقين ودفنتِ آمالكِ في التاريخ، والآن لا وجود لشيءٍ عدا معانقته، وتقبيله، واعتراض أنفاسكِ بأصابعه.

بعد ذلك، قلتُ: «قل لي ماذا أفعل».

أدرتَ ثغركَ إلى أذني وتحدثتَ برقةٍ كدتُ معها ألا أسمعكَ وأنتَ تقول: «لا أستطيع».

- أرجوك، امنحني حُبًّا.

- أُحبكِ باستماتة.

- إذن أخبرني.

- لن أفعل هذا يا بتول.

عُدتُ إلى الوراء وتفحَّصتُ وجهك. ثمَّة الكثير حيالك لألاحظه؛ الجلدُ حول فمك جليًّا، لذا استطعتُ رؤية البصيلات الخضراء الدقيقة حيث كانت لحيتك.

- لِمَ لا؟

- لأن الأمر يقع عليكِ أنتِ.

أغلقتُ عيني مُجدَّدًا وأطبقتُ فمي عليكَ. عانقتني آنذاك، ورُحتَ تُخلل شعري، وتُخبرني أنني حُبُّ حياتك، واشتعلت الدماء في جسدي حين سمعتُ كلماتك، اشتعلت في خديَّ حيث شعرتُ بوجهكَ يلامس وجهي، واشتعلت في كتفي التي يسكنه ذقنك، وحيثما همستَ، ذاك المكان بين رقبتي وأذني، ذاك المكان كان متقدًا باللهيب كذلك.

***

لأنني واقعة في حبك، أعفيتُ نفسي من الإحساس بالذنب، مع إنني مُدركة لخيانتي لراشد بكل نبضةٍ من نبضات قلبي. لأنني واقعة في حبك، طمأنتُ نفسي بأن الأمور ستُحَلُّ من تلقاء نفسها. أو لعلِّي لم أُفكر في الأمر مطلقًا، هذا لأننا خلقنا عالمًا مغلقًا علينا، وما من أحدٍ في ذاك العالم، ولا حتَّى شخصياتنا البديلة التي لعلها رفعت إصبعًا متشككًا يحذِّرنا.

لم نُطِق الافتراق عن بعضنا؛ كنَّا ننهض لنأكل ونغير الموسيقى التي تنبعث من حاسوبي المحمول. ترك لنا مو طعامًا على طاولة الطعام، وحين عاد وجده مأكولًا وفي محله بعض المال متروكًا له ليتسوَّق الطعام.

قلتَ: «هيا نخرج لمكان. حسنًا، هيا بنا. هيا بنا نذهب إلى «هيل تراكتس»».

سيتعيَّن علينا تأجير سيارة. ستحتاجُ تصريحًا للذهاب إلى هيل تراكتس؛ هذا ما أخبرنا به بلال في مكتب شيب سيف.

هاتفتُ راشد. فقال: «تبدين سعيدة». أجبتُه أنني كذلك. توَّاقة كنتُ لإغلاق الهاتف، لكنه أخبرني قصةً سعيدة عن مقابلة عشاء حضرها مع شركائه الصينيين. سأراه في غضون أسابيع قليلة حين يعود من شنغهاي. قلتُ بالصينية: «أراكَ لاحقًا»، مسترجعةً التحية الصينية من صف لغة الماندرين

الذي التحقتُ به في الجامعة، متحسسة براعتي وخلودي وشعوري بأن الدنيا لا تتسع لسعادتي.

ماذا ستفعل؟ أنتَ، أيها الآخر، لم تسأل. لكنكَ بدلًا أرسلتَ إليَّ الرسائل، أحيانًا من الغرفة الأخرى، أو من الشاطئ حيث تخرج للركض. «**الأسود هو لون شعر محبوبي**». وأيضًا: «**أشعر بالرضا**». وأيضًا: «**كل الأشياء التي أنتِ عليها**». واجهتني مشكلة في الرَّدِّ على رسائلك. وذات مرَّة كتبتُ: «**أتمنَّى لو عرفتُ كيف هي الحرية**».

***

أبلغت بلال بحاجتي إلى إجازة لبضعة أيام. ذهبنا إلى بحيرة «فوي ليك» وأقنعنا أحد المراكبية أن يبقى على الشاطئ بينما تُجدِّف أنتَ. قلتَ: «كنتُ عضوًا في فريق التجديف في الجامعة». فأجبتُكَ: «ماذا! هيبي مثلك أنتَ؟». لكنكَ وجَّهتَ القارب باحترافية، مُبقيًا عينين مُدرَّبتين عليَّ وأنتَ تُحرِّك ذراعيكَ في دوائر واسعة متساوية. توقَّفنا أمام سلسلةٍ من درجاتٍ حجرية تؤدِّي إلى خارج البحيرة وإلى داخل الأحراش البعيدة.

- هل نخرج؟
- بالطبع.

إن أخطار الأحراش لا تُقدَّر بشيءٍ أمام قوة رِباطنا. وبعد بضع دقائق، اشتد تقارب الأشجار من ورائنا وغرقتَ أنتَ في تقبيلي وطنين البعوض يصفع أذني. لم آبه لِما يحدث، لدرجة أنه بدا لأذني أنغامًا موسيقية.

- هيا نرحل إلى خارج المدينة. لنتظاهر أننا متزوِّجان. هيا نتزوَّج.

حينها تطلَّعتُ إلى خاتم زواجي.

بعد أسبوعٍ، أصرَّت جبريلا على متابعتي لبعض العمل الذي بدأناه، ولذا غادرتَ الشقةَ رفقة مو ورحتُ أنا أُرتِّب المقابلات وأُفصِّل التفكيك المستمر للسفينة جريس. ولليلةٍ أو اثنتين أعقد ومو اجتماعاتنا في مسكن العمال مع طاقم السحَّابة. وفي الليل، أتصرفُ وأنتَ كأننا حُرَّان نفعل ما يحلو لنا، حُرَّان نتبادل القُبل على الملأ أو نتزوَّج أو حتَّى نفعل ما يفعله الناس تلك الأيام، نتخلَّى عن الحُب بالسهولة نفسها التي وقعنا بها فيه. لم نتحدَّث عن ميقات لقائنا مُجدَّدًا، أو الظروف التي ستدفعنا للقاء، لكن خيالاتنا حملتنا بعيدًا

عن بروسبيرتي، بعيدًا عن شيتاجونج وبنجلاديش، بعيدًا عن هذه اللحظة المُطوِّقة. أصررتَ على ألا تُناشدني في أمر راشد. بل كنتَ تقول لي أشياء مثل: «إذا ظننتِ أن هذه البانكيك جيدة، فيجدر بكِ أن تذوقي البانكيك التي يُعِدُّها أبي. حين تأتين إلى فيرمونت، يمكنكِ أن تُجرِّبيها». أو أخرى مثل: «دعينا نسافر إلى باريس». أو «أيجدر بنا أن نُنجب ثلاثة أطفالٍ، أم أربعة؟» وأيضًا: «ما رأيكِ في وضع حوض استحمام عند أقدام سريرنا؟». تلقي على مسامعي هذا كله بدلًا من أن تقول: «لِمَ لا تتركين زوجكِ وتتزوَّجينني؟». حين سألتُك عن الأمر، اكتفيتَ بأن أعدتَ على مسامعي ما قلتَه لي في تلك الليلة الأولى، بأن عليَّ أن أتخذ القرار، وأن الأمر كله يقع عليَّ وحدي. قلتَ إن عليَّ التحلِّي بالإرادة. وهذا ما أفزعني، ولهذا لم أطرح الأمر مُجدَّدًا.

ثمَّ لاحظتُ أمورًا بشأنكَ ستُضايقني في ما بعد. تفوح من قدميكَ رائحة الخل. والشراشفُ تتدلَّى على ظهور الكراسي وأكواب نصفُ مملوءةٍ بالماء على الأرض إلى جانب الفراش. ثمَّ أمرُ انهماكك في ما تقرأه أو تستمع إليه، أو تضع سمَّاعات الأذن وتُمرِّر أصابعكَ على امتداد الحافة المكشوطة لطاولة الطعام، وفجأةً أتوقَّف عن الوجود، ولأنني كنتُ أدور في مدارك منذ لحظاتٍ فحسب، أشعر بالتجاهل، وتتعاظم غيرتي من كتابك، وسماعاتك، وحافة طاولة الطعام المكشوطة. بعدما تعرَّينا، مددتُ يدي بُحكم العادة أُشغِّل بعض الموسيقى، لكنكَ أوقفتني. أخجلني كل شيءٍ ولم يُخجلكَ شيء. لا يعنيكَ إن سمعتنا جبريلا، أو إن تلصَّصتُ عليكَ من زاويةٍ ينقصها الإغراء. لا موسيقى تطفو بيننا، تشغل لحظةً حرجة. ثمَّ قلتَ كلماتٍ. بصوتٍ مرتفع. ليست كلماتِ حُبٍّ وحنان، بل كلماتٍ خاصَّة عن فعلٍ خاص وجسمي الخاص وأعضائه.

لم أتلقَّ تثقيفًا جنسيًّا في حياتي. لم يُعلمونا في المدرسة شيئًا، وأمي شديدة التحفُّظ في الحديث عن الأمر. ظننتُ أن الجنس هو الإباحية. أو ذاك الأمر الآخر الذي يحدث محجوبًا بغطاءٍ منبسطٍ على رأسك. في الواقع، كان هذا أشدَّ الأمور مأساوية في العالم. وبعدها، ظننتُ أنني سأموت.

مهما كان ما كنتُ أفعله من قبل لا أستطيع أن أُطلق عليه جنسًا بعد الآن. أو لعلَّ ما كنتُ أفعله وأنتَ لا أستطيع أن أُطلق عليه جنسًا -لم أكن ذات خبرةٍ كافية لأعرف الفارق. كل الأشياء المتشابهة حدثت. لكنها لا تُشبه في شيء الحركات المألوفة التي أتيتُها من قبل. بل هي كل ما جعل الدماء تندفع إلى نصفي السفلي، كل ما جعلني أحلم بثغرك، كل ما يحفر عطركَ في رأسي

مثل أغنيةٍ أعجزُ عن نفضها وأنا أُحاول إعداد تصنيفٍ لعظام الحيتان، أيًّا كان اسمه. سمِّه حُبًّا. سمِّه جنونًا. سمِّه العودة إلى الديار للمرَّة الأولى. سمِّه أمي، التي تعيش في دمائي. أنا ملكُكَ وأنتَ ملكي. سمِّه نشأةُ العالم. كان الجنس كل شيءٍ ولا شيء، مجرَّد شظيةٍ صغيرة في حقيقته التامة البديعة.

***

حين أقبلت العطلة الأسبوعية مُجدَّدًا، استقللنا حافلةً إلى «نواكالي»، عابرين بـ «براهمابوترا» إلى «بولا»، ثمَّ تابعنا إلى «كولنا»، حيث وجدنا مركبًا متجهًا إلى «ساندربانز». لم يخطر ببالي حتَّى لحظة صعودنا على متنه أن أحدًا قد يُميِّزني، لكني لم أجد إلا سيَّاحًا: مجموعةٌ من رجالٍ كوريين يعملون في مصنعٍ للزجاج في شيتاجونج، وزوجان ألمانيان مسنَّان، ودبلوماسي سويدي وعائلته.

أوليتَ اهتمامًا لكل تفصيلٍ صغير بشأني، كل ندبة، وكل تجعيدٍ في جسدي. نمنا جنبًا إلى جنب على السرير السفلي لكابينةٍ ضيقة وشعرتُ بأنفاسكَ تتردَّد في أذني طيلة الليل وإذا أراد أحد منَّا أن ينقلب على جانبه، كان على كلينا أن ننقلب، لأن الفراش ضيق جدًّا. كنتَ تعانقني وتداعب شعري وأحيانًا، وبعدما نمارس الحُب، تبكي بكاءً خافتًا على كتفي. حين توقَّف القارب عند مصب «خليج البنغال»، عبرنا رافدًا بقارب مرَّ بنا خلال رقعةٍ من الأشجار إلى شاطئٍ أسود الرمال. شمَّرتُ سروالي وخضتُ في الماء. أما أنتَ فمزَّقتَ قميصكَ واختفيتَ تحت الماء. رُحتُ أتفكر طيلة الوقت تقريبًا في موتك، في أنكَ لو تعرَّضتَ لحادث طائرة أو أصابتكَ نوبة قلبية وأنتَ عائد إلى موطنك، لن يُفكِّر أحد في إخباري. شأني أن أصبح أقربَ إنسانٍ إليكَ في العالم، ولا يعرف بي أحد. كنتَ تُكرر على مسامعي هذا كل يوم، وتقول: «أنتِ أقربُ إنسانٍ إليَّ في العالم».

عُدنا من ساندربانز مُحمَّلَيْن بقنانٍ بلاستيكية من عسل الأحراش، قاطعَيْن وعدًا بأن نُكاتب الزوجين الألمانيين. ثمَّ قلتَ: «دعينا ننشأ بريدًا إلكترونيًّا. بهذه الطريقة يمكننا أن نُكاتب الناس معًا. كشخصٍ واحد».

ومع هذا كله، كنتَ غريبًا عني. حين سألتُكَ عمَّا يحمله لنا المستقبل، جاءت أجوبتكَ مُربِكة. لم تكن موقنًا من رغبتكَ في العودة إلى الدراسات العليا.

وقلتَ إنكَ راغب في تجميع صورٍ طبق الأصل «لناقوس الحرية»[1]. وتمثالٍ من هواءٍ مأخوذ من كل بلدٍ في العالم. أردتَ أن تؤلِّف مقطوعةً موسيقية ستبدو متشابهة إذا عزفتها من اليمين إلى اليسار أو العكس. أردتَ أن تُغني أغنيةً مختلفة لي كل صباحٍ حين أستيقظ، تستهل جميعها بعبارةٍ واحدة «مذاق فمكِ كالعسل». أردتَ أن تعزف على البيانو لثمانٍ وأربعين ساعةٍ متواصلة. أردتَ أن تُنجب اثني عشر طفلًا وتُسمِّيهم تيمنًا بموسيقيِّ الجاز. أردتَ أن تتعلم البنغالية وتشاهد أفلام «ساتياجيت راي» بلغتها الأصلية. أردتَ أن تُنفِّذ غُرز الحشو[2] لقطعة قماش تلفُّ دورةً كاملة حول العالم. كان حماسك مُعدِيًا، وحين كنتُ معكَ، كنتُ أكثر تألُّقًا وذكاءً وصار كل شيءٍ حيال العالم مُفزعًا، لأن كل شيءٍ ممكنًا، وهذا ما جعل فكرة افتراقي عنكَ تبدو قاسية، بها شيء من الطمأنينة أيضًا، إذ مَن يمكنه أن يعيش هكذا طيلة الوقت، مريضًا بالرغبة، وكل شيءٍ في ما عدانا كئيبًا لا أهمية له؟

ونحن على متن الحافلة عائدين إلى كولنا، شعرتُ بإرهاقٍ في ساقيَّ، وها هما الأسبوعان الأخيران يعقبان عليَّ بحركةٍ بطيئة. على إثرهما مكثتُ أيامًا في الفراش. أشجارُ الأيكة الساحلية، والمرشدون يشيرون إلى دلافين الإيراوادي، دلافين النهر الوردية التي تسبح إلى جانب المركب، والتمساح الذي رأيناه يتشمَّس على ضفة الرافد. اعتدتَ الاستيقاظ مبكرًا، وباتفاقٍ صامت تعودُ دومًا إلى الفراش قبل أن أستيقظ. ثمَّ تقول: «خرجتُ للركض»، أو «كنتُ أمارس التأمُّل». كان الشعر عند مؤخِّرة رأسي مُلبَّدًا ومتشابكًا. وكنتَ تقول تملكين جدائل الحُب، وأنتَ تُفكك العُقد بالمشط وطبق صغير من زيت جوز الهند.

كثيرًا ما أتيتَ على ذكر البيانو. وظننتَ أنه بُنِيَ في مصنعٍ في كوينز بين الحربين العالميتين -أفضل سنوات ستينواي في رأيكَ؛ كانت له نغمة دافئة أنيسة لم تسمعها من قبل قط. أما من سبيلٍ لنُخرج البيانو من على متن

---

(1) ناقوس الحرية: هو ناقوس يقع في مدينة بنسلفانيا، فيلادلفيا، الولايات المتحدة. ويُعتبر رمزًا للثورة الأمريكية. وصار ذا أهمية تاريخية من تاريخ 8 يوليو 1776 عندما دقت أجراسه وقت قراءة إعلان استقلال الولايات المتحدة. وفي عام 1837، أصبح ناقوس الحرية رمزًا للتخلص من العبودية في الولايات المتحدة. (المترجمة)

(2) غرز الحشو: هي نوع من أنواع التطريز، طبقات فوق بعضها ممَّا يدل على الزخم والتنوع. (المترجمة)

جريس لنُعيد تجديده بطريقةٍ ملائمة؟ إذا أولينا لها كثير العناية، قد تعود الآلة إلى نغمتها الأصلية، النغمة التي صُنعت لتعزفها، جرس يحمل تاريخها كله، سفراتها عبر القارات والعقود، وتحمُّلها لتيارات المحيطات والزمان.

***

سألتُكَ لماذا أحببتني، فأجبتَ أن نقاشات الحُب دومًا غائية. أنتَ تُحب أحدًا لأنكَ تُحبه حقًّا. تُحب خصاله الاستثنائية، لأنكَ تُحبه في كماله البشري. وبما أنكَ تُحبه في كماله البشري، تُحب فيه ما يجرحُك.

ثمَّ اقتبستَ من الرومي قائلًا: «الجُرح حيث ينفذ النور إلى داخلك».

فأجبتُكَ: «يا له من جوابٍ أشدُّ تعقيدًا ممَّا عقدتُ الصفقة عليه. بل كنتُ أسعى لجوابٍ رنَّان».

- الجوابُ الرنَّان هو: لا أدري. لكنني أُحبكِ رغم أنكِ، أو لعلَّه لأنكِ، فطرتِ قلبي.

- لو أُتيح لكَ الخيار، لربما تختار أن تُحب شخصًا آخر. شخصًا أفضل.

ذات يومٍ اقترحتُ عليك إمكانية لقائكَ في كامبريدج في أثناء الخريف. يمكنني العودة والتحدُّث إلى مُشرفي، والتوصل إلى سبيلٍ يُمكننا من كتابة بيانات الآمبولوستوس دون الوصول إلى الحفرية نفسها. كنَّا منهمكين في لعبة ورق؛ فألقيتَ الأوراق على الطاولة، حينها ظننتُ أن هذا يعني أن اللعبة انتهت وأنكَ فُزتَ، ولكن عوضًا دخلتَ إلى غرفة النوم وصفعتَ الباب. ولمَّا تبعتُكَ، تفاجأتُ بكَ أسفل الناموسية والغطاء يُغطي وجهك بأكمله.

- ماذا يحدث؟

أجبتَ: «اخرجي».

- لم أفعل شيئًا.

أدركتُ، خصوصًا مع اقتراب موعد رحيلكَ، أن الأمر سيزداد صعوبةً عليكَ. ولهذا أضفتُ:

- لكنني آسفة على أي حال.

جذبت الغطاء بعيدًا ونهضت جالسًا.

- ماذا كنتِ تظنين سيحدث حين ألححتِ عليَّ في المجيء؟

- لا أدري.

كنتُ قد خلعتُ خاتم زفافي وخبأته في مؤخِّرة درج ملابسي الداخلية، لكني لمحتُكَ كثيرًا ترمق البقعتين الشاحبتين من جلدي اللتين تُميزان موضع الخاتم. لا أدري ماذا ظننتُ سيحدث حين تأتي. لم ننطق كلمة «طلاق»، وصارت وجوه والديَّ وراشد ودوللي ونافيد كلها خاوية في عيني، الجميعُ أشباح إلاكَ.

- أردتُ أن أراكَ فحسب، أن أكون بقربك.

قلتَ: «لا تُفسدي الأمر إذن».

- وكيف تراني أُفسده؟

- لن أعيش علاقةً غرامية معكِ.

- وماذا في رأيكَ ما نحن فيه؟

- لا يمكن أن يكون هذا ما نفعله يا زُبيدة.

بدت شفتاكَ مُحكمتين حول فمك، واستشفَّيتُ محاولتك للإحجام على الصياح في وجهي.

- يحسُن بعلاقتنا أن تكون أفضل من هذا.

- لم تقترح عليَّ بديلًا قط. لم تقل يومًا «تعالي معي إلى كامبريدج، سنعيش معًا في شارع بروسبيكت ستريت، وسأعزف البيانو في الرايلز، ويمكنكِ التدريس في الجامعة، سنشتري خليط البراونيز من متجر «تريدر جوز». لِمَ لَمْ تفعل هذا؟ ارسم لي لوحةً يا إيلاجا. أخبرني كيف ستكون شكل الحياة.

لم أُدرك -حتَّى تلك اللحظة- كم أنا مستاءة من عدم فعلك أي شيءٍ من أجلي -أن تجعل الأمر واقعيًّا، أن تجعله مُريحًا. بدأ صوتي يرتفع الآن، ولهُنيهة، وأنتَ تتحرَّك تحت الناموسية، ظننتُ أنكَ ستهبط من الفراش وتترك الغرفة وتهرب بعيدًا عني، لكن لكمتْ قبضتك الوسادة في عنفٍ لدرجة أن بدت الغرفة بأكملها تهتز، ولذا تبعتُكَ تحت الناموسية واستلقيتُ فوق جسدكَ وأنتَ تنشج، ويديَّ تُخللان شعرك.

تجادلنا مُجدَّدًا في اليوم التالي، هذه المرَّة بشأن مو. لقد رأيتُ النظرة التي تتبَّعتكَ بها عينيه في أرجاء الغرفة، وحركة شفتيه وهما تُردِّدان الكلمات

بعدما تقولها أنتَ. في ذلك اليوم، جاء ليُعد لنا الغداء، وشعرتُ بشيءٍ مختلف حيال الكيفية التي سيطر بها على أفكاره، شيءٍ بدا مهزومًا، كأنما أخفق لتوِّه في اختبارٍ أو فقد حِليته المُفضلة -أعلم كم هو مُغرم باكتناز الأشياء التي يعثر عليها في السفينة، وأن لديه مجموعةً من الأشياء الصغيرة، مثل بوصلةٍ نحاسية، وغطاءٍ قلمٍ ثمين، وإبزيم مكسور لقلادة- ولهذا سألتُ إن كان بوسعي مساعدته في إعداد الطعام. لمَّا رأيته مُتردِّدًا، أقررتُ له بأنني طاهية سيئة؛ رقَّ لي حينها وأملى عليَّ بعض التعليمات، وراح يُريني كيف أُقطِّع البامية قطعًا عرضيًّا وهو منهمك في تقشير يقطينة صغيرة.

عملنا معًا في صمتٍ لبعض الوقت. ثمَّ قال مو: «هل ستتزوَّجين أنتِ وبرمون قريبًا؟».

اجتنح مرفقه النحيل إلى الحوض، حين أجبتُ: «في البلدان الأجنبية، لا يتزوَّج الناس بهذه السرعة».

- لكنهم في بنجلاديش يفعلون.

- أتريد الزواج يومًا؟

احمَّرت وجنته. كان قد حلق رأسه مؤخَّرًا، فرأيتُ الحُمرة تصبغ رقبته وأذنيه الصغيرتين البارزتين.

- سأتزوَّج، ما دمتُ سأتمكَّن من الزواج منها.

طلبتُ منه أن يُخبرني مَن هي، لكنه رفض. مرَّر إليَّ سكينًا كبيرًا، ثمَّ أتبعه بثمرة باذنجان وقال: «أختاه، الآن اقطعي النتوء».

وبعد ذلك، جلس القرفصاء أمام المِدقَّة السوداء الحجرية وراح يجرش البصل. وما إن بدأتُ تقطيع الباذنجان، حتَّى سأل بالبنغالية: «كنتِ تعيشين في الخارج؟».

- أجل، لوقتٍ طويل. كنتُ طالبةً في أمريكا.

أنهى جرش البصلة وشرع في أخرى، يدقُّها بالهَاون الأسود الثقيل، يجرشها به ثمَّ يجذبه نحوه، ويعيد الكَرَّة، حتَّى تحلَّلت البصلة إلى هريسةٍ أرجوانيةٍ باهتة. دمعت عيناه، فأشاح برأسه ليتسنَّى له أن يمسح وجهه بقميصه. ثمَّ قال:

- أريد السفر إلى هناك. أتظنين أن برمون سيأخذني معه؟

- لا أدري.

- قال إنه أحبَّ طهيي.

بدأتُ أستوعب أمرًا؛ فتركتُ الباذنجان وجثمتُ إلى جانبه. ثمَّ قلتُ: «لا أظنُّ ذلك».

لاحظتُ مدى ضآلة ذراعيه مقارنةً بذراع الهَاون، وصِغر قدميه وهما تستقرَّان على الحجر.

- إنَّ اصطحاب أحدٍ إلى البلدان الأجنبية أمر عسير.

- إنه يدعوني بـ «أخي».

أردتُ أن أُخبره إني أُدرك الشعور تمامًا، شعورَ أنكَ في مركز عالمك، وأن جوعكَ فريد لا يُسمَّن، وأنني مُستَعبَدة له بدوري، ومتوجِّسة كذلكَ إلى أين سيأخذني.

ساعتها جهر مو ببكائه، وعدتُ أنا لتقطيع الباذنجان، أمنحه هُنيهة من الخصوصية. فانكفأ على الحجر، يطحن بصلةً وراء أخرى. ثمَّ اغترف كل شيءٍ في سلطانية وأشعل الموقد، يعمل سريعًا ولا يُلقي بالًا لمسح دموعه.

تساءلتُ عمَّا يمكنني أن أقدمه لمو في هذه اللحظة، شيئًا يُعوِّضه عن تحطيمي لحلم رحلته إلى أمريكا. ثمَّ سألته: «أتعرف القراءة يا مو؟».

توقَّف عن التقليب والتفت لمواجهتي.

- لا.

- ألم تذهب إلى المدرسة قط؟

- ما من مدارس في هذا المكان.

قلتُ:

- سأُعلِّمك. وسنبدأ الليلة.

عاود البكاء، فشعرتُ بحافزٍ يدفعني لمعانقته، لكنني أبصرتُ لسببٍ أو لآخر أن هذا ليس ما يريده، ولذا أبقيتُ عينيَّ عليه وهو يُنهي الطهي ويسكب الكاري في السلطانيات ويعدُّ الطاولة.

كان الطعام حارًّا جدًّا وبالكاد استطعتُ تناوله، وبدا عليكَ أنكَ لم تلحظ حين جنحت تجمع الأطباق فوق طبقك. لم أكن جائعة على أي حال. ثمَّ عاد

مو وسكب الماء في كأسينا. ولمَّا شكرت له صنيعه، انسلَّ إلى المطبخ دون جواب. فسألتني: «هل من خطبٍ به؟».

- ظنَّ أنكَ ستأخذه إلى أمريكا.

- حقًّا؟ يا إلهي.

صرتَ تتحسَّن في تناول الطعام بأصابعك، تمزج حفنةً من كل طبق بقليلٍ من الأرز كما علَّمتُكَ.

- وماذا قُلتِ له؟

- لا شيء. أعني، لا شيء مُتعمَّد. ولكن ربما تعيَّن عليَّ أن أكون أشدَّ حرصًا.

لعقتَ أطراف أناملكَ. ثمَّ قلتَ: «يمكنني ذلك».

- يمكنكَ ماذا؟

- يمكنني أن آخذه معي.

كنتَ أمريكيًّا تقليديًّا. لعلَّك لم تعرف يومًا الاصطفاف خارج سفارةٍ، متسائلًا متى سترُفض استمارة تأشيرتك، لعلَّك لم تسمع أصدقاءك يحيكون الخطط المتنوعة التي تُمكِّنهم من الخروج من البلاد إلى الأبد، لعلَّك لم تألف ذاك الشعور المؤلم في جوف معدتك حين تُقدِّم جواز سفرك المُغلَّف بالجلد الأخضر إلى مسؤول الهجرة في مطارٍ أجنبي.

- سيتعيَّن عليكَ تبنِّيه أو شيء من هذا القبيل.

- أعرف.

تناولتُ رشفةً من الماء، ثمَّ قلتُ:

- لا، أنتَ لا تعرف. أنتَ لا تعرف أي شيء.

أطرقتَ إلى طبقكَ الفارغ، وأجبتني:

- إذا كنتِ تُحاولين أن تُخبريني بأنني جاهل بشعور النشأة في هذا المكان، فأنتِ على حق. لكن لا تُشككي في نواياي.

- إنكَ تجعل كل شيءٍ يبدو سهلًا وهو في حقيقته ليس كذلك.

- أحيانًا نظن أن الأمور عسيرة -بل مستحيلة- لكن كل ما علينا فعله هو القيامُ بها.

لا شك أنكَ تتحدَّث عنِّي. ولكن أنَّى لكَ أن تعرف إذا كان الأمرُ يسيرًا أم عسيرًا في حين أنه ما من أحدٍ يُعلِّق آمالًا عليك، حين لا يمانع والداك إن تركت الدراسات العليا أو لم تكن لكَ مهنة قط أو تزوجتَ من فتاةً غريبة التقيتَها في حفل موسيقي؟

قلتُ: «أنتَ لا تعرف أي شيءٍ عني. ولا حتَّى أول شيءٍ عني».

- لكنكِ تتمتعين بإرادة أقوى ممَّا تعترفين لنفسكِ به.

- أهذا لأنني فتاة صغيرة يتيمة شقَّت طريقها إلى النور؟

وهذه -بلا شك- هي طريقتي في إخباركَ بما أخشاه حقًّا -ليس استهجان راشد أو دوللي أو بلبل، بل الأمر هو أنني سأفقد والديَّ، العائلة التي لم أنلها ولم أستحقها، سأفقد حقًّا كل شيءٍ تقوم عليه حياتي. لكنني لم أُصرِّح بأيٍّ من هذا، بل افترضتُ أنكَ تعرف، ولاحقًا حين لم يعد يجمعنا شيء سوى صمت قاتم، تمنيتُ لو أوضحتُ لكَ الصورة. تمنيتُ لو أخبرتُكَ أني عِشتُ حياتي في خوف من أن يُعيداني يومًا من حيث جئتُ، يُرجِعاني، ومع أنهما أحبَّاني ودلَّلاني طيلة حياتي، لم أقدر يومًا على دحض الشك بأنهما قد يُغيرا رأيهما يومًا.

***

تفاجأتُ بكَ مستيقظًا في منتصف الليل. بادرتَ: «جافاني النوم... لقد تزوَّجتِه. لماذا فعلتِ ذلك؟».

- كنتُ وراشد متزوِّجَيْن من الناحية العملية على أي حال.

برز القمر من ورائك ورأيتُ حدود وجهكَ لكني لم أتبيَّن تعبيره حين قلتَ: «أنتِ عاهرة».

لم أسمعك قط تنطقُ بهذه الكلمة في غضب، بل في نغمة مُحبَّة فحسب.

- لقد عِشتُ حياةً بأكملها قبلكَ يا إيلاجا.

- فطرتِ قلبي. هناك في كامبريدج. ولن أسمح لكِ بتكرارها مُجدَّدًا.

- وفي رأيك كيف أفطرُ قلبكَ الآن؟

- ما كان يجدر بي المجيء. وما كان يجدر بنا الانغماس إلى هذا الحد قط.

كانت فطرتي لتدفعني إلى أن أحاجك بأني لم أخنُكَ؛ لم نَعِد بعضنا بأي شيءٍ قط: وكانت خطبتي لراشد سابقةً لكل ما حدث بيننا، ولو كان لأحدٍ الحقُّ في اتهامي بالخيانة، فهو راشد. لكن ذاك الحديث لم يكن مُنصفًا من جانبي. لا شك أننا قطعنا وعودًا لبعضنا. في ذلك اليوم حين كنَّا معًا في كامبريدج، نسير متجوِّلين في أنحاء ماس أفي، وأمام الزهور الزجاجية، وفي جنازة جدتك -كانت جميعها توطئة واحدة طويلة لعهدٍ سنقطعه. ولهذا السبب أقسمتُ في ديرا بوجتي أن أُحرِّر نفسي؛ لهذا السبب انتظرتُ وقلبي يرتجف في أضلعي كل رسالةٍ تُرسلها؛ لهذا السبب تملَّكني غضب شديد حين أُلقي القبض على زمزم وأُلغيت عملية التنقيب. هذا لأنني أدركتُ -منذ النغمة الأولى التي عزفها عازف البيانو بعد الاستراحة- أنكَ ستصير العهد الذي سيغلب كل وعودي الأخرى. خُنتُ عهدنا حين تزوجتُ، والآن عليَّ أن أمزِّق كل شيء لأتدارك الخطأ. أحطتُكَ بذراعيَّ ودفنتُ رأسي في انحناءة رقبتك؛ وبقايا عطرك الصنوبري لا تزال على جسدك مع أن ملوحة البحر والحرارة الخَضِلة بالرطوبة لأوائل الصيف أبهتت شذاه. ثمَّ كررتُ على مسامعك، مرارًا وتكرارًا، كم أنا آسفة لكَ، ممَّا يعني أنني أيضًا آسفة لنفسي، وآسفة لمغامرة ترابطنا الدافئ بأكملها. ثمَّة كلمة واحدة أستطيع النطق بها وستُصلِح كل شيء. قلتُ: «سأُنهي الأمر. سأُخبره. ما إن يعود من الصين، حتَّى أُخبره بكل شيء».

أعلم أن جزءًا بداخلك لم يُصدقني، لكن بقيتكَ أرادت بشدة أن تُصدِّقني، حتَّى قبلتَ بوعدي وسمحتَ لنفسكَ أن تُبادلني العناق، وفي تلك اللحظة، كنَّا معًا قلبًا وقالبًا، ليس منَّا المُذنِب، وليس منَّا المجروح.

***

البحث عن أمي

ستتذكَّر بنفسك حتمًا كل ما سأسرده من أحداث. لكنني أخطُّه إليكَ الآن لتعرف أنها مطبوعة لا تُمحى من ذاكرتي. كل لحظة فيها وكل كلمةٍ منها. ولو تصادف أن تدنَّت نظرتُك لي إلى حد أنكَ طردتَ كل أفكاركَ عنِّي من رأسك، لدرجة أنكَ أجبرتَ نفسكَ على النسيان، فأنا هنا لأُذكِّرك. أُذكِّرك بأننا وقعنا في حُب بعضنا. وكان حُبنا حقيقيًّا. شهد عليه الشهود، وأنا واحدة منهم.

أمكثُ في منزل بيتينا طيلة عيد الميلاد. إنه منزل متواضع من طابقين في ضاحية أستوريا، يلحق به مرج أماميٌّ ضيِّق، ويُحيط به جيران يعرفون العائلة منذ أن انتقلوا إلى المنزل قبل أربعة عقود. ومن نافذة غرفة الضيوف الصغيرة في الطابق الأخير، أستطيع التقاط الرائحة الشعيرية للديك الرومي ولحم الخنزير المُقدد الذي حُشِيَ به صدره. تُخبرني والدة بيتينا أنني بحاجة إلى الاستزادة في الطعام، فيطمئنُ قلبي لصدى حديث الأمهات هذا. أسمع الكلمات نفسها من أمي وباشونتي حين أكون في منزلي في دكَّا.

عاش أبي ذات مرَّة في نيويورك. كان قد انتقل إلى هنا بُعَيد الحرب وعمل سائق أجرة، ثمَّ تشارك غرفةً فوق مطعم في «جاكسون هايتس» مع رجلٍ بنجلاديشي يُدعى آصف، نصحه ألا يقبل توصيلةً إلى شارع «116 ستريت». وقال له: «هؤلاء السود جميعًا مُجرمون». لقد شارك أبي في حرب، وهو ما أعجزه عن التعامل مع مثل هذه التصريحات بجديَّة. سرعان ما صادق أبي جورج، والذي كان يقود سيارة أجرة أيضًا ويطلبُ أحيانًا البيض في نفس

المطعم الذي يأخذ فيه أبي قهوته الصباحية (كان لها مذاقٌ مكتسب الطعم، لكنه استلذَّه في نهاية المطاف). كان لجورج جدائل سوداء ورمادية تصل إلى خصره، وارتدى كنزةً صوفية ذات رُقعٍ جلدية عند المرفق. كان يعيش في «فلاتباش»، في منزلٍ تشاركه مع دزينةٍ أو يزيد. كانا يأكلان معًا وفق جدول تناوب ويقرآن لبعضهما جهرًا كل مساءٍ بعد العشاء، وهو ما يطهيانه مستخدمَين الخضراوات المزروعة في الحديقة الخلفية. حين زاره أبي، أجابت الباب امرأة شابة وقالت: «نامستي» بيدين مضمومتين. أوشك أبي أن يوضح الأمر لها بأنه في بقعته من جنوب آسيا، لا يُحيون بعضهم بـ «نامستي» بل يقولون «السلام عليكم»، ولمَّا دق جرس الباب ثانيةً وحيت المرأة شخصًا آخر، هذه المرَّة كان شابًّا ذا لحية، عندها أدرك أنها تستخدم هذه الكلمة لتحية أي أحد، ولا تقتصر على شخصٍ يوحي مظهره أنه يعرف ما تعنيه الكلمة، ولم يقضِ إليه تفكيره إن كان هذا الافتقار إلى التخصيص فعلًا جيدًا أم سيئًا. لاحقًا، قرأ بضعة مقاطع شعرية للشاعر نذر الإسلام من قصيدة «المتمرِّد» للجمع المحتشد، وهو ما ضمَّ زُمرة من البشر يمكن تصنيفهم على نطاقٍ واسع بالهيبيز.

أنا الثورة، أنا السقوط
أنا البصيرة في الروح العمياء...

أنا المُتمرِّد الأبدي،
أرفعُ رأسي فوق العالم...

***

بعد ذلك نهض أُناس عدَّة وعانقوا أبي. كانت هذه المرَّة الأولى، منذ وصوله إلى أمريكا، التي يُلمَسُ فيها بهذه المحبة. أبكاه العناق، هذا لأنه لم يُنعِ شقيقه قط، شقيقه الذي مات أمام عينيه في أرض المعركة. فكَّر في ترك الشقة في «كوينز»، ورائحة السجائر والحنين إلى الوطن وشركاء الغرفة الذين يرتدون الكثير من طبقات الملابس في نوفمبر. لكن في تلك الليلة، حين عاد إلى شقته، سمع اللغة البنغالية تتردَّد في ممرات المبنى، وأدرك

حينها أن عليه البقاء، ولذا استقرَّ على قضاء العطلات رفقة جورج، يستمعُ إلى جوني ميتشل على جهاز التسجيل الشريطي ذي البكرتين، ويزرع شجرة موز في الرقعة المشمسة من الحديقة. رويدًا أخذ الجُرح النازف من موت شقيقه يندمل. وراح يخطُّ الخطابات الطويلة لأمه، ويسطرِّها وهو عالق في زحام ساعة الذروة، ويعلِّم الهيبيز لعب الكريكت، حتَّى إنه جلب آصف، رفيقه في الغرفة، إلى المُجمَّع، حيث يجلس في غير ارتياحٍ على حافة أريكة تفوح بعشب البطشولي العطري ويُنصت إلى الجمع يرتلون ترنيمة «أوم». في ذلك الوقت، مضى على أبي في أمريكا أربعُ سنين، وأوشكت تأشيرته أن تنتهي. فكَّر في العودة إلى الديار، لكن يعتريه خجل شديد من الاعتراف بأنه لم يُنجز شيئًا سوى قيادة سيارة أجرة طيلة الوقت الذي قضاه في نيويورك. وكان شقيقه الآخر قد أسَّس مصنعًا ناجحًا لصناعة الطوب على ضفاف نهر «بوريجانجا» ويُدرك أنه سيُدفع دفعًا للانضمام إليه إذا عاد إلى الديار خالي الوفاض. عرض مشكلته على قلةٍ من معارفه. وأخبره جورج أن يُفكِّر في النتائج السياسية لاختياره المشاركة في المشكلة العسكرية الصناعية من خلال بقائه في نيويورك. وعرض عليه صاحب العقار، وهو مالك المطعم في الطابق السفلي، سهمًا في فرعه الجديد الذي يُخطط لافتتاحه في مدينة «ألفابيت»، مطعمه الأول في ولاية «مانهاتن». وجاء اقتراح آصف لأبي بأنه لو أراد تمديد إقامته في أمريكا واستغلال الفرص في أرض الفرص -وهو ما لم يبدأ بفعله بعد لانشغاله بزراعة نباتاتٍ وتعليم أُناسٍ الطريقة الصحيحة لرمي كرة الكريكت- فإن أيسر الطرق في حالته هو الزواج. ولتلك الأمور وُجِدَت شبكات معارف، مثل أُناسٍ يعرفون أُناسٍ يعرفون أُناسٍ آخرين. لكن أبي لم يرغب في الزواج من مجهولة. بل منح نفسه مدَّة ثلاثة أسابيع للوقوع في الحب. راح يقطع الشوارع ذهابًا وإيابًا ويُحاول النظر في قلوب النساء اللاتي يمرُّ بهن. ويُبصر زبائنه في مرآة الرؤية الخلفية. ويُلقي بنظراتٍ خاطفة عن يمينه وعن يساره وهو جالس إلى النُّضد في المطعم. لكن لا أحد. لا أحد سيبادل أبي النظر في عينيه. وفي المُجمَّع، عرضت فتاة النامستي الزواج على أبي، فرفض عرضها في تهذيب. وأخيرًا، عرَّفه جورج إلى صديقةٍ له، فتاة ثرية من «أبتاون» أرادت أن تُثير حنق والديها. تزوَّجا في الباحة الخلفية للمُجمَّع، تُظلِّلهما شجرة الموز وعارشة الطماطم، دون حضور قريبٍ واحد من الجانبين. لاحقًا، بعدما قرَّر أبي رغبته في العودة إلى بنجلاديش في نهاية

المطاف، الآن وقد روَّض ذكرياته عن الحرب، لم يُحزنه الطلاق، ولا التخلِّي عن سيارته الأجرة المحبوبة، ولا هجره الشقة التي تشاركها مع آصف، بل ما أحزنه هو جورج الذي راح يبكي ويقول: «يا رجل، أنتَ فئة غريبة من الناس» ثمَّ أهداه نسخةً من رواية «بلد آخر»[1] لترافقه في رحلته الطويلة للعودة إلى الديار.

هل هذه الحكاية تُفسِّر سلوكي؟ لا. لم أقضِ جزءًا من حياتي ساكنةً أعلى مطعمٍ في جاكسون هايتس. ولم أُوصل الآخرين إلى مقاصدهم في سيارة أجرة، ولم أخدم الطاولات أو أدخر كل قرش أكسبه. لقد محى أبي تاريخه وألقى به وراء ظهره ثمَّ يسَّر كل شيءٍ في حياتي. ولكن ما إن أُفكِّر في الأمر، أجدُ أن هذه القصَّة تمنحني الإذن بالتبرير إلى نفسي، وهو: أنني لستُ الوحيدة التي تزوَّجت لحل مشكلة.

***

أردتَ أن تعزف البيانو لمرَّة أخيرة، فسألتَ مو: «أيمكنكَ أن تأخذني إلى متن السفينة مُجدَّدًا؟».

اتجهنا إلى الشاطئ معًا. وبدأ البلى يظهر على محيا جريس. لقد انتُهِكَ جسمها؛ وفي ذلك الصباح تحديدًا، اقتطع طاقم القطَّاعة قسمًا مستطيلًا من ميمنتها. كان من المستحيل أن يسمح لنا عليٌّ بالصعود على متن السفينة الآن. ورسمتَ ومو خططًا للتسلل. وراح مو يشرح الطريق المُحدد، إذ قطعه مرَّات كثيرة في أثناء تنظيف جريس. ليست المرَّة الأولى التي أُدرك بها أن مو يحظى بحياةٍ تتجاوز أنظارنا، وأنَّ عليَّ الاجتهاد في عملي لتمييز الحقيقة من الاختلاق في قصصه. وعدا أن هذا كالكثير من الأمور في حياتي، لم يبدُ في نظري عاجلًا. فقد كان ما يسعني التفكير فيه هو أنتَ، والتفكير فيكَ بمنزلة التفكير في نفسي أيضًا، وفي ما سأفعله معكَ، وحين أسترجع الماضي أراه زمنًا أنانيًّا، زمنًا جعلتُ فيه من نفسي مركزًا للكون، ولعلَّ هذا هو ما يعنيه الحُب؛ لحظة من الزُهد وكذلك لحظة من الطمع، كأن امرأً غائبًا وفي الآن نفسه كُليَّ الحضور لبقية حياته.

---

(1) رواية للكاتب الأمريكي جيمس بالدوين، نُشرت للمرَّة الأولى عام 1962. (المترجمة)

بما أن أحدُ جوانبُ جسم السفينة جريس قد فُكِّكَ آنذاك، لم نعد مضطرين لأن يسحبنا أحد إلى متن السفينة لنصعد إليها. تبعنا مو إلى سُلَّم من الأحبال يتدلَّى من إحدى العرضيات المنخفضة للسفينة، وما إن صعدناً على متنها، اتخذنا طريقًا متشابكًا عبر الممرات والسلالم المتبقية، حتَّى عبرنا أخيرًا ممرًّا يُشبه الجسر، لكن لا بُدَّ أنه كان جسرًا مؤقتًا، أدى بنَّا إلى قطاعٍ ميزَّته بأنه الطابق الذي ضمَّ قاعة الاستماع. ترددت أصواتنا إذ اصطدمت بالصُّلب، وقرقعت خطواتُ أقدامنا كالأجراس. أُزيل الباب المؤدي إلى قاعة الاستماع -وصار الآن مجرَّد فجوةٍ محفورة في هيكل السفينة. رُفعت الكراسي، وعُرِّيت الأرضية من السجَّاد. نجا قوسُ مقدمة المنصة من الإغارة، لكنَّ الخشب الذي أطَّره لم يُحالفه الحظ. أُزيلت الستائر، وظلَّت المنصة، وسيقانُ البيانو لا تزالُ مُثبَّتة إلى سطحها، فبدا كأنه نجا من تفجير، ظلَّ على حاله أسود وبرَّاقًا وشعاعَ التألق الوحيد المُتبقي في رقعة العفن هذه.

أُقصِيَ مقعد البيانو، لذا عزفتَ عليه واقفًا، تميلُ إلى المفاتيح بذراعين منبسطتين. سمعتُ النغمات المألوفة، والسُّلَّم الموسيقي يتصاعد ويتصاعد. تنويعة جولدبيرج الثالثة عشر. انحرافات بسيطة، خطأ هنا وهناك، ومواضع توقَّفت فيها -عجزت فطرتك عن إمدادكَ بإيقاعات باخ التي تُعزف بيديَّ عازف جاز- لكنها غضاضة جميلة. وقف مو إلى جانبك وحاوطتُ أنا كتفيه بذراعي؛ تمنحنا الموسيقى والظلمة إذنًا بالتلامس كأننا إخوة وأخوات، متكافئين في حُبنا لكَ.

بدا البيانو -حتَّى لأُذني غير المُدرَّبة- مختلفًا عمَّا ينبغي له. وعلى تلك الشاكلة خطر ببالي أنه يُشبهنا تمام الشبه. ففي كل يومٍ يمرُّ علينا، يزداد تعرُّضنا شيئًا فشيئًا للأصول، في كل يومٍ تزدادُ هشاشتناً، فتُبدي لنا كم هو سهل تدميرُ كياننا. وكم نحتاجُ إلى خلاصنا.

***

في يوم رحيلك رُحنا نُلقي نظرةً على الصور التي التُقطت لنا معًا. كانت لكَ صورة تتكئ فيها على الجذور العقدية لشجرة «هيريتيارا فومز» وهو الاسم العلمي لشجرة السندري. والضوء الأزرق الداكن للغابة يُلقي بكآبةٍ عميقة على ملامحك، وعيناك اللتان اعتدهما برَّاقتين كانتا نصف مُغلقتين، وشفتاك مغلقتين على بعضهما في غير ابتسامة. كانت لكَ صور أخرى مُبهجة؛ وأنتَ

تحمل المجاديف في بحيرة فوي؛ وأنتَ ومو تنحتان بجسديكما هياكل ملائكةٍ على رمال الشاطئ؛ وأنا وأنتَ في صورةٍ مُقرَّبة، لا يفصلنا عن الكاميرا إلا مدُّ ذراعٍ فحسب؛ ثمَّ صورة للمرَّة الأولى التي صعدنا فيها على متن جريس، لكن هذهِ الأخيرة هي الصورة المُفضَّلة لديَّ لأنكَ كنتَ تعرض تركَ جزءٍ ضئيل منكَ داخل إطار الصورة، وهذا الجزءُ هو لمحة على أحلك مخاوفك.

جرى الاتفاق على أن يأتي السائق لتوصيلكَ في الساعة الثالثة. وعزمتُ على صحبتك إلى المطار ثمَّ العودة إلى الترسانة وإجراءُ مقابلة أخيرة مع العمال. ثمَّ عزمتُ على العودةِ إلى منزلي، وانتظارُ راشد، لأُخبره بأني سأهجره. تطلعتُ إلى الساعة، أحثُّ الوقت على المُضي سريعًا فتنتهي لحظةُ وداعنا. قصدنا الفراش ومارسنا الحُب. وبعد ذلك، غطيتَ وجهي براحة يدك، فأغلقتُ عيني وفكَّرتُ في شعوري لو أني راحلة معك، لو أني أحزمُ حقيبتي الآن وأُلقي الوداع على الجميع في بروسبيرتي.. لو أني أُخبر والديَّ. أحسستُ بموجةٍ من غضب مُوجَّهة إليكَ لأنكَ لم تُلِحَّ عليَّ في الذهاب معكَ الآن، لأنكَ تدعُ الأمر لي لأُقرر متى وكيف سأُدمِّرُ حياتي.

نهضنا عن الفراش وبدأنا وضع اللمسات الأخيرة على حزم حقيبتك حين وقع الأمر. كنتُ قد غلَّفتُ قنينة بلاستيكية من العسل في حقيبةٍ وأحكمتُ إغلاقها بلف شريطٍ لاصق عليها، وكنتُ أنحني على حقيبتك وأدسُّ العسل في الجيب الجانبي حين سمعنا طرقة على الباب. تحرَّك مو ليُجيب الطارق، وهناك، على الجانب الآخر من عتبة الباب، كان يقف راشد.

لم يبدُ متفاجئًا. بل سار مباشرةً إليكَ وصافحك، كأنما كان متوقعًا وصوله وزوجته تحزم حقيبة رجلٍ آخر. أحسستُ أنَّ ساقيَّ تخذلاني، ولذا سِرتُ إلى النافذة واستندتُ إلى الحائط وشاهدتكما تتعرَّفان إلى بعضكما. قلتَ بوجهٍ يخلو من أدنى شعورٍ بالندم: «أنا إيلاجا». فقال راشد: «لا بُدَّ أنكَ صديق لزُبيدة». ولعلَّه قال شيئاً مثل: «مرحبًا بكَ في بنجلاديش»؛ لا أستطيع استرجاع الكلمات الحرفية، هذا لأن هديرًا صاخبًا سدَّ أُذنيَّ وخشيتُ أني لو فتحتُ فمي لربما اضطررتُ إلى الصياح ليهدأ الصخب في رأسي.

أُحاول وأُفكر في ردة فعل أيِّ إنسانٍ ذكيّ. للإنسان الذكيِّ أن يستغل الفرصة التي منحتها له اللحظة الراهنة ويُفصح عن كل شيءٍ في العلن –لو أني فعلًا قصدتُ ما قلته لكَ، لو أني عزمتُ فعلًا عن هجر راشد، فأيُّ توقيتٍ أفضلُ من الآن؟ للإنسان الذكيِّ أن يقُصَّ الحكاية بأكملها، بألفاظٍ هادئة لا

لبس فيها. للإنسان الذكي أن يُفصح عن إخلاصه -لا لكَ وحدكَ أنتَ الرجلُ الواقعةُ في حُبه، بل لنفسي أيضًا. لكني لستُ ذلك الإنسان، ولا حتَّى في ضوء حضوركَ البهيِّ.

أمارة وحيدة هي ما دلَّت على ملاحظة راشد لأي شيءٍ مطلقًا، وهي قوة أنفاسه الطفيفة والكيفية التي راح يرفع بها أشياء عدَّة ويحطها في مكانها ثانيةً، مثل برطمان المُخلل على طاولة العشاء أو الكاميرا التي تركتها جبريلا على رف الكتب. وأخيرًا أحسستُ بلساني يتلعثم في شيءٍ بشأن مجيئك للزيارة. أعرفُ أنكَ انتظرتني لأنطق بشيءٍ من الحقيقة إلى راشد، لكنني عرفتُ منذ اللحظة التي رأيته فيها أنني لن أفعل. وعرف ذلك هو الآخر. وقفنا في غرابةٍ لا نأتي بفعل بينما تنتظران أنتما الاثنين منِّي أن آتي بتصرُّف، أن أضع مفردات الحديث الذي أوشكنا أن نخوضه. كنتُ ما زلتُ قابضة على قنينة العسل، ثمَّ سِرتُ إليكَ يا إيلاجا، ووضعتُها في يدك المنبسطة. وقلتُ: «لا تنسَ هذا». ثمَّ سألتُ راشد عن رحلته إلى الصين، فأجاب بأنها كانت رحلةً جيدة، وأنها انتهت مبكرًا عمَّا اقتضى لها، وأن السيارة بانتظاره في الشارع وإذا كنتُ جاهزةً بإمكاننا الرحيل من فورنا. ثمَّ قال لكَ: «يشتد الزحام دومًا في المساء»، يقول لكَ هذا كأنكَ أيضًا تُخطط للذهاب إلى الجانب الآخر من المدينة وقضاءُ الليلة في فيلا تفوح برائحة الياسمين الهندي على جانبٍ من تل.

قلتُ ولم أقصد أحدًا بعينه: «التقيتُ إيلاجا في هارفارد».

ثمَّ سمعتُ راشد يرد: «أجل، افترضتُ ذلك»، مع أنَّ عينيَّ مثبَّتتان عليكَ، وعلى انحنائكَ إلى حقيبتك، وعلى هيئتكَ التعسة الكامدة. ثمَّ بدأ يتبادر إلى ذهنكَ الآن أنني لستُ عازمةً على إخبار راشد بأي شيء، وأنني سأعود إلى دياري وأتركَكَ هناك في الشقة. ثمَّ لاحظتُ مو يهيم على مقربةٍ منَّا وخشيتُ أن يقول شيئًا بشأنه أن يفضح أمرنا، ولهذا، وبتلويح من يدي، أشرتُ له أن يُغادر الغرفة. كان تلويحي أشبه بإيماءة هَشَّة كنتُ غالبًا أرى دوللي تُشير بها لخدمها، وإلى هذا اليوم، ومن بين جملة ما أخجلُ منه من أمور، يظلُّ تلويحي له في تلك الليلة هو أكثر ما أندمُ عليه.

دخلت المطبخ وسمعتُكَ تتحدَّث إلى مو. ثمَّ خرجتما معًا وتصافحتما. وقفتُ وراشد نراقبكما. ثمَّ دسست قصاصة ورقٍ مطوية في الجيب الأمامي

لقميص مو. وحوَّطَ خصرك بذراعيه حتَّى اضطررتَ لانتزاع نفسك منه. ثمَّ سمعنا وقع قدميه العاريتين على درجات السُلمَّ، كأنها حركاتُ حيوانٍ جريح.

- تستطيعين حزم أمتعتكِ لاحقًا.

قال راشد وأومأتُ له في صمت، ثمَّ استدرتُ نحو الباب وعبرته.

وهناك حيث افترقنا يا إيلاجا أمام ناظريَّ زوجي، أتعلم في ما كنتُ أُفكِّر؟ ليس شعوري بالندم -لحظة مغادرتي الشقة- على الطريقة التي حطَّمتُ بها كل شيءٍ حدث بيننا في الأسابيع الأخيرة؛ ولا معاملتي لمو، ولا هجري إياكَ دون أن أُلقي عليكَ حتَّى وداعًا لائقًا، ولا النظرةُ اللا مبالية التي رمقتُكَ بها بوصفها الصورة الأخيرة لوجهي في عينيك، ولا الكيفية التي سمحتُ لراشد أن يُطوِّق بها خصري بذراعه -لا، ولا أي من ذاك كله. بل كل ما وسعني التفكير فيه، ونحن نهبط السلالم ونستقل السيارة مكيفة الهواء، هو فقط لو أنَّ راشد قد وصل بعد بضع ساعاتٍ، لجنَّبته رؤيتي وأنا أُحدِّقُ إليك كأنما ولدتني أمي لتوِّي، ولعاد كل شيءٍ لطبيعته المعتادة، ولما اضطررتُ لتوضيح أي شيء، ولا قصصٍ لأبوح بها، ولا شعورٍ بالذنب يُثقلني كأنه حجارةً مربوطةً إلى كاحليَّ.

أتذكر حين قالت آنا لــ فرنوسكي: «***ألا تُدركُ أنه مُذ يوم أحببتُكَ تغيَّر كل شيءٍ في نظري؟***». وكذلك تغيَّر كل شيءٍ في نظري يا إيلاجا. لكن ليس بالقدر الكافي. لم يتغيَّر كل شيءٍ بالقدر الكافي، ليس بالقدر الكافي في نظري لأتحلى بشجاعة النطق بالحقيقة لحظة اقتضاء الحقيقة، ليس بالقدر الكافي في نظري لأحذو حذوكَ وأترك من ورائي كل أسئلة حياتي التي لا جواب لها. لقد ظلَّ الكثيرُ على حاله. ليتك لا تقرأُ هذا وتُسامحني -أعرف أنكَ لن تُسامحني- إذن لا تُسامحني بعد. ثمَّة الكثير من التفاصيل في هذه الحكاية، وسترى بأم عينيك؛ أما الآن، فلن أقول لكَ سوى ما هو آتٍ: لقد تحرَّقتُ رغبةً في أن أكون الإنسان الذي سيهزمُ كل شيءٍ ويُقحم نفسه في المجهول، لكنَّ المستقبل ليس وحده المجهول في نظري، هذا لأنني بالفعل سفينة عائمة لا ترسو، ولا أستطيعُ قطع الأحبال التي تُبقيني ساكنةً في موضعي. ليس بعد.

***

في الأيام التي أعقبت ذلك اليوم، كنتُ دمية متحركة. يأمرني راشد بتناول شوربة الدجاج، فأفعل. يُخبرني بوجوب التوقُّف عن التنزُّه حول الضيعة رفقة جوشيم لأن بعوض النهار قد يُصيبني بحُمى الضنك، فأقضي الصباحات في

الداخل. يأخذني إلى باتينجا حيث نغمس أقدامنا في البحر ونستمع لنعيق النوارس وقشرُ الفول السوداني يتهشَّم تحت أقدامنا. كان صبورًا مباليًا بمشاعري، كأنما وجدني بين مخالب مرضٍ عضال. أما في الليل، يلتزم بجانبه من الفراش ولا يلمسني أبدًا، ولا حتَّى أرق مسَّةٍ من براجمه على جلدي.

جافاني النوم، وشعرتُ بجسدي باردًا، وشممتُ نفحةً منكَ بين انحناءة مرفقي، كأن ذراعي لَمَسَتْ قطعةً مظلمة خاصَّة منكَ. لم أستحم، خشية أن تزول رائحتك. أرقدُ في الليل مستيقظةً أُحاول مواراةَ جرحي، وفي كل صباح، حين يُصيب ضوء النهار عيني، أتفتحُ كالزهراتِ وأنا أتذكَّرُ كل شيء: الضوء المتدفق عبر النوافذ وسقوطه حول أقدامنا عصر ذلك اليوم، والتوتر في صوتي وأنا أصرف مو، والصبغات الداكنة التي لاحظتها في أسمنت الدرجات وأنا أهبطُ السُلَّم، هذا لأن رأسي كان منكَّسًا ولم أُركِّز على شيءٍ سوى تقديمِ قَدَمٍ على الأخرى في كل خطوة.

وفي نهاية الأسبوع الأول، عُدنا إلى دكَّا. لم أقدر على مواجهة الشاطئ أو جبريلا. هاتفتُ بلال وأخبرته أنني مريضة، وأنني بحاجةٍ إلى إجازةٍ لبضعة أسابيع. سألني: «هل أنتِ مصابة بالتيفويد؟ هناك تلوُّث في مياه سيتاكُندا». أجبته أن: «لا، لستُ مصابة بالتيفويد»، وأضمرُ في نفسي أن ليتَ ما أُعانيه شيئًا معياريًّا، شيئًا يمكن مداواته بالعقاقير. ربما أزورُ نديم وأطلبُ منه بعض حبوب المخدرات. أعرف قطعًا أني لن أفعل، فلا جدوى من الغرق في النسيان الآن.

وفي دكَّا، حلَّ عيدُ ميلاد أمي. حضر أبواي على العشاء وجلسنا حول الطاولة بينما انغمس راشد ووالده في إخبارنا بأمر الصين، مُتعجِّبان من ارتفاع خط الأفق في شانغهاي وحقيقة أن الكهرباء لم تقطع قط. أشرق وجه أبي بهذا الحديث؛ وبوصفه يساريًّا قديمًا، كان يُكِنُّ إعجابًا خاملًا لكل ما هو صيني. بُثَّت البهجة في الجميع، حتَّى أمي التي عرفتُ بعودتها مؤخَّرًا من رحلةٍ أخرى لزيارة ضحايا الاغتصاب في «سيراجانج». ولمَّا أحضر الطاهي كعكةً للاحتفال بعيد ميلاد أمي، أدركتُ أني نسيت شراء هديةٍ لها وأوشكتُ أن أعتذر، لكنَّ راشد أخرج عُلبة رمادية من المخمل، بداخلها عُقد من للآلئ بيضاء ناعمة. وبعينين دامعتين برَّاقتين، قالت أمي: «هذه هدية باهرة. أشعرُ بسعادةٍ لا تُوصف».

***

في الصباح عزمتُ على إخباره بكل شيء، بدءًا من الموسيقى وساندرز، والشعور الذي ألمَّ بي في الليلة التي سبقت زواجنا، وبُغضي لما أسمعه حين تدعوني دوللي «بو-ما» وتعني «الكنَّة» بالبنغالية، كأنها جلبت إلى بيتها حيوانًا جريحًا من الحديقة. لكني لم أفعل. تناولتُ التوست الأبيض والبيض المخفوق، ثمَّ ذهبتُ لتناول الغداء رفقة راشد في نادي الجولف وشاهدته يتدربُ على رميته، كهيئةٍ حجرية تنتصبُ على الدِّثار العشبي رقيق التمَوُّج.

كنتَ قد أخبرتني بشيءٍ عن التحلي بالشجاعة. وعن إرادتي. لكني لستُ سوى جبانة. وجعلني التطلعُ إلى راشد وإلى الطريقة التي يلوي بها فخذه وهو يرفع الكأس، إلى خشية جانبه.

وذات يومٍ ظهرت ملابسي وكُتبي وحاسوبي المحمول -كل تلك الأشياء التي خلَّفتها ورائي في الشقة- في منزل راشد. وأدركتُ أنه لا بُدَّ قد طلب من جوشيم حزم كل شيء. لم أسأله عن الأمر ولم يتطوع هو بقول أي شيء. ومن بين جُملة الأشياء التي وجدتها كان قميصًا هو ملك لك. «أتركتَه لي لتقول: أنا ما زلتُ هنا، أُقدِّر ما تمرين به، وسأتحلى بالصبر، وسأنتظر؟». قطعًا لا. أظنُّ أنه جوشيم قد عثر عليه مُكوَّمًا عند قدم السرير فطواه في حقيبتي. ورُحتُ طيلة اليوم التالي أتجول في الأرجاء بكلمة «فيرمونت» منقوشة على صدر قميصي.

***

كان صباحُ أحد الجُمعات والطقس مُلبَّدًا بالمطر. أوشكتُ أن أرتدي ملابسي، وكنتُ لتوِّي قد نحَّيتُ غطاء الفراش جانبًا حين ظهر راشد أمامي ممسكًا بحاسوبي الشخصي. رفعه بيده عاليًا ثمَّ ألقى به إلى الحائط، مُحدِثًا صوت ارتطامٍ جليٍّ.

لمَّا شرع في صياحه، نهضتُ عن الفراش وجلستُ ساكنةً بلا حراك على طرف السرير، وقدماي متوازنتين على كُرسي («أيُّ قميصٍ هذا الذي ترتدينه طيلة الوقت، وما تلك النظرة على وجهك كأن أحدهم لطمكِ لتوِّه؟»). أخذ يقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا، وبين فينة وأخرى يتوقَّف ويلتفت لينظر إليَّ. ألقيتُ بتركيزي على مُربعٍ صغير من الأرضية الرخامية تحت قدمي. وأخرج هو سيجارةً من درج في النُّضد الجانبي للفراش، ثمَّ أشعلها بأصابع مرتعشة وسحب نفسًا عميقًا. همستُ: «لا تُدخِّن» وأمام ما قلته، الكلمتين الأوليين اللتين

أنطقهما، زعق قائلًا: «ما هذا بحق الجحيم؟». فأجبتُ: «لا تُدِّخن بسببي. أعني لا تُعاقب نفسكَ بسبب ما اقترفته يداي».

سمعنا طرقًا على الباب. كانت الطارقة هي دوللي، وقالت: «الإفطار!». في صباحات أيام الجمعة، يتناول الجميع طعامهم معًا في غرفة الطعام، وبلبل على رأس المائدة، والتوست الفرنسي يخرج ساخنًا من المطبخ. تطلعنا إلى بعضنا، وفي صوتٍ واحد صِحنا: «آتيان!». ثمَّ غيَّر راشد رأيه، مخفيًا سيجارته خلف ظهره، وفتح شقًّا من الباب، وهو يقول: «أمي، لا تشعر زبيدة أنها بخير، أيمكنكِ إرسال بعض الطعام إلى هنا؟» ثمَّ تبادلا حديثًا مقتضبًا عن أعراضي، وما إذا كانت الزيارة إلى الطبيب ضرورية، وقائمة من أمور يتعيَّن عليَّ فعلها (وتكرَّر ذِكر كلمة «غرغرة») ثمَّ أغلق راشد الباب أخيرًا وعاد إلى الداخل. قصد نافذةً ليفتحها، مطمئنًا بصوت المطر يضرب الأوراق السميكة لشجرة الكاكايا التي تميل على الجانب الشرقي للمنزل. لهُنيهة فكرتُ في القفز من النافذة والسقوط بهدوءٍ على العشب في الأسفل. وأخيرًا، وردًّا على سؤاله قلتُ: «إنه شخص التقيتُه في هارفارد»، وبحزنٍ لا يُنطَق به إلا همسًا أجاب: «لقد قلتِ ذلك».

أُثير هذا الأمر من قبل، حين أُعلنت خِطبتنا للعائلة الممتدة، أن التحاقي بكلية فاخرة في نيو إنجلاند، ثمَّ التحاقي بهارفارد، سأكون بذلك أرفع ثقافةً وعلمًا من راشد. وكانت كلمة «أجدر منه» هي العبارة التي صاغ بها الناس الأمر. لكن لا شيء ذا فائدة نتجَ عن الأمر -فقد ذكر دوللي وبلبل الأمر عرضًا، وصرف والداي النظر عن الحديث في الأمر، قائلين: كيف لأمرٍ تافه كهذا أن يؤثِّر في الزواج والفَتَيان يعرفان بعضهما خير المعرفة طيلةَ سنين؟ مؤكَّد أنهما كانا ليُناقشا الأمر وليحلَّاه. لكننا لم نفعل. ماذا تبقى ليُقال؟ وكيف نستهلُ حديثًا كهذا؟ مرحبًا، أنا أذكى منكَ، ماذا يجدر بنا أن نفعل حيال الأمر؟ أيحسُن بكَ قراءة المزيد من الكتب لكي يسعكَ معرفة ما أعنيه حين أُشير في حديثي إلى رؤية ستيفن جاي جوولد عن قواقع «سيرون»؟ وإذ أتأملُ في الماضي، أتساءلُ إن كان يجدر بنا أن نناقش الأمر. ربما أُحسِن براشد أن يستزيد في قراءة بعض الكتب. «أنَّا كارنينا» على أقل تقدير مثلًا. تذكرتُ الآن كيف أفرغ صناديق كُتبي ووضعها على الرف المُخصَّص لها في المكتب المُلحق بجناحنا كيفما أتفق، معاملًا إياها كأنها جميعًا سيان. وعلى سبيل المثال، وضع طبعتي النادرة من رواية «جين إير» ذات الرسوم الحجرية، إلى

جانب كتابٍ ذي غلافٍ ورقي يخصه، وهو رواية تشويق إسكندنافية تحمل صورة ذئب أبيض على الغلاف. لو طلبتُ منه قراءة «أنَّا كارنينا» الآن، سيُنهي خمسين صفحة ويقول إنني التجأت إلى روايات تولستوي كذريعةٍ للخيانة.

كان راشد يُخبرني بشيءٍ، لكنه يقف مواجهًا للنافذة المفتوحة، فلم أستطع سماعه. باغتني شعور بالإعياء الشديد. ولمَّا ألقى بعُقب سيجارته من النافذة، استدار ليواجهني. أراد بلا شكٍ معرفة التفاصيل. متى حدث ذلك وكيف. والأهم هو: لماذا! طرقة أخرى على الباب، ثمَّ دخلت عربةُ طعامٍ مزوَّدة بعصير اليوسفي، وناقوس معدني لحفظ الطعام ساخنًا، وإبريقِ شاي. وعلى طبقٍ يُجاور إبريق الشاي تراصت كومة صغيرة من زنجبيل مفروم وطبق صغير من العسل. ذكَّرني العسل بشجرة الأيكة الساحلية، وبالقنينة البلاستيكية تلك -بالمناسبة، ماذا فعلتَ بها؟ رفع راشد الناقوس المعدني وسألني إن كنتُ أريد تناول شيءٍ من الطعام. هززتُ رأسي نفيًا. وهيَّجت رائحة البيض معدتي ودفعت بالمرارة إلى حلقي. أدركتُ أن عليَّ مواصلة الحديث، وإخبار راشد كم أنا نادمة، وأن الأمر بيننا قد انتهى، وأنني لن أُكرِّر فعلًا كهذا ثانيةً. لكني عجزتُ عن نطق الكلمات. كنتُ مجرَّدة من الإرادة. لم يحدث شيء. ولم يكن ما بيننا يُذكر.

سألتُ أخيرًا: «أينبغي لي الانتقال من المنزل؟».

أثار سؤالي غضبه. وقال: «هذا من شيمتك. تركضين هربًا حين تسود الفوضى».

أحسستُ به يُجاهد نفسه: من ناحية يمنح نفسه رخصة الانفعال والغضب، ومن ناحية أخرى، يقيس مقدار غضبه ويحسب عواقبه ويدعمه، بل ويؤجِّجه. جاء إليَّ وجلس على مقربة شديدة منِّي. وفجأةً مُلِئ قلبي بالعاطفة القديمة نحوه، الرجل الذي كان صديق طفولتي؛ مِلتُ إليه، ثمَّ تدفَّقت الكلمات والتفاصيل كلها التي أراد سماعها من فمي: الاعتذارات والاستجداء اليائس لكي يصفحِ عنِّي. طيلة الوقت تخيَّلتكَ تُصغي وقلبك ينفطر، والآن أحاول سرد قصة، قصةً تافهة تجيش بالعواطف هي توضيح لكل ما أقدمتُ عليه والسبب وراء ذلك.

استلقينا معًا على الفراش. وجذب راشد الغطاء على رؤوسنا. تسلَّلت بعض أشعة الشمس خلال الغطاء واستطعتُ تبيُّن معالم الحجرة، والستائر

الثقيلة التي تُؤطِّر النافذة، ولوحتي شكور اللتين كانتا هدية من والديَّ، على كلا جانبي باب دورة المياه. والداي! يا إلهي! سيتعيَّن عليَّ إخبارهما. تقلَّبتُ على الفراش ودفنتُ رأسي في الوسادة. آل بي تململي إلى جانب راشد من السرير وشممتُ العبير المنبعث منه في نومه. أمكنني سماعُ تنفُسه على الجانب الآخر، وتساءلتُ إن كان يبكي. لكنه لم يكن يبكي. ثمَّ سمعتُه ينهض ويعبر الغرفة. وعند الباب استدار وقال: «سأنضم إلى أمي على الإفطار». وما إن سمعتُ صوتَ انغلاق الباب من ورائه، أدركتُ أنه كان ينتظر منِّي أن أقول إني أحببته، وأدركتُ أني لم أنطق بهذه الكلمة، ولا لمرَّة واحدة.

عاد إلى الغرفة بعد قرابة نصف الساعة، ممسكًا بصحيفة في يده، وقنينة من شراب السعال. كنتُ ما أزالُ راقدة على السرير كما تركني. وسمحتُ لأفكاري أن تنجرف إلى ذلك الصباح المبكر على الشاطئ حين صعدنا على متن جريس وعزفنا «ستينواي» للمرَّة الأولى. تذكرتُ الرائحة التي فاحت بها قاعة الاستماع، وقد صُبِغت بأُجاج البحر، وعزفُكَ الذي مزَّق الصمت في الغرفة، كأنه الصوتُ الأول في تاريخ العالم. لعلِّي غفوت، هذا لأنه لمَّا شرع راشد في الحديث استصعبتُ فتح عيني. نظر إليَّ وتنهَّد، تنهيدة طويلة وعميقة، ثمَّ جلس على واحد من الكراسي المتماثلة التي تُواجه السرير.

سألته: «هل أخبرتَ أمك؟».

- لا. لكنها تشعر بوجود مشكلة. سيتعيَّن عليكِ النزول لتناول الغداء، وإلا ستُهاتف الطبيب. إنها تُحبكِ. الجميع يُحبكِ.

ها قد عدنا ثانيةً.

أجبرتُ نفسي على قولها: «وأنا أحبكَ أيضًا». ثمَّ أتبعتها بحديث هو أشد صدقًا: «لا أريد أن أخسرك».

مضى اليوم بأحداثه. استحممتُ وتأنقتُ بثيابٍ ستحوز إعجاب دوللي. وعلى طاولة الغداء قُدِّم إليَّ الحساء الخفيف وأرزٍ الريسوتو. وفي ساعات العصر، اختلى الجميع كل إلى جانبه المُخصص من المنزل، وخيَّم الصمت القاتم، ولذا خرجتُ إلى الحديقة وأهلكتُ بعضًا من زهرات مسك الغابة بقطفها من حوضها واعتصارها بين أصابعي. ثمَّ زارنا قلة من أقارب راشد بعد الغسق، وقُدِّمت المقبلات على عربة الطعام ذات العجلات، والتمست دوللي الأعذار عن صمتي بادعائها أني كنتُ مريضة طيلة الأيام القليلة الماضية،

ووضع أحد الأعمام يده على جبهتي وأعلن إصابتي بالحُمى، وبعدها أُعفيتُ من السهرة وأُعِدَّ العشاء لي في غرفتي؛ وهكذا يستمتع الجميع بقدرٍ لا بأس به من البهجة في رؤية هشاشتي.

لاحقًا، لمَّا خلدنا إلى الفراش، أشاح راشد بوجهه عنِّي ورُحتُ أمسِّد ظهره براحتَيْ يديَّ، يغلبني شعور عميق بالاشتياق إلى العناق. ولمَّا ربَّتُ على كتفه، عارفة بيقظته، استدار إليَّ فكرَّرتُ ثانيةً ما قلته آنفًا، الاعتذارات وتوسُّلات الصفح، جميعها صادقة هذه المرة، هذا لأنه كيف لي أن أرغب في أي شيء، هنا في هذا المنزل الذي رحَّب بي، حتَّى راشد الآن يستلقي إلى جانبي على الفراش طواعيةً، وألقيتُ على مسامعه كم أني لا أستحق ما أنا فيه، وكم سأُحاول لأعوضه عن كل شيء، وأنني أُحبه حقًّا، وأنني أحبه. طبع قبلةً على جبيني، وأنفاسه عابقة بدخان السجائر، وحينها أدركتُ مدى بغضه لي -كلاكما تبغضاني، عدا أن واحدًا منكما سيبغضني من مكانٍ قصيٍّ، والآخر سيبغضني من مكانٍ شديد القرب.

جافاني النوم، وجافاه بدوره. شعرتُ به يتململ ويتقلَّب على جانبه من الفراش. وفي إحدى اللحظات نهض عن الفراش وراح يذرع الغرفة، وفي النهاية استقرَّ على الكُرسي ذي الذراعينِ صحبة سيجارة أخرى. أشعل المصباح المجاور لطاولة الزينة، مُلقيًا ظِلًّا مائلًا على الحائط. ولمَّا أنهى تدخين سيجارته، بدَّل ملابسه إلى سروالٍ قصير وحذاء ركض. ظننتُ أنه سيُغادر آنذاك، قاصدًا الصالة الرياضية، لكنه أطفأ المصباح وعاد إلى جلسته مسترخيًا. رُحتُ أفتح عيني بين فينة وأخرى فأراه وأرى ظلَّه ما يزالان في موضعهما، يُحدِّقان إليَّ.

بمرور الساعات، شعرتُ ببذرةٍ صغيرة من غضب تتجذَّر بداخلي. وخطر على بالي أني أستحقُّ شيئًا في المقابل جرَّاء ما يحدث. وما يحدث هو أنني لن أَمَسَّ يومًا كما مسستني أنتَ، وأن كل الأشياء التي قلتها لكَ ونحن نمارس الحب ستعود إلى ذاكرتك وستشعر حينها بالتقزز من التفكير فيَّ، وأني لو عزمتُ على الوجود في ذاكرتك بوصفي امرأة لا تملك الإرادة، امرأة مُنحت كل الحرية والخيارات في العالم واختارت ما آلت إليه، لو أني سأسقط إلى هوَّةٍ سحيقة في نظرك، فسأطالب بشيءٍ في المقابل.

إن المنطق مغلوط بلا شك، وقد أخبرتكَ بهذا من قبل، لم يكن ثمَّة طلبات جليَّة، ولا إنذارات، ولا تهديدات. ومع ذلك شعرتُ كأنهم جميعًا يرهنون

حياتي بفدية. إذن ماذا كنتُ لأطلب في المقابل؟ ما الشيء الذي من شأنه أن يكون بحجم ما أنا فيه؟ وحتَّى مع طرح السؤال في ذهني، جاء الجواب كقذيفةٍ مسدَّدة إليَّ: سأتتبَّع حياة المرأة التي تملَّصت منِّي طيلة حياتي. هذا هو المقابل الوحيد المعقول، الصفقة الوحيدة التي أنا على استعدادٍ لإبرامها. وإذ سكن القرار المذكور راسخًا في ذهني، غططتُ في نومٍ عميق.

بعد بضع ساعات استيقظتُ لأجد راشد يحزم أغراضه لأجل رحلة عمل مفاجئة إلى المصنع. كان يطوي جواربه على شكل أسطواناتٍ ويضعها في ركنٍ من حقيبته. أبلغته بقراري في البحث عن أمي التي أنجبتني. توقَّفَ، وسروال مطوي على ذراعه، ثمَّ قال: «وكيف سيُحسِّن ذلك من الأمر شيئًا؟».

- لقد اتخذتُ قراري.

- اسمعي، إنكِ مشوَّشة. يمكنني فهم السبب وراء اعتقادك بأن البحث عن... عن هذه المرأة سيساعدكِ في شيء، لكن هذا لن يحدث.

- وأنَّى لكَ أن تعرف؟

- لأنه ربما ثمَّة أمور من الأفضل ألا تعرفينها.

استرجعتُ ذكرى رحلتنا إلى سافار، وعرض زواجه عليَّ إلى جانب البركة المستطيلة.

- ما الذي تحاول قوله، أتقول إنني سأكتشفُ أن لديَّ جيناتِ خيانة أو شيء من هذا القبيل؟

- زي، لا تتحدَّثي بهراء على لساني، أعرف أنكِ تعرفين ما أعنيه.

- ماذا؟ أنني لم أتمالك نفسي ولذلك خنتُكَ؟

- أيُّ هراء لعين أعرفه عن سبب كذبكِ عليَّ وخيانتكِ لي أو أي قرفٍ اقترفته مع أيِّ غريبٍ لعين التقيته في أمريكا؟

أشاح بوجهه بعيدًا عنِّي ورأيتُ ندبة قديمة أسفل عظام وجنته مباشرةً على الجانب الأيسر. لم ألاحظ تلك الندبة من قبل قط. أي صنفٍ من الزوجات أكون بعدم ملاحظتي؟ إنني رفيقة حقيرة حتَّى قبل أن تدخل إلى حياتي. ثمَّ مضى مضيفًا بعد وقتٍ طويل من الصمت: «هل أنتِ واقعة في حبه؟».

إنها المرَّة الأولى التي يطرح عليَّ هذا السؤال، وعرفتُ أنها لن تكون الأخيرة. كنتُ منهكة ورأسي ثقيل، فاستندتُ إلى التنجيد الناعم لفراشنا.

فكرتُ في مصارحته بالحقيقة، وهي أني لستُ واقعة في حبك فحسب، بل وأن ثمَّة شيئًا يُدعى الحب، شيء لم أؤمن به قط، لأني ظننتُ أنه صعبُ المنال حتَّى التقيتكَ، والآن وقد آمنتُ، لم يجعل هذا الإيمان من الحب أمرًا منشودًا -بل لعلَّه صار أقل مناشدة، هذا بسبب الحُطام الذي سيُخلِّفه في أثره- بل جعله حصنًا منيعًا، شيئًا هائلًا وراسخًا، قطعة معمارية ستبقى في وجداني مهما حاولتُ جاهدةً لإنكارها.

أجبتُ: «لا».

- حمدًا لله على ذلك.

كرَّرتُ: «لا».

طلبَ ضمانات على ذلك، فمنحته إياها. أقسمتُ وتردَّد قسمي على ارتفاع الجدران وانخفاضها وعبر الممرَّات، وأُفشِيت اعتذاراتي وتناثرت في الحديقة بالخارج، حيث تسكن الأشجار سميكة الأوراق راسخة. لكنني اتخذتُ قراري، ولم تزدني معارضته إلا إصرارًا. ملأني الغضب، الغضب منه، ومن أبي وأمي، ومن دوللي وبلبل، ومن الآخرين جميعهم الذين عرفوا ورفضوا أن يتحدَّثوا إليَّ بهذا الشأن طيلة كل هذا الوقت. أوهمني الغضب بأن التخلِّي عنكَ هو أفضل ما فعلته في حياتي يا إيلاجا. ولا تسمح لهذا الاعتراف أن يجرحك، هذا لأنني في غضبي -من جُبني، ومن سلسلة الأحداث التي بدأت بمولدي وتآمرت ضدي، ومن الحب، ومن كل ما اشتقتُ إليه في جسدي وروحي وأنفاسي- تحررتُ أخيرًا. سأُحدِثُ أثرًا؛ سأقفزُ إلى خارجِ ذاتي المصلوبة وسأجتازُ هوة التاريخ العصيَّة وفُرجته الغادرة، ومع إني لم أُدرك هذا الأمر في ذلك الوقت -لأن كل ما اجتاحني من شعور هو ألمُ خسارتك الذي أشبه ألم فقدان أحد أطرافي- حفَّز الشروع في هذه الرحلة بداخلي سرورًا على ضآلته أشبه صاعقة كهربية.

***

لأعثر على والدتي، سأبدأ عند أمي.

اتصلتُ بأمي فوجدتها في طريقها إلى متجرٍ لبيع السواري في «جولشان تو». سألتها إن كان بإمكاني ملاقاتها هناك، ولمَّا كان من طبعها دومًا الشعور بالريبة عند تغيُّر الخُطط تغيُّرًا عفويًّا، ألحَّت في سؤالها عن السبب، ولمَّا رفضتُ تزويدها بالسبب، استسلمت أخيرًا وأخبرتني باسم المتجر. وقالت:

«أمامي خمس عشرة دقيقة، ما لم يكن الزحام شديدًا». عندما وصلتُ وجدتها هناك بالفعل، تُمحِّص وتُدقِّق في كومة من سواري مطبوعة النقشة. تأمَّلتها لهُنيهة قبل أن أدخل إلى المتجر، وأُلاحظ أنها مؤخَّرًا قد صارت أبهر جمالًا، شيء ما حيال وجهها المُنعَّمُ بسنوات منتصف العمر أضفى على مظهرها مزيدًا من الرِّقَّة، وكثيرًا من الحُلم. رأيتها قد اختارت ساريًا الآن، أزرق قطنيًّا، وكانت البائعة تفتحه لتُريها كيف يتغيَّر النقشُ على امتداد الأمتار الخمسة للقماش.

دفعتُ بالأبواب الزجاجية لتنفتح، وتسللتُ إلى البرودة داخل المتجر، متذكرةً دعابة أشاركها أحيانًا مع أبي عن أمزجة أمي، مشيرةً إليها بالترمومتر. أسأله: «ما قراءة المزاج اليوم؟ حُمى؟» فيُجيب: «لا، بل برودة فحسب».

لمحتني أمي، فاسترخت في وقفتها وعبست.

- هذا مكان غريب للقاء. هل من مشكلة؟ وأين هي دوللي؟

أنفقتُ الطريق إلى لقائها في التفكير، ورُحتُ أتدرب على المشهد في رأسي.

- أردتُ أن أبتاع لكِ هدية.

- لماذا؟

- لأنني ادخرتُ بعض المال، وفكرتُ أن عليَّ إهداءكِ شيئًا. ماذا عن هذا الساري؟

سألتها مشيرةً إلى الساري الأزرق القطني.

عاودت السؤال: «هل أنتِ بخير؟».

وقبضت بحنوٍّ على مرفقي لكي يتسنَّى لها رؤية وجهي بأكمله. تبنَّيتُ جوابًا ساخطًا، وقلتُ: «ماذا! ألا يسعني شراءُ هدية لأمي؟». ثمَّ ألقيتُ نظرةً خاطفة على بطاقة الثمن.

أردتُ ابتياع هدية فاخرة لها، هدية برَّاقة تُبهر عينيها في كل مرَّة تفتح خزانتها، لكني أعرف أنها لن تقبل بذلك أبدًا.

- ثمنُ هذا الساري بخس جدًّا. لِمَ لا تشترين حريرًا أو ما شابه؟

- يا ابنتي، صدقًا، هذا الساري مناسب لي. هل من مشكلةٍ مع راشد؟

منحتني التوصيلة القصيرة إلى متجر السواري فرصةً للتدرُّب على ما سأقوله، لكني أردتُ أن أستهلَّ حديثنا وفق شروطي الخاصَّة، ولأمي عادة دؤوبة في تشويشي. وعند هذه اللحظة شرعت همةُ الصباح في التلاشي.

- وبما إننا هنا، فلنشترِ شيئًا لنانو أيضًا.

اخترنا ساريًا بدرجة باهتة من الرمادي. وسددتُ قيمتهما. ثمَّ قلتُ: «والآن، هناك مقهًى في الجوار، أود الذهاب إلى هناك، وأود الحديث معكِ في أمرٍ جَدِّيٍّ».

سِرتُ بنا إلى خارج المتجر ثمَّ عبر الشارع الضيق المجاور له. كانت سلالم معدنية مُثبَّتة إلى جانب المبنى تؤدِّي إلى مقهًى في الطابق الثاني. وفي الداخل، تميَّز المكان بحائطٍ مُقعَّر على أحد جوانبه، وصف من نوافذ طويلة على الجانب الآخر تطلُّ على الزحام الشديد في شارع «جولشان أفينو». جلسنا على زوجين من الكراسي الوثيرة ذات الأذرع وأولينا ظهرينا للمنظر. وضمت القائمة تنوعًا من كعكات الـ «كَب كيك» وعصائر الفاكهة.

طلبنا قهوة، ثمَّ أضفتُ للنادل: «وأريد حلوى «سوفليه الشوكولاتة». سمعتُ أنها لذيذة».

استرخت أمي في كرسيها، ونزعت عنها صندلها، وحشرت قدمها أسفل منها. نادرًا ما رأيتُ أمي جالسةً بوضعيةٍ أخرى -وأحيانًا حتَّى في مكتبها، تترأس الاجتماعات بأقدامٍ عارية، وتُشابك ساقيها على كرسي الطاولة المستديرة أو تسند ركبةً منحنية إلى طاولة غرفة الاجتماعات.

- ما هو حال سير المحاكمات؟

- هناك سبع وعشرين امرأة «بيرانجونا» في المركز في سيراجانج. أخبرتني إحداهن أن الأهالي في قريتها ما يزالون لا يسمحون لها باستعمال الماء من البئر الأنبوبي. كان من المفترض بهذا الاسم أن يُساعدهن، لكنه صار وصمًا لهن طيلة حياتهن.

- هل ستُوجَّه المزيد من الاتهامات؟

- أعتقد أحيانًا أنها مزاولة لا جدوى منها. ثمَّ ألتقي هؤلاء النساء، وأقله يسعني النظرُ في أعينهن وإخبارهن أننا نفعل شيئًا لأجلهن. وأننا لم ننسَ.

- لم ننسَ قط.

تناهى إليَّ إدراكُ السبب وراء إصرارها على أن أُغيِّر تخصصي في الجامعة. تخلد أمي إلى النوم كل ليلة مُدركةً أنها قد لعبت دورها الضئيل لكي يتغير العالم. ورُحتُ أداوم على مصارحة نفسي بأن الآمبولوستوس ليس مختلفًا، لكني أدركتُ الآن أنه كذلك. وقد لقَّنني مو هذه الحقيقة، بالتصاقه بكَ وبي، وجعلِنا نشعر أننا ننتمي إلى بعضنا، وله على حدٍّ سواء.

- إذن ما هذا الأمر الذي أردتِ الحديث معي بشأنه؟

وصلت القهوة، وشغلتُ نفسي بكيسٍ من السكر. الآن وقد جئتُ إلى هنا، وفي هذه اللحظة رفقة أمي، لم أرغب في سؤالها عن شيء. فقلتُ: «هناك فتًى يعمل في بروسبيرتي. لا يزيد عمره على الثامنة أو التاسعة. والداه متوفيان، أو مفقودان، لا أستطيع الجزم. إنني أُعلِّمه القراءة».

كنَّا قد قطعنا ثلاث حصص قبل أن ينهار كل شيء. سرعان ما حفظ مو الأبجدية البنغالية، وكانت يده ثابتة وأنا أُمسكُ بها لنتتبَّع الكتابة فوق الحروف. حتَّى إنني زرتُ المدينة وابتعتُ له كتبًا، بها كلمات بسيطة ملحقة بصور: «أمي»، «غراب»، «ظبي». وفي وقتٍ متأخِّر من الليل، يظلُّ مصباح المطبخ مضيئًا وهو يضعُ الكتاب على الأرض ويُقرفص فوقه، لا يمس الصفحات، بل ينحني إلى الأمام ويُردد الكلمات بلسانه.

قلتُ: «هؤلاء الرجال في بروسبيرتي، إنهم بحاجةٍ إلى أُناسٍ أمثالك. أُناسٍ يهتمُّون بما يحدث لهم. أنا أحاول أن أفهمكِ. وأتمنى لو تُحاولين فهمي أيضًا».

- أهذا ما يُقلقكِ؟ أنا آسفة، أنتِ على حق. لم أُقبِل يومًا على استيعاب دراساتك. ولذا فلن أشكو أمر الحيتان بعد اليوم. ولكن ماذا يجري؟ هل أنهيتِ مشروع روبانا؟ تأتين وترحلين دون توضيح أي شيء.

نادرًا ما رأيتُ والديَّ يتجادلان. أحيانًا ألاحظ صمتًا هشًّا بينهما، أو ألاحظ أن أمي التي تعاني ارتفاع ضغط الدم، قد وضعت هرمًا كبيرًا من الملح على حافة طبق عشائها. لا أظنُّ أن أيًّا منهما اعتاد الاعتذار، أو على الأقل الاعتذار جهرًا، مع أنه ربما تبادلا شيئًا من هذا القبيل حين لا أنتبه، نسق من اتهاماتٍ مضادة واعتذاراتٍ لا تحدث إلا خلف الأبواب المُغلقة.

- تعرفين أنني وأبوكِ فخورين بكِ. وآمنًّا أنكِ ستصبحين أستاذة ذات يوم.

- لا أدري إن كان من المفترض بي الزواج من راشد أم لا.

كان هذا استهلالًا جيدًا لأبدأ به كأي شيءٍ آخر.

مدَّت أمي يدها ولامست طرف الطاولة، ثمَّ قالت:

- لا يمكنكِ قول ذلك. لا تقولي هذا.

- إنه يخنقني.

ها هي، أخيرًا لفظتُ بالكلمات.

- لا تعرفين هذا حق المعرفة. فأنتِ لم تمنحيه فرصة. وبالكاد مرَّ عامان على زواجكما.

- لماذا تدافعين عنه؟

- إنه دومًا بمنزلة ابنٍ لي.

إذن الحقيقة هي ما شككتُ به؛ الحقيقة هي أن راشد هو الطفل الذي لم تحظَ به أمي قط.

- أتعتبرينه ابنًا لكِ أكثر ممَّا تعتبرينني ابنةً لكِ؟

استغرقتْ هُنيهة لتُدرك المغزى وراء سؤالي. ثمَّ تجهَّم وجهها كأنني صفعتها، ونُكِّست نظرتها إلى حجرها، وانزوى فمها وأُطبقت شفتاها إلى الداخل.

- لا أصدِّق أنكِ قلتِ ذلك.

- هذا صحيح. إنكِ تُحبينه أكثر ممَّا تُحبينني، لطالما أدركتُ هذا.

لقد بدأتُ بهذا المنوال القاسي، وتفاجأتُ بعجزي عن التوقُّف.

وصلت حلوى السوفليه. هشَّمتُ الطبقة السطحية للشوكولاتة وغرزتُ ملعقتي بداخلها. وجدتها محروقة ويابسة. وأجهشت أمي بالبكاء.

قالت أمي وهي تُخرج محرمةً ورقية من حقيبة يدها: «لا أدري عمَّا تتحدَّثين».

غرزتُ ملعقتي في الحلوى مُجدَّدًا، ثمَّ قلتُ: «هذا مُقرف».

حملت أمي السوفليه بعيدًا. وشاهدتها تجادل الرجل الواقف خلف مكتب الخزينة. ثمَّ عادت بعد بضع دقائق، وخلعت عنها صندلها ثانيةً، وجلست مُتربعةً على الكرسي.

ثمَّ قالت بصوتٍ مختنق بالدموع: «سيأتون بطبقٍ آخر».

- أريد أن أعرف المزيد. عن أمر تبنيَّ. لم نتحدَّث بهذا الشأن ولم تُخبراني بشيء. إنه خطأ من جانبي أيضًا. لأني لم أجرؤ على السؤال.

تطلعنا إلى بعضنا. ولوهلةٍ ظننتُ أنها قد تمدُّ يدها عبر الطاولة وتُمسك بيدي. ثمَّ نبقى على هذه الحال لوقتٍ طويل، ونتحدَّث عن كل شيء. ثمَّ نخرجُ من المقهى مُتضافري الأذرع، وقد نسينا السوفليه المحروق، وربما تجاهلنا أيضًا أمر سداد الفاتورة، لا نتبادل الكلمات، وحدها الحقيقة المتثاقلة كأرجوحةٍ تتدلَّى بيننا.

لكن أمي انخرطت في الضحك، ضحكًا أجوفَ حادًّا. ثمَّ قالت:

- ليس لديَّ فكرة عمَّا تتحدَّثين.

- أتقولين إن هذا ليس صحيحًا؟

- بل أقول إنني لا أدري ماذا تقصدين. لقد أخبرناكِ ثمَّ لم يكن هناك شيء آخر نتحدَّث بشأنه. لا أستطيع تصديق ما أسمعه. ومن ابنتي فلذة كبدي.

هذا هو مربط الفرس. لستُ ابنتكِ فلذة كبدك.

- كل ما أطلبه هو أن نتحدث في الأمر.

علَّقت أمي: «تبدين أمريكية للغاية».

وهذا يعني أني قاسية وبلا قلب، وأني لا أكترثُ إن جرحتُ أمي. لأني أردتُ التحدُّث عن بعض الأمور. لقد قلتَ لي ذات مرَّة يا إيلاجا: «أودُّ أن أُذكِي الطابع الأمريكي بداخلك». حسنًا، لعلَّ هذا ما فعلته أنتَ بالضبط.

- أريد أن أعرف يا أمي.

- لِمَ لا تسألين دوللي؟

ما خطبُ هذا الهوس بدوللي؟

- لأنني أسألكِ أنتِ. لا تقذفي بي إلى حماتي.

هزَّتْ أمي رأسها ثمَّ قالت: «لقد رتَّبت دوللي كل شيء. هي مَن جلبتكِ إلينا ووقعنا نحن الأوراق. أخبرتنا أن أمكِ تخلَّت عنكِ وأنها لن تأتي للبحث عنكِ، هذا كل ما في الأمر».

وصل طبق السوفليه البديل ولمَّا تذوقتُ ملعقة اكتشفتُ أنه مماثل للطبق الأول، حُبَيبِي وأُفرط في طهيه.

قالت أمي:

- لماذا تُصرِّين على جلبي إلى تلك الأماكن الفاخرة ذات الطابع الجولشاني، في حين أنكِ تعرفين أنهم لا يستطيعون حتَّى إعداد كوب شايٍ جيد؟... هيا بنا!

وأخرجت ورقة بنكنوت من حقيبتها، وطرحتها على الطاولة، ثمَّ سارت عابرةً المخرج، لا تتطلَّع إلى الوراء لترى إن كنتُ أتبعها. أخذتُ ملعقة أخرى من السوفليه، ثمَّ أخرى، ورُحتُ أقشِّر الجوانب حتَّى تضاءلت إلى بقايا من فُتات الشوكولاتة في قاع الطبق ولعابي مُتخم بمذاق الشوكولاتة المحروقة.

فتح السائق باب السيارة فركبتُ جوار أمي. وإذ أوشكنا أن نتحرك مبتعدين، رأينا النادل يندفع نحونا. ونقر على زجاج النافذة.

- معذرةً يا سيدتي، أنا آسف حقًّا، ولكنَّ الفاتورة بثمانمائة وستين تكًّا. وأنتِ لم تتركي إلا خمسمائة.

ضمَّ يديه وراء ظهره بينما راحت أمي تُخرج له النقود ثمَّ مررتها إليه عبر نافذة السيارة. بقينا على صمتنا حتَّى وصلنا إلى دائري جولشان. ثمَّ سألتها: «إذن تقولين إن دوللي وبلبل قد جلبا إليكما طفلًا ولم تُكلفا أنفسكما العناء لاكتشاف من أين أتيت؟».

أجابت أمي وهي تمسح وجهها بطرف ساريها: «إنها رأفة بنا. لن تفهمي ما أعنيه».

في الخارج، بدأ المطر في الهطول. وشغَّل «أبو الحسين» ماسحات الزجاج.

- لا تعرفين شعور المرء حين يرغب في شيءٍ رغبة شديدة، ويُحاول، ويواصل فشله. إن أباكِ وأنا -لم نستطع التحمُّل. حمدًا لله على وجود دوللي وبلبل.

- أنا واقعة في حب شخصٍ آخر.

ألقت أمي بنفسها ثانيةً على مقعد السيارة، ووضعت يدها على عينيها، وقالت: «لن أُصغي إلى هذا». ثمَّ أضافت: «إنه ذلك الفتى الأمريكي، أليس كذلك؟».

- إيلاجا. اسمه إيلاجا.

من أين سمعت بك؟ ظننتُ للحظة مُغلَّفة بالذعر أن راشد قد حكى لدوللي وأن الأمر قد صار حديث العائلة كلها الآن، ثمَّ أدركتُ أنني تحدَّثتُ عنكَ بُعيد عودتي من كامبريدج، متذرِّعةً بأي عُذرٍ لأنطق باسمك جهرًا. ولعلَّ أمي ارتابت بشيءٍ حينها ثمَّ قررت تجاهله.

لوهلةٍ ظننتُ أنَّ أمي ستصفعني، لكنها مُنيت بالهزيمة، مُحدِّقةً إلى سقف السيارة.

علَّقتُ: «راشد يعرف».

- يا إلهي!

كدتُ أسمع أمي تُحدِّث نفسها قائلة: «يا لولدي المسكين!».

- أنا آسفة. إنه خطئي. أنا أتحمَّل مسؤولية كل شيء.

بعدما قطعنا الدائري، توقَّفت حركة السير. ثمَّ جاء صبي حاملًا باقةً من زهور بيضاء يطرق على نافذة السيارة، ويتوسَّلُ إليَّ أن أبتاع منه بعض الزهور.

- تتحمَّلين المسؤولية، لكنكِ في الآن نفسه تريدين إلقاء اللوم علينا لأننا لم نتحدَّث معكِ بشأن هذا -هذا التبنِّي؟

- أنا لا ألقي باللوم عليكما. بل أقول، إن شيئًا من الشفافية كان ليقطع شوطًا طويلًا.

- ما خطبُ راشد؟

- لا أطيق البقاء في ذلك المنزل. لا أستطيع التنفُّس. إنهم مثلهم مثل أي عائلة ثرية أخرى. هذا الصنف من الناس الذي علَّمتني أن أسخر منه.

- إني لا أُميِّز ابنتي. لماذا تتحدَّثين بهذه الطريقة؟

أخرجت أمي هاتفها. وراح الصبي الصغير يطرق ثانية، لكن أمي صرفته بيدها. ثمَّ أضافت:

- سأُهاتف دوللي.

- لا أريد التحدُّث إليها.

وضعت هاتفها جانبًا، وقالت:

- افعلي ما تشائين، لكن من فضلك، لا تُخبريها بأمر هذا الشاب الآخر، سينفطر قلبها لذلك. ولن تسامحني أبدًا.

خفَّ الزحام فانطلقنا مبتعدين عن الصبي الصغير وزهوره، مارِّين بالسوق ثمَّ انعطفنا يسارًا عند الحديقة. شعرتُ بوطأة الخيبة المتراكمة لجميع مَن أعرفهم تدهسُ صدري وتُعسِّر من التقاطي لأنفاسي. ولدى سماعي الأخبار الجديدة لأمر تبنِّيَّ -هل عساها صحيحة؟ هل كان هذا كله من فعل دوللي وبلبل حقًّا؟- شعرتُ بانزياح طفيف لتلك الوطأة. الآن وقد عرف كل من أمي وراشد، صار كل شيءٍ في العلن على أقل تقدير، والأشياء التي كان يُفترض بها الانكشاف منذ سنين طويلة قد نُطقت أخيرًا؛ هذا مع أن الأمور غارقة في الفوضى وتكاد تتحدُ جميعها ضدي. سأسأل دوللي عن القصَّة كاملة؛ فلم أتخلَّ عن حقِّي في المعرفة بعد.

***

لمَّا يبلغ الأمر حدَّ الحديث إلى دوللي، لا أتحلَّى بالشجاعة لمواجهتها. استيقظتُ كل صباحٍ وقطعتُ وعدًا لنفسي أن أسألها عند الإفطار، ثمَّ أجدُ بلبل جالسًا إلى الطاولة، أو شقيق راشد يدخل علينا فجأةً لحظة شروعي في ذكر الأمر. أراها تأمر الخادمات لترتيب الحديقة وإعداد قائمة الطعام من أجل العشاء وأقضي أنها مُتعبة، أو مشغولة، وأني سأُؤجل الأمر. راحت الأسئلة تنخرُ في رأسي، لكن نظرة الخيبة على وجه أمي تتردَّد في ذهني، جاعلةً الإقدام على أي شيءٍ أمرًا مستحيلًا.

جاءت سالي لزيارتي ذات يومٍ بصحبة رضيعها، أعني طفلها الثاني (كما تنبَّأت هي عن نفسها آنفًا، فقد أنجبت طفلين في تعاقبٍ سريع). كانا قد سمَّيا الطفلة الأولى نادية. وما إن عبرت الباب حتَّى ناولتني رضيعها، وهي تنفخ في أظفارها حديثة الطلاء. ثمَّ قالت: «حظيتُ للتَّوِّ بجلسة عناية بالأظفار. أرى الأمر هدفًا مُحقَّقًا. اليوم هو يوم إحراز الأهداف». حاولت إضفاء النضارة على وجهها بوضع طبقةٍ ثقيلة من مسحوق التجميل، لكنَّ التجويفين أسفل عينيها داكنان ومصبوغان بحُرقة الشمس.

علَّقت: «أنا شديدةُ الإنهاك». فعرضتُ عليها فنجانًا من القهوة. لكنها أجابت مُتنهِّدة: «لا أستطيعُ تناول الكافيين. سيؤثِّر في حليبي».

تململ الرضيعُ بين ذراعيَّ، وضرب بيدٍ على صدري، ثمَّ غطَّ في النوم ثانيةً. رفعتُ رأسه إلى وجهي وطبعتُ قبلةً على البروز اللَّيِّن في مقدِّمة رأسه. فاح منه شذا، مع إنه ليس مُتعطِّرًا، بل نوع من طمعٍ حلو يفوحُ من داخل جسده. ولذا رُحتُ أستنشق وأستنشق.

استلقت سالي ووضعت رأسها على ذراع الأريكة المستدير، ثمَّ قالت: «هناك شائعة تقول بأنكِ وراشد على خلاف».

- يُحاول الناس دومًا التفريق بيننا. أتذكرين منذ بضع سنوات، حين انتشرت شائعة بأنه يضاجعكِ؟

نفخت سالي في أطراف أصابعها مُجدَّدًا، وقالت: «حمقى».

- ثمَّ تداولت قصَّة أخرى عنه مع فتاةٍ هندية تعمل في صناعة الثياب.

ومع استرجاعي لكل الشائعات التي دارت عن راشد ونساءٍ أُخريات، شعرتُ بنفسي تزدادُ هياجًا.

سألت سالي: «إذن لا صحة لهذه الشائعة؟».

تململ الرضيعُ ثانيةً، وفتح فمه وأغلقه، لذا نهضتُ وأرجحتُ ثقلي بين قدمٍ وأخرى. فكرتُ في إخبارها بكل شيء، متسائلةً ما إذا كان ستضحك على الأمر وتعترف بي أخيرًا -أخيرًا- إنسانًا قادرًا على ارتكاب الأخطاء مثل الآخرين جميعًا، أم أنها ستتحامل عليَّ لهذا الأمر إلى الأبد، حتَّى لو تظاهرت أنها تتخذ جانبي.

- لا، لا شيء من هذا. المعتادُ فحسب. إن الحياة الزوجية ليست سهلة.

- حدِّثي ولا حرج. لقد تزوجتُ رجلًا ما يزالُ يهاتف أمه كل ليلة قبل أن يخلد إلى النوم ويُخبرها بما أكله وكم من المرَّات تغوَّط.

ضحكتُ ثمَّ سألتها: «حقًّا ما تقولين؟».

- بل مزحة لعينة.

اعتدلت جالسة، وأخرجت سيجارة من حقيبتها ثمَّ قبضت عليها بأسنانها.

- أتدخنين؟

- كلا، لا أُدخِّن. اللعنة! بل أُحافظ على سلامتي العقلية بمضغ سجائر بينسون.

صرخ الرضيع. فزِدتُ من وتيرة تأرجحي بقوة لكن فعلي كان بلا جدوى، لذا أعدته إلى سالي. التفتت يمنة ويسرة لترى ما إذا كان هناك أحد يتطلَّع إلينا، وجذبت قميصها، ثمَّ ألقمت فم الرضيع حلمةً كبيرة داكنة.

- أجل، أعرف. إن حلمتَيَّ رائعتان، لكن نديم لا يقربهما حتَّى. يقول إنهما لأجل الرضيع وأن هذا يُصيبه بالذعر. أنا متهيجة جدًّا لدرجةِ أن بمقدوري مضاجعة السائق.

- لم يكن ما قيل صحيحًا، أليس كذلك؟ بشأنكِ أنتِ وراشد.

أسألُ وعيناي تُوخزان بالدموع.

جذبت سالي الرضيع إليها وتطلعت إليَّ، والسيجارة غير المشتعلة لا تزال متدليةً من بين شفتيها. ثمَّ أجابت:

- سأُخبركِ بشيءٍ بمنتهى الصدق. ولكن أرجو ألا تغضبي.

- حسنًا.

- كنتُ لأفعلها. حقًّا كنتُ لأفعلها. إننا جميعًا واقعين في حُب راشد بشكلٍ أو بآخر. وأنتِ تعرفين ذلك.

أعرف ذلك حقًّا. الجميع، أمي وأصدقائي وأُناس متفرقين لم ألتقيهم قط، يُخبرونني كم هو رائع، وأيُّ رجلٍ مثاليٍّ هو. أفرط الرضيع في امتصاص الحليب، ووجنتاه تنبضان وهو يبتلعه.

- هل فعلتِها؟

- لا. لكن ليس لأجل خاطرك. بل لأنه ما كان ليفعلها. ما كان ليلمس امرأةٍ أخرى غيركِ قط.

زفرتُ نفسًا طويلًا، تاركةً الدموع تنسابُ بإفراطٍ على خدَّيَّ. لم نتبادل أي حديثٍ بعد ذلك. حملت سالي الرضيع بوضعيةٍ مستقيمة حتَّى تجشأ برقةٍ مُبللًا كتفها، ثمَّ غادرت، مُخلِّفةً وراءها شذا حليبٍ متخثِّرٍ وعبق تبغ.

في تلك الليلة، تفحَّصتُ دوللي وهي تتناول طعامها، كانت حريصة على أن تفتح فمها على اتساعه لكي لا يتلطخ أحمر شفاهها. وكان بلبل يقصُّ علينا خبر سكرتير اتصالات طلب منه رشوة ذلك الصباح. وقال: «هذه الأيام لا يلفُّون ويدورون حول الموضوع، بل يبسطون إليك أيديهم ويقولون لكَ كم يريدون». ثمَّ امتدح راشد ريش الغنم، وقالت دوللي إن المذاق الجيد يعود في

المحصلة إلى جودة اللحم، الذي ابتاعته بتكلفةٍ عالية من الجزَّار الألماني. تدخل راشد مُعلِّقًا أن هذا الجزَّار صار الآن يبيع لحم الخنزير المُقدد. لحم الخنزير المُقدد؟ اتسعت أعين الجمع الملتف حول المائدة، حتَّى عيناي، وكان اتساعهما دهشةً أكثر منه فزعًا. علَّقت دوللي في حسرة: «إلى أي حال سيصير هذا البلد؟».

قلتُ: «في الحقيقة أُحب لحم الخنزير المُقدد». فلكزني راشد بركبته أسفل الطاولة.

علَّقت دوللي وهي تلطم خديها: «اللهم توبة، اللهم توبة».

دفع بلبل كرسيه إلى الوراء وقال: «في كل مرَّة أذهب إلى بانكوك، نتناول شوربة النودلز. ثمَّ يُخبرنا أحدهم أنها مُعدَّة من لحم الخنزير».

قاطعته دوللي: «وكان علينا أن نتوقَّف عن تناولها».

فأكمل بلبل: «لكنَّا لم نتوقف. بل تناولناها تلك المرَّة الأخيرة. وتعرفين أيضًا أن النقانق المُقدَّمة في بوفيه الإفطار ليست دجاجًا».

- بالطبع هي دجاج. هذا فندقُ خمسة نجوم يعجُّ بالعرب.
- يتظاهر الجميع أنهم لا يعرفون ممَّا يُصنع.

ثمَّ أشار إليَّ ومضى قائلًا: «إياكِ فحسب أن تُخبري الجميع بسرِّك».

بعد العشاء، وبدلًا من اللحاق براشد إلى غرفة نومنا، تلكَّأتُ على المائدة وسألتُ دوللي لو كان بإمكاني استعارة قلادةٍ منها. فقد دُعيتُ وراشد إلى زفاف في الليلة التالية وأردتُ ارتداء زينةٍ تتماشى مع ساريَّ. تبدد ضيقها من تناولي لحم الخنزير وتقدَّمتني صاعدتين إلى غرفة نومها، حيث كشفت بداخل صفٍّ مُؤطر من الخزائن عن خزنةٍ عالجت قفلها التوافقي. ثمَّ قالت: «أتريدين ذهبًا خالصًا أم قلادة ملوَّنة؟ ياقوت، زمرُّد؟». كانت نبرة صوتها عالية ومُلحَّنة وأدركتُ أنها في حقيقة الأمر كانت تضحكُ بهجةً. إذن هذا هو ما تصوَّرته حين فكَّرت في مستقبلي في هذا المنزل؛ أننا سنتودد أمام مجموعة حُليِّها، وننسِّق أزياءنا، ونتشارك حقائب اليد والأقراط. لا بُدَّ أني أتيتُ بفعلٍ ما لأمنحها انطباعًا بأن هذا المستقبل ممكنًا، وتذكَّرتُ الآن أنها حين عرضت عليَّ رحلات تسوُّق إلى لندن أو سنغافورة، كنتُ أبتسم وأُوافق، هذا لأن جزءًا منِّي رغب في أُمٍّ كهذه، أُمٍّ لا تقتل كل حديثٍ معها بوجهة نظرٍ جديدة عن مدى سوء العالم وفظاعته. أخرجت دوللي عقدًا من الياقوت ثلاثي

الأدوار من علبته المخملية. وإبزيمًا من الألماس يربطُ طرفي العِقد. تناولته منها وأمسكته بكلتا يدي. ثمَّ قلتُ: «أخبرتني أمي أنكِ مَن رَتَّبتِ أمر تبنيَّ».

ركعت دوللي على ركبتيها أمام الخزنة وأخرجت عُلبة أخرى. كبست الإبزيم فانفتحت، وبداخلها طوقُ رقبةٍ مُرتَخٍ من الذهب. ذكَّرني هذا بخبرٍ قرأته في «ناشونال جيوغرافيك» عن قبيلةٍ إفريقية يرتدي نساؤها أطواقًا سميكة من النحاس لإطالة رِقابهن. علَّقت أمي حينها، وهي تنتزعُ المجلة من يدي: «هذه قصة عنصرية. لا تقرئيها». نفضتُ الذكرى عن رأسي وركزّتُ على دوللي، محاولةً قراءة تعابيرها. أعدتُ عِقد الياقوت إلى علبته ونقرتُ برفقٍ على الطوق الذهبي، ثمَّ قلتُ: «هذا جميل. يبدو قديم الطراز».

- كان ملكًا لحماتي.

- قالت أمي إنكِ رتَّبتِ كل شيء. ووصفت الأمر بأنه رأفة بها.

استدارت دوللي لتواجه الخزنة، لذا لم أرَ وجهها وهي تُجيب: «كانت يائسةً آنذاك. وما عدتُ وبلبل قادرين على تحمُّل رؤيتها تعاني هكذا».

تخيَّلتُ أمي، وتفاجأتُ بمدى سهولة تصوُّر نسختها الشابة، وإضفاء مسحة من الحزن على مُحياها.

- هل لكِ أن تُخبريني أين حدث ذلك -من أين أتيت؟

- هل تريدين ارتداء الذهب؟

أجبتُ وأنا أسحبُ يدي: «أخشى أنه سيحمل انطباعًا رسميًّا بعض الشيء». لمَّا أمعنتُ النظر، تراءى لي كم كانت مُبهرجة قطعةُ الحُلي، كم كانت بدائية طريقة دقِّ الجواهر في مواضعها.

علَّقت دوللي: «تختارين البساطة دومًا. وحفلات الزفاف تدور حول البهرجة».

- كل ما في الأمر هو أنني لا أعرف العروسين جيدًا، ولن نمكث هناك إلا ساعة واحدة.

ما برحتُ أكره هذه المناسبات، لكن راشد أخبرني أنه قطع وعدًا لوالد العريس، وهو شخص تربطه به أعمال كثيرة.

قالت دوللي وهي تُغلق العلبة وتُعيدها إلى الخزنة: «لا أذكر شيئًا عن الأمر».

- أكنتُ في دار أيتام؟

- لا، بل كانت فتاة. فتاة معوزة.

قلتُ: «سأرتدي الياقوت».

ناولتني العلبة ثمَّ شاهدتها وهي تُعيد كل شيءٍ في موضعه، وتساءلتُ إن كان أحد من الخدم يعرفون بأمر الخزنة، إن وضعوا أيديهم على بابها وحاولوا تخمين الرقم السري التوافقي.

- ألا تذكرين شيئًا آخر؟

تمتمت مُجيبة: «لا».

لم أُصدِّقها، فرحتُ أستزيدُ في السؤال: «ألم يكن هناك وثائق؟ شهادة ميلاد أو أوراق تبني؟».

- بلى. لكنها فُقِدت جميعها حين كنَّا نُرمم المنزل.

تنهَّدت، كأنها سردت عليَّ هذه القصَّة آلاف المرَّات. ثمَّ أضافت:

- كان والداكِ مُحبطين. وقد فعلنا كل ما بوسعنا لنُسهِّل الأمر عليهما. حتَّى إنَّ بلبل قد حلَّى أفواه البعض في مكتب التسجيل وسجَّل جوي ومايا بوصفهما الأم والأب.

سارت إلى طاولة الزينة، مُترعة بزجاجات العطر وأسطوانات أحمر الشفاه الصغيرة، وشرعت تحلُّ رباط شعرها. هكذا صُرِفت. وما إن استدرتُ للخروج، تغشَّتني ظلمة الجهل أكثر من ذي قبل، قالت: «لا يسعني أن أُملي عليكِ ما تفعلين. ولكن يحسُن بكِ التوقُّف عن أكل تلك القذارة».

***

حضرتُ وراشد حفل الزفاف في الأمسية التالية. زيَّنتُ رقبتي بالياقوت وحاولتُ الإبقاء على الشعور الذي واتاني إثر اعتراف سالي. تبادلتُ أحاديث قصيرة مع الزوجات الأخريات وأكلتُ البرياني بشوكة وتساءلتُ في المحصلة عمَّا يُحافظ على ترابط جزيئات الكون معًا. وفي ما بعد، نمت في السيارة ونحن في طريق العودة ووصلتُ إلى الفراش مُتعثِّرة. في الصباح بكَّر راشد في استيقاظه ثمَّ شرعتُ أقصُّ عليه ما قالته أمه آنفًا. كان الهواء عابقًا برائحة الكولونيا، وأنا أشكو إليه: «لا أحد سيتحدَّث إليَّ بشيء». فتح جانبه من الخزانة ووقف هناك لهُنيهة، يجذب ربطة عنق من أحد العلَّاقات المفصلية.

- هل سمعتَ ما قلته؟ أنا لا أصلُ إلى أي شيء.

أجاب وهو يلفُّ ربطة العنق حول رقبته: «لعلَّهم لا يعرفون شيئًا».

- وأنَّى لهم ألا يعرفوا؟ رضيعة، إنسان حيٌّ كامل، ظهر من العدم. أنا لستُ حَبَلًا بلا دنس.

راح يجذب الطرف الحريري خلال حلقته، وهو يسأل: «لِمَ لا تتركين الأمر يا زي؟».

أزلتُ الغطاء الدافئ عن الفراش، على استعدادٍ لأخوض شجارًا، لكني كنتُ في وضعٍ غير مؤاتٍ لأن مظهره وأريجه بديا أفضل حالًا منِّي كثيرًا، ولذا دثَّرتُ نفسي بالأغطية مُجدَّدًا وسددتُ لكمتي إلى الوسادة. غادر راشد بوداعٍ مقتضب، مُذكِّرًا إياي أن أُهاتف نانو لأنها ستُجري فحصًا عصر ذلك اليوم ويجدرُ بي السؤال عن مستوى سكرها. كيف يحتفظ بفهرسٍ للمعلومات البسيطة تلك في رأسه؟ لم يُحبَّ أحد نانو كحُبي لها، لكني بالكاد سأستمرُّ في متابعة مستويات مرض السكري لديها. همستُ بسُبَّة بصوتٍ خافت والباب يُصفع منغلقًا على نفسه.

هاتفت والديَّ، فلم أتلقَّ جوابًا من كليهما. ثمَّ أرسلتُ رسالةً نصية مماثلة إليهما. وانتظرتُ لما بدا اليوم بأكمله، لكن لعلَّها ليست سوى ساعاتٍ قليلة. وأخيرًا، زُرتُ شقَّتهما وفتحت باشونتي الباب. كانت أمي في مركز زوبعةٍ من الناس في غرفة المعيشة وتسنَّى لي شمُّ رائحة القلي في المطبخ. وقفتُ على مشارف الجمع، والتقت عيناي بعين أبي لجزءٍ من الثانية قبل أن تُلاحظني امرأة -هي واحدة من صديقات أمي- حجبتني عن أبي بكتفها البدين. ثمَّ قالت: «جيد أنكِ أتيتِ. يجب أن نتكاتف في وقتٍ كهذا». أومأتُ موافقة، متظاهرةً بمعرفة ما تتحدَّث عنه. خرجت باشونتي من المطبخ ومررت على الجمع طبقًا من السمبوسك. لم أستطع التفريق ما إذا كانت اللحظة كئيبة أم سعيدة، لكني أمِلتُ في لحظةٍ كئيبة، فحينها لن يُلاحظ أحد لو بدوتُ مشغولة البال أو يائسة. ويا له من أمرٍ داومت على بُغضه في الناس: تلك النظرة التي يرمقون بها وجهك وشعورهم بوجوب إلقاء تعليقٍ على مظهرك، مثل: «لقد خسرت وزنًا» أو «هل أنت مُحبط؟» في حين أني تمنيتُ لو يقولون: «حدثينا لماذا تحتفظ حيتان العنبر بزيتٍ في مقدِّمة رأسها»، وهو سؤال كنتُ مُجهَّزة للرد عليه. ليس لأن موقع الاحتفاظ بالعنبر أحجية تطورية من شأن

أي أحدٍ حتَّى الآن أن يكون قادرًا على حلها، ناهيكَ بي أنا. بل لأنه بالنظر إليه كموضوعٍ للحديث فهو أكثر رقيًّا ممَّا يُعرض عليَّ عادة من موضوعات.

سألت صديقة أمي: «كيف حالُ زوجكِ الفاتن؟».

إذن، في تلك الحالة، لم يمت أحد.

- إنه بخير، شكرًا لكِ.

حاولتُ اقتناص نفسي، لكنها أحكمت الإمساك بذراعي، وقالت: «حديثو الزواج. هذا شاعري جدًّا. من الأحسن لكما أن تستمتعا بهذا قبل مجيء الأطفال».

شعرتُ بيدٍ على كتفي، وكانت يدَ أمي.

- سأذهب مع سلمى والمحامين الآخرين.. ألديكِ سيارة، أم ترغبين في الذهاب مع أبيكِ؟

- سأذهبُ مع أبي. ماذا سنفعل في المحكمة؟

ضغطت على يدي. لقد سامحتني، أو لعلَّها نسيت الأمر برُمته.

- سيفتحون أبواب المحكمة للعامَّة اليوم.

حشوتُ فمي ببعض السمبوسك والطبق يحوم على الحضور قريبًا مني، ثمَّ لحقتُ بأبي إلى الأسفل ومنه إلى سيارته.

أمعن أبي النظر إلى الأمام لتقييم حركة السير، وقال: «يبدو الطريق خاليًا».

- ليس لديَّ فكرة عمَّا يحدث.

أشاح بناظريه بعيدًا عن الطريق، وسألني: «ألا تقرأين الصُحف؟ سيصدر حُكم المحكمة على غلمان أعظم اليوم».

أمر بديهي! وحده إنسان مدفون الرأس في الرمال العميقة لن يعلم بذلك. ذُكِّرتُ ثانيةً بالفارق بين بيت والديَّ وبيت راشد -إذ كان الحديث على مائدة العشاء الليلة الماضية يدور حول رفع تكلفة العمالة وكيف دفعت الظروف فلان وفلان لإغلاق مصانعهم لأن العمال قد أضربوا عن العمل.

- أنا آسفة. لقد كنتُ مشغولة.

- إنه يوم مهم لأُمِّك. حاولي أن تكوني داعمة.

- بل أنا داعمة.

- تشعر أنكِ لا تهتمين لأمر المُحاكمة.

بُوغتنا بتوقُّف سيارةٍ أمامنا، فكبس أبي يده على البوق. أُدركُ أن والديَّ يُشككان في ما إذا كنتُ أعبأ حقًّا لأمر هذا البلد بالقدر الذي يعبآن به أم لا، وحقيقة الأمر أني لم أشعر البتة بضرورة الاعتراف بأني لا أعبأ بها، ولا واتتني الشجاعة لذلك. فخورة أنا بأن والديَّ شاركا في الحرب، وفخورة بتلقيب والديَّ بالمناضلَيْن من أجل الحرية، لكنني في الواقع أبغضُ المساحة التي شغلها الأمر، وحقيقة أن أحاديثهما كلها تؤول في النهاية لاسترجاع ذكريات الحرب، كأنما لا شيء سوى ستارٍ مُخرَّز يفصل بين هذه اللحظة وتلك، ولذا كل ما يحتاجه الأمر هو تمرير فرشاةٍ على صفحات التاريخ لتكشف عن الحظوة الوضَّاءة للماضي السحيق. كان أمرًا يصعب التباري معه، بل وأصعبُ من ذلك هو تصوُّر أن حياتي ستؤول بالمرَّة إلى أي نتيجةٍ ذات أهمية. وكثيرًا ما قالا بأن البلاد تعيش في ظل تلك اللحظة، وأنه بسبب أعداد الوفيات التي لم تُحصَ كليًّا بات المُضي قدمًا أمرًا مستحيلًا، ولكن ما لم يعترفا به البتة هو أن الأمر لم يقتصر على الموتى أو عائلاتهم فحسب، الذين شعروا بالغيمة الكئيبة لتلك الأشهر التسعة تغشَّاهم أينما رحلوا، بل يشملنا جميعًا، نحن أطفال الناجين، جميعنا مثقلون بما لم نستطع فعله، وخيالاتنا حبيسة التقلُّبات، في حين حُرِّرت خيالاتهم لمَّا حققوا المستحيل.

اندفعنا مزاحمين جمعَ المراسلين والمُصوِّرين الذين احتشدوا أمام مدخل المحكمة. لم أرَ المبنى من قبل إلا من الخارج -واجهة كلاسيكية زاد من فخامتها لونها الأبيض الناصع- أما الآن وأنا أقترب من المبنى، أراه مثيرًا للإعجاب، بممرَّاته الرخامية العريضة وأبوابه المزدوجة التي تؤدِّي إلى قاعات المحكمة الفردية. بينما نتبعُ الجمع صاعدين السلالم عبر الممرات في الطابق العلوي، رأينا أمي. التقت أعيننا وتبادلنا الإشارات، ثمَّ لاحظتُ أنَّ ملامحها قد أُعيد ترتيبها بطريقةٍ أو بأخرى، وزاد الحدثُ من ضخامتها، وتساءلتُ إن كان هذا هو الوجه التي تقنَّعت به طيلة الحرب، ونظرة الجلالة التي تهيمن على امرأةٍ تعرف دورها حق المعرفة في لحظةٍ حرجة من التاريخ. دخلت أمي إلى قاعة المحكمة وأُغلِّقت الأبواب من خلفها، وقفنا وانتظرنا بالخارج. ومدَّ أبي يده وأمسك بيدي. حينها عجزتُ عن تذكُّر سؤالٍ واحد حتَّى ممَّا أردتُ أن أطرحه عليه؛ أما الفضول كله الذي حشدته بداخلي في المساء السابق

فقد تبدَّد في الضوء الغسقي لعصر ذلك اليوم والهمهمات المُشوَّشة للزحام. رأيتُ وجوهًا مألوفة، أصدقاءُ والديَّ، وزملاء، وأُناس لعلِّي ارتدتُ المدرسة معهم. ثمَّ علا هُتاف وتضخم الصوت. وسمعتهم يقولون: «الإعدام!». متبوعًا بـ: «اشنقوه».

فُتِح الباب وخلدنا إلى الصمت، لكنه لم يكن سوى شخصٍ يُغادر القاعة. لوَّح الرجلُ بيده مشيرًا إلى أنه غير ذي صلة، ثمَّ أغلق الباب وراءه وسار مبتعدًا. رأيتُ امرأةً تُمسك بيد طفلٍ صغير، وتذكرتُ قصةً أحبَّ والداي أن يقصاها عليَّ عن اصطحابهما لي إلى ميدان «سهروردي فيلد» لحضور محاكمة صورية لغلمان أعظم. وقتذاك قبل عشرين عامًا، كان عقدُ محاكمةٍ زائفة لهذا الرجل هو الشيء الوحيد الممكن؛ ممثلين يلعبون أدوار الادعاء ودمية محشوة في موضع المُجرم الحقيقي. ثبتت إدانته، وحُكم عليه، وأُعدِمَ في تلك المحاكمة، لكنها لا تعدو كونها مسرحية، ليس كالآن، حيث يغرق أعظم والرجال الآخرون أمثاله في خوفٍ على حياتهم، وماضيهم يُلاحقهم أخيرًا. لهذا السبب تُدافع أمي عن الحكومة الحالية، مهما كانت طبيعة آثامها الأخرى، هذا لأنها المرَّة الأولى، بل والمرة الوحيدة، التي يُبالي بها أحد بمحاكمة أعظم على ما اقترفه. هذا الرجلُ مثقل بالموتى، والآن يقف أمام قاضٍ يسأله تفسير موت الأطفال، ولن يجد ما يُجيب به. صار عجوزًا الآن، متجاوزًا التسعين من عُمره. تأخرت تصفية حساباته، لكنها جاءت أخيرًا، وأنا هنا لأشهدها. أُفعِمتُ بعاطفةٍ يعكسها ثقلُ اللحظة، مُدركةً -لعلَّها المرَّة الأولى- شعورَ أن أكون ابنةً لأمي.

فُتِح الباب وأُذيع الخبر في موجةٍ تناقلت من شخصٍ إلى آخر حتَّى أعلن أحدهم: «سجن مدى الحياة!». تلاحم التهليل بصياح الخيبة. وراح الجميع يتحدَّثون في آنٍ واحد، يحاولون التدافع إلى داخل قاعة المحكمة. كانت يدُ أبي لا تزال قابضةً على يدي، وتحركّنا مع الجمع حتَّى اقتربنا من مدخل الباب. أمعنتُ النظر بالداخل ورأيتُ جمعًا من الناس يموجون نحو مقدمة الغرفة، يرفعون أيديهم إلى المنصة ليستحوذوا انتباه القاضي. وأُناس آخرون يرفعون هواتفهم الخلوية فوق رؤوسهم ويلتقطون صورًا. وفي الختام صار الزحام كثيفًا حتَّى عجزتُ عن الإمساك بيد أبي وتفرَّقنا.

بعد بضع دقائق، أثيرت جلبة إذ اقتيد غلمان أعظم إلى خارج قاعة المحكمة، مُحاطًا بدائرة من رجال الشرطة، ولكن لا يسعهم التحرُّك إلا لمامًا،

ولمَّا عبروا بي ألقيتُ عليه نظرةً ثاقبة. كان جالسًا على كُرسي متحرِّك، متباعد القدمين متقارب الركبتين، ويداه مُكبَّلتين أمام بطنه، وقبعة قاسية عريضة تنسدلُ على وجهه الضئيل. وكان أحدُ رجال الشرطة قد وضع يدًا تكادُ تكون حانية على كتفه وهم يتقدَّمون ببطءٍ إلى خارج قاعة المحكمة. سيُزَجُّ بغلمان أعظم إلى السجن في ذلك اليوم، وبعد عامٍ سيموت، وينعيه شعوب حول العالم لا يعرفون، أو لا يعبئون، بما فعله. وستُّكيل أمي السباب مرارًا أمام شاشة حاسوبها وهي تقرأ قصص الحشود الذين حضروا جنازته، ونصرها يتلاشى مع كل مرَّة يُشار إليه بلقب «الأستاذ»، مع كل مرَّة يُكتب عنه بوصفه قائدًا متديِّنًا فضلًا عن وصفه بما هو عليه حقيقةً -قاتل. ولكن هذا سيأتي لاحقًا. أما في هذا اليوم، كان الشعور بالرضا ملموسًا، إن لم يكن مثاليًّا، ها هو حكم بالإدانة، ثمَّ عقوبة، وجلوسه صاغرًا كالعصافير على كُرسي مُتحرِّك لا يُرافقه إلا رجل شرطة. أما في ما يتعلَّق بي، وأنا ألقي تلك النظرات الخاطفة على الرجل، وأبي يقف شامخًا مخلصًا في مكانٍ ما من القاعة، كنتُ أمرُّ بمنعطف حرج. تقلَّصت أهمية اكتشافي وانتفخت مثل حجيرات القلب، ولوهلةٍ قررتُ أنه لا ضرورة لمواصلة التحقيق في أمر أصولي، وهذا لأنني محبوبة وهو ما يجدر به أن يكون مرضيًا، كما ذكَّرني راشد من قبل. ولكن لوهلةٍ أخرى، كانت الرغبة في حل معضلتي، وإعلان انقشاع حالة الصمت التي أحاطت بي، أمرًا لا ملاذ منه، وفي النهاية كانت هذه الرغبة هي الخيار الفائز، وما إن ثقلت كفة الرغبة في الميزان، عجزتُ عن انتظار لحظة أخرى. لقد تفوَّق عليَّ غلمان قبلًا، وأما وإنه الآن هُزم أخيرًا، فقد حان دوري. تدافعتُ في طريقي نحو المخرج، أُزاحم أمواج البشر، الوحيدة التي تسير عكس التيار، حتَّى بُصِقتُ إلى خارج المبنى، أُجاهد لألتقط نفسًا وأنا أصلُ إلى الحدائق خارج دار القضاء.

لوَّحتُ لعربة ريكاشة، وقد أُصقل الأمر بأهمية لا تحتمل انتظار أبي، ثمَّ أمليتُ على السائق الاتجاهات إلى بيت نانو في دانموندي. وبينما كنَّا نعبر ميربور روود، أخرجتُ هاتفي وأرسلتُ رسالة نصية إلى والديَّ تقول: **يجب *أن أعرف الحقيقة. وإلا سأغادر المنزل ولن أعود ثانيةً***. لم أتمالك نفسي من السيطرة على انفعالي، وقد أخذت كل السنين التي لم أعرف بها الحقيقة تتكدَّس فوقي كالجبال. أزحتُ مظلَّة الريكاشة إلى الوراء؛ كنتُ حبيسة داخل صدري، لا أقدرُ على ملء رئتيَّ بالهواء الكافي.

***

كان الباب الأمامي مردودًا وتناهت إلى سمعي أصوات آتية من الداخل. دخلتُ ورأيتُ رجلًا جالسًا على الأريكة مُوليًا ظهره لي، ظهر عريض، رحب ممتلئ، وشملة بيضاء تُغطي رأسه. استدار لمواجهتي وسرعان ما أولاني ظهره مُجدَّدًا.

حينها قالت جدتي: «إنها زُبيدة».

نهض الرجل وقدِم نحوي. ومن أسفل شملته، نظارات سميكة الإطار، ولحية تُلامس صدره في الأسفل. كان له وجه جميل، وعينان رقيقتان داكنتان، وفم أنيس. جهر قائلًا: «السلام عليكم». وعلى جبهته زبيبة سوداء كتلك التي لدى علي، لكنها أعرضُ وأشدُّ دُكنة، تتلألأ من سنوات المواظبة على الصلاة.

- كم هو رائع أن أضع عيني عليكِ.

- جاء خالكِ لزيارتنا من أمريكا. لقد وصل لتوِّه هذا الصباح.

كانت نانو تبتسمُ ابتسامتها المُتلهفة التي اعتادت أن تظهر على محياها متى ما ذكرت خالي. أنا نفسي لا أملكُ ذكرياتٍ عن هذا الرجل. كان قد جاء إلى دكًّا مرَّة واحدة، بقدر ما تسعفني الذاكرة. ومنحني حينها قطعة شوكولاتة كيت كات وأثار الرعب في نفسي بقصَّةٍ ألقاها على مسامعي عن نار جهنم. يتحدَّث والداي عنه أحيانًا. وأخبرتني أمي أن سهيل قبل الحرب كان شابًّا جذَّابًا يحتفظ بنسخةٍ من كتاب ماو «الكتاب الأحمر الصغير» في جيبه الأمامي. تُوفِّي والدهما قبل الحرب بسنواتٍ طويلة، وفي كوخهما المتواضع في دانموندي لم يعش سواه وأمي ونانو، وأن شيئًا حيال عيشه الطويل مع النساء قد جعل منه رجلًا ليِّنًا يكاد يكون هشًّا. وهو بذلك ليس مقاتلًا قطعًا. لذا تفاجأ الجميع حين عبر الحدود وانضم إلى «جيش التحرير». تقول أمي إن سهيل لم يُصنِّف نفسه مُجمِّعًا للمتفجرات البدائية، أو راميًا ماهرًا أو جنديًّا مقدامًا إلى خط النار. بل عُرف عنه التراجع في اللحظات الحرجة، كتشغيل مُفجِّر أو اجتياح نقطة تفتيش للجيش. ولكن ما افتقر إليه سهيل في المهارة والشجاعة، عوَّضه في العقيدة. حين يتعلَّق الأمر بالإيمان بأن ما يفعله هو الحق، فإن سهيل لا يُقهر.

لكن أمي لا تسترجع ذكريات ما فعله في الحرب بقدر ما تذكر ما صار عليه بعد انتهاء الحرب. كان من غير الدارج آنذاك، كما هو الآن، أن يخرج الشباب قاصدين الحجَّ إلى مكة، أو يحثُّون زوجاتهم على تغطية رؤوسهن،

أو ترصيع جُملهم بعبارات التضرُّع إلى الله. لكنَّ الخال سهيل تنحَّل بعباءة الدين بُعَيد الحرب مباشرةً ولم يخلعها عنه طيلة العقود التي تلت ذلك، لا حين فُجِعَ بموت ابنه، ولا حين تغير نظام العالم، ولا في عزلته عن أصدقائه وماضيه اللذين تقتضيهما هذه الحياة العجفاء الجديدة. وبأسلوبه الخاص كان رجلًا يسير عكس التيار، يُحطِّم القلوب خلال رحلته، ويجُزُّ أواصر صداقاته وعائلته لأنه مؤمن بأن ما يفعله هو الحق، مهما كان الثمن باهظًا -وأبهظُ الأثمان هي نُدرة الحديث بينه وبين أمي، ومتى ما ذكرت أمي اسمه أو قالت شيئًا عنه، ستُنهي حديثها دومًا بتنهيدةٍ تُضيف بعدها أن الحال يبدو كأن شقيقها، مثل شقيق أبي، قد مات في الحرب.

جلستُ إلى جانب سهيلٍ الآن، فعرض عليَّ طبقًا من التمر، حدَّثني بأن أحدهم قد جلبه إليه من مكة. كان التمر محشوًّا باللوز. ألقيتُ واحدةً في فمي ولمَّا مضغتها وجدتُ مذاقها مُفرط الحلاوة. تبادلنا أقل القليل من الكلمات، وأمعنَّا النظر في بعضنا بانفتاح. رُحتُ ألوكُ التمرة وراء الأخرى. ومن فينة لأخرى يختلسُ النظر من فوق نظَّاراته ويستنثر زفيرًا عميقًا، وهو يجذب لحيته ويُمسِّدها بإحدى يديه، ثمَّ بالأخرى.

تفكَّرتُ في أبنائه، لو أني التقيتُهم، هل سأجدهم جميعًا مألوفين تمامًا لي، أم سيشبهون كل الرجال الآخرين المُلتحين في المطارات ومراكز التسوُّق، وزوجاتهم على بعد بضعة أقدام في إثرهم. التفتُ إلى نانو وقلتُ: «يا نانو، أخبرني راشد أنكِ خضعتِ لفحص السكري».

أجابت باسمة: «يا له من ولدٍ لطيف. أرسل إليَّ سيارته حتَّى يتسنَّى لي زيارة الطبيب».

الوغد!

- وماذا قال الطبيب؟

ضربت الهواء بيديها، وأجابت: «لا شيء لأقلق بشأنه. لن أتوقَّف عن أكل شوكولاتة توبليرون».

- أتيتُ لأسألكِ عن شيء.

بطريقة أو بأخرى جعلني وجود سهيل أظنُّ الأمر كله سينكشف أخيرًا. في الواقع، لم أكن موقنة من قدرة أحدٍ على الكذب في حضوره، وتساءلتُ عمَّا إذا كان هذا هو سرُّ نجاحه، وسبب قدرته على إقناع العشرات من الأمريكيين

بدخول الإسلام كل أسبوع، ليس في مسجده فحسب، بل وهو يمضي قدمًا في حياته، يتسوَّق في البقالة، ويعيد تعبئة الوقود في المحطة، ويُقِلُّ زوجته من صف التعاليم الإسلامية على الجانب الآخر من المدينة.

التفتُ إلى نانو وتابعتُ: «أكنتِ تعرفين أنني مُتبنَّاة؟».

كان جوابها فوريًّا: «أجل».

- من أين؟

- لطالما ظننتُ أنه يجدر بوالديكِ أن يُخبراكِ، لكن كان لهما أسبابهما. وقد طلبا منِّي ألا أتحدَّث عن الأمر.

ثمَّ سألتُ سهيل: «أكنتَ تعرف؟».

- كاتبتني أمكِ. لكنها وصفته بأنه سري جدًّا، ولذا لم أتحدَّث عن الأمر منذ ذلك الحين.

دقَّ جرس الباب، فاندفعتُ قائلة: «لا تُجيبي ذلك. أخبريني المزيد».

أجابت جدتي: «لا أعرف المزيد يا ابنتي. أقبلي واجلسي إلى جانبي». وربَّتت على الوسادة المُنجَّدة باللون الوردي.

لم أكن موقنةً من الكيفية التي يحسُن بي أن أُوجِّه بها نفسي أو إلى أين أُوجِّهني. دقَّ جرس الباب ثانيةً، وتفاجأتُ بنفسي أستندُ إلى الباب، وأسألُ سهيل: «هل لكَ أبناء متبنُّون؟».

- ليس من أبنائي من هو مُتبنًّى. لكن نبينا، صلى الله عليه وسلم، كان يتيمًا.

أومأتُ بإيجاب، متذكِّرةً ما همستُ لكَ به تلك الليلة في ساندرز. دقَّ الجرس للمرَّة الثالثة. ثمَّ سمعتُ صوتَ أبي.

- حبيبتي، افتحي الباب.

- هل أمي معكَ؟

فترةُ صمت. ثمَّ أجاب: «أجل».

قالت نانو برفق: «دعيهما يدخلان».

فتحتُ الباب ووجدتُ والديَّ في الممر، يقفان متباعدين قليلًا لكنهما متشابكي الأيدي. قلتُ: «الخال سهيل هنا».

تنحَّيتُ جانبًا فتبعاني إلى الداخل. نهضت نانو عن مقعدها، تتكئُ على مشَّايتها. ثمَّ قالت: «سأذهب لإعداد المزيد من الشاي. سهيل، تعالَ معي».

- لا أستطيع، الخادمة بالداخل.

التزم سهيل بالبُردة أي أن يكون في حجاب، وبهذا ينبغي أن تربطه قرابةُ دمٍ بالنساء اللاتي يُسمح له بالنظر إليهن.

علَّقت أمي: «بربك، أنتَ لم تتغيَّر».

التفت سهيل إلى أمي وعانقها، بلا استياء.

تجاهلته أمي وقالت: «أنا هنا من أجل ابنتي».

- بل أشبه بالابنة.

أغلقت نانو باب المطبخ من خلفها. وسهيل، ضخم البنيان، قد وارى نفسه بالتطلُّع إلى السقف وتحريكُ شفتيه بشيء افترضتُ أنه دعاء. وشرعت أمي تُصدر أصواتًا مختنقة متسارعة بين يديها. ترددت الضوضاء في أرجاء الغرفة، ثمَّ استوعبتُ وأبي معناها. نظرنا إلى بعضنا وأومأتُ له لكي يعرف أنه لا بأس إن بدأ بتوضيح الأمر. مال إلى الأمام، ومرفقاه على ركبتيه. ثمَّ قال: «تعلمين يا حبيبتي أنني قد أُسِرتُ في الحرب، أليس كذلك؟».

إذن عزم على البدء بهذا الشأن. لا أقدر على الغضب حيال ذلك، أليس كذلك، لأنه بطلُ حرب يحمل جروح الحرب. لعلَّ هذه هي الصورة التي كان يجدر بي أن أرى بها نفسي طيلة الوقت، جُرح حرب، تذكار حيٌّ لذكرى سيئة وذكرى جيدة حدثا معًا في آنٍ واحد.

- بعدما أُطلق سراحي، وانتهت الحرب، وتزوجتُ وأمكِ -حسنًا، حاولنا لبضع سنوات، لكن كما تبين...

خشيتُ أن يسرد تفاصيل عذاباته ولذا أنهيتُ جملته بدلًا عنه. «عجزتَ عن إنجاب طفل».

- شيء من هذا القبيل.

أنهى سهيل دعاءه وانسحب ناظراه عن السقف. سمعنا نانو تتحرَّك في أنحاء المطبخ، ورقع الأطباق والأكواب يصدح من الداخل.

مضى أبي قائلًا: «بالنظر إلى الماضي، أرى أننا ارتكبنا أخطاء في طريقة...».

قاطعته أمي: «إنه خطئي أنا. ليس هو. ما من مشكلةٍ في أبيكِ. بل أنا المشكلة».

نهضت ودارت حول الغرفة. ومن المطبخ علا صوتُ الغلَّاية وراح يعلو ويعلو.

قال أبي: «تعالي هنا يا حبيبتي»، فأطاعته أمي قافلةً للجلوس إلى جانبه. أستطيع تصوُّرهما في شبابهما الآن، بوجوهٍ ضامرة مُنهكة، يتصدَّيان لأمورٍ خارجة عن إرادتهما، صورٍ من الحرب من خلفهما، والمستقبل الغامض المشتَّت من أمامهما.

أوضحت أمي: «لوقتٍ طويل لم أُفكر في إنجاب طفل. ولكن باغتتني الرغبة، ولمَّا حدث، شعرتُ بشيءٍ من اليأس. لقد جرَّبنا كل شيء، وأنفقنا كل أموالنا». رتَّبت طيات ساريها وأكملت: «على أي حال، المغزى هو الصمت -لقد فعل أبوكِ هذا ليحميني. لم نتحدَّث بهذا الشأن قط. والقلة الذين عرفوا بالأمر ظنُّوا أن المشكلة منه، وبسبب الحرب، لم يسأل أحد عن الأمر».

سألتُ، راغبةً في الإبقاء على غضبي متأججًا: «ولكن ماذا عنِّي أنا؟ ألم ترغبا قط في إخباري بأيٍّ من هذا؟».

أجاب أبي: «لقد أردنا باستماتةٍ أن تكوني ابنةً لنا. كنَّا أنانيَّيْن. نحن آسفان جدًّا».

عادت نانو بالشاي. اتخذت جلستها وانشغلت في صبِّ الشاي وإضافة مسحوق الحليب والسكر. مرَّر سهيل الفناجين على الجالسين، واضعًا واحدًا أمامي، ومُربِّتًا على رأسي وهو يتحرَّك بتثاقل عائدًا إلى كرسيه.

- هناك المزيد. أعرف أن هناك المزيد. أخبرتني دوللي أنها فقدت كل سجلات تبنِّيَّ. كيف يعقل ذلك؟

أطرقت عينا أمي إلى الأرض، وهمست: «أأخبرتها! لا أتحمَّل التفكير في هذا».

رأيتُ أبي يُصارع لصياغة كلماته. أردتُ أن أخبرهما أنني أحبهما، وأن حياتي ليست سيئة للغاية، وأنني أعرف أنهما قد بذلا ما بوسعهما. وأردتُ أن أشعر بالأسف على أمي لما تحمَّلته من عبء طيلة كل هذه السنين، لكنَّ الباعث على البقاء فظَّة في حديثي كان أقوى من رغبتي. وحدك يا إيلاجا من بين الناس كلهم ستعرف أني قادرة على تبنِّي القسوة. جُبتُ بناظري في

الأرجاء وكانوا جميعًا يُحدِّقون إليَّ، وبدا الهواء يُطوِّق فمي بذرَّاته. تجاهلتُ ذراعَيْ أبي المنبسطتين، ونشيجُ أمي الخافت. وقلتُ: «أتعرفان ماذا يجعلني هذا؟ ألا أعرف مَن أكون؟ يجعلني نصفَ إنسان».

سمعتُ سهيل يقول: «كان زمنًا عسيرًا». كان صوته هادئًا وبالنبرة نفسها راح يُتابع: «ارتكبنا جميعًا أفعالًا قاسية في الحرب، وعثرنا جميعًا على سُبل لنتصالح مع تلك الأفعال».

- هل قتلتَ أحدًا؟

علَّق أبي: «ليس هذا ما يقصده. بعد الحرب، كان الجميع يبحثون عن هدف لوجودهم، عن شيءٍ يساعدنا على استيعاب ما حدث. في نظر بعض الناس، كان هذا الهدف هو عملهم -وجنى الناس أموالًا طائلة. وأحيانًا (متطلعًا إلى سهيل) كان هذا الهدف هو الدين».

أكملت أمي: «وفي نظرنا كان الهدف هو طفل. رغبنا في إنجاب طفلٍ يمحو كل آلامنا».

نظرتُ إليها ورأيتُ أنها تشدُّ الكلام شدًّا من داخلها يُصاحبه ألم وجهد بالغان، مثل روحٍ شيطانية تلبَّست ما بين أضلعها وتحتَّم طردها. وبينما هي تمضي في حديثها، ازداد صوتها قوةً وثقة: «لذا حين عجزنا -أعني حين عجزتُ- لن تستوعبي الأمر، إنه إحساس شديدُ التجذُّر؛ ذلك العجزُ عن حمل طفل».

أخذتُ رشفةً من الشاي، فاحترق لساني.

- لم نرغب في أي اتصالٍ معها، مع أمكِ. كان أمرًا عسيرًا علينا. ولذا تركنا دوللي وبلبل يهتمان بكل شيء، ثمَّ طلبنا منهما أن يُتلفا الدليل. وما إن أصبحتِ ابنتنا قانونيًّا، أردنا أن ننسى فحسب أنكِ كنتِ تنتمين إلى أحدٍ غيرنا.

لم أدرِ بما أُجيب. كانت الأسباب وراء رغبتهما في محو الأدلة على تبني طفلهما -وهو أنا- غير منطقية. لقد تولَّد تصرفهما من الاحتياج إلى الحب وإلى الشعور بالمحبة، أستطيعُ فهم ذلك الآن وأُصدِّقه. لكن هذا يعني أيضًا أنهما لا بُدَّ في مرحلةٍ ما قد شعرا بالخزي -ليس بالمعنى الذي قد يفهمه البعض، وهو المعنى الذي خشيتُه دومًا- من أنَّ تكون جذوري قد لوَّثها الفقر، أو سوء الحظ، أو الشقاء، بطريقةٍ أو بأخرى -بل شعرا بالخزي من نفسيهما،

ولعلَّ لفظ الخزي ليس حتَّى الكلمة الصحيحة لوصف شعورهما- علاوةً على أنه أمرٌ بغيضٌ، وهو حقيقة أني جئتُ من مكانٍ آخر عدا رحم أمي، وأني لم أُخلق منهما بالطريقة التي لطالما تاقا إليها توقًا، وأن حلَّهما لتثبيط حزنهما قد انهار حولهما ولم يترك لهما خيارًا سوى الرضا بطفل أحدٍ آخر. لذلك ومع امتناني لمعرفة هذه الحقيقة، جعلتني تلك المعرفة أتفكَّر في كل الليالي التي ربما قضياها في انتظارٍ تلو انتظار، ثمَّ حرمان، ولعلَّهما بعدما أتيتُ لهما، كان يُطرقان ناظرين إلى وجهي النائم ويتمنيان لو كنتُ شخصًا آخر، شخصًا لم يُكتب له الوجود قط، ويسعني الآن أن أفهم السبب وراء رغبتهما في عدم معرفتي بالأمر، لأنه ما إن تجسَّدت الصورة أمام عيني، افتقدتُ الزمان -وهو ما كان قبل دقائق قليلة- الذي لم تُوجد به الحقيقة، ليس بالصورة الفارقة الملموسة التي هي عليها الآن.

نظرتُ إلى خالي لأرى إذا كان لديه تعليقٌ يقوله في هذه اللحظة، تعليقٌ رصينٌ وذو معنى في لحظاتٍ كهذه، لكنه كان مسترخيًا في كرسيه ويديه مطويتين على بروز بطنه. قلتُ: «عليَّ أن أبحث عنها. وسأظلُّ أبحث عنها حتَّى أعثر عليها».

زفر أبي تنهيدةً عميقة وأحكم ذراعه حول أمي التي كانت تمسح الدموع عن عينيها بطرف ساريها، وهي تقتفي قاع جفنها حيث لطَّخ محدِّد الأعين بشرتها.

- وكيف ستفعلين ذلك يا عزيزتي؟ من جانبنا ليس لدينا فكرة عمَّا حدث لها.

دفع الخال سهيل بجسده للنهوض من على الكُرسي وسار نحوي على مهلٍ. ثمَّ قال: «سأذهب الآن. سأقضي الليلة في المسجد».

رأيتُ ظلًّا يعبر وجه نانو، مُدركةً أنه لن يُنصت إلى توسُّلاتها إذا طلبت منه البقاء. تفكَّرتُ في أن كل الأمهات في هذه الغرفة يتُقنَ إلى التشبث بأطفالهن؛ مطعونة بذكرى إجهاضي. عانقني سهيل فتشبثتُ به. فاح كتفاه الضعيفان برائحة ماء الورد، شممتها وأنا أسمعه يقول: «تذكَّري أن الله بكل شيءٍ عليم، وأنه يغفر الذنوب جميعًا. إن شعورَ فقدان طفلٍ أشبه بشعور نهاية العالم». سمحتُ له بترديد دعاءٍ في أذني همسًا، مُدركةً وأنا أطيل البقاء بين ذراعيه أني بذلك أخون أمي.

بعدما امتطى صندله وأغلق الباب من خلفه، قلتُ: «سأقضي الليلة هنا. نانو، هل يمكنني البقاء؟».

علَّقت أمي: «سنبقى نحن أيضًا».

كنتُ مُنهكةً لدرجةٍ أعجزتني عن الاحتجاج. وشغلت نانو نفسها في المطبخ، ثمَّ خرجت بطبقٍ صغير من حساء الكاري والأرز. راحت تغرف الأرز في طبقي. ولمرَّةٍ أو اثنتين أخذت تُثير موضوعاتٍ عدَّة للحديث، لكن لم يُجاريها أحد في أيٍّ منها. تناولتُ طعامي مُنكَّسة الرأس، أشعرُ بجوعٍ متزايد عمَّا أردتُ أن أكون عليه، وأختلسُ النظرات إلى والديَّ بين فينة وأخرى. كانت أمي تدفع بطعامها في أنحاء الطبق بالشوكة. وفي نهاية اليوم، خلدتُ إلى الفراش دون أن أنبس بكلمةٍ لأي أحد وغططتُ في النوم من فوري.

حين شعرتُ بيد أمي على وجهي، استنتجتُ أننا قُبيل الفجر، هذا لأن الغرفة كانت سابحةً في ضوءٍ برتقالي شاحب. لا أدري كم من الوقت بقيت هي؛ كانت مستلقيةً إلى جانبي على الفراش بعينين مفتوحتين. ولمَّا شرعتُ أشيح بوجهي بعيدًا عنها، أوقفتني وراحة يدها متخشِّبة على خدي.

- حين كنتِ رضيعة كنتُ أستلقي إلى جانبكِ وأحاول فتح فمكِ هكذا.

ضغطت بإبهامها على ذقني لتجذبه إلى الأسفل. ثمَّ مضت قائلة:

- كنتُ أُقرِّب وجهي من وجهك، وأحاول شمَّ أنفاسك.

- وكيف كانت رائحة أنفاسي؟

- رائحة لبن وسكر. تمامًا كالكاسترد.

لأمي أن تتفوَّق على أي أحدٍ حين يتعلَّق الأمر بقصص الحظ العاثر. إذا بدأتَ معها حديثًا عن أمرٍ سيئ قد وقع لأحدٍ تعرفه، ستتظاهر بأنها تُصغي إليك ثمَّ تُخبركَ بشيءٍ مُفجع وكئيب يدفعك دفعًا إلى الصمت من فورك. رحتُ دومًا أنظر للأمر على أنه قوًى خارقة تتمتع بها أمي، قدرة على جعل الناس يحظون بشعورٍ جيد وآخرٍ أشدُّ سوءًا في آن واحد حيال مكانتهم في هذا العالم. أدركتُ آنذاكَ وأنا أُصغي لأنفاسها المتوترة أن قصتها حيال تشمم رائحة الأطفال قد خطرت ببالها بعد فوات الأوان، وفي ظل هذا الألم عاشت داخل تلك الحكايات الكئيبة. تُغذِّي الحكايات والحكايات تُغذِّيها. كانت في حوارٍ مع حيوات الآخرين، تتنفس ذرات الهواء نفسها التي يزفرونها، هؤلاء اللا مرئيين الذين ليسوا سوى أشباحٍ في نظر بقية العالم، لكنهم أحياء

راسخي الحضور في نظرها. وضعتُ راحة يدي فوق راحتها التي على خدِّي، ورقدنا على تلك الشاكلة لوقتٍ طويل، تُحيط بنا السنون التي قضيناها ننتمي إلى بعضنا بعضًا.

***

في الصباح، وبعدما أطعمتنا نانو جميعًا طعام الإفطار واتجه كل منَّا لحال سبيله، عادت أمي إلى سيراجانج لتبدأ دورةً أخرى من المقابلات الشخصية، واتجه أبي إلى مصنعه، وفكَّرتُ أنا في إخفاق عملية بحثي، أصبُّ جُلَّ تركيزي على الوقت الذي اتخذ فيه والداي قرار تبنيَّ. لا شك أن البلاد في حالتها السلمية لم تكن موضع إرضاء لوالديَّ. إذ افتقدا الشخصيات التي كانا عليها حين صارت أسماؤهما تبدأ بلفظة «الرفيق». عادا إلى فراغ الاعتيادية، لا يُهمهمان بأغنيات الاحتجاج وهما يغطَّان في النوم، على أسرَّة لم تعد غريبةً عليهما الآن. سرعان ما نسيا مآسيَ تلك الساعة، وما تبقَّى منها ليس إلا إحساسًا عالقًا بالخسارة، هذا لأنهما صارا مواطنين الآن، ومسألة المواطنة هي أحطُّ قدرًا من مسألة الثورة. وما رغبا به، رغبةً تفوق رغبتهما في أي شيء، هو أمل راسخ، وذاك الأمل الراسخ هو أنا.

ولهذا السبب لن أعرف أبدًا مَن هي أمي. لقد دمَّرا الدليل وأنشآ عائلة في البلد الجديد.

رحتُ أتجوَّل في أنحاء المدينة. تمشِّيتُ على امتداد الطريق 27، ودخلتُ إلى متاجر عديدة، أحدها يعرض سواري باللونين الأبيض والأسود فقط، وآخر يبيع مشغولاتٍ يدوية، وجدرانه مُزيَّنة بفن الريكاشة. اشتريتُ بطاقةً بريدية، وإليكَ كتبتُ: «**لن أعرف أبدًا مَن هي أمي يا إيلاجا**». ودون سابق تفكير، استقللتُ عربة ريكاشة إلى مكتب بريد دانموندي ووقفتُ في طابورٍ خلف قلةٍ من رجالٍ يتمنطقون بقمصانٍ مماثلة من الأزرق الباهت والأكمامِ القصيرة، وكتبتُ عنوانكَ ودفعتُ إلى المرأة المُتجهِّمة خلف الطاولة. ومن فوري ندمتُ على ما فعلت، تمنيتُ لو كان بإمكاني مدُّ يدي خلف القضبان المعدنية المتقاطعة واسترداد البطاقة البريدية، لكن زحام وقت الغداء حال دون ذلك وعدلتُ عن رأيي. في نهاية المطاف، دفعني الجوع إلى العودة إلى المنزل، مارَّة بالمبنى البرلماني الذي يستقر مثل سلطعون رمادي ضخم على طريق «مانيك مِيا أفينو»، مارَّة بالقبة السماوية ومتجر الكتب الصغير المحشور

خلف المطار القديم، وأخيرًا وصلتُ «بناني»، حيث توقَّفت أمام مخبز رخيص لأبتاع سويس روول الشوكولاتة، مُدركةً أنه سيثير حنق دوللي. وطيلة كل هذا الوقت رحتُ أُفكِّر في أمر بحثي الذي انتهى. كنتُ ما أزالُ الشخص المضطرب الذي كنتُ عليه دومًا، لكنني الآن أُدرك أنه ما من شيءٍ باقٍ لأكتشفه. أهذا لأن اللغز أكبر، أم أنه يتضاءل؟

عجزتُ عن استنتاج هذا الجواب بنفسي. وما من أحدٍ لديَّ لأسأله، ما من أحدٍ لأخبره بما أشعرُ به حيال هذا: إخفاقُ بحثي وتسويته؛ لا والديَّ ولا زوجي ولا الأصدقاء الذين صادقتهم على مدار السنين في الديار. أدركتُ أني قضيتُ كثيرًا من حياتي أُجزِّئ نفسي، أمنحُ القليل إلى هذا الشخص، والقليل إلى آخر، وما من أحدٍ يربط النقاط، ما من أحدٍ يستوعب المجموع الكُلِّي لكل الأجزاء: اليتيمة، والعالمة، وابنة الثوريين. عداكَ أنتَ بالطبع. ومع ذلك، أو لعلِّي لهذا السبب، هجرتُكَ.

هاتفتُ روبانا. علمتُ أنها ستوبخني على مغادرتي المفاجئة للشاطئ، لكنني أفترضُ أن رغبتي آنذاكَ كانت في شخصٍ ينصحني بمواصلة البحث ويُشعرني بالتحسُّن. لم تُجِب هاتفها، فبعثتُ إليها برسالةٍ نصية، وبعد قُرابة ساعة أعادت الاتصال بي.

قالت: «إنني أتقدَّم برفع دعوى قضائية أمام المحكمة العليا».

كأنما قُطع الاتصال بيننا في منتصف حديثٍ جار. وتابعت:

- سأستعين بالمقابلات التي أجريتها مع العُمَّال.

- ظننتُ أنكم تُعِدُّون فيلمًا فحسب.

- ستصنع الحالات الدراسية فارقًا، وستُقنِّع كل هذه المآسي بقناعٍ بشري. لقد أحسنَّا صنعًا.

أحسنَّا صنعًا! حملتني هذه العبارة على التفكُّر في الأسلوب الذي عاملتُ به مو.

تابعت روبانا:

- أبلغني بلال أنكِ غادرتِ.

- أنا آسفة. أعاقتني بعض المشكلات الشخصية التي تعيَّن عليَّ التعامل معها.

- أتمنَّى ألا تندم أمكِ على إرسالكِ إليَّ.

خيَّم صمت، ثمَّ صوتُ نقرٍ، كأنما تضمُّ شفتيها إلى بعضهما وتفرجهما. ثمَّ كسرت صمتها قائلة:

- وصل إلى مسامعي كلام.. عن شابٍّ أمريكي.

بالطبع وصل إلى مسامع روبانا أمر كهذا. اشتعل وجهي بالحرارة وأنا أُشغِلُ نفسي بطيَّة في قميصي.

- تعلمين أنني لا آبه حقيقةً بهذه الأمور -إن حياتكِ هي شأن خاص بكِ. ولكن لا يسعكِ تقديم أعذارٍ للناس على عدم أخذكِ على محمل الجد.

شعرتُ بالذنب من الرغبة القوية التي تمنَّيتُ بها أن تكون هذه المرأة هي أمي. حدَّثتُ نفسي أن حان الوقتُ لإيقاف ما أفعله، عادة طوَّرتُها على مدار السنين، أي التوقُّف عن البحث عنها في كل منعطف، وتخيُّل أنها هذا الشخص أو ذاك. غرباء في الشوارع. أو نساء عرفتهم طيلة حياتي.

وكأنها قرأت أفكاري، قالت روبانا: «يمكنكِ العودة وإجراء المزيد من المقابلات».

تنفستُ الصعداء: «شكرًا لكِ».

كانت روبانا تمنحني سبيلًا للخلاص مُجدَّدًا، وعزمتُ على التشبُّث به بكلتا يدي.

***

«أعتذر منكم. تحتاج منِّي روبانا إنهاء بعض الأعمال».

هكذا قلتُ للجميع.

رغبَ راشد عن كوب أيس كريم الفستق الذي راح يمرُّ عبر الطاولة. ثمَّ سألني: «متى ستعودين؟».

علَّقت دوللي: «صغيري بابو يفتقد عروسه».

أجبتُ سؤال راشد: «بضعة أسابيع». ومن أسفل الطاولة مددتُ يدي أتحسَّس يده.

سألت دوللي: «ألا يستطيع أحد آخر القيام بالعمل؟ يحزنني جدًّا أن يُضطر عروسان جدد للافتراق».

اقترح بلبل: «لِمَ لا نذهبُ جميعًا إلى شيتاجونج لقضاء عطلة نهاية الأسبوع؟ إننا لم نَزُر المنزل منذ شهور».

أجابت دوللي: «سيهطلُ المطر طيلة الوقت. وستُصابين بنزلة برد. تتصرف روبانا بغير عقلانية حقًّا».

- لقد افتقدتُ ملعب جولف شيتاجونج. وإذا ذهبنا إلى هناك يمكنني لعبُ بضع جولات.

دسَّت دوللي ملعقتها في طبق الأيس كريم، وقالت: «هكذا إذن. ستجرجرني وراءك كل هذا الطريق إلى هناك وتختفي طيلة اليوم».

- الطقس ألطفُ في هذا الوقت من العام.

- لا، ليس لطيفًا. أضف إلى ذلك أن سيجما وبولتو سيُحبَطان إذا لم ندعهما إلى الغداء.

أجاب بلبل وهو يسترخي في كرسيه: «بلا شك. ولكن يتسنَّى لبولتو أن يلعب جولةً معي ومن ثمَّ نتناول غداءنا في النادي».

راحت دوللي وبلبل يتبادلان الجدال لبضع مرَّات عمَّا إذا كان يجدر بهما السفر إلى شيتاجونج بالطائرة أم بالسيارة، وعن المكان الذي يجدر بهما تناول الغداء به، واستأذن راشد لمغادرة الغرفة، وتشتَّت الجمعُ كله قبل أن تصل عربة الشاي إلى مجلسنا.

سألني راشد ما إن أغلقنا باب غرفة النوم من ورائنا: «أيتحتمُ عليكِ الذهابُ حقًّا؟».

أخرج هاتفه من جيبه، وبسط طيات أكمامه وألقى بنفسي على الكرسي ذي الذراعين.

كان راشد قد اتخذ قراره بألا يُفكِّر في عُمق انغماسي وتورُّطي معكَ، بل فضَّل أن يُفكِّر ببساطة حيال حقيقة أنني كنتُ امرأة شاردة، وبهذا سيظل الأمر مجرَّد مشكلةٍ قابلة للحل، وأن الأمر كان كذلك دائمًا. أدركتُ أن استراتيجيته الرئيسة هي إبقائي على مقربة منه، مراقبتي ومعاملتي بحرصٍ شديد، كأنما أُصبتُ بصدعٍ عند خطِّ الشعر وانتشر إلى سائر جسدي، وأن هذا الصدع سيلتئم فقط لو ظلَّ نصفاي معًا لوقتٍ طويل.

- يمكنك المجيء إلى شيتاجونج وزيارتي، كما قالت أُمك.

- أتمنَّى لو أنكِ تُنادينها أمي.

أثار محادثةً كنَّا قد خُضناها منذ أشهر حيال ما سينادي به الواحد منَّا والدي الآخر ما إن نتزوَّج. تبنَّى راشد بسهولة مناداة والديَّ بـ «أمي وأبي» بعد وقتٍ طويل كان يُناديهما فيه «خالتي مايا وعمِّي جوي»، أما أنا فبقيتُ غير قادرة على تحقيق هذا الانتقال.

لم أكن في مزاجٍ للجدال، لذا قلتُ: «كما قالت أمي».

نهض راشد من كرسيه، وخلع عنه ساعته، ثمَّ أعادها بحرصٍ إلى حاويتها، وشرع يخلع ثيابه. فقلتُ:

- أحتاجُ إلى الخروج من هنا. أشعر أنَّ أحدهم قد قطع مرساتي.

تطلع إليَّ فرأيتُ نفسي في عينيه، مُكفهرَّة يتعذَّر قراءتي.

- لا أفهمكِ. أنتِ تملكين كل شيءٍ في الحياة. كل شيء.

أردتُ أن أُخبره عن اليوم السابق، عمَّا أخبرني به والداي، عن أنني أقلعتُ عن البحث -أعرف أنَّ هذا سيسعده- لكني بدلًا حللتُ أزرار قميصه وتركته يسقط إلى الأرض، ثمَّ طوَّقته بذراعيَّ ورحتُ أُمسِّد القطن المُضلَّع لقميصه التحتي. رفعتُ وجهي لأُقبِّله وأخفض هو فمه نحوي، لكنه توقَّف ما إن تلامست شفاهنا ودفع بمرفقي بعيدًا. قال: «لا أقدر». وأومأتُ أنا بالإيجاب، متراجعةً إلى الخلف، شاعرةً بالرفض رغم كل ما حدث. التقط قميصه من الأرض واندفعَ إلى دورة المياه، ورُحتُ أبكي وأنتحب وهو يُفرِّش أسنانه. وما إن عاد إلى الغرفة حتَّى استلقى على الفراش وغطَّ في النوم سريعًا، تاركًا إياي أتكوَّر على ظهره المحدودبِ توتُّرًا.

***

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

العودة إلى جريس

جاء «أبو الحسين» لكي يُقلَّني في الصباح التالي، وحين وصلنا إلى المطار، لم نجد رحلات جوية إلى شيتاجونج. وقفت فتاة خلف مكتب الاستقبال؛ أثار دهشتي ما ترتديه من بدلَّةٍ ضيقة باللونين الأحمر والرمادي، وقالت: «آسفة يا سيدتي، لسوء الأحوال الجوية، تأجَّلت كل الرحلات إلى أجل غير مسمَّى».

- متى موعد الرحلة التالية؟
- من المُقرر لها أن تنطلق صباح الغد يا سيدتي، ولكنها أيضًا قد لا تُغادر.

فكرتُ في العودة إلى البيت، لكن أما وأني عزمتُ على العودة إلى سيتاكُندا، لا يسعني العودة. أسرعتُ إلى داخل السيارة، وقلتُ: «يا «أبا الحسين»، أيمكنكَ أن تُوصلني إلى شيتاجونج؟». إنها رحلة تستغرق من خمس إلى ست ساعات؛ ودأبت دوللي وبلبل على قطعها بسيارتهما الجيب قبل أن يتجدَّد الطيران الداخلي.

حدَّق إليَّ «أبو الحسين» في مرآة الرؤية الخلفية، وقال: «سيتعيَّن علينا أن نُخبر السيد».

- بابا لن يُمانع، سأهاتفه الآن.
- ليس لدينا وقودٌ كافٍ.

فتَّشتُ في حقيبتي، فلم أعثر على أي مال.

- توقَّف أمام أي مصرف، سآتي ببعض النقود.

قُدنا عبر المدينة مُجدَّدًا، متجهين نحو الجنوب من «مواكالي» إلى «محمدبور». صفَّ «أبو الحسين» السيارة أمام المركز التجاري، حيث وقف حارس في زيٍّ رسمي ليفتح الباب على مكعبٍ صغير مُكيَّف الهواء، يضمُّ بين جدرانه ماكينة الصرَّاف الآلي. لطالما استغربتُ أن ماكينات الصرَّاف الآلي في أمريكا مكشوفة للعيان، كأنه لا شيء مميز حيال قدرة المرء على سحب أموالٍ من فجوةٍ في الجدار. وفي المحل المجاور للمصرف، ابتعتُ كيسًا من رقائق «أنكل شيبس» وبضع زجاجاتٍ من الماء. ثمَّ تذكرتُ أني لم أتناول شيئًا من طعام منذ الليلة الماضية، وهي لحظة بدت الآن كأنها منذ عُمرٍ مديد، ولذا جُبتُ أرجاء المركز التجاري بحثًا عن مطعم، حتَّى استقررتُ أخيرًا على مكانٍ يبيع الدجاج المقلي. ابتعتُ طبقًا لنفسي وآخر لـ «أبي الحسين».

وفي السيارة، بعثتُ برسالةٍ إلى أبي. «**أتوافق على أن يوصلني «أبو الحسين» إلى شيتاجونج؟ أمر طارئ**». ثمَّ جُدتُ عليه بإكراميةٍ كبيرة قبل أن أُمرِّر إليه طبق الدجاج المقلي. ثمَّ قلتُ: «يمكنكَ البقاء هناك الليلة والعودة إلى هنا غدًا».

اختار قطعةً من الدجاج من الطبق الكرتوني، وقضمها ثمَّ وضعها على ركبته، حيث ظلَّت في مكانها وهو يراوغ الزحام. وفي محمدبور التقط قطعة الدجاج مُجدَّدًا، وأخذَ قضمةً أخرى، مُخلِّفةً من ورائها بقعةً دهنية على ساق سرواله. ناولته محرمةً ورقية، وشعورُ الذنب ينخرني لحمله على القيادة طيلة الطريق.

بعدما عبرنا محمدبور، تبدَّد الزحام وأفسح التضافر الكثيف للمدينة بعد ذلك مجالًا للمباني منخفضة الارتفاع وللعربات المُكدَّسة عاليًا بالخضراوات، ثمَّ أفدنة وراء أفدنة من مصانع القرميد، كل شيءٍ غارق في الحُمرة، ومُرقَّط بأفران صهرٍ عالية ضيقة تزبدُ بالأدخنة في رحابة السماء. سرعان ما انتقل المشهد إلى الأراضي الفلاحية، قطع من الأراضي على شكل رُقع شطرنج متعاقبة مزروعة بالأرز على مرمى البصر، ويغلبُ الاستواء والاخضرار على كل شيءٍ في الأفق. أغلقتُ عيني، أستجدي النوم ليقطع الساعات الطويلة حتَّى أصل إلى الشاطئ، إلى مو وجبريلا وجريس.

رنَّ هاتفي، فتجاهلته، مُدركةً أن المُتصل إما والداي وإما راشد. استرجعتُ آنذاك حقيقة أن أمي صفعتني ذات مرَّة، حين كنتُ في الحادية عشرة، عقابًا على سرقتي لحقيبة مستحضراتها للتجميل والتزيُّن بأحمر شفاهٍ داخل المدرسة. هاتفتها مديرة المدرسَة، وبعد رحلة خيَّم عليها الصمتُ إلى البيت، صفعتني أمي برفقٍ على خدِّي وعيناها تشعَّان بنظرةٍ مذهولة، كأنما ذراعها تصرفت من تلقاء نفسها. حبستُ نفسي في غرفتي، وراحت أمي تُناديني مرارًا، ولمَّا فتحتُ الباب أخيرًا، وجدتُها مكوَّرة على نفسها على الأريكة. غالب شعورها بالدهشة شعورًا بالندم لم تُظهره. استمر رنين الهاتف. وفي نهاية المطاف، قررتُ أن أُجيب. كان المتصل هو أبي.

- أمكِ غاية في الاستياء. واتصلت دوللي أيضًا بضع مرَّات. يُتوقَّع هبوب عاصفة.
- أعلم ذلك، ولهذا السبب أسافر بالسيارة.
- يقولون من المتوقَّع أن تكون عنيفة.
- من فضلك، دعني أذهب. أعلمُ أنكَ فعلتَ ما تظنُّ أنه الأفضل. لكن لا يسعني الاسترخاء. لا أستطيع العمل؛ لا أستطيع إنجاز أي شيء. لا أستطيع العيش في طمأنينة.

أغلقتُ الخط فلا يسعه أن يسمع بكائي. في الليلة الماضية، حين عجزتُ عن النوم، كتبتُ رسالة إلكترونية إلى راشد. كانت زاخرةً بالندم على كل ما سمحتُ لنفسي بالإتيان به، وأنه ما من مسوِّغٍ للسلوك الذي سلكته، لكن لئن اجتهدتُ بالمحاولة، لرأى أنه ما من سبيلٍ لنا لنمضي قدمًا لو لم أُجرِ محاولةً للملمة شتات ماضيَّ. رُحتُ أستعرض الرسالة مرارًا وتكرارًا، لكني لم أكن موقنةً من اختتامها، أأخبره الآن أن كل شيءٍ انتهى ويمكننا البدء من جديد أم لا، لكن ما أن غزا الأفق قرنٌ شاحبٌ من شمسٍ، قررتُ ألا أبعث بالرسالة.

أغلقتُ عيني لهُنيهة، وما إن فتحتهما حتَّى رأيتُ الماسحات تعمل وأمكنني سماعُ صوتُ ماءٍ من أعلى وأسفل، مطر غزير يتدفَّق على سقف السيارة ويُغرق الطريق. تحقَّقتُ من الوقت فما كانت إلا الظهيرة، لكنَّ السُّحب الممطرة كست ضوء الشمس. تابعنا السير، تُبطئ من حركتنا الظلمة وعباب المطر. أضاء «أبو الحسين» مصابيحه الأمامية ومال على عجلة القيادة، ممسكًا بها بكلتا يديه.

اتصلتُ بمكتب شيب سيف لكني لم أتلقَّ ردًّا. ثمَّ طلبتُ من «أبو الحسين» أن يُشغِّل المذياع، وراح الاستقبال يقوى ويضعفُ. قلَّبتُ في المجلات التي تركها والدي في السيارة ووجدتُ نسخةً حديثة من «Outlook India - أوتلوك إنديا». تزاحمت بها أخبار عن بوليوود، وشائعةُ فسادٍ في الجيش الهندي، ووصفة للعدس الأسود. على امتداد الطريق السريع، بدت السماء صافيةً لهُنيهة وتراجع المطر، وتمكَّنتُ من تبيُّن الأشجار على جانبي الطريق، واستواء المنظر الطبيعي يتبدَّل إلى استدارة طفيفة. ثمَّ أشار «أبو الحسين» إلى لافتةٍ وقال: «أختاه، أيمكننا التوقُّف هنا لشرب الشاي؟».

صفَّ السيارة أمام مبنًى خرساني منخفض. وانتظرتُ أنا في السيارة بينما يطلبُ هو الشاي من صبيٍّ صغير يجلس أمام غلَّايةٍ كبيرة على موقدٍ يعمل بالبروبان. صار الشاي جاهزًا، فمرَّر إليَّ كوبًا صغيرًا من الفخار عبر النافذة. وبعد بضع دقائق، تكثَّفت السحبُ مُجدَّدًا وشرع المطر في الهطول في عنفوان، وبعدما أعاد «أبو الحسين» كوبي، استأنفنا رحلتنا، لا نرى أمامنا إلا اليسير عدا الطريق الممتد أمامنا والمعالم الرمادية للتلال في الأفق.

أُغلقت الدكاكين كلها على امتداد الطريق السريع إلى سيتاكُندا. تعثَّرت السيارة، والماء يخضخض حول أُطرها. أطفأ «أبو الحسين» المُحرِّك، ثمَّ شغَّله مُجدَّدًا، فاندفعنا إلى الأمام، وقطعنا الأميال القليلة الأخيرة زحفًا، وصوتُ الماسحات يضرب الزجاج يمينًا ويسارًا. وبعد ساعةٍ أو يزيد وصلنا إلى مكتب شيب سيف.

كان الباب الأمامي مقفلًا؛ فاستعرتُ مفتاحًا من الحارس، الذي أخبرني بدوره أن الجميع قد عادوا إلى منازلهم مبكرًا بسبب العاصفة. حصرتُ جُلَّ تركيزي على البقاء في الطابق السفلي بدلًا من الإسراع إلى الشقة في الطابق العلوي والزحف على يدي وركبتي بحثًا عن آخر أثرٍ لكَ. حتَّى هنا في المكتب، استشعرتُ حضورك، ووقع أقدامكَ تُثقل الهواء من فوقي.

أشعلتُ المصباح العلوي. هناك يقبع مكتبي، زجاجه مُكسور ومُلصق معًا، ثمَّ الحاسوب العتيق، ولوحُ الفلين ذو قصاصات الصُحف متغضنة الحواف، وكُرسي بلال المتهالك والشرشف المخطط يتدلَّى من ظهره، ورائحة الشاي والبسكويت. لم أغب سوى أشهرٍ قليلة، لكني أدركتُ أني غادرتُ قبل ذلك بوقتٍ طويل؛ فمنذ لحظة وصولك لم أُعنَ كثيرًا بأي من هذا. استرجعتُ شعور البقاء بقربك، لكأنكَ ابتلعت هواء الغرفة كلها، ربما لم يكن السبب هو أنتَ

مطلقًا، بل قوة مشاعري نحوكَ. وبأية حال، كنتُ متطوعةً يُرثى لها؛ لم أُتقن عملي بشأن طاقم السحَّابة. ومو الذي خذلته خذلانًا مشهودًا.

ألقيتُ نظرةً عاجلة على نُسخ المقابلات. ورحتُ أقرأها دون عاطفةٍ تُخالجني. بدت الكلمات بلا طعمٍ على أوراقها؛ قصة حزينة تعقبها أخرى، وكل واحدةٍ منها تبدأ بلحظة الانكسار ذاتها -مرض، محصول فاسد، موت الأب- ثمَّ رحلة طويلة إلى الجنوب، وحقيبة من مقتنياتٍ حملوها معهم، وجُعبةُ الأمل الضئيلة، ثمَّ الوصول إلى ترسانة السفن ورؤية أفدنةُ من الصُّلب والصدأ، والسيد علي، والمسكن، والليالي الطويلة القاحلة، وحمل الحديد على أكتافهم على صوتُ الهُتاف. لم يُخالجني أي شعور، لا ندم، ولا خلجةُ من عِرفانٍ والكلماتُ التي سمعتها وسجلتُها تظهر أمامي بالأبيض والأسود.

ثمَّ وصلتُ إلى قصة شاهد، شاب أجرينا مقابلته معًا. أتذكَّرُ نظرَّتك له لأنه رفض النظر إليَّ. أُرسِلَ إلى هنا قبل أشهرٍ قليلة، ولم يعش في المسكن، بل في غرفةٍ تشاركها مع حفنةٍ من مُشرَّدين آخرين. اتخذه علي متدربًا لديه، ولم يكن قد تقاضى راتبه بعد. قال إنه كان يأكل من تسوُّله على الطريق السريع في المساء، وفي أثناء النهار، حين يُوفر له البقية بضع لقيماتٍ من الأرز. كان بذراعه قطع بدا عاريًا، ولم نكتشفه إلا حين مددتَ يدكَ لتلمسه فأجفل، والقماشُ الخفيف لقميصه يتدلَّى من كتفه. طبَّبتَ الجُرحَ بنفسك، وأخبرتني لاحقًا أن والدكَ قد علَّمكَ الإسعافات الأولية خلال الأيام التي عِشتها في المنزل على الجبال وما كان من طبيبٍ إلا على بُعد أميال. أما الآن وأنا أقرأ كلمات شاهد، وأتخيَّل في أثناء الوقفات أصابعكَ تبسطُ الضمادة، وتنثر الكحول على الجرح، وشاهد طيلة الوقت لا يجفل، راغبًا في تقبيل اليد التي لامسته بلمسةٍ تشبه الحنان الذي لم يعرفه منذ أن ألقى الوداع على أمه في الشتاء، هي بلمسةٍ من راحتها على مقدمة رأسه، وأنتَ بضغطةٍ حذرة من الشريط الجراحي اللاصق.

صعدتُ إلى الشقة في الطابق العلوي لأواجه جبريلا. افترضتُ أنها أعدَّت كتالوجًا بما تريد قوله؛ فقد غادرتُ دون كلمةٍ واحدةٍ لها وتجاهلتُ مكالماتها الهاتفية ورسائلها الكثيرة، وما هو أسوأ، وهو أنني لم أستقصِ حتَّى خبرًا عن مو أو عن أيٍّ من الرجال الآخرين على الشاطئ.

في الداخل، عُرِّيَ المكانُ من آخر أثارك. عملت جبريلا على تنظيف كل شيء؛ الأرضية الفسيفسائية الرمادية لا تشوبها شائبة؛ وكل الأركان المُغبَّرة

من الشقة، وخزانة الكتب الفارغة وشبكات النوافذ غُسِلت تمامًا. حتَّى في غرفتي طُوِيَ الغطاء ورُفعت جوانب الناموسية فأشبهت خيمةً رمادية مستوية فوق السرير. وما إن رأتني جبريلا حتَّى قالت: «في أي داهيةٍ كنتِ؟» فهيأتُ نفسي، لكنها ضحكت وأحاطتني بذراعيها. شرعتُ في شرح الأمر، بدءًا من اسمك، لكنها قالت: «نحتسي شرابًا أولًا، ثمَّ يمكنكِ أن تتذللي». كرَّرنا طقوس ليلتي الأولى في الشقة، عدا أن في هذه المرَّة انسابت التكيلا في جوفي بسهولة، وبعد جَرعتين كبيرتين من الزجاجة لم أشعر حتَّى بشيءٍ من الثمالة.

استقصيتُ أخبار مو، فأخبرتني جبريلا أنه قد تابع مهامه من الطهي والتنظيف والاعتناء بها. جالت بخاطري فكرةً، لما هو أبسطُ من البرهة فحسب، أنه أينما ذهبتَ، لربما أخذته معكَ، لكني أعرف أن هذا أمر مستحيل. كنتَ لترغب في الرحيل من فورك، لكن مو لا يملك حذاءً، فكيف بجواز سفر. كنتَ لتُخلِّفه وراءك، مع أنكَ ما كنتَ لتهجره هجرًا قاسيًا كما فعلتُ أنا. وما كنتَ لتهجرني أنا الأخرى مطلقًا.

- كل ما في الأمر هو: يبدو أنه واقع في مشكلةٍ مع عليَّ. لستُ واثقةً من طبيعتها، فعلي دومًا يتظاهر بأنه ليس لديه أدنى فكرةٍ عمَّا أقوله حين أحاول التحدُّث إليه.

قلتُ والخمرُ قد تمكن منِّي أخيرًا: «لقد أفسدتُ كل شيء».

ضحكت جبريلا: «أتعلمين، لقد تزوجتُ مرَّة أنا الأخرى».

لم أسألها من قبل قط. كانت قد نزعت الأقراط الصغيرة من ثقبي أذنها العلويين، وارتدت قميصًا فضفاضًا يصل إلى ما بعد ردفيها بعدَّة سنتيمترات. بدت فتاةً أكثر عادية الآن، لكنها لسببٍ ما ضئيلة.

قلتُ: «كان يجدر بي أن أوليكِ رعايةً أفضل».

لوَّحت بيدها: «لا تقلقي يا عزيزتي، أمكنني أن أرى مدى انشغال بالكِ».

- كان -أعني هو- صديقُ طفولة. حبيب من الطفولة.

هكذا دومًا كنتُ أصفُ راشد. رابطة من الطفولة. واعتاد أبناء عمومتي أن يتنهَّدوا وهم يقولون «يا لها من رومانسية. حب رقيق قديم الطراز».

- التقيتُ إيلاجا في حفلٍ موسيقي لشوستاكوفيتش. دون سابق إنذار. كما يقع البرق والرعد وما شابه.

أومأت جبريلا بإيجاب. ثمَّ أخرجت علبة سجائر من حقيبة يدها، ماركة أجنبية في عُلبةٍ زرقاء داكنة. قلتُ: «لم أعلم أنكِ تدخنين».

أخذت جبريلا نفسًا عميقًا، وأجابت: «لم أحتج إلى التدخين من قبل قط».

- وماذا عنكِ أنتِ؟

حكَّت عود الثقاب بعلبةٍ خشبية خشنة، وأجابت: «كنَّا أطفالًا لا ندري ما نفعله».

- أشعرُ بشيءٍ كهذا. لكن هذا ليس مُبررًا. أعني.. في حالتي.

ضحكت وعلَّقت: «إنه مُخرج الفيلم. ما زلنا أصدقاء مُقرَّبين».

- ماذا حدث؟

- خُنته، وسامحني. ثمَّ كنتُ أنا مَن رحل في النهاية. إنه متزوِّج الآن، ولديه ثلاثة أطفال. أما الأمر السيئ فهو احتمالية أنني ما أزالُ واقعة في حُبه.

ذكَّرني شيء في وجهها بأمي. ليس الأمر كأن أمي نفسها تندم على شيءٍ، لكنها تعيش في خوفٍ سرمدي من أن يأكلني الندم، من أنني لو لم أتزوَّج راشد مثلًا، لربما يحمل وجهي التعبير الذي يمكنني أن أراه على وجه جبريلا الآن، الشعور بأنني سمحتُ لبارقةٍ من السعادة أن تفوتني. أرادت أمي أكثر ما أرادت هو التخفيف من شعوري بالإحباط. لم أكن موقنةً ممَّا عليَّ قوله لجبريلا، وكيف سيكون شعوري بعد عشرة أو عشرين عامًا من الآن؟ هل سأصبو إلى راشد، وإلى الطقوس المألوفة لاجتماعنا، وقدرتي على التنبؤ بالكثير من إيماءاته - هل سأفتقد ما يجلبه ذاك من الطمأنينة، أم سأسأم -كما هو حالي الآن- من معرفتي بالكثير، وسأتابع الاشتياق للاختلاف، والتوق إلى ملذات الآخرين؟

انفتح الباب، ودخل مو حاملًا حقيبة تسوُّق. كانت ابتسامته حين رآني عريضةً غير منقوصة، حتَّى إنني نهضتُ وسرتُ نحوه ورفعته عاليًا بين ذراعي. كان وزنه أثقل ممَّا بدا عليه، وفاحت منه رائحة العرق والحديد.

قال: «هل سمعتِ بأمر البيانو؟».

لم أسمع بشيء.

- إنه ذاهب إلى أمريكا. سيعمل إيلاجا على إصلاحه.

كان سماعُ اسمكَ من فم مو هو المرَّة الأولى التي أسمعه يُنطَق بصوتٍ عالٍ منذ أن غادرتَ، وجلجلني هذا بقوةٍ غاشمة. لا يعرف مو التفاصيل، لكنه سمع عليَّ يقول إن الأمريكي الذي جاء لزيارتنا قد رتَّب بطريقة أو بأخرى نقل ستينواي إلى بوسطن، حيث سيُعاد ترميمه، ومن ثمَّ يُرجَّح أن يُباع هناك. تخشَّب جسدي والدموع تحتشدُ في عيني، وأذناي تطنان بسماع اسمك، وبما هو أكثر، بالنوتات التي عزفتها على متن جريس.

أردتُ أن أُعانق مو مُجدَّدًا، لكنني أحجمتُ نفسي. سكن ذراعَاي فجأةً بلا شعورٍ ولا حراك. ثمَّ استقصيتُ أخبار الآخرين، فسألته: «كيف حال الجميع؟».

- ما زال رسول يبحث عن شقيقه.

- وماذا عن بلال؟

أطرق مو مثبِّتًا عينيه على قدميه، وقال: «عاد بلال إلى الديار».

- لماذا؟

- قال السيد علي إنه يثير شغبًا.

- هل فعل شيئًا؟

رفع مو كتفيه في حيرةٍ وأجاب: «لا أستطيع الجزم».

مُجدَّدًا اخترقني الشعورُ بالذنب للتخلِّي عنهم. حاولتُ التذكُّر ما إن كان ثمَّة أمر بشأن بلال يشي بفعله. لم يبدُ لي من الأشخاص الذين قد يزعجون علي. أذكر أن علي نفسه أخبرني ذات مرَّة أنه يدعو إلى انقلابٍ على فترات منتظمة ليتذكَّر العُمَّال مَن يُشبِع بطونهم. استرجعتُ حديثه الآن، والنغمة التي قاله بها، كأنما استبدالُ جهود عاملٍ واحد بعاملٍ آخر هو أمر بسيط. وجَّهتُ حديثي إلى مو: «ابقَ بعيدًا عن المتاعب».

- لن يدعني علي أرحل.

إن إيمانه بوجود شيءٍ من الأمان في حياته جعله يبدو أكثر هشاشة. أوشكتُ أن أسأله عن السبب، أهناك سبب خاص يدفع علي إلى الاحتفاظ به، لكنه توارى داخل المطبخ، وهو يصيح بعزمه على إعداد أفضل كاري سبانخ تذوَّقته في حياتي.

صحتُ متسائلة: «هل كنتَ تتدرَّب على الحروف؟».

- كل يوم!

في هاتين الكلمتين، وفي ذاك الصوت، استشعرتُ قدرًا بسيطًا من السلوان.

لمَّا نهضتُ استعدادًا للمغادرة، باغتني دُوار الرأس، وكان عليَّ الجلوس مُجدَّدًا.

سألت جبريلا: «أواثقة من أنكِ لا تريدين المبيت هنا؟».

- لقد وعدتُ راشد أنني سأقيم في المدينة.

- أأنتِ سجينة؟

- بل الزوجة الضالة.

وبهذا، طلبتُ من «أبي الحسين» أن يأخذني إلى الفيلا، حيث كانت كومولا بانتظاري عند الباب، ويديها ناعمتين تحتضنان وجهي.

***

في الصباح، حين توقَّفت السيارة داخل بوابات بروسبيرتي، راقبتُ لوقتٍ طويل قطَّاعًا يُنهي شِقَّه الأخير وجزء كبير من جريس يسقط مرتطمًا بالرمال. كنتُ أرتدي نظاراتٍ شمسية وجدتها في درج منضدة السرير في غرفتي، وربما هي ملك لدوللي، ومن وراء العدسات المصبوغة باللون البُنِّي المُشَرَّب بالحُمرة رأيتُ الأناس الذين أقبلتُ بحذرٍ على التعرُّف بهم يبدون مثل هيئاتٍ مُبهمة مقارنةً بالظل المُنكسِر لجريس. وصلت ناقلةُ نفط بينما كنتُ غائبة. وها هي الآن محشورة بين جريس وسفينة حاوياتٍ نصف مُفككة في المنطقة المجاورة. تقلَّص حجم جريس؛ جُزَّت مُقدمة السفينة وجسرها، وفُصِلت ألواح الصلب الكبيرة عن جسمها. صارت مُكفهِّرة تمامًا، خاوية من آثار أُناسٍ سعداء.

كان علي بانتظاري في مكتب بروسبيرتي.

- عودًا حميدًا يا آنسة زبيدة.

وراح يجذب شعرات لحيته التي بدت أوفر كثافةً وطولًا.

أجبته وأنا أُشير نحو الشاطئ: «شكرًا لكَ يا سيد علي. يبدو أنكَ أحرزتَ تقدُّمًا مشهودًا».

- بفضل الله، إننا متقدِّمون على الجدول الزمني للسفينة الطوافة.

لم يعرض عليَّ الجلوس، لكنني اتخذتُ مقعدًا مقابلًا له على أي حال. ثمَّ قلتُ: «سمعتُ أيضًا أنكَ بِعتَ البيانو».

- إلى صديقك الأمريكي. إنه لحوح جدًّا.

- أجل. هو رجل يصعب رفض طلبٍ له.

- وها أنتِ قد عدتِ. هل ستبقين طويلًا؟

- أود الاستمرار في عقد المقابلات.

أجابني: «نسعد دومًا بالقيام بدور المُضيفين لكِ. كما أنكِ مخولة لتعيين مَن تشائين كذلك».

استغرقتُ هُنيهة لأدرك أنه كان يشير إلى مو. ثمَّ نقر المكتب بذيل قلمه الرصاص، وقال: «ما دام الفتى يُكمل مهامه، له حرية العيش في أي مكانٍ يجد فيه مسكنًا، لكنكِ تتفهمين أن هذا قد يُسبِّب شيئًا من البلبلة بين الرجال الآخرين. إذ أوليتِ الصبي هذا القدر من الاهتمام. سمعتُ أنكِ تعلمينه القراءة».

- لم يتسنَّ له الالتحاق بالمدرسة.

- ولا أي واحدٍ من الآخرين.

- هل اشتكوا من الأمر؟

لم أكن موقنةً ممَّا يود الوصول إليه بحديثه. جلي أنه لا يأبه إن كان تفضيلي لمو يُسبِّب مشكلاتٍ للعمال.

- ليس تمامًا. لكنني أعرفهم منذ زمنٍ بعيد، وأعرف أنهم لا يتأقلمون مع التغيير جيدًا.

- لن نظل هنا طويلًا.

- هذا هو مكمن المشكلة يا سيدتي.

واصل علي النقر على المكتب بذيل قلمه الرصاص. كان الوقتُ في منتصف الصباح والعمل يسير على قدمٍ وساق على الشاطئ.

- بعدما ترحلين، يتعيَّن أن تعود الأمور إلى نصابها الطبيعي. هذه هي طريقة سير الأمور هنا. إننا نعمل على هذه الشاكلة لسنواتٍ طويلة.

- لستُ موقنةً أنني أفهم مقصدك.

ابتسم مُجدَّدًا، رافعًا يديه في بادرة استسلام، ثمَّ قال: «لا شيء يدعو للقلق يا سيدتي. إن الأمر كله لله عز وجل. والآن يتعيَّن عليَّ المغادرة، فلديَّ بعض الأعمال لأنجزها».

بدا جليًّا أن علي يطردني. لم أكن موقنةً ممَّا حدث للتَّوِّ، أحسبُ أن وقع الحديث على أذن علي كان مختلفًا عن وقعه على أذني. ولمَّا استدرتُ للمغادرة، قال: «أرجو أن تُوصلي سلامي إلى والدكِ».

- أتعرف والدي؟

- السيد هو رجل محترم، ابن من أبناء شيتاجونج. لا شك أن كلنا نعرفه.

كان يتحدَّث عن بلبل.

- أجل، بلا شك.

ثمَّ استدرتُ للمغادرة، والحيرة لا تزالُ تلتهمني من هذا التحول. في الخارج، رأيتُ لوحًا كبيرًا من المعدن مجرورًا عبر الشاطئ. سرعان ما سيأتي القطَّاعة بأدواتهم، ويقطعون هذا اللوح مُجدَّدًا، لكي يتسنَّى جرُّه حيث تستقر الآلات في الطرف الشمالي من الشاطئ، بحيث يجري لفُّه ودكُّه وأخيرًا نقله. بحثتُ عن مو، لكنني لم أعثر له على أثرٍ، فاتخذتُ طريقي إلى المكتب. ما إن تجاوزتُ المسكن، حتَّى رأيتُ جبريلا تخرج من أحد الأبواب الجانبية. تساءلتُ عمَّا تفعله هناك، لكنها تجاوزتني قبل أن يتسنَّى لي أن أناديها.

سمحتُ لنفسي بالتفكير لهُنيهة في ما كان ليحدث لو أنني رحلتُ معكَ. قفزتُ على متن طائرة. الوداع جميعًا. وأرسلتُ بريدًا إلكترونيًّا إلى راشد وأمي، ربما الرسالة نفسها. كنتُ لأقول: «**أنا في طريقي إلى أمريكا، رفقة إيلاجا سترونج**». لربما رأيا الأمر مزحةً. هاتفاني أولًا، ثمَّ هاتفا بعضهما. أيُعقل أن يكونا أشدَّ غضبًا عليَّ ممَّا هما الآن؟ سخرتُ من نفسي، لأنني علمتُ آنذاك أن فقدانك كان أشدَّ رعبًا من أي شيءٍ آخر، وبما أنني خسرتُكَ وما زلتُ هنا، فهذا يعني أن بإمكاني فعل أي شيء. أتمنى لو اكتشفتُ هذا حيال نفسي قبل أن يفوت الأوان.

لمَّا عدتُ إلى المسكن لأجل جلسة المقابلة ذلك المساء، تفاجأتُ بجبريلا هناك بالفعل، تُمرر الشاي وأطباق الأرز المقلي المنفوش على الرجال. تراجع مو إلى الوراء، يتلافاني عند دخولي، ولم يتوقَّف أي من الآخرين للترحيب. ظننتُ أنني أهنتهم برحيلي المُفاجئ. وحده رسول مَن بدا سعيدًا لرؤيتي،

وراح يستقصي أخبارَكَ. قلتُ إنكَ في أمريكا. ثمَّ أخبرته عن أمر البيانو، عدا أن الخبر قد انتشر بالفعل. سأل رسول: «أيمكننا التدخين؟». تولَّدت ضجة بسيطة والسجائر الرخيصة وأعواد الثقاب تمرُّ على الجميع، ولما فرغوا من إشعالها، ازدهرت الأحاديث الجانبية عند أطراف المجموعة. بَيد أنه ما مِن أحدٍ في عجلةٍ من أمره للبدء في الحديث. لذلك بدأتُ:

- إذن! كدنا نصل إلى ختام مقابلاتنا، لكن هناك بعض منكم يتعيَّن عليهم أن يبوحوا لي بقصتهم. أعتذرُ منكم على فترة الاستراحة...

قاطعني رسول سائلًا: «هل سيُعرض الفيلم على التلفاز؟».

أجابت جبريلا: «أجل، في بلادي».

فترجمتُ أنا: «في بلدٍ أجنبي».

سأل أحد من المؤخِّرة: «وماذا عن بنجلاديش؟».

أجابت جبريلا: «سنحاول في الأمر».

قلتُ: «لا ندري. ولكن لستم مضطرين للحديث ما دمتم لا ترغبون فيه».

رفع أحدهم يده من مؤخِّرة الغرفة: «أختاه، ماذا عن الأماكن الأخرى؟ أيمكنكم أن تأخذوا الكاميرا إلى هناك؟».

أجابت جبريلا: «لا تقلق، لن نستثني أحدًا».

لكني قلتُ: «إننا نُجري المقابلات مع طاقم السحَّابة فحسب. وسيُركز الفيلم على مجموعتكم».

- أقصد السحَّابة الآخرين.

تدخَّل مو قائلًا: «ليس من المُفترض بها أن تُقابل السحَّابة الآخرين».

حدَّقتُ إلى مو وإلى جبريلا وأنا أسأل: «أي سحَّابةٍ آخرين؟».

ثمَّ جبتُ الغرفة بناظري، وسألت: «أين بلال؟». بلال الذي فقد زوجته وابنته.

نهض رجل.. لم أتعرَّفه -ذو وجهٍ قويٍّ حادٍّ، ومنكبين مُربعين. ثمَّ قال: «السلام عليكم يا أختاه. اسمي هو سليم».

قالت جبريلا: «وصل سليم لتوِّه من الشمال».

أوضح الرجل: «كنتُ هنا العام الماضي. ثمَّ مات والدي، لذلك عُدتُ إلى الديار طيلة الشتاء».

كنتُ أنازع لمواكبة التفاصيل. شيء ما حيال المعادلة بيننا، وبين العمال، وبين علي، قد تغيَّر من جذوره في غيابي. بدت المجموعة مُشوَّشة، يفتقرون إلى الإذعان الفاتر الذي هيمن على أحاديثنا السابقة. تذكرتُ ما قاله لي بلال بشأن عدم الوثوق في جبريلا، وقصورها في حمل العمال على التحدُّث إليها. والآن، أرى أسلوبًا دافئًا يكاد يكون حميميًّا في جلوسها بينهم، وتمريرها لكؤوس الشاي عليهم، واستعارتها لسيجارة سليم لتُشعل بها سيجارتها.

تنحَّيتُ بجبريلا جانبًا: «ما هو أمر هؤلاء الآخرين؟».

أجابت: «كنتُ سأخبركِ. وقع حادث هنا الأسبوع الماضي».

- على متن جريس؟ (ما من أحد أخبرني بشيء) هل روبانا تعرف؟
- لقد تكتَّموا على الأمر. وعلي يواري العمال المصابين.
- لا يبدو هذا صائبًا. أين له أن يواريهم؟
- هناك مكان قريب على الطريق. لقد دفع لهم ثمن سكوتهم، ولا يريد منهم الذهاب إلى المشفى.

ارتفع صوت الأحاديث من حولنا، وسأل سليم: «ألا تريدين رؤيتهم؟».

جبتُ بناظري الغرفة، المضاءة بكاميرا جبريلا والمصباح الوحيد الذي يتدلَّى من السقف، واسترجعتُ حديثي مع علي ذلك الصباح. علمتُ أنهم بانتظار أن أنطق بشيء. هاتفتُ روبانا فلم أتلقَّ ردًّا. تذكَّرت ديرا بوجتي آنذاك، وكوني على بعد سنتيمترات قليلة من الآمبولوستس، واضطراري إلى إعادة هذا العالم كله وتاريخه بأكمله إلى موضعه، إلى أسراره المحفوظة لأجل أن يكتشفها أحد آخر. أشرتُ إلى مو وسألته، بادئ ذي بدء، لِمَ لَمْ يُخبرني بشيء. أطرق مو مُحدِّقًا إلى قدميه، وكان عليَّ أن أضع أصابعي أسفل ذقنه وأجبره على التطلع إليَّ. قال: «لم أُرد لكِ أن تتأذِّي،» ومن حديثه استشفَّيتُ خوفه من أن أقع في مأزقٍ مع علي. أَردتُ أن أقول: «بل أنتَ مَن سيتأذى. ولن أقدر على حمايتك. وسأخذلكَ مرَّة أخرى».

التفتُ إلى الحشد المجتمع، وقلتُ: «بلى. خذني معكَ».

***

تبعتُ سليم ومو لمسافة بضع مئاتٍ من الأمتار على الطريق السريع. انعطفنا إلى داخل السوق، وكان خاويًا آنذاك، ومررنا بالمسجد الصغير، ثمَّ تبعنا الطريق إلى زقاق قذر. قبض مو على مرفقي، وساعدني على تجنُّب الحُفر المغمورة بالمياه، وأسلاك الكهرباء العارية، وأكوام القمامة الصغيرة. دفع الباب الصفيحي فانفتح على باحةٍ خرسانيةٍ مسقوفة ضيقة. غلبت على المكان رائحة الدم والمُبيِّض؛ ولمَّا ألفت عيناي الظلمة رأيتُ ثلاثة أسرَّة صغيرة رُصَّت جنبًا إلى جنب في صف. رأيتُ رجلًا بلا ساقين، وآخر مُضمَّد الخصر والصدر، تتلألأ ضمادته في ضوء الكراميل الخافت. أما الرجل الثالث، الراقدُ على بطنه، وطبقة رقيقة من الشاش تُغطِّي جلده المحروق، كان بلال. ما كنتُ لأُميِّزه لولا أن همس مو باسمه في أذني.

ليس الأمر كأني تجاهلتُ حقيقة أن الجميع لديهم قصة عن الموت تتبعهم في كل حدبٍ وصوب مثل ظلٍ يلازمهم -موتُ صديقٍ أو أخ أو شخصٍ لم يكن سوى معرفة عابرة، رجل حمل على كتفيه بضع سنتيمترات من ثِقلٍ تشاركوه- كقطعةٍ من الصُّلب تُحطم الجماجم أو الصدور، أو حبلٍ معدني شارد يفلتُ من الرافعة ويحزُّ الأعناق. لقد سمعتُ القصص جميعها؛ وقرأتُ التقارير وعرفتُ الإحصائيات، لكني لم أستعد لهذا. ثارت معدتي من الرائحة والأنين الخافت الآتي من سرير بلال. تخلَّفتُ عنهم بينما أسرعت جبريلا إلى أحدهم ثمَّ الآخر، ضاربةً بعرض الحائط كل ما أخبرتها به بشأن الاقتراب من أُناسٍ لا تعرفهم، وراحت تُمرر أصابعها على ضماداتهم، وتُمسك بأيديهم التي لا تزال كاملة الأصابع. لقد جاءت إلى هنا كل يوم، وتعرف ما أحرزه كل جرحٍ وكل إصابة من تقدُّم. سينجو الرجل المبتور من جروحه؛ أما الرجل ذو الصدر المشطور من الرافعة التي انهارت وارتطمت به -فعلى الأرجح لن ينجو. ولم يكن أحد على يقينٍ ممَّا سيحدث لبلال.

قضيتُ سنين طويلة أُفكر في العظام. ولمَّا درستُ عظام الآمبولوستوس وباكيستوس، حدَّثتُ نفسي أن أرواح هذه المخلوقات القديمة ظلَّت في عظامها. عرفتُ أن التصاق حوض ديانا سيُنتج شكلًا تام الاستدارة سيُخبرنا عن كيفية تطور الآمبولوستوس إلى برمائية في حين أن أسلافها كانوا من ساكني اليابسة. لكنَّ العظام التي درستها، ودُكَّت في الأرض بمرور آلاف السنين، كانت دومًا جزئية. إني أعمل على الشظايا وأتخيَّل الهيكل بأكمله، وأُكمل الأجزاء التي دمرَّها التاريخ، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الأمر، لأن

معرفتنا بالماضي لا تتحقَّق إلا في أجزاء، قطعًا تُترك لنا لتركيبها معًا. أما وإني الآن في مواجهة أشلاء البشر هذه، في غرفةٍ ترقَّقت جدرانها لنفور الأمل، لم تمنحني معرفتي بالعظام شيئًا ذا نفع، لا تفسير، ولا وصفة طبية. لا يسعني تخيُّل هؤلاء الرجال بهياكلٍ كاملة، مهما عظمت خبرتي في تركيب الأجزاء معًا.

قلتُ: «علينا إلحاقهم بمشفى ملائم. لا يمكنهم البقاء هنا».

أجابت جبريلا: «لن يذهبوا. لقد حاولتُ بالفعل».

علَّق سليم: «دفع لهم علي، وقال إنه سيعتني بأمر عوائلهم».

همس الرجل ذو الضمادات بشيءٍ، فتحرَّك مو إلى برميلٍ معدني في زاوية الغرفة وملأ كأسًا بالماء. رفع الرجل نفسه، وهو يُجاهد للوصول إلى الكأس التي يُمسك بها مو. عجزتُ عن تحمل منظره وأوتار رقبته تمتد نحو مو، وفمه مفتوحًا وجافًّا، وذراعاه متخشبتين بضماداته، فركضتُ إلى خارج الباحة المسقوفة، وقدماي تُلاحقان بعضهما على العتبة الخشبية المرتفعة وتدفعان بي في عنفٍ إلى الزقاق في الخارج.

سهرتُ وجبريلا لوقتٍ متأخِّر نتحدَّث عمَّا يجدر بنا فعله.

قلتُ: «يبدو أن إعداد فيلمٍ صار بلا مغزى».

أجابتني جبريلا موافقة: «أتفق، هذا أمر لا فائدة لعينة منه».

لا يمكننا إبلاغ الشرطة؛ وعلي قد دفع للرجال ثمن سكوتهم. بأي تُهَمٍ نتوجَّه إليهم لو أن الرجال أنفسهم يريدون البقاء حيث هم؟ ناقشنا احتمالية تنبيه الصحافة، وتركتُ أنا رسالةً أخرى لروبانا.

قلتُ مدفوعةً بموجةٍ من الشعور بأن أمي تسري في جسدي: «كانت أمي لتعلم ما علينا فعله».

إن رؤية هؤلاء العُمَّال، الرجال الذين تكبد علي عناء إخفائهم عنَّا، الرجال الذين اعتبرهم مو مُقطَّعي الأوصال فلا يسعهم المشاركة في المقابلات -إن رؤيتهم قد غيَّرت ما كنتُ أعرفه عن هذا العالم، وعن مكانتي فيه. تقلَّصت مكانة كل ما عداهم- مسعاي البسيط للعثور على أصولي، حتَّى جُرح غيابك. كانت أمي لتعلم ما هو شعور أن يغلبكَ اكتشاف قبيح، اكتشاف لأسرارٍ تحت سمعك وبصرك ولم تلحظها حتَّى تأتي لحظة مُريعة تكشف لكَ كل شيء.

جلستُ وجبريلا في صمتٍ آنذاك لوقتٍ طويلٍ حتَّى أوشك الصباح أن يتنفَّس. اضطررتُ إلى المغادرة؛ استباقًا لوصول راشد في غضون ساعات قليلة. واتفقنا على أن نعود إلى كوخ العمال الجرحى بعد ظهيرة اليوم التالي رفقة مو، وعندئذٍ نقرر معًا ما سنفعله بشأن الفيلم. تركتُ جبريلا نعسةً في ضوء النهار الباهر، وذراعيها يغطيان عينيها، كأنما أرادت العودة بالزمن ومحو كل ما رأته وشهدته في الأشهر الأخيرة.

***

ذهبتُ لاستقبال راشد في المطار. لا أدري ما توقَّعتُ أن أشعر به حينها عند رؤيته. تركت الليلة الماضية بداخلي شعورًا فجًّا بالألم، كنتُ منهكة القوى غارقة في الشكوك، وفكرتُ أنه ربما لو حاولتُ التواصل معه، لو حاولت إخباره بشيءٍ عمَّا حدث، لربما نعمنا بشيءٍ من الوصال. ما إن رآني حتَّى لوَّحنا لبعضنا، ورحتُ أُحدِّث نفسي أنني أفعل الصواب إذ أسمح له بالتقرُّب، حين وقف للحديث مع رجلٍ في حُلَّة داكنة. أحاط الرجل كتف راشد بذراعه وعبرا البوابات معًا واتجها نحوي.

قال راشد: «أُقدِّم لكِ العم هاري يا حبيبتي».

مدَّ هاري يديه وصافح يدي، وكان يرتدي قفازًا. قال: «تشرَّفتُ بكِ، لقد سمعتُ الكثير عنكِ».

- إن زبيدة تقيم هنا، مفتونةً بهواء شيتاجونج.

أجبتُ بابتسامة شاردة، ورحتُ أتساءل كم من الوقت سنقضي في الوقوف هنا وتبادل الأحاديث الصغيرة، حين قال هاري: «أجل، أعلم. لقد أخبرني علي بكل شيء».

التفتُ إلى راشد وسألتُ: «علي؟».

- إن العم هاري يملك الترسانة.

هاريسون ماستر. العم هاري.

قال هاري: «بروسبيرتي. أحبَّ أبي ذلك المكان. أنا لا آبه له كثيرًا، لكنه حملني على قطع وعدٍ بألا أبيعه». ثمَّ أخرج من جيبه أنبوبًا من مُرطب الشفاه ولطخ به شفتيه.

هذه هي فرصتي. تساءلتُ وجبريلا، مرَّة تلو المرَّة، أيُّ صنفٍ من الناس يملك أعمالًا تجارية كهذه -حسنًا، ها هو الرجل يقف أمامي مباشرةً، ويمكنني أن أسأله عن أي شيء. كيف تشعر يا سيدي حيال ملء جيوبك من عرق الظهور المحنيَّة للمزارعين الفقراء من الشمال؟ أكانت فكرتكَ أنتَ أن يأخذوا جماعةً من الرجال الجرحى ويحبسوهم بعيدًا لمصلحة أعمالك؟ لا شك أنني لم أنطق بأي شيء. لكني نجحتُ في رسم ابتسامةٍ ونحن نفترق، وأراقب رفيق هاري، رجل لم أره في بادئ الأمر، يُخرج مشطًا من جيبه ويُمشِّط شعر هاري قبل أن يخرجا من المطار.

وفي السيارة في أثناء طريقنا إلى المنزل، انفجرتُ في راشد: «لن تقدر على الإفراط في تملُّقه عمَّا فعلته اليوم، حتَّى لو كنتَ بعوضةً متشبثةً بساقه».

- اللعنة يا زي، كنتُ أحاول أن أكون لطيفًا فحسب. لأجل مصلحتكِ.

- يجب أن يُزجَّ بذلك الرجل في السجن. لا، بل يجب أن يلقى حتفه على يد كتيبة الإعدام.

- عما تتحدَّثين؟

- ليس لديكَ أدنى فكرة عمَّا يفعلونه لهؤلاء الناس.

كنتُ أشدَّ غضبًا على نفسي من أي شيءٍ آخر؛ إن قضاء عُمرٍ بأكمله رفقة أمي يجدر به أن يُحسِّن تعليمي. لا شك أن القصص أسوأ ممَّا بدت عليه للوهلة الأولى؛ ولا شك أيضًا أن علي يُواري الحقيقة المُظلمة؛ ولا شك أن ثمَّة ما هو أقذر ممَّا عرفت، أمر أبلغ رعبًا، يتوارى خلف ما رأيته.

بدأت السماء تمطر. وقال راشد: «لا تستطيعين إصلاح كل شيء».

- كل شيء؟ أنا لم أُصلح أي شيء.

- إذا كنتِ تريدين الشعور بالذنب حيال شيءٍ، ثمَّة الكثير من الأمور لتختاري من بينها.

كنتُ قد صوَّغتُ له بتصرفاتي ذخيرةً تكفيه مدى الحياة. سيُسامحني، هذا ما أعلمه جيدًا، ولكن يسعني الآن أن أستشعر حريته في معاودة إلقاء الأمر في وجهي في أي وقت. أليس هذا ما يفعله الناس عادةً، يُراكمون ديونًا ينتهي بهم الحال في سدادها لبقية حياتهم، بانتظار حدثٍ من شأنه أن يُقلِّص الاختلاف بين أنفسهم وبين الأُناس الذين دمَّروهم؟ لم أستطع إخباره بأيٍّ

من هذا، وأدركتُ ذلك الآن. قطعنا الطريق إلى المنزل في صمت، جنبًا إلى جنب في المقعد الخلفي لسيارته. تساءلتُ عمَّا إذا كنتُ وحدي مَن أشعر أننا بعيدَان، بعيدَان تمامًا عن بعضنا، أم أنه أيضًا يشعر بالمسافة تتمدد بيننا.

استقبلنا كومولا وجوشيم ببهجة عند الباب. ستصل بقية العائلة قريبًا، ولذا قالت كومولا: «اصعدي إلى الطابق العلوي، وتزيَّني لاستقبال حماتك».

صعدتُ إلى الطابق العلوي ورأيتُ أن كومولا قد نسَّقت ملابسي. ساريًا أخضر من الحرير، وبلوزة وتنورة داخلية باللون نفسه جميعها مكبوسة ومُرتَّبة على الفراش. كان راشد لا يزال حانقًا من جدالنا، فقال وهو يُبدل ملابسه إلى سروالٍ قصير وقميص بولو: «سأخرج للعب الجولف. سأعود في موعد العَشاء».

اغتسلتُ، وحاولتُ إقصاء مشهد العمال الجرحى عن رأسي، لكن ثمَّة الكثير من الأمور تدور هناك، مو وجبريلا وأنتَ، دومًا أنت مَن تحوم على مشارف أفكاري. استلقيتُ على الفراش، وتركتُ فراش السرير يمتص رطوبة شعري.

لمَّا حان وقتُ ارتداء ملابسي، أدركتُ أنني بحاجةٍ إلى المساعدة في تثبيت الساري. لم أجد كومولا في غرفة المعيشة ولا في المطبخ. فاتخذتُ طريقي إلى مؤخِّرة المنزل حيث يقع رَبع الخدم. سلالم أسمنتية ضيقة تقود إلى الغرف فوق المرأب. رأيتُ لونجي رجالي ذا مربعاتٍ وتنورة داخلية حمراء غُسلا وعُلِّقا بين وتدين معدنيين أعلى السلالم وكوَّنا حاجزًا أمام الباب المفتوح. ناديتُ وانتظرت، فلم أتلقَّ جوابًا، وأوشكتُ أن أعود أدراجي، أشعر كأنني دخيل، لمَّا سمعتُ جلبةً بالداخل. خرجت كومولا، تعبث بطيات ساريها القطني الناعم.

قلتُ: «آسفة. إنني أزعجكِ».

أجابت كومولا: «كنتُ أُصلي».

ألقيتُ نظرةً خاطفة على غرفتها المُزدحمة، والصناديق المُكدَّسة إلى الحائط، والملابس المطوية في رفٍّ مفتوح، ومرآة دائرية صغيرة مُثبَّتة بمسمارٍ إلى الحائط، وقلتُ: «منذ متى وأنتِ تعيشين هنا؟».

أجابت وهي تُثبِّت شعرها بحركة سريعةٍ من رسغها: «مُذ كنتُ فتاةً صغيرة. قبل أن تُولَدي أنتِ».

أوشكتُ أن أستزيد في السؤال: مِن أين جاءت، وأين هم أهلها، لكن كومولا أبدت عدم ارتياحها وهي تُغلق الستائر المُرتجلةَ من خلفها.

- أيمكنكِ مساعدتي في تثبيت ساريَّ؟

تبعتني عائدَيْن إلى الداخل ثمَّ صعدنا درجات السلم. بدَّلتُ ملابسي وارتديتُ بلوزتي وتنورتي الداخلية وبدأتُ في تثبيت الساري، لكن كومولا جذبته من يدي، تُفتِّش عن الجانب الصحيح، وتتحكم في النسيج الطويل الانسيابي. جال بخاطري أنها دومًا تتطلَّع إليَّ في نظرةٍ بها شيء من المواربة، برأسٍ مائلٍ إلى الأسفل أو إلى الجانب، لكن نظرتها الآن جريئة، وهي تطوي النسيج وتحشر أطرافه. قالت: «أختاه، هناك أمر. لقد سمعتُكِ تبكين في غرفتكِ. لماذا؟».

هل كنتُ أبكي؟ لا أستطيع التذكُّر.

- لا شيء. لا تُزعجي نفسكِ.

هندمت الثنايا، ممسكةً بطرف ساريَّ بين أسنانها، وقالت: «أتعرفين لقد التقيتُكِ حين كنتِ رضيعة».

خرجت الكلمات مبتورةً من بين شفتيها.

استنفذتُ هُنيهة لاستيعاب ما سمعته. هذا أمر ليس مستبعدًا؛ فقد رافقتُ والديَّ إلى هنا وأنا طفلة لزيارة دوللي وبلبل. ربما رأتني حينذاك، وهي تنزع أوراق أشجار الموز. ابتلعتُ الغُصَّة في حلقي، وقلتُ: «أنتِ مقيمة هنا منذ وقتٍ طويل».

التقطت طرف الساري من وراء ظهري وألقت به على كتفي، ثمَّ جثمت على الأرض وأمسكت بالثنايا. أطرقتُ ناظرةً إليها فأمكنني أن أرى الفارق المتسع في شعرها وخصلات الشعر الرمادية تتفتَّح على الجانبين. هذا هو رأسُ امرأةٍ دأبت على فرق شعرها بالطريقة نفسها طيلة حياتها، تؤدِّي الطقوس نفسها من غسيلٍ وتزييتٍ وتضفير. وفي تساهل عَرَضي مع نفسها، ربما ابتاعت لنفسها مرَّة أو مرَّتين دبوسَ شعر.

لمَّا فرغت من ذيل الساري، أخذت دبوس أمانٍ من بلوزتها وبدأت في تثبيت طرفي الحُر. كانت لمستها خفيفة، وأصابعها رقيقة، وخطوطها عميقة مسنَّنة. همستُ: «أخبريني، هل أبدو على ما يرام؟». ما قصدتُ أن أسأل عنه:

هل أبدو «**مختلفة**»، كأن أكون مختلفةً عن بقيتهم، الذين وُلدوا في رغدٍ من العيش، لكني عجزتُ تمامًا عن النطق بالكلمات.

- كنتِ طفلةً لطيفة. ربما عِشتِ شيئًا من الوحدة.

أنهت مهمتها. جلستُ على الفراش، حينها بدأت يداي ترتعشان، فأخذتهما كومولا بين يديها.

- أشعرُ بالوحدة الآن.

- ليباركك الرب.

خرجت أنفاسي حادَّةً بالكاد استطعتُ الكلام.

- أمي -أكانت- هل أحبتني؟

أحاطتني كومولا بذراعيها، فاستشعرتُ جسدها الرقيق في رقة الهمس.

- كانت تتبعكِ أينما ذهبتِ مثل صقر.

ثمَّ طبعت قبلةً على مقدمة رأسي وتراجعت إلى الوراء. لقد باشرتُ طريقًا حسبته رحلةً بطولية، ثمَّ اتضح أن كل ما فعلته هو أن جرحتُ أُناسًا أُحبهم، بدءًا بأمي، الطائر الجارح الذي روَّضته وهذَّبته رغبتها فيَّ.

مرَّت ساعة. انتظرتُ خلالها في غرفة النوم، ملفوفةً بالحرير الأخضر، حتَّى سمعتُ دوللي وبلبل عند الباب، فهبطتُ السلالم إلى غرفة المعيشة.

تجشَّم كومولا وجوشيم عناءً كبيرًا في المنزل. كُسِيَ الأثاث بعناية؛ والخزانات الزجاجية التي ضمَّت قطع الزينة الخاصة بالعائلة -الغنَّامة الخزفية التي تحصَّلت عليها دوللي في رحلةٍ إلى مصنع ويدجوود، والزجاج الفينيسي المُشكَّل، والمصنوعات الخشبية التايلاندية المطلية بالذهب- أُزيل عن جميعها الغبار وصُقِلت حتَّى تلألأت محتوياتها من الداخل.

فُتِحت غرفة المعيشة الرسمية، واستطعتُ أن أراها للمرَّة الأولى. يا لها من حجرةٍ شاسعة أثَّثت دوللي بها أربعة مجالس منفصلة، لكل واحدٍ منها نظامُ ألوانه وتصميمه الخاص. طقم الأثاث الجلدي على الجانب الشرقي، حيث تُلقي أشجار جوز الهند بظلالها الرقيقة؛ ثمَّ الأريكة الزرقاء والمقعد المزدوج يتجهان نحو الغرب؛ وعلى امتداد المحور الشمالي الجنوبي للغرفة، وحدةُ زاوية رمادية وطقمُ أثاثٍ على الطراز الفرنسي ذي مساند خشبية منحوتة تُقابل بعضها. ما كان يجدر بهذا المزيج أن يتجانس، لكنه تجانس، بالفن

الفريد للمغالاة. حين دلفتُ إلى الغرفة، سألتُ نفسي كيف اختارت دوللي بين أريكةٍ وأخرى. هل دخلت الحجرة وفكرت في قرارة نفسها: اليوم أريد الاستمتاع بالشمس على الأريكة الجلدية، أو اليوم أريد أن أتظاهر أنني ماري أنطوانيت ولذلك سآخذ حريتي في بيتي على الكُرسي ذو الأطراف الذهبية؟ جلست دوللي آنذاك مستقيمةً على الكُرسي المزدوج الأزرق، ولمَّا دخلتُ الغرفة، لم تكن المرَّة الأولى التي ينتابني فيها شيء من الخوف منها. كانت مُفرطةً في زينتها؛ زوج من أساور ذهبية سميكة ملفوف حول رسغيها، تقرأ الجريدة وكلبها البوميرانيان، كلوني، يتمسَّح في قدميها.

قلتُ: «مرحبًا! كيف كانت رحلتكِ؟».

- جيدة. لكن حماكِ مُنهك تمامًا، وصعد ليأخذ قيلولة. (طوت يديها في حجرها) تودين بعض الشاي يا عزيزتي؟

- لا بأس.

ضغطت دوللي زرًّا في شيءٍ مستطيلي صغير -هو جرسها للنداء- فحضرت كومولا.

- أحضري لكنَّتي شايًا أخضر. ومُقبلَّات.

- ألن نتناول العَشاء؟

أجابت وهي تفحص الساعة الذهبية الرفيعة على رسغها: «ما يزال الوقتُ مبكرًا. حتَّى صغيري بابو لم يعد إلى البيت بعد».

انتبهت إليَّ دوللي وأنا أرفع شطيرة لحمٍ مشوي من عربة الطعام.

- أغفلتِ وقت الغداء، أليس كذلك يا حبيبتي؟ قلتُ لكِ يجب أن تأكلي جيدًا.

أومأتُ بإيجابٍ وأنا آخذُ قضمةً كبيرة.

- لقد سمعتُ كل شيءٍ عن... صديقك.

تخضَّب الخبز الأبيض الهش بلُعاب فمي. وتذكرتُ قصةً قرأتها عن موت عدَّة أشخاصٍ في كل عامٍ في اليابان بينما يحاولون أكل كعكات أرز موتشي. تذوقتُ الموتشي ذات مرَّة، ووجدتُ مذاقه مُقززًا. وتمنيتُ الآن لو أنه قتلني آنذاك.

- بدوتِ مُبلبلة بعض الشيء. لذلك أجريتُ بضع مكالماتٍ هاتفية. الجميع يعرف كل شيءٍ يا عزيزتي. كان يجدر بكِ أن تكون أشد حرصًا.

شعرتُ بوخز الدموع داخل عيني. قلتُ: «أنا آسفة».

كم من المرّات عليَّ أن أقولها؟

- هل راشد يعرف؟

أخذتُ رشفةً من الشاي. فتحركت كتلة الشطيرة ببطءٍ وألمٍ إلى حلقي، ثمَّ أجبتُ: «أجل».

تململ كلوني، ورفع نفسه، ثمَّ افترش قدمي دوللي بجذعه. أنزلت دوللي يدًا مُصيَّغة بالأساور وفركت الفراء خلف أذنه. ثمَّ قالت: «صغيري بابو المسكين».

- لم أقصد أن...

- بالطبع لم تقصدي. لكنكِ فعلتِ.

أطبقت شفتيها إلى الداخل، وأعادت توزيع أحمر الشفاه عليهما. ثمَّ تابعت:

- حذَّرنا الناس كما تعرفين. لكني أخبرتهم أنه من المستبعد أن تُهيني راشد، أو تُهينينا.

مؤخَّرًا، تداولت الصحف بضع قصصٍ عن تأسُّس بنجلاديش على خط صدعٍ كبير، وتناولت تشييد الوحدات السكنية في المدن الكبيرة على مقربةٍ شديدة من بعضها، وبنائها دون أي اعتبار للسلامة، حتَّى إن هزَّة أرضية بسيطة ستتمخَّض عن كارثة مُحقَّقة. لو أن هناك وقتًا مناسبًا لوقوع أي زلزال، فهذا هو الوقتُ المناسب. سينحدر المنزل عن التلة وينتهي الحديث. كانت بقية الشطيرة لا تزال في يدي وأنا أقول: «لقد ارتكبتُ خطأً»، واستخدمتُ يدي الحُرة في مسح فمي. لبضع دقائق، خلت الغرفة من أي صوتٍ عدا نشيجي وحفيف ساريَّ وأنا أتململ لأجذب محرمةً من الطاولة الجانبية.

استدعت دوللي كومولا مُجدَّدًا. وعنَّفتها قائلة: «أبعدي عربة الطعام. ألا ترين أنها أنهت طعامها؟».

بعدما أُفرغت الصينية ممَّا عليها، التفتت إليَّ مُجدَّدًا: «كنتُ أحاول حمايتكِ طيلة كل هذه السنين. وأجعلكِ تشعرين أن أصلكِ لا يُهمني. وأعاملكِ كما لو

أنكِ ابنتي. لكنكِ خذلتِني. ولا يسعني إلا أن أفترض أن هذا مرجعه إلى أصلكِ الدنيء».

قذفت الكلمات في وجهي بعفوية جليِّة، مثل مكعب سكر يُلقى به في فنجان شاي. تطلعتُ إلى وجهها لأرى ما إذا ندمت على الكلمات التي نطقت بها، لكنها بدت في سلامٍ مع نفسها كديدنها دومًا.

ثارت جرأتي بهذا البوح بالحقيقة والتحامل، فقلتُ: «لو كان أصلي دنيئًا إلى هذا الحد، فلماذا وافقتِ على الزواج؟».

مرَّرت دوللي يديها على امتداد مسند كرسيها.

- أنتِ لستِ أُمًّا، لن تفهمي.

من السهل التخمين بأنها كرهتني منذ البداية، لكني عرفتُ أن هذه ليست الحقيقة الكاملة. استشفيتُ إخلاصًا في قبولها بالزواج، اعتبارًا صادقًا لوالديَّ، وقدرًا من المحبة نحوي ليس بضئيل. وقد بدَّدتُ أنا كل هذا بفعلتي.

- على أي حال، ما جرى قد جرى. لا أدري إن كان راشد سيُسامحكِ. هذا أمر بينكما. لكنكِ لن تعودي كما كنتِ في نظري. وما عدتُ راغبةً في حمايتكِ.

لستُ موقنةً ممَّا عنته؛ ولا يسعني إلا التخمين بأنها ستتحدَّث عن أصلي بصراحةٍ وعلانية، بحيث لو انتشرت أي شائعة عمَّا فعلته، أو لو انفصلتُ وراشد، سيتسنَّى لها الإتيان بتوضيح سهل.

مضت قائلة: «كانت لديَّ خادمة. سمعتنا نتحدَّث عن والديكِ -تحدَّثنا عن الأمر طيلة الوقت، التحاليل والأطباء. كانا يُحاولان بإصرار. ثمَّ جاءت إليَّ هذه الفتاة وأخبرتني أن فتاةً في قريتها كانت -أعني أنها تحتاج إلى المساعدة. سافرنا إلى ميمينسينغ، والتقينا الفتاة. هجرها زوجها. لم تملك المال، ولم تملك شيئًا. دفعنا لها عشرين ألفًا.

- هل اشتريتماني؟

- لا تكوني ساذجة. احتاجت الفتاة المال.

كان من الصعب، بل من المستحيل حقًّا، أن أتخيَّل نفسي في وسط هذه المأساة. أن ينتقل المال من ملكيةٍ لأخرى. ثمَّ أصيرُ أنا مرهمًا لجروح أمي. ظهرت كومولا على هامش رؤيتي، تُشعل مصباحًا في أحد أركان الغرفة. ثمَّ

سمعتُ هزيمَ الرعد من بعيد. وفي غضون دقائق قليلة، سأسمعُ الماء يضربُ الأشجار والمرج. تململت دوللي؛ كادت أن تنهض وتتركني هناك في الغرفة المظلمة بوجهي الأحمر والشطيرة لا تزال في يدي. لكنها وجَّهت إصبع قدمها إلى الأرض وقالت: «ثمَّة أمر آخر. لم أكن راغبةً في ذكره، لكن كما قلتُ لكِ، لم أعد أعتبركِ ابنتي، ولهذا من الأفضل أن تعرفي أيضًا. لم تُخبرنا هذه الفتاة في بادئ الأمر، لكن عندما وصلنا إلى القرية، كان هناك رضيعان».

حُبست الأنفاس في صدري.

قالت: «توأمتان. تحدَّث الجميع في القرية عن الأمر؛ رضيعان ليس بينهما ذكرٌ».

قلتُ: «هذا مستحيل».

قطعًا لو كانت لي توأمًا، لشعرتُ بالأمر.. لشعرتُ بخواءٍ، كخواء طرفٍ وهمي، طيلة حياتي.. ولوجدتُ بصمة شقيقة الرحم هذه؛ صوتًا داخل صوتي.. ولتضاعفت وحدتي؛ بل لشُطِرت وحدتي إلى نصفين. إن دوللي تكذب.

- أردنا أن نأخذكما معًا بلا شك. لكنها رفضت. عنيدة كانت. وأصرَّت على الاحتفاظ بواحدةٍ منهما. تجادلنا لكن ما كان من سبيلٍ لإقناعها. فتاة غبية. ماذا عسانا نفعل؟ لا يمكننا انتزاع الطفل من ذراعيها.

- هل أخبرتما أمي؟

- قطعًا لم نُخبرها. لقد مرَّت بما فيه الكفاية.

أولتني دوللي ظهرها، ممَّا يعني أنها تصرفني، والآن بدأ هطول المطر، سُدَل من الماء تنحدر من المزاريب، والصوتُ.. هس، كأن أُمًّا تُحاول هدهدة رضيعها. سوَّيتُ طيات ساريَّ ونهضتُ، شعرتُ بنفسي أتداعى من الداخل. استدرتُ لأرحل. وهمستُ: «من فضلك أيمكنني الذهاب الآن؟».

رمقتني لهُنيهة، وهي تتفحصني من رأسي إلى قدمي بكراهيةٍ جليّة. ثمَّ قالت: «صغيري بابو المسكين. كانت روبي على حق». ثمَّ أُغلِق الباب من خلفي.

صعدتُ إلى الطابق العلوي واستلقيتُ على الفراش. فكرتُ في أنه يجدر بي أن أحزم حقيبتي. أن أتصل بالسائق وأطلب منه أن يوصلني إلى المطار. لكني عجزتُ عن الحركة. حملقتُ في مجموعة المصابيح في السقف. وشعرتُ

ببلوزة ساريَّ تخنق ذراعي وصدري. ثمَّ فكرتُ في لوحتي شاكور المُعلَّقتين في غرفة النوم في دكّا. امرأتان متشابهتا المظهر، بوجهين حادَّين، وأنفين بارزين، وعُصاباتٍ بألوانٍ أولية على الأطراف العلوية والسفلية للإطار. ثمَّ ببغاء يستقر على رأس إحداهما، وزهرة تُزيِّن شعر الأخرى. توأمان. بالكاد سمحتُ لنفسي بالتفكير في ما كان من شأنه أن يحدث لو لم يتبنَّاني والداي.. في الحياة التي كنتُ سأعيشها. الجوع والبرد. الرغبة والعَوَز. غيابُ الراحة. أما الآن، لم يكن ممكنًا فحسب تخيُّل هذه الحياة، بل لزامًا؛ ثمَّة شخص يعيش هذه الحياة حقًّا، شخص يُشبهني تمامًا، له الشعر المُموَّج ذاته والفم الواسع نفسه، والأصابع الطويلة الرقيقة نفسها، أصابع ربما لم تألف يومًا الثِّقل الطفيف لقلم رصاص. تساءلتُ، لو أنني استلقيتُ هنا، في سكونٍ تام، بلا حراك، لو أن هذه المعرفة الجديدة تختفي من رأسي، لربما تغيَّر التاريخُ نفسه في حقيقة الأمر، ولعلَّ سرد الحقائق هذا كله ينقلب. ربما أبقى هنا حتَّى لا يعد لي توأمًا، ولا يعدُ هناك امرأة تأخذ مالًا مقابل طفلٍ ليتسنَّى لها أن تُربي آخر، لكنَّ الزمن يتحرَّك في اتجاهٍ واحد، مع أنني تمنَّيتُ لو لم يكن كذلك، مع أنني تمنَّيتُ لو كانت الحقيقة أي شيءٍ عدا ذلك.

هطل المطر وانهمر، وأوغلت السماء في الظلمة حتَّى حلَّ الليل، وما زلتُ مستلقيةً هناك. وبعد وقتٍ طويل، سمعتُ الباب يُفتح ووقع أقدامٍ تقترب. ثمَّ يدًا جافة دافئة تحتضن جبهتي، ورأيتُ زِرَّ كُمٍّ وشممتُ العبير المألوف للجلد الصناعي والكولونيا على كُمِّه. كان القادم راشد.

قلتُ وأنا أرفع جسدي لأنهض: «سأغادر».

همس في الظلمة: «لا ترحلي».

مال نحوي، ودفن وجهي في ياقة قميصه. وحفَّ ساريَّ والبُردَ (الطرف الحر للساري) يتداعى بيننا.

قلتُ: «لقد أفسدتُ كل شيء».

- ابقي معي. ابقي ولا ترحلي عنِّي.

شعرتُ بالارتياح. ضمنِّي إليه بقوة وفكرتُ أن أغفو بين ذراعيه. لكنني تساءلتُ كيف له أن ينخدع بهذه البساطة، قد يتصوَّر أن أعود إليه ونستمر في حياتينا كأن لم يحدث شيء. وأمحوكَ أنتَ من تاريخنا. يا لسذاجته! يا لحماقته!

- كم الساعة؟

- التاسعة والنصف. هل أنتِ جائعة؟ يمكنني أن أطلب طعامًا يُرسل إلينا هنا.

- لديَّ أخت. أكنتَ تعرف ذلك؟ شقيقة توأم.

زفر تنهيدةً وقال: «هذا الأمر مُجدَّدًا».

استقمتُ وقلتُ: «شقيقة يا راشد. هناك امرأة في مكانٍ ما في العالم تُشبهني تمامًا. ووالداك لم يُخبراني قط».

- تعرفين أن الجميع كانوا يُفكرون في أمركِ فحسب. فيما هو أفضلُ لمصلحتكِ.

- قالت أمكَ إن لي أصلًا دنيئًا.

- إنها منزعجة.

- يجدر بي على الأقل أن أتحقَّق منه بنفسي. إلى أي مدى أصلي دنيء حقًّا.

حررني من عناقه. ذهبتُ إلى دورة المياه ونثرتُ الماء على وجهي، ولمَّا عُدتُ كان يُحدِّث أحدهم. ثمَّ قال وهو يُناولني الهاتف: «إليكِ، والدكِ يريد التحدُّث إليكِ».

قال بابا: «بتول. ماذا يحدث؟ لِمَ لا تُجيبين هاتفكِ؟».

عادت الدموع إلى عيني، غزيرة مُرَّة: «دوللي غاضبة. إنها تكرهني».

- عُودي إلى البيت يا حبيبتي، سنتحدَّث معًا.

- أكنتَ تعرف بشأن شقيقتي؟

سمعته يلتقط نفسًا عميقًا.

- شقيقة؟ ماذا تعنين؟

- قالت دوللي إنهما وجدا رضيعين. توأمتين.

لاذ بالصمت، لعلَّه كان يتساءل عمَّا إذا جُننتُ، عمَّا إذا كنتُ أختلقُ الأمر بُرمته، لكنه لم يُفشِ سريرته حتَّى لو كان ما ظننت صحيحًا.

- لا أدري يا حبيبتي. إن أمكِ وأنا -ما كان لنُخفي عنكِ شيئًا كهذا قط.

- أريد أن أعتذر لأمي.

- أرجوكِ لا تبكي. استقلِّي أول طائرة، سأستقبلكِ في المطار.
- لا أدري. دعني أُفكر في الأمر.

أطفأ راشد سيجارته وذهب إلى دورة المياه لتفريش أسنانه. باغتني شعور بالاحتياج إلى أن أكون في أي مكانٍ آخر عدا تلك الغرفة، في تلك اللحظة، والمطر في الخارج والدخان في الداخل وراشد بوجهه اللَّاهث بالغفران. تطلعتُ من النافذة، وتملَّكني الغضب آنذاك من عجزي عن الخروج واستقلال حافلةٍ أو السير على الرصيف، هذا لأنني لم أنشأ في بيئةٍ يمكن فيها لشخصٍ مثلي أن يفتح البوابة ويسمح لغبار الشارع أن يعلق بحذائه. أردتُ أن أكون في مكانٍ آخر، ليس بعيدًا عن هذا المنزل فحسب، بل بعيدًا عن هذه البلاد. ماذا لو تبنَّاني أحد في بلدٍ آخر؟ ربما الصين. أو فيتنام. أي مكانٍ آخر هو أفضلُ من هنا. استلقيتُ على الفراش وأغلقتُ عيني، أُحاول أن أتصور ما ستكون عليه الأيام القليلة القادمة: الصمتُ حول المائدة؛ والكلمات مثل «أصل دنيء» يتردَّد صداها في أذنيَّ؛ ولاحقًا -لو سوينا الخلافات- العيش مع دوللي وبلبل ورجائي ألا تُصادفني على السلالم. أتساءل مكتوفة الأيدي عمَّا لو فكَّر راشد من قبل أن يبني مدخلًا منفصلًا لنا، أو عمَّا إذا كنَّا سننتقل في وقتٍ ما إلى منزلنا الخاص، أو عمَّا إذا افترض راشد أنني سأعيش مع والديه إلى الأبد، نتناول فطور أيام الجُمعة حول الطاولة الكبيرة، ونُسلي الضيوف في غرفة معيشة ذات أرائك أربع.

في النهاية غفوت، لأستيقظ بعد بضع دقائق بصورةٍ لتوأمي، متسوِّلة في الشارع، تمدُّ راحة يدها، وشفتاها مُطبقتان في فمٍ لم يعرف يومًا شيئًا عن اللذَّة، لا قبلة، ولا ملعقة صغيرة من السكر. حدَّثتُ نفسي أني أتخيَّل الأشياء، وأنها ربما تمتعت بحياةٍ جيدة تمامًا -ربما ليست حياة رفيعة المستوى، لكنها حياة بها ما يكفي من الراحة. ربما حظيت ببيت. بِركة ماء. دجاجات بيَّاضة. مشتل خضراوات. ربما لم تكن حياةً غايةً في السوء. أقله لديها أمها الحقيقة، وهو ما لم أحظَ به قط، ولو أنفقتُ كل أموال العالم. هذا ما أرَّقني طويلًا خلال الليل، وهزيم الرعد يقصف السماء من فوق رؤوسنا.

***

في الصباح، حزمتُ حقيبتي وهبطتُ إلى الطابق السفلي لأرى إن كان جوشيم سيُوصلني إلى الشاطئ. كان المطر ينهمر حين وطئتُ بقدميَّ

الشرفة الخارجية، وتطلعتُ إلى المشهد لبضع دقائق وشجرة الزيزفون وزهور الجهنمية تتراقص مع وطأة المطر. لمَّا عُدتُ أدراجي، التصق شعري بجبهتي، ووجدتُ بلبل يستلقي على كُرسي قديم من الخيزران الهندي ذي ذراعين في غرفة المعيشة.

أشار بيده قائلًا: «أقبلي».

كان يُمسك بكوبٍ صغير من الويسكي. جلستُ على كُرسي أبعد ما استطعتُ عنه دون أن يبدو عدم تهذيبٍ منِّي. صوَّب مشروبه نحوي وحدَّق إليَّ لبضع لحظات، ثمَّ قال: «كانت أمكِ امرأةً مُعدَمة لا أصل لها. والآن أنتِ كنَّة هذه العائلة».

ابتسمتُ، مسرورة بوقاحته.

- يا لي من محظوظة.

- كنَّا قلقين من أن تصيري امرأةً قبيحة. أو سوداء. فمَن يعلم مَن هو أبوكِ.. قد يكون شبيهًا لأي شيء.

أضرمتُ النيران في جسوري مع دوللي؛ لم يعد لديَّ سوى القليل لأخسره. وربما لن يتذكَّر أيًّا من هذا في الغد. فقلتُ: «أنا أكرهك».

- لكن عندما جلبتكِ الفتاة إلينا، وقعنا في حُبكِ. أنا ودوللي ووالداكِ. ألطفُ طفلةٍ لم يرَ أحد مثلها قبل. كيف لامرأةٍ كتلك أن تُنجب طفلة كهذه؟ إنها إحدى عجائبِ الله. وأيضًا طفلتان.

ها نحن مُجدَّدًا. شقيقتي.

- هل رأيتماها؟

حطَّ بلبل مشروبه على المسند الخشبي المستوي لكرسيه، وقال: «رأيناها. نسخة طبق الأصل».

سألتُ بصوتٍ مرتجف: «وماذا فعلتما؟ اخترتما واحدة؟».

- شيء كهذا.

مرةً أخرى شكَّكتُ في مدى جهلي. إني أعرف كل الكليشيهات التي تدور حول التوائم؛ كيف يشعر الواحد منهما بوجود الآخر، وكيف إذا جُرح أحدهما، سيشعر الآخر بألم. لكنني لم أشعر بألم أحدٍ سوى ألمي -أهذا يعني أن شقيقتي عاشت حياةً هانئة مثل حياتي؟ عرفتُ أن هذا ليس ممكنًا. كان ثمَّة

آلام وجروح وإصابات: كل ما في الأمر أني جهلتُ بها. وماذا عن أمي -ماذا فعلت أمي؟ حاولت وأحبَّت طفلًا واحدًا كأنما أحبَّت كلينا؟ تُلقم فمَ إحدانا ثديها وتتخيَّل فمَ الأخرى يلقم الثدي الآخر؟ هل استشعرت شيئًا من الراحة في معرفتها بأن إحدانا لن تجوع أبدًا، بينما الأخرى ستعرف حُب الأم؟

سألتُ: «هل كان لي اسمٌ؟ هل كان لها؟».

انزلق في الكرسي أكثر فأكثر، حتَّى أمكنني رؤية سقف حلقه وهو يتحدَّث.

- كان اسمكِ موهونا. وكان اسمها ميجنا.

ميجنا وموهونا. موهونا-ميجنا. مو وميج. ميجنا.

- ميجنا ماذا؟

- آه، ليس لأناسٍ على تلك الشاكلة أي اسمٍ أخير. وقطعًا أرادت أمكِ أن تختار اسمًا جديدًا لكِ، ولهذا صرتِ زبيدة. صغيرتنا زبيدة.

موهونا. ميجنا. أين سمعتُ بهذا الاسم من قبل؟ عجزتُ عن التذكُّر. ميجنا-موهونا. ثمَّ تذكَّرت. صاح بي غريب عبر الشارع. أيُعقل هذا؟ كلا. إنه اسم شائع. خطأ شائع. لكنه كان واثقًا. لقد تطلَّع إليَّ ورأى شخصًا آخر. حاولتُ تذكُّر وجهه، لكنَّ الظلام قد بدأ يزحف حينها ولم أُرد إلا الابتعاد عن ذلك المكان، متوجِّسةً من يديه الثقيلتين على كتفيَّ، والنظرة التي رمقني بها، نظرة جائعة، كأنما يعرف شيئًا عني، شيئًا دفينًا. ربما كان يعرف. ربما رأى نفسي التي هي في أخرى، نفسي التي كانت مفقودة حتَّى هذه اللحظة. كلا، هذا لا يُعقل. ولكن يا لها من فكرة! ماذا لو صادفتُ هذا الرجل مُجدَّدًا -يا لسخفي أن أحسبُ أنه عرف شقيقتي، ولكن ماذا لو؟ تخيلتُ نفسي أتشبَّثُ بإفريز نافذة، وأصابعي تنزلق، وهذا الرجل يمدُّ لي ذراعه، بارقة أملٍ بسيطة. لن أعثر عليه مُجدَّدًا، هذا ما عرفته، وحتَّى لو عثرتُ عليه، فالاحتمالات -حسنًا، إنها ضئيلة جدًّا. ولكن إذا لم يتتبَّع أحد مسار أمي، إذا لم يُفكر أي من الناس المسؤولين عن حياتي في أنني ربما أرغب يومًا في معرفة شيءٍ عن ماضيَّ أكثر ممَّا احتفظتُ به؛ فإن فرصتي الوحيدة للإقدام على شيءٍ لنفسي هي الذهاب إلى مكانٍ يمكنني أن أجد به بارقة أمل.

استدرتُ للذهاب. كانت عينا بلبل مغلقتين. كدتُ أشعر بالأسف حياله، وأنا أرى للمرَّة الأولى مدى ضآلة حياته، مُطوَّق هو بإرث والده الغني الذي بَنَى هذا

المنزل وأسَّس كل التجارات التي يجتهد في إدارتها، وأنه في كل مرَّة يدخل مخزنًا أو مصنعًا أو مبنًى إداريًّا، ستُراقبه الصورة ذات الأُطر للمؤسِّس الذي وضع اللبنة الأولى. تركتُه هناك ويده لا تزال ملتفَّة حول الكوب الزجاجي، وبرعم ضئيل من الفرضية يتفتَّح بداخلي، يمنحني الأمل، ذاك المعنى الأكثر تقلُّبًا من بين المعاني. ثمَّ همستُ لهيئته النائمة: «شكرًا لكَ».

***

جلس الحلَّاق القرفصاء أمام مدخل متجره وتنورته اللونجي تتدلَّى من بين ركبتيه. استقرت في حجره كومة من الفول السوداني، وبينما كان يُحدِّق في الشارع، التقط حبة فول سوداني، وسحق القشرة بين أصابعه وقذف باللُّبِّ إلى فمه.

قلتُ: «السلام عليكم».

- وعليكم السلام.

تطلَّع إليَّ معتذرًا، وهو يشير إلى الفول السوداني الذي منعه من النهوض.

قلتُ: «إنني أبحثُ عن رجل. رجل هاجمني منذ أشهرٍ قليلة. هل تذكره؟».

هزَّ رأسه وقال: «لا».

- لقد حدث هذا أمام متجرك مباشرةً. وخرجتَ أنتَ وتجادلتَ معه. ثمَّ جذبته بعيدًا.

غربلَ ما في حجره، والتقط حبة فول سوداني أخرى وسحقها في الأرض بمشط يده. ثمَّ قال:

- لا بُدَّ وأنكِ أخطأتِ في الشارع. هناك الكثير من الحلَّاقين في هذه المنطقة.

توقَّف المطر آنفًا، لكنَّ الهواء كان خانقًا ورطِبًا وأمكنني رؤية العرق يتجمَّع في حباتٍ خلال شعره الخفيف.

- ألا تذكرني؟

رفع ناظريه وحدَّق إلى وجهي، كأنما يريد أن يتأكد تمامًا، ثمَّ قال:

- اعذريني.

تراجعتُ إلى الوراء ليتسنَّى لي أن أقرأ اللافتة فوق محله. «**نافيد نابيت**»، إنه هو. كنتُ موقنة. لو رافقتني جبريلا، لأمكنها أن تؤكِّد الأمر، لكني لا زلتُ غير قادرة على الوصول إليها. سرت ماضيةً وعائدة إلى المحال على اليسار وعلى اليمين. ثمَّ لمحتُ كشكًا لبيع السجائر على بعد بضعة أقدام، وكهربائي يبيع البطاريات وأجزاءً من الأسلاك، ثمَّ خيَّاطًا. لم يتذكَّرني أحد. عبرتُ الطريق، أسخر من نفسي على قطع هذه الرحلة، أكاد أستسلم حين ناداني أحدهم لأنتظر. لمَّا استدرتُ، وجدتُ امرأةً تنتعل حذاءً أحمر بكعبين وقميصًا مُرصَّعًا بخيوطٍ لامعة. كان لها شعر قصير، وذقن بارز وعينان برَّاقتان تتقدان بالفطنة، ووجهٍ لم يُشبه شيئًا في هذا الشارع.

قالت: «أعرف مَن تريدين. إن زوجي لن يُخبركِ لأنه يظنُّ أنكِ ستُبلغين الشرطة».

قبضتُ على رسغها، وقلتُ: «أتعرفينه؟ ما اسمه؟».

انتشلت يدها في عُجالة، وقالت: «لماذا تريدين أن تعرفي؟».

- أريد التحدُّث إليه. إن الأمر مهم.

رفعت ذقنها مشيرةً بها إلى محل الحلَّاق، وقالت: «دأب أنور على البحث عن فتاةٍ اسمها ميجنا. يقضي طيلة اليوم يقول ميجنا هذه، ميجنا تلك. ويبحث أيضًا عن طفل».

سقط قلبي في أحشائي عميقًا.

- ألديه طفل؟

- ليس من صنف الرجال الذي يُعتَمدُ عليه. يعيش حياةً عابرة. يومًا يعمل في الإنشاءات، وآخر يعمل في تفكيك السفن. وسمعتُ أنه فقد الكثير من المال.

- ماذا يعمل الآن؟

عقدت ذراعيها أمام صدرها، وأجابت:

- اختفى منذ أسابيع قليلة. ولم نسمع عنه شيئًا. هل تقربينه؟

شعرتُ بظهر قميصي مُخضَّبًا بالعرق.

- شيء كهذا. أين كان يعمل آخر مرَّة؟

- لا تبدين قريبته.

- لستُ قريبته بالمعنى الكُلِّي. هل قلتِ تفكيك السفن؟

أخذت ذراعي وجذبتني نحو محل الحلَّاق، ثمَّ قالت: «دعينا نسأل نافيد».

كان نافيد ينفض آخر قشرة فول سوداني من تنورته اللونجي، ثمَّ تطلع إلى زوجته من رأسها إلى أخمصها وهو يمضغ ما في فمه.

- إنني أتذكَّر الآن. إنها ترسانة شيتاجونج شيببريكنج.

تأبَّطت زوجة نافيد ذراعه الأخير، ثمَّ قالت: «ما من مكانٍ باسم شيتاجونج شيببريكنج. والآن قل الحقيقة لهذه السيدة المسكينة، ألا ترى أنها لن تُبلِغ عنه؟».

- لن أُبلغ عنه. لن أُخبر أي حد، لن أُوقعه في أي مشكلات. أرجوك.

شعرنا بنسيمٍ قوي يأتي من الشاطئ، وكنتُ أرتجف تقريبًا وجسدي يجِفُّ ويبرد. كان نافيد لا يزال يلوك شفته حين قال: «إنها ترسانة شركاء دكَّا سيلهت شيببريكنج».

شيتاجونج. دكَّا. سيلهت. إنه يُسمِّي المدن فحسب.

- هل أنتَ متأكِّد؟

أومأت زوجته: «إنه متأكِّد. لن يكذب أمامي».

ثمَّ قبضت على خدِّه بين برجمتي سبَّابتها ووُسطاها وقرصته بقوة.

- حسنًا. شكرًا لكما.

فقالت المرأة وأنا أستدير لأرحل: «قولي لنا اسمًا».

أشارت المرأة إلى بطنها، وهو ما لاحظت لتوِّي أنه بارز. لا بُدَّ وأنها كانت حاملًا في شهرها السادس أو السابع.

قلتُ: «موهونا».

أسرعتُ من فوري عبر الجادَّة، وأنا أُخرج هاتفي من جيبي لأرى إن أمكنني العثور على رقم هاتف لترسانة دكَّا-سيلهت شيببريكنج.

***

- أين كنتِ طيلة اليوم؟

سألت جبريلا حال رؤيتي.

استغرقتُ هُنيهة لأدرك عمَّا كانت تتحدَّث. آه، أجل، الرجال الجرحى -كان من المفترض أن نلتقيهم اليوم مُجدَّدًا. أجبتُ:

- آسفة. طرأ أمر ما.

- أكنتِ رفقة مو؟ قال إنه سيلاقينا هناك، لكنه لم يأتِ أيضًا.

- كلا، لم أكن برفقته.. كنتُ أحاول العثور على أحدهم.

- يقولون إن عاصفةً قد تهبُّ الليلة.

قلتُ:

- هل تذكرين ذلك الرجل، الذي تعرَّض لي قربَ الشاطئ؟

- أتقصدين الرجل الذي ظنَّ أنكِ شخص آخر؟

- كنتُ أبحثُ عنه.

حشرت جبريلا قميصها في سروالها بنفاد صبرٍ، وقالت: «يجب أن ننتهي من المقابلات قبل أن نتسبَّب في إيقاع هؤلاء الرجال في مأزق».

لم أكن في مزاجٍ يسمح بسماع محاضرة، ولذلك تركتُ أفكاري تنحرف إلى اتجاهٍ آخر، أُحاول تذكر وجه أنور، وأحاول تذكُّر ما قاله لي تحديدًا.

- لقد ناداني باسم ميجنا، أليس كذلك؟

- لا أدري. أظنُّ ذلك. أتفهمين ما أقوله؟

أومأتُ في شرود. ثمَّ باغتتني بهياجها حيال مو، وقالت إن علينا الخروج والبحث عنه من فورنا.

- لو أن علي اكتشف أنه يساعدنا، ستحلُّ علينا كارثة لعينة.

بدأت السماءُ تُمطر آنفًا؛ حاولتُ أن أُقنع جبريلا أن تنتظر لبعض الوقت، حتَّى يتحسَّن الطقس، لكنها أرادت الخروج على الفور. الظلام يحلُّ، وعادةً تستطيع أن ترى أضواء مواقد اللحام لطاقم القطَّاعة من نافذة غرفة النوم. ولمَّا تطلعتُ آنذاك، كان من المستحيل رؤية أي شيءٍ في الخارج؛ وابل من المطر يبتلع كل شيءٍ، ولا قمرَ ينبثق من الظلمة.

- لا تستطيعين حتَّى رؤية أي شيء.

- لديَّ شعور سيئ.

كنتُ مُتعبة. فاتكأتُ على طاولة الطعام وأرحتُ وجهي على انحناءة مرفقي.

- أنا واثقة أنه بخير يا جابي. لقد أقام هنا مدَّة أطول ممَّا أقامته أي منَّا. أضيفي إلى ذلك أنهم يشهدون العواصف هنا طيلة الوقت.

قالت جبريلا: «أرجوكِ».

أغلقتُ عينيَّ واستلقيتُ على الأريكة. كنتُ جائعة، وفي المُبرِّد، وجدتُ سلطانيةً من كاري الدجاج مُغطاةً بطبق. انتشلتُ الدجاج بأصابعي، وأكلتها باردة. لو كان مو هنا، لأعاد تسخينها. فكرتُ في ذراعيه، هذين المرفقين الهزيلين، وهو ينحني على المِدقَّة الحجرية.

تنهَّدتُ قائلة: «هيا بنا إلى الشاطئ. سنبحث عن علي لربما تكون لديه فكرة عن مكانه».

عثرتُ على مظلة في واحدة من الخزانات، وشرعنا في رحلتنا سيرًا على الأقدام. ما هي إلا بضعة أمتارٍ تفصل بين الشقة وبوابات بروسبيرتي، لكنَّ الظلام والمطر الغزير حالا دون الجدِّ في سيرنا. حاولت جبريلا أن تُخبرني بشيء، لكني عجزتُ عن سماعها. تشابك ذراعانا. كانت البوابات مُقفلة، عدا أن هناك فُتحة دائمة بين البوابة والحائط، فاعتصرنا جسدينا عابرتين خلالها. اتشحت جبريلا بوشاحٍ لفَّته حول رأسها ووجها، أما أنا فاستشعرتُ المطر يضرب كتفي العارية ويرتطم برقبتي. عابرين البوابة، رأينا ضوءًا مشتعلًا في مكتب بروسبيرتي، ولمَّا خطونا إلى الداخل، تفاجئنا بالمكتب خاليًا، والكراسي مدفوعة أسفل مكاتبها، وحاسوبُ علي مغلقًا. اشتدت الريح، حاملةً في زوابعها ذرات الرمال مُطوِّحةً بها إلى نوافذ المكتب.

أخبرتُ جبريلا أن علينا الانتظار.

- ربما خرج علي للاطمئنان على الجميع. إن المكتب غير مُقفل، ربما يعود لاحقًا.

حلَّت جبريلا وشاحها المُخضَّل وبسطته على ظهر كرسي. ثمَّ قالت:

- حاول مو أن يُخبرني بشيء، لكني لم أفهم البنغالية. شيء ما حيال فتاة.

- أي فتاة؟

- تلك الفتاة التي حاول أن يُخبرنا بشأنها من قبل، أتذكرين؟

تسكَّعتُ في المكان إلى مكتب علي. عرفتُ أنه يحتفظ بطعامٍ في درج مكتبه، فرحتُ أُفتِّش في مكتبه، وانتشلتُ من علبة بسكويت ماريا قطعًا، وناولتها لجبريلا. ثمَّ مضت قائلة:

- لم ينطق بشيءٍ عن الأمر بعد ذلك اليوم.

لم يُفضِ إليَّ مو بسرِّه -لا شك أنه لن يفعل. لستُ محلَ ثقةٍ له. أخذتُ قضمةً من البسكويت الجاف، ففاض فمي بمذاق الزُبدة وبذور حبة البركة. ولا تزال جبريلا ماضية في حديثها:

- عاد في أحد الأيام بقطعٍ في وجهه. هنا تمامًا (وأشارت جبريلا إلى حاجبها). فسألته عمَّا حدث وأجابني بالبنغالية قائلًا: «مَا». هذه تعني أُم، صحيح؟ أمه؟

انتظرنا لنرى إن كان علي سيعود. حاولتُ الاتصال به على جوَّاله بضع مرَّات، لكنَّ الخطوط مقطوعة.

سألت جبريلا:

- أما مِن أحدٍ يمكننا الاتصال به، الشرطة ربما؟

أجبتها، مُرددةً ما سمعتُ أمي تقوله مرَّات كثيرة: «ثمة الكثير من الأطفال التائهين».

قالت جبريلا:

- أريد التحقُّق من المسكن. تعالي معي وإلا فلن أقدر على التحدُّث إلى أي أحد.

سيرون أمرنا غريبًا، امرأتان تخرجان بعد حلول الظلام بشعورٍ وملابس مُخضَّلة. فكرتُ أن أشرح الأمر لجبريلا لكني عرفتُ أني لن أصل معها إلى أي نتيجة. في الخارج بَيد أن المطر قد خفَّ بعض الشيء، مع أننا لا نزال نصارع قُدمًا ضد شدَّة الريح. اتخذنا طريقنا بأسرع ما يمكننا، وأقدامنا تترك آثارها في الرمال. ولمَّا اعتادت عيناي الظلمة، ألقيتُ نظرةً خاطفة على جسم جريس الأبتر.

أُغلِقت أبواب المسكن كلها. صاحت جبريلا وسط الريح: «في الطابق العلوي». سمعتُ هزيم الرعد الخافت من بعيد، وعاد المطر يهطل غزيرًا من

جديد، ينهمر على الدرجات الخرسانية ونحن نحاول الصعود إلى الأعلى. طرقتُ على الباب الأول. ولمَّا لم أتلقَّ جوابًا، سِرتُ عبر الردهة، وجرَّبتُ الأبواب الثلاثة الأخرى، أضرب على الباب بقبضتيَّ بأقصى ما بوسعي. وكذلك فعلت جبريلا. ربما هم عاجزون عن سماع شيء. عُدنا إلى الباب الأول وجرَّبنا ثانيةً، نصيحُ لمَن بالداخل أن يسمح لنا بالدخول. أخيرًا فُتح الباب، وأُدخِلنا قبل أن يتبعنا المطر إلى الداخل. أُنيرت الغرفة بمصابيح أنبوبية، بلا نوافذ كانت إلا من فتحة صغيرة في السقف تقاطعت عليها القضبان الحديدية. كان المطر يعبر من خلال هذه الفتحة، ولهذا وضع أحدهم سطلًا وبضع قطعٍ من الملابس أسفلها.

يسكن الغرفة قرابة عشرين رجلًا. ولم أُميِّز أحدًا منهم. قالت جبريلا: «مو؟ مو؟».

سألتُ زبيدة: «هل رأيتم الفتى؟ إننا نبحث عنه؟».

سأل أحدهم: «مَن أرسلكما؟».

- لم يُرسلنا أحد. لكنه مفقود طيلة اليوم وعجزنا عن العثور عليه.

ناولنا أحدهم خرقةً جافة، فمسحتُ وجهي ومرَّرتُها إلى جبريلا التي فعلت الشيء نفسه. ثمَّ سألتُ: «أيمكن أن يكون في مكانٍ ما في المبنى؟».

- ربما.

عرض رجلان أن يتولَّيا البحث في المبنى، وغادرا بغتةً إلى العاصفة الماطرة. شعرنا بالغرابة ونحن نجيل النظر حولنا باحثين عن شيءٍ نفعله في أثناء انتظارنا.

سألتُ واحدًا من الرجال: «هل العواصف هكذا دومًا في الصيف؟».

أجاب الرجل: «بل أسوأ».

- في أي طاقمٍ تعمل؟

- القطَّاعة.

أومأتُ. ارتفعت الأسرَّة إلى ثلاثة طوابق. ومن أسفل الأسرَّة وإلى جانب الحائط تكوَّمت حاجاتهم جميعها، صناديق متهالكة وأسطال بلاستيكية وأكواب وأطباق من القصدير. عُلِّق بين الأسرَّة حبلُ غسيلٍ مثقل بتنانير

اللونجي وشراشف الجامشا القطنية. وألصق بعضهم صورًا لزوجاتهم وأطفالهم على جانب أسرَّتهم.

سألتُ: «منذ متى ومو هنا على الشاطئ؟ هل يعرف أحد؟».

أجاب أحدهم: «كان هنا حين أتيتُ. وهذا منذ ثلاثة أعوام».

صاح آخر: «أخبروني أنه وُلِد هنا».

مُجدَّدًا، صُدِمتُ بضآلة ما أعرفه. يا لقلة الأسئلة التي طرحتها عليه!

- أليس له أهل؟

فُتح الباب مُجدَّدًا، وظهر أمامنا الرجلان اللذان خرجا للبحث عن مو. ثمَّ قالا والماء يتجمَّع حول قدميهما: «لم يره أحد. يقول سيدي المدير إن عليكما العودة».

- هل السيد علي هنا؟

- في المكتب.

قالت جبريلا: «سنذهب».

قال أحدهما: «أيمكنكما أن تُخبراه أنكما أتيتما للبحث عن الفتى؟ فهو لا يُعجبه أن نتجوَّل في الأرجاء».

طلبت جبريلا أن أترك لهم رقم هاتفي. وأضافت: «تحسُّبًا لظهور مو».

أطعتُ طلبها، ودوَّنته على قصاصة ورق، عالمةً أنهم لا يملكون هواتف محمولة، وربما لا يستطيعون القراءة كذلك، لكنَّ الإتيان بهذا الفعل أشعرني بالتحسُّن أيضًا، هذا لأنه في تلك اللحظة بدأتُ أقلق أنا الأخرى. لم أعهد مو قط موجودًا في مكانٍ آخر عدا الشاطئ أو الشقة. أحيانًا يتسوَّق طعامنا من السوق. لكنَّ السوق أُقفِلَ آنذاك. تمنيتُ مُجدَّدًا لو أخبرني بأمر هذه الفتاة، صديقته. وخزني الشعور بالذنب مُجدَّدًا، وما من جدوى لبقائي هنا. ملابسي مُبللة وجسدي يرتجف بردًا. سوف نشرح كل شيءٍ لعلي ثمَّ نعود إلى الشقة.

كان علي يُحدِّث أحدهم على الخط الأرضي حين كنَّا عائدتين نصارع العاصفة حتَّى دخلنا المكتب. وعيتُ بأن ملابسي ملتصقة بجسدي، أما في ما يتعلَّق بجبريلا، فأبرزت بلوزتها فاتحة اللون حدود صدريتها. أشار لنا علي بالدخول، وهو يُنصت إلى أحدهم على الجانب الآخر. «أجل يا سيدي. بلا شك.

سنُجري الحسابات كلها بالطبع. هبَّت العاصفة بلا إنذارٍ يا سيدي». هذا لا بُدَّ هاريسون. «أعتذر منكَ يا سيدي. أجل، أجل. سأنجزها من فوري بالطبع».

بعدما أغلق الخط سألته: «هل من خطبٍ ما؟».

لاحظتُ أننا أهملنا إعادة البسكويت إلى درجه.

- إنها العاصفة. نحاول تقييم الخسائر.

رنَّ هاتفه مُجدَّدًا. اعتذر وحثَّ السير إلى الردهة، مُتحدثًا بصوتٍ خافت. ولمَّا عاد قال: «سامحوني. السيد شديدُ القلق. اجلسا من فضلكما. أكنتما تبحثان عنِّي؟ في هذه العاصفة؟».

أجابت جبريلا: «خرجنا للبحث عن مو. هل رأيته؟».

لم أحظَ بوقتٍ لتحذيرها.

- أخرجتما في هذه العاصفة بحثًا عن الفتى؟

بدا علي حائرًا، بل وشبه ممتعض، من أننا قد نبذل مثل هذا الجهد ونضع أنفسنا في موقفٍ حرج فقط لأجل مو.

قلَّبتُ عينيَّ في محجريهما وخفضتُ صوتي قائلةً وأنا أرمق جبريلا من وراء كتفي: «إنها السبب. لقد... تعلَّقت به».

أومأ علي بمعرفةٍ مسبقة، كأن النساء الأجنبيات يأتين إلى الشاطئ ويأخذن العُمال تحت أجنحتهن طيلة الوقت. ثمَّ قال: «أتفهم ما تعنين. لكن أخشى أنني لا أستطيع مساعدتكما».

قالت جبريلا وهي تضع راحتيها المبللتين على مكتبه: «يمكنكَ إرسال فريق بحث. لقد عجزنا عن العثور عليه في أي مكان».

حرَّك عينيه إلى حجره، ثمَّ إلى الجانب الآخر من الحجرة، ثمَّ إلى السقف، إلى أي مكانٍ ليتجنَّب النظر إليها، ثمَّ قال: «أرجوكِ لا تقلقي يا سيدتي. إن الفتى معتادٌ على هذا النوع من العواصف. سترين، سيعود غدًا، ضاحكًا من الأذن إلى الأذن. أؤكد لكِ إنه في أمانٍ تام».

هزَّت جبريلا رأسها؛ بدت كأنها على وشك البكاء، ثمَّ قالت مُجدَّدًا: «لديَّ شعور سيئ».

قلتُ: «جابي، إن السيد علي يعرف عمَّا يتحدَّث. هيا نعود إلى المنزل. لربما جاء مو يبحث عنَّا. وإذا ظلَّ مفقودًا حتَّى الغد، فسنجري بعض الاتصالات».

أجاب علي: «أجل، إذا لم يعد بحلول الصباح -وأنا واثق أنه سيعود- سنكثِّف البحث».

رافقتها مبتعدين وأنا أقول: «شكرًا لكَ يا سيد علي».

- هل أرافقكما إلى المنزل؟

- لا داعٍ لذلك. المكان ليس بعيدًا.

وعند الباب، توقَّفت وأضفتُ: «ما الذي تفعله أنتَ هنا في هذا الوقت المتأخِّر يا سيد علي؟».

ضرب الهواء بيده أمام وجهه، وأجاب: «يُشغلني أمرُ بيانو صديقكِ. لقد خططنا لنقله في وقتٍ باكر من صباح الغد. أمرني السيد أن أطلب شاحنةً مُكيفة الهواء تحمله إلى دكًّا. لكنَّ العاصفة حالت دون ذلك. ما من شيءٍ تقلقي بشأنه. من فضلك، عودي إلى المنزل».

في الخارج، ضاعف المطر من حجاب الظلمة. توقفنا لهُنيهة، كأنما بوقوفنا هناك سنعثر على أثرٍ لمو. ثمَّ باغتتني جبريلا بالإفلات منِّي والبدء في الركض نحو البحر. تَبعتُها، وبعد خطواتٍ قليلة كدتُ أصطدم بجمع الرجال المجتمعين على الشاطئ. استشففتُ صوت جبريلا تسأل، ببنغالية غريبة، عن مو. وعندئذٍ احتشد المزيد من الرجال على الشاطئ. ومن خلال الأمطار الغزيرة، تبينتُ بدرًا حليبيَّ اللون، وإذ أُجبرتُ على المُضي قدمًا نحو حافة الماء، رأيتُ مصابيح تُنير جسم جريس المُنتهَك. تعاظم الحشد من حولي، يضغطون عليَّ، والماء يتساقط من الأعلى، وبَيد أنه يتساقط من الجوانب ويتصاعد من الأسفل أيضًا، وسرعان ما التصق شعري بوجهي وصرتُ مبتلة تمامًا. شعرتُ بيدٍ تجذب مرفقي، ولمَّا التفتُ، رأيتُ جبريلا تُشير إليَّ أن أُقرِّب أذني إلى فمها. ثمَّ قالت: «إنهم غاضبون لأمر البيانو».

رمقتُ العُمَّال بناظريَّ. كانوا قد حشدوا أنفسهم في شبه دائرة، وفي المنتصف يقف الرجلُ ذو الجبهة الحادَّة الذي صحبني لرؤية الرجال الجرحى. رفع ذراعه الآن، وحدَّث الحشد بصوتٍ باطنيٍّ.

قال أحدهم: «الكرسي قادم!».

غابت جبريلا عن نظري. واعتادت عيناي شبه الظلمة، وتبيَّنتُ منحدرًا خشبيًّا أوَّليًّا يستند إلى جانب جريس. وبعد بضع دقائق، برزت ثلة من الرجال، يُوازنون شيئًا شديد الضخامة ثقيلًا على أكتافهم. تشتَّت الحشدُ من

حولي، رافعين أصواتهم عاليًا. وبدأ الرجال الواقفون على المنحدر يتحرَّكون. كان الشيء المحمول صندوقًا مستطيلًا ضخمًا. يُوازنه من الأسفل ثلاثة رجال، بينما الآخرون يدفعون من الأعلى. بدأ الجميع في الصياح وهم يشقون طريقهم، خطوةً بعد خطوة، على امتداد المنحدر. وقفتُ مشدوهة، مدركةً لتوِّي أن ما في الصندوق هو البيانو -البيانو خاصتك يا إيلاجا- مشدوهةً من أنهم يُحاولون إخراجه من السفينة ببراعة، وبدا الزمن يتمدَّد في كل ثانية ونحن ننتظر. قطعوا نصف الطريق إلى الأسفل، وصياحات الغضب تتحوَّل إلى هتافات، كأنما المشهد يتحول من احتجاجٍ إلى احتشادٍ في مباراة كريكت. سمعتُ ضحكاتٍ. ثمَّ حدث ما حدث: تردَّد أحدهم، فكُسرت الوتيرة، وذراعاه يسقطان إلى الأسفل حين كان يفترض بهما أن يرتفعا إلى الأعلى، وتحرَّك كل شيءٍ في لمح البصر بعد ذلك: انقلب الصندوق على جانبه، آخذًا الجميع معه إلى حافة المنحدر، والقائد يُخبرهم أن يتمسَّكوا، ويبقوا ثابتين، عدا أنه من حيث أقف، أمكنني رؤية أنه ما من سبيلٍ لينقذوا الصندوق، ولهذا ركضتُ نحوهم وصحتُ بهم أن يتركوا الصندوق، اتركوا الصندوق، أنقذوا أنفسكم، لا يهم، أقول للجميع أن يتراجعوا، لأنه سيسقط وسيُسحقون أسفله، فأسرعوا متراجعين إلى الوراء وتركوه يسقط، لعشرين.. بل ثلاثين قدمًا أسفلهم، الصندوق ينكسر كاشفًا عمَّا بداخله مثل بيضة تفقس، والصوت أشبهَ آلافًا من النوتات تُعزف معًا في آن واحد، ودقَّة كل مطرقةٍ على كل حبل، والمطر يعزف لحن المسايرة، ومن ثمَّ انفلق الخشب المنكسر، في صوت قبيحٍ يُمزِّق النياط، والآلة تبرز من الداخل، في قطعٍ من الأسود والعاجي، ثمَّ بريق من الألوان، صرخة بشرية تنبثق من بين صوت الانكسار، جسد بشري يسقط، ثمَّ آخر يتبعه، يهويان معًا ويُناغمان صيحات البيانو وهو يتحطَّم من أسفلهم ومن أعلاهم، وأخيرًا، رأيناهما، محشورين تحت جزءٍ من الصندوق والغطاء الثقيل للبيانو، يُحوطان بعضهما بذراعيهما، طفلين كانا. وقبيل أن يُغشى عليَّ، سمعتُ صوتًا. صوتًا يقول: «فتاتي. فتاتي. فتاتي».

***

الحكاية الحقيقية الأخيرة

انتقلتُ إلى أرض الأحلام يا إيلاجا، عالم الغيرية. أود القول بأنني كنتُ واعيةً ولا أرى شيئًا، لكني عاجزة عن تبديد يقيني بأني حلمتُ بكَ طيلة الوقت حين كنتُ فاقدة الوعي. في عالم الغيرية، كان وجهك هو ما رأيت، جالس أنتَ إلى جانب فراشي في المشفى، ممسكًا بيدي لكأن النبض في رسغكَ يتدفَّق باستمرارٍ إلى جانب نبضي، وأنفاسك تلفح بشرتي وأنتَ تُقبِّل جبهتي المكدومة. لم يمضِ سوى سويعات قليلة، عدا أنها بدت لذهني على الجانب الآخر سنين طويلة بعيدة؛ كأن الزمن يقاس بما قيس به في عصر الآمبولوستوس.

مضى على عصر الآمبولوستوس تسعة وأربعين مليون عامًا، بعدما اصطدمت شبه القارة الهندية باليابسة الآسيوية، وتشكَّلت على إثره جبال الهيمالايا، وعُزِل بحر التيثس العظيم. حتَّى آنذاك، ظلت الآمبولوستوس متشبثةً بساقيها الخلفيتين، إذ يسمحان لها بساعات قليلة على الشاطئ كل يوم لترقد إلى جانب البحر وتستمتع بالشمس التي تضرب الهضبة الآسيوية الشمالية. لكنها في البحر تعرَّفت ديارها، وعلى عكس سَلفها باكيستوس الذي ظلَّ في المياه الضحلة، لم يتجاوز عمق مرعاها المائي حد الركبتين. وعلى مَرِّ الأجيال، صار أحفاد الآمبولوستوس أقوم شجاعة، مرتحلين إلى المياه العميقة الرحبة، فاستطالت خطومها، وصارت أقدامها الخلفية مُكفَّفة، وتقاربت أسنانها الأمامية لاصطياد الفرائس تحت الماء.

إن قصة الآمبولوستوس هي حكاية صيرورة، حكاية تحوُّل، قفز من نوعٍ من الكائنات الحية إلى نوعٍ آخر من الكائنات الحية، حكاية عن تجاوز الماضي والإقبال على مساحةٍ واسعة من الاحتمالات. لا شك أنها ليست قصة فناء، هذا لأن الآمبولوستوس لا يشبه حيوان «المستودون»، الذي مُحِيَ من على وجه الأرض بفرقعةٍ مفاجئة من أصابع التطور؛ كلا، بل لحيتان الآمبولوستوس قصة ذات رِتمٍ بطيء، جيل وراء جيل، يُخلِّف وراءه الأقدام ذوات الحوافر والخِطمُ القصير لرتبة المزنيقيات، وعلى مدار الزمان طوَّرت العظام المُقوَّسة في أذنيها لتسمح لهؤلاء الذين ينبشون قبرها أن يقرؤوا تاريخها كأنها لغة هيروغليفية: هنا يرقدُ حوت، مخلوق يعيش ويأكل ويتنفس من نبضات قلب المحيط.

***

جُرحتُ بجزءٍ من الصندوق وهو يتحطَّم إلى أجزاء. اصطدم رأسي، ومن ثمَّ غُرز خياطة، وارتجاج طفيف، وكوع مكسور. ستُجرى الكثير من الاختبارات في دكَّا، للاطمئنان على عدم وقوع أي ضرر دائم، لكنها ستكشف النتيجة نفسها: وهي أنني نجوتُ بأعجوبة، بالنظر إلى اندفاعي المتهور نحو البيانو في حين تشتَّت الآخرون جميعًا.

لم تكن أنتَ بجانبي. لم يكن صوتك الذي يتردَّد في رأسي باكيًا: «فتاتي، فتاتي». كان هذا صوتُ أبي. لم تكن يدك هي التي تُعانق يدي. بل كانت يدَ أمي. لم تكن أنفاسك هي التي تلفح وجهي، وتُقبِّل جبهتي المكدومة. بل كانت أنفاس راشد وقبلته.

مو! ناديتُ اسمه حين فتحتُ عيني، فقالوا حين تتحسَّنين، يمكنكِ رؤيته. أغلقتُ عيني مُجدَّدًا، أرغب منهم الرحيل، أرغب أن يكونوا هم الحُلم وأنتَ الحقيقة بعد الحُلم. ولكني لمَّا تطلعتُ مُجدَّدًا، كانوا جميعًا هناك؛ يا لها من أنانيةٍ تبرز في قلقهم عليَّ. بالكاد أُصِبتُ. على الأقل، لم أُصَب بالطريقة الشائعة.

حُجزتُ في مستشفى حكومي. أما الغرفة، وهي أفضل ما لديهم، كانت عارية إلا من سريري وثلاثة كراسٍ شغلتها عائلتي. فاحت الغرفة برائحة البول والمطهرات. لا تفتح جدرانها على نوافذ، بل مجرَّد مصباح أنبوبي يرتعش مُثبَّت إلى الحائط.

استيقظتُ ثانيةً في الظلام، ورحتُ أصرخ وأصرخ حتَّى جاء الطبيب بحقنة فنزعتُ عنِّي الحقن الوريدي، ثمَّ قال والدي: «دعونا نأخذها إلى هناك؛ ستكتشف الحقيقة على أي حال».

أذكر البقية بوضوحٍ تام. على الجانب الآخر من المشفى، في غرفةٍ من سريرين، يرقدُ مو. وعلى السرير الآخر فتاة برأسٍ حليق. كانا نائمين، وبخلافي أنا التي كنتُ أرتدي منامةً أحضرتها أمي من البيت، كانا مُغلَّفَيْن بأردية المشفى الفضفاضة، وأذرعهما بارزة منها مثل سيقان الكرز. وشاشة تُصدر صفيرًا متقطعًا. وصدرُ مو يعلو ويهبط.

لم يتأثَّر وجهاهما بشيءٍ، فكانا في أحسن صورهما.

أوضح الطبيب: «هناك إصابات داخلية».

- هل يمكنك إجراء الجراحة؟

- جروح بالغة.

جذبت الغطاء عن مو؛ كانت ساقاه مضمدتين حتَّى فخذيه، وحول حجابه الحاجز رأيتُ بقعة من الدماء. فقلتُ: «يلزم تغيير الضمادات».

كرَّر الطبيب: «جروح بالغة».

وضع أبي ذراعه حول كتفي برفق، فأجفلت، وشعرتُ بوطأة جرحٍ ليس له وجود. اعتزم مو على تهريب نفسه إلى خارج البلاد في الصندوق. (راحلًا إليكَ أنتَ يا إيلاجا). سمع أن البيانو سيُشحن إلى أمريكا، وأراد الذهاب معه. وبرفقته في الصندوق نفسه كانت فتاة. كانا يُحاولان تحديد موقع عائلتها، لكن لم يسمع أحد بها. لم تكن على الشاطئ ولم تسكن المدينة. ربما كانت صديقته، الفتاة التي قال إنه يريد الزواج بها. حين يكبر. وهو ما لن يحدث أبدًا.

***

في اليوم التالي، جاء رجل إلى عتبتي وقال إن اسمه هو أنور. ثمَّ قال: «أنتِ لستِ ميجنا».

لم أتأثَّر. لا شيء يسعه إثارة دهشتي الآن. فتًى اختبأ في صندوقٍ ليكون معك. لقد أحببتُكَ وبادلتني الحُب، ومع ذلك لم أكن معكَ. بل كنتُ هنا في هذه الغرفة المطلية بالأزرق والأبيض.

- مَن أنتَ؟

جاءت هذه الكلمات من راشد. فأشرتُ إليه ليدع الرجل يتحدَّث، وذراعي ناءت به حِملُ البطانة السميكة للضمادات.

أقبل أنور إليَّ، صار أقرب ممَّا يمكن لرجلٍ مثله أن يأمل بالاقتراب من امرأةٍ مثلي، حتَّى أمكنني رؤية النتوءات على جبهته، والثَّفَن الناتئ على راحته وهو يُحرِّك يده أمام وجهي، في غير تصديق.

تدبَّرتُ الجواب قائلة: «كانت شقيقتي». ثمَّ بكيتُ وأنا أردد: «كانت شقيقتي».

كان يبكي هو الآخر، وملامحه تتغضَّن معًا إلى منتصف وجهه، ثمَّ غطَّاها أخيرًا بيده ذات الثَّفَن الناتئ. جذبه أحدهم ودفع به إلى خارج الغرفة، وعُدتُ أنا مُجدَّدًا إلى عالم الأحلام، عالم الغيرية، عالمكَ أنتَ.

***

طيلة الوقت الذي قضيته راقدةً على فراش المشفى ذاك، ظلَّت أمي تهمس في أذني: تُخبرني عن مدى ندمها بإخفائها الحقيقة عني، وأنني سأعود إلى الديار الآن وأن كل شيءٍ سيعود إلى صوابه. ستنكسر جدران الصمت. ستُنطَق الكلمات التي لم تُنطَق. سنجد أمي. وسنعيد تتبُّع آثارها. سنقطع طول البلاد وعرضها بحثًا عنها.

في اليوم الثالث، سمحوا لأنور بالعودة. تحدَّثنا وازددنا في الحديث، أو بالأحرى، تحدَّث هو وأنصتُ أنا. مرَّت الساعات. وتشاركتُ معه كسرةً من خبز الموز أهدتني إياه كومولا. كان هذا حين أخبرني أن أمي ميتة. وقبل أن يسعني الحزن عليها، وهو ما أتيتُ به بأقل قدرٍ من الإحساس بما أتفجَّعُ عليه، أخبروني أن مو مات في الليل. وأنهم أطفؤوا الأجهزة الموصَّلة به. هل أريد رؤيته؟ هززتُ رأسي نفيًا. لقد ألقيتُ وداعي في اليوم السابق، حين احتضنتُ باطني قدميه وضممتهما إلى خدي وتوسلتُ إليه أن يصفح عنِّي لأني عرفتُ أن حبك نبت في قلبه حين فتحتُ أنا الطريق له، لأني أوحيتُ إليه أن لأمانيه أن تنمو وتزدهر خارج هذا الشاطئ، بعيدًا عن هذه البلاد، في موطن البيانو والشتاءات القارسة والطفولة.

أخبرني الطبيب أنه يجدر بي الانتقال إلى مستشفى خاص في دكَّا. أحتاجُ إلى جرَّاح عظام لتقويم ذراعي. وعلى أي حال، كنتُ أحجزُ سريرًا، ربما يحتاجُ

إليه أحد. رفضتُ الخروج من المشفى. فأبدلوا الحقن الوريدي وأعطوني عقاقير مُهدِّئة فنمتُ واستغرقتُ في النوم.

في اليوم السادس، جلب أنور الفتاة إلى جانب سريري وأخبرني أن هذه الفتاة، والتي تُدعى شونا، هي ابنة ميجنا وابنته. وسرد عليَّ قصة المرأة التي أحبها ذات مرَّة وخلَّفها من ورائه.

اختبأت الفتاة وراء ساقيه لذا لم يسعني معرفة ما إذا كانت تُشبهني أم لا. قلتُ بصوتٍ أشبه بزجاجةٍ مكسورة: «أقبلي». ظلَّت الفتاة خلف أبيها لكنها مدَّت يدها إليَّ فقبضتُ على أناملها. ومُجدَّدًا بكيتُ. ومُجدَّدًا همست أمي في أذني. أمي ميتة. أمي أحبَّتني. أمي كانت امرأة فقيرة مُعدَمة مجهولة الأصل. كانت لي شقيقة توأم. رُزِقت شقيقتي بابنة. وابنة شقيقتي هي ابنتي أيضًا. في اليوم السابع، كانت تلك هي الكلمات التي انسابت من شفتيَّ.

- ابنة شقيقتي هي ابنتي.

تطلعتُ إلى الثلاثة الأقرب إليَّ في هذا العالم. الذين أمسكوا بيدي. ونفحوا الأدعية في وجهي. وهمسوا بالكلمات الطيبة في أذني. كانت شقيقتي عاهرةً لأن أنور هجرها ليبني ناطحة سحاب في دبي، ولم تعرف مكانًا آخر تذهب إليه ولمَّا ماتت، بِيعت ابنتها وحاول مو إنقاذها والآن ها هي هذه الفتاة، تختبئ خلف ساقي والدها، والدها الذي هجر أمها.. شقيقتي.. المرأة التي تحمل وجهًا مثل وجهي، المرأة التي ماتت بقلبٍ مفطور.

دوللي التي أشارت يومًا إلى قُبح تاريخي، لا علم عندها بمدى قبحه حقيقةً.

كرَّرتُ: «ابنة شقيقتي هي ابنتي».

قال راشد: «قد تكون ابنة أي أحد».

هززتُ رأسي اعتراضًا، وأجبتُ: «كلا. بل هي ابنتي. ألا ترى؟».

أغلقتُ عيني وتخيَّلتُ الفتاة التي خرجت أخيرًا من وراء والدها ووقفت إلى جانب سريري في فستانٍ أزرق رخيص. وفي غمرة الألم في جانب رأسي، والوجع في ذراعي، والألمٍ الثقيل للاستيقاظ فلا أجدكَ بجانبي، تذوَّقتُ حلاوة بهجةً لا تنقطع. أعرفُ مَن أنا الآن يا إيلاجا. أدركتُ هذه الحقيقة لحظةَ تطلعي إلى وجهها. إنني هي، وهي أنا. نَعِمت الروح المضطربة بالسلام في الختام. قال الرومي: «**افتح عينيك على مكنونك؛ كل ما تودُّ أن تكون عليه، موجود بداخلك**».

قلتُ: «أريدُ أن أصحبها معي إلى المنزل».

كنَّا بمفردنا؛ غادر والداي الغرفة في هدوءٍ وأنا أُعبِّر عن مطلبي وراشد يوضِّح تحفُّظاته.

قال راشد: «لها أب. إنها تنتمي إليه».

جادلته: «كلا، إنها تنتمي إليَّ».

سلَّمني أنور الفتاة. كان قد أحضرها إليَّ وقال إنه يحسنُ بها العودة معي إلى المنزل، لأنه لا يملك شيئًا وسنمنحها نحن حياة. تطلَّع والداي إلى بعضهما، وكلمات مقدسة تدور بينهما في صمت، ثمَّ أومآ بالموافقة. وحده راشد مَن أعرب عن مدى غرابة الأمر لعائلتنا.

قلتُ: «لقد اتخذتُ قراري».

لم يترك راشد جانبي لحظةً منذ الحادث؛ الإجهاد بادٍ عليه، ونصف وجهه السفلي محجوب بلحيةٍ خفيفة. راح يُداعب بخفَّةٍ ذاك النطاق الصغير الظاهر من جلدي بين خط شعري والضمادة، ثمَّ قال: «انتظري حتَّى تتحسَّني». أعلم أنهم حلقوا رأسي في ذاك الموضع، وخاطوه بسبع عشرة غرزة.

قلتُ: «إنها تشبهني».

- لم ألحظ.

أراح يده على كتفي، وراح يُمرِّر باطن إبهامه الرقيق على عظام ترقوتي.

- أردتَ أن تكون أبًا.

- أجل، أبًا لطفلنا.

- يمكنها أن تكون طفلتنا.

طوى يديه على حجره وتطلع إلى الضوء المرتعش لمصباح الفلورسنت. دخلت ممرِّضة إلى الغرفة وفحصت مستوى السائل في الستَّالة. انتظرنا حتَّى أُجرى التعديل، واستُبدل كيس محلولٍ بآخر.

ثمَّ قال أخيرًا: «زي، هذا قدر كبير من العشوائية».

أجبتُ، رافضةً أن أُفسِّر حجَّتي: «تقبَل بالأمر أو ترفضه، هي آتية معي».

فقال هو: «أنا أختاركِ أنتِ يا زي، لكن لا يمكنكِ أن تتوقَّعي منِّي أن أصحب غريبًا إلى منزلي. لن يقبل والداي بالأمر».

في تلك اللحظة، تحرَّرتُ منه. لا سبيل للتراجع عمَّا قيل: كان تصريحه عنها بأنها غريبة اعتراضًا عليَّ أنا الأخرى، اعتراضًا على عشوائيتي. الأمر ليس عجزي عن محبة رجلٍ لن يسمح لهذه الفتاة بغزو قلبه، بل هو إعلانه بأنه لن يُحب سوى ذلك الجزء منِّي الذي يتخيَّله، الجزء الذي يعرفه. أما لغز حقيقتي، وغرابتي، سيظلان دومًا في أحسن الفروض غارقين في العتمة، أمران أُفتِّش عنهما في خجل.

ربما فات الأوان حقًّا على إصلاح الأمر بيني وبين راشد -فات الأوان في تلك اللحظة التي التقيتُكَ أنتَ فيها يا إيلاجا. وربما يجدر بي الندم أن هذا ما تكبَّدته لأرى أنني وراشد لا يسعنا البقاء معًا أبدًا. ولكن إذا كنتَ تقرأ هذا، إذا كنتُ قد نجحتُ في مهمتي، ستعرف أن حُبي لكَ لن يكون كافيًا أبدًا. بل لا شك أن دوران العالم كله، عالمي أنا، قد انحرف انحرافًا طفيفًا. لعل كل شيءٍ بدا مقبولًا، كل شيءٍ بدا حتميًّا، قد صار فجأةً بغيضًا إلى نفسي. وذلك هو ما حدث. كدمة على الجبهة. كدمة في المخ. فتاة مُنحلَّة الأخلاق هي فتاتي، نصفي الآخر، تحمل عبء كل القطع المفقودة من تاريخي.

***

لم تعش الآمبولوستوس وحيدةً في أيامها. كان لها معاصرون، وهم: «**تاكراستوس، جافيوستوس، دالانستيس**»، قد يكون كل واحدٍ منها هو سلف الحوت الذي نعرفه الآن. أو قد يكون نوعًا مختلفًا تمامًا؛ فصيل لم يُكتشف بعد. أما ما نعرفه حق المعرفة فهو أن الحوت كان أولًا ذئبًا برِّيًّا، ثمَّ برمائيًّا غلبه الفضول نحو الماء، وأخيرًا، المخلوق الذي يحكم البحار ويصبح موضوع أساطيرنا، طوطمنا البحري، ووحشنا الرائع، المخلوق الذي يُذكِّرنا بأنه قبل زمامنا هذا بوقتٍ طويل، خُلِّقت المخلوقات بأحجامٍ أكبر، وعظامٍ بضخامة المدن. إن الحوت هو تلك الشظية من جلال الحياة مُثبَّتة على رقعة رسمٍ ذات مساحةٍ كبيرة تكاد تفوق الخيال. ولكي يحدث هذا، تنبثق الطفرات، وتُهمَل الأطراف، وتُخاض مغامرة إلى أعماق الماء، وفوق هذا التحلِّي بالشجاعة لإلقاء الوداع على الماضي، مهما كان ما تقتضيه هذه الرحلة، ومهما كان ما تخلَّف من شوقٍ ومحبة في الحُطام.

***

عُدت رفقة شونا وأبي وأمي إلى البيت معًا؛ بدا أربعتنا مثل عصابة رقطاء. ودَّعتُ راشد في المشفى. شعرتُ بنفسي جوفاء من الداخل، خَدِرة الإحساس بكل ما حدث، لذا أخبرته بصوتٍ لا حياة فيه أن علاقتنا انتهت فنظر لي في غير تصديق -أظنُّ أنه أحسَّ بالتحسُّن حين افترض أني فقدتُ صوابي. رأيته مرَّات قليلة بعد ذلك، لم نُبادل بعضنا إلا أقل القليل من الكلام، وأخيرًا وبعد قرابة عام، وأمام القاضي نفسه الذي عقد قراننا، مهرنا باسمينا مُجدَّدًا في السجل الأسود وتطلَّقنا.

تلك الأسابيع الأولى رفقة شونا كانت هي الأصعب. ظننتُ أنها ستبكي، وستسأل عن مو، أو عن والدها، أو أي شخصٍ من ماضيها، لكنها لم تنبس ببنت شفة لنا في أثناء رحلتنا الطويلة إلى المنزل، وطيلة الوقت على امتداد الطريق السريع بين دكَّا وشيتاجونج، وفي أثناء عبورنا المدينة، ومرورنا ببوابات المبنى السكني وصعودنا بالمصعد. حين دخلنا إلى الشقة، منحتنا تلميحًا بسيطًا فحسب على طول المسافة بين هذا المكان وكل الأماكن الأخرى التي أطلقت عليها اسم الديار ذات يوم، حين جذبت رموشها، إيماءةً سيتأتَّى لمعرفتي أنها تُعرِب عن شقاءٍ مُتناهٍ. تولَّت أمي العناية بها. ستعرف أمي بالفطرة ما عليها فعله، ستأوي شونا رفقتها إلى الفراش، وتحرص على أن يظل بقيتنا على مبعدةٍ منها، خاصَّة أبي. وفي الصباح، وجدناهما متكوِّرتين على بعضهما مثل إنسانٍ وقطِّه. وخصلة من شعر أمي في قبضة شونا. تحرَّقتُ لسؤالها عن مو، وسؤالها عن مكان لقائها به وكيف انتهى بهما الحال في ذلك الصندوق معًا، لكنها نادرًا ما تتطلَّع إليَّ، وتواصل عيناها دومًا مسح الأرضية الفسيفسائية.

في نهاية المطاف أخذناها لزيارة الطبيب، كان بها إصابات، جروح سبقت الحادثة، ستستغرق وقتًا للالتئام. إنه لمن الصعب عليَّ أن أصف بدقَّةٍ الاتهامات المضادة التي حملناها جميعًا في جعبتنا سرًّا منذ لحظة وصول شونا، الشعور بالذنب والمسؤولية وكراهية الذات التي خَبِرناها ونحن نتساءل عن شؤون حياتها. لم تُخبرنا شونا بشيءٍ عن أمها. كانت تجلس إلى الطاولة وترفض الطعام. وراحت تُبلل فراشها مرَّة وراء مرة. ثمَّ ارتكبنا خطأ إلحاقها بالمدرسة، ظنًّا منَّا أن صحبة الأطفال الآخرين قد تعود عليها بالنفع، لكنها عادت إلى البيت بعد أول أسبوعٍ، وقد بصقت على المُعلِّمة ولكمت فتاة أخرى.

عليَّ أن أواجه مُجدَّدًا حقيقة أنني لن أعرف أبدًا أي شيءٍ عن أمي. فتشتُ في وجه شونا عن سمة من سيمائي، ورأيتُ أن شفتيها، وانزواءهما الحاد في غضبها، أو بسمتهما (وهو أمر نادر)، يُحاكيان انزواء شفتي، وقواطعها -مثل قواطعي- حادة مبرومة بعض الشيء. وفي ما عدا ذلك، لم تُفصِح عن شيء، ولم تنطق بشيء.

تُجري بيتينا بحثًا عن مجموعةٍ من أنصار البيئة في نيبال. وقالت إننا في عصر الأنثروبوسين، حيث يحكم البشر العالم، ويفرضون أحوال الحياة واحتمالاتها، ويُقصِّرون أو يُطيلون من مدَّة بقاء الكوكب. إن طمس الطبيعة هو توجُّه ساخر بلا شك، ولكن حين نتطلَّع إلى الأمر بمنظورٍ آخر، يسعنا القول بأننا لهُنيهة، وحتَّى يهلك العالم، نعيش على كوكبٍ يُشكِّله البشر. لا الطبيعة، ولا الزمان، ولا التاريخ، ولا الديناصورات، بل نحن.

وقد ألهمتني بيتينا لكتابة هذا الخطاب:

عن فاطمة أنصار، أمي

راودت فاطمة أنصار أحلام عظيمة عن حياتها. حياتها التي يسعنا القول بأنها تطلَّبت حفنةً بسيطة من الأحلام، أو بالأحرى، عدم وجود الأحلام مطلقًا. لو أنها كانت واحدة من هؤلاء الذين يقبلون مصائرهم دون قنوط، الذين سوَّغوا فقرهم، لو أنها قالت بأن مصيرها كُتب على جبينها من قبل أن تُولد، فلا يكون شكواها مُرّ الشكوى عبثًا فحسب، بل مُعاديًا للترتيب الطبيعي للأمور؛ لربما عاشت حياةً أسعد. ولربما عاشت من الأصل. لولا أن أرقتها الأفكار. ترقدُ مستيقظةً في الليل والقمرُ بدرًا، وتقفُ على منصّةٍ تغشاها الأضواء، وتتخيَّل كل الحيوات الأخرى التي لربما حظيت بها. لربما التحقت بالمدرسة ذات يوم، ولربما غادرت القرية وارتحلت إلى مدينة ميمينسينغ،

ولربما تزوَّجت وأنجبت بناتًا يتعلَّمن بدورهن الحروف والأرقام، ولربما ماتت بابتسامةٍ على شفتيها، راضيةً عن تحقيق تقدُّمٍ في هذا العالم. ورغم ما تُبديه هذه الاحتمالات من تواضع، كانت لفاطمة بمنزلة سموم، هذا لأن حياة فاطمة حدثت في أعقاب القدر. وما من شيءٍ لاستيعابه حتَّى أبسطُ الأحلام لفتاةٍ مثلها.

بدأ كل شيءٍ بوعدٍ مُبرَمٍ. لا مجال للالتحاق بمدرسة، فوالداها مُعدَمان لا يسعهما ذلك -لكنها تزوَّجت رجلًا ربما سيتضح في كل الأحوال أنه ليس سيئًا للغاية، يُوفِّر لها الطعام والملبس وربما يمنحها نظرة حنونًا من وقتٍ لآخر إذ تُرقق السنين قلبه، لو لم يلدغه ثعبان بُعيد الزفاف ببضعة أشهر، ذاك الزفاف الذي لم يزد عن قاضي يُردِّد شيئًا من الدعوات على رأسيهما ومائدة من الطعام نفسه الذي يأكلونه كل يوم، وبعد تلك الليلة الأولى -حين مارس معها الحب في عنفٍ وضمَّها ضمًّا شديدًا إلى صدره، مُبيحًا لها بأنه قد زرع بذرة ابنٍ في رحمها- غادر إلى الشرق، هذا لأن موسم الحصاد كان ضعيفًا وقد ألزم نفسه بالعمل لدى مُزارعٍ في «كولنا» طيلة زراعة الربيع، وتبادلا الوداع مُغلَّفَيْن بصمت الكوخ الذي تشاركاه مع والديه وشقيقاته الثلاث الصغريات. وطيلة شهور المطر: يونيو ويوليو وأغسطس وحتَّى شهور الشتاء ديسمبر ويناير، ظلَّت منتظرة، وحَبَلُها يُظهر أماراته مُبكرًا، ولمَّا وصلت الأخبار بأن زوجها قد مات حيث سقط، وأن المزارع آسف لمصابهم لكنه لا يقدر على إعادة الجثمان إلى دياره، فالتكاليف عالية جدًّا، أدار والداه ظهريهما لفاطمة، وفي غمرة حزنهما على ابنهما

الوحيد وأملهما الأوحد الذي مات في زهرة شبابه، قالوا: «ارحلي، لا عيش لكِ عندنا». أعقاب القدر. ومن ثمَّ عادت إلى ديارها، إلى والديها، اللذين ابتُليا -كما هو حال حميها- بوفرة البنات، وإحداهن قد أُرسلت إلى دكَّا لتعمل خادمة، وهو خيار لا يتوفَّر الآن لفاطمة، لأنها مُسرَّجة بطفلٍ لا أبَ له، وذلك عندما أرسلت شقيقتها خبزًا. ثمَّة عائلة.. لم يرزقهما الله بالذرية. عساها تفعل؟ أتقدر على ذلك؟ جلس والداها صامتَيْن على مشارف حقولهما الناضبة واتهماها بالجوع الدائم، كأنما كتلة حملها الضخمة هي الطعام التي تسرقه من أطباقهم. ولمَّا وُلد الطفلان -أجل، كانا توأمين- تغشَّاها اليأس. فتاتان! أعقاب القدر. هل سيأخذان البنتين؟ أجل، سيفعلان. جاءا إلى القرية في سيارة، وجيوبهما مكتنزة بالمال. وإذ أوشكت أن أسلمهما، وإذ ناولتهما واحدة وأوشكت أن تناولهما الأخرى، الأصغر حجمًا، تراجعت كتفاها عن إتمام المعاملة، وقالت: «هذه سأحتفظ بها». اندلع الجدال، وخرج والداها من كوخهما وتوسَّلا إليها، لكن أحلام فاطمة كانت أكبر من حياتها، واتخذت موقفًا حازمًا، تُخدِّر ألم فقدانها لواحدة بعزاء الأخرى، تستحضر في ذهنها صورة العالم الذي لن تُضطر فيه إلى التخلِّي عن طفل لأنها جائعة. ربطت المال إلى ساريها وأخذت الطفلة الصغرى بعيدًا عن القرية ومنها إلى الشرق، حيث مات زوجها، لا تعرف إذا كانت ستعثر على المكان الذي دُفن فيه، لكنها وصلت إلى هناك بقوة إرادتها، والمزارع، آسفًا على حالها، قدَّمها إلى الإمام، الذي منحها غرفةً صغيرة خلف المسجد، وهناك استقرت، امرأة وحيدة رفقة رضيعة، وأحلام

أكبر من حياتها، أول فعلٍ إرادي أتت به في حياتها منحها قدرًا بسيطًا من السعادة. لم يكن بالكثير، لكنه بالكبير.

***

في ظل غياب المعرفة، أختارُ الخيال. أختارُ أن أعرف أمي من أحلامها، والكلمات التي جاءت من أحلامي. يمكنني أن أرسم صورة، ثمَّ أُكبِّرها لتُشبه حياةً، تاريخًا، شيئًا يمكنني التشبثُ به. في عصر الأنثروبوسين، يحكم الإنسان، ولا شيء أكثر إنسانيةً من الحُلم.

***

أما بشأن شقيقتي، فعرفتُ القليل عنها من حديث أنور (ومن نفسي -عرفتُ ولطالما كنتُ أعرف كيف تبدو تمامًا). أخبرني أنها حين ظنَّت أنها سترافقه إلى دبي، أخبرته برغبتها في أن تسبح في البحر وتدع قدميها تُلامسان مخلوقًا كبيرًا، «تيمي». و«تيمي» هي المرادفة البنغالية لكلمة «حوت». كانت شقيقتي هي الأخرى لتبحث عن الآمبولوستوس. ولربما سافرنا معًا إلى ديرا بوجتي، وصادقنا زمزم معًا. ولربما وقعت كلتانا في حُبك. لا بأس، فأنا أُحبكَ حبًّا يكفي لكلينا. أما وإني الآن وقعتُ في حبكَ مرَّتين وفقدتُكَ مرَّتين وكان لي توأمٌ ماتت، كل هذا يجعل آمالي -كما ترى- ضِعف آمال إنسان عادي.

***

حاولنا أن نظل معًا، ولكن بالنظر إلى ماضينا، بادي منذ البداية أن محاولاتنا لنصير عائلةً لن تكفي في حين أن كل ما يربطنا ببعضنا هو مجرَّد رغبة، على إخلاصها، رغبة في التكفير عن الماضي.

بعد أربعة أشهر، هاتفتُ أنور وسألتُه إن كان يود رؤية ابنته. ربما يمكنها البقاء معه لبعض الوقت، ونرى إن كان الوضع يلائمها. سافرنا نحو جنوب البلاد إلى كولنا، قرية أنور. خشيتُ أن ترفض زوجته قبول الفتاة، لكن ما إن وصلت شونا حتَّى بدت مسترخية، وجلست القرفصاء على حصيرةٍ من القش وراحت تُغربل الأرز مع والدة أنور. تركناها هناك وقلوبنا عامرة بالرضا، رغم أن فراقها كان عسيرًا. خاصَّة أمي التي تُصارع مع فكرة أن ثمَّة حدودًا

معينة لا يمكن تجاوزها بالإرادة وحدها. وكان عليَّ أن أواجه حقيقة أنه رغم انكشاف جزء من غموض حياتي، سترافقني دومًا العزلة الجذرية للحياة، مثل ندبة ستلتئم وتتلاشى لكنها تأبى الزوال.

نذهب لزيارتها أحيانًا. ويأتون إلى منزلنا في العيد من كل عام؛ نجلس حول الطاولة مثل عائلة ونتناول الشعرية والحلوى. أخبرتني زوجة أنور برغبتها في إنجاب طفل، لكن موعده لم يحن بعد. لا يسعني القول بأننا مُقرَّبون، بالطريقة التي تصوَّرت أننا سنكون عليها. يُبقون أنفسهم على مبعدة؛ ربما يتوقَّعون أن تتفكَّك رابطتنا فجأةً ما إن تتجسَّد حقيقةً. لكنني أحيا على أملٍ أنه ذات يوم، ربما حين يتقدَّم بنا العمر وتنقشع الظروف بمرور الزمن، سنحقق وصالًا يسيرًا. استشعرتُ بارقةً من هذا الاحتمال حين طلبتُ من أنور أن يقُصَّ عليَّ أمره. أردتُ أن أعرف تحديدًا كيف تأتَّى له أن يكون على الشاطئ في ذلك اليوم، ولدهشتي كان على استعداد. جلسنا معًا في الشتاء الماضي، ودوَّنتُ حكايته كما قصَّها تمامًا.

للعالم أنحاءُ أخرى، تبدو قصيَّة الآن. إذا كنتَ تقرأ الصحف، ستعرف بموت غلمان أعظم، وستعرف أن البلد الذي أحبه والداي حبًّا جمًّا هو بلد مكلوم كعهده، لكنها أيضًا تعيش في حالةٍ من النشوى، مُتفنِّنةً في الهروب من كل فاجعة تحلُّ بها، قبل ثوانٍ فحسب من وقوعها.

صارت شونا الآن في عُمر الثانية عشرة. ومو الذي لم أسأله يومًا عن عُمره، ربما ليكون في عُمر المراهقة الآن.

لا أُفكِّر بكَ طيلة الوقت يا إيلاجا. لكن أذكرك على أعتاب كل حدثٍ هام في حياتي. في يوم انتقالي من شقة والديَّ (وهي فضيحة كما يجدر بي أن أقول لك، أن أنفصل عن زوجي وأعيش بمفردي في آنٍ واحد). وفي ذكرى وفاة مو. أُفكر في حقيقة أني لو كنتُ أحتضر، لرغبتُ في أن أكون برفقتك، لرغبتُ في معرفة الكلمات التي ستهمس بها إليَّ لتبعث في نفسي السكينة. كيف ستُعبِّر عن حبك لي ونحن نمرُّ بحدثٍ كهذا. حين أستحضر الماضي، أدرك أن كثيرًا من الوقت الذي قضيته برفقتك، قضيته أُفكِّر في الموت، موتكَ أنتَ، أو موتي، أو موت والديَّ، أو البذرة التي فنيت داخل رحمي، أو حتَّى الموت على مستوًى كارثي -وهو فناء الفصائل، مثل الآمبولوستوس، تصير جميعها رميما في الأرض- لكنني أظنُّ أن هذا ما يحدث حين تقع في الحُب، هذا لأن خيطا يربط حياتك بغتةً بكل الحيوات التي سبقتك وكل الحيوات التي ستلحق بك. حتّى

عندما كنَّا معًا، احتدمتُ بالرهبة، ليس خوفًا من انفصالٍ هو واقع حتمًا، بل لأن لديَّ نظرة في الحياة وأتراحها الجبَّارة المستأنسة، للمرَّة الأولى في حياتي؛ وهذا هو سببُ حبي لكَ، إذ رحنا نستكشف أسوأ بِقاع العالم معًا، جنبًا إلى جنب برفقتك أنتَ أيها الغريب يا حبَّة القلب.

***

ديانا ليست مكتملة؛ فأجزاؤها التي وصلت بأمان -وهي كاحليها وحوضها وبعض فقراتها الظهرية، والنصف العلوي من قفصها الصدري- جمعتُها وسوزان، وتستقر هذه القطع أمامنا كل في بهاءٍ ذليل. بلغ طولها قرابة عشرة أقدام، وتزن ما بين سبعمائة إلى ثمانمائة رطل. أما عمودها الفقري، كما تصورنَّاه، فهو عمود فقري شبه مرن؛ يُخبرنا حوضها بأنها لم تُغامر في التوغل بعيدًا إلى أعماق المياه. أنظرُ إلى عظامها، وأرى أنها طلاسمي، تعكس المستقبل والماضي، وحيوات الحيوانات التي سبقتها والتي لحقت بها، وبمزيدٍ من الصدق الخالص، تعكس حيوات الناس الذين أحببتهم وفقدتهم: مو، وزمزم، وشقيقتي ميجنا، وأمي، وأنتَ يا إيلاجا، فوق الجميع. كل ما تكبدتُه مطبوع في تأسُّل عظامها، خمسين مليون عام من التاريخ مُغلفة في الكالسيوم والحديد وترسُّباتها. ربما يبعث إليَّ صديقي الغامض ببقية رفاتها، وربما لا. في طرده الأخير، أدرج رسالةً خطية من زمزم كانت هي نقطة البداية:

لن أحظى بضريحٍ أيها الرفيق. سأموتُ وأُدفن بلا شاهد، ولن تسمع عن موتي إلا من همسات الأشجار. لن تُلقي نظرةً على جثماني. لكن، كأنما تُجهِّز جثماني بالغسل وتُكفِّنه في البياض، خُذ تلك العظام التي هي أصداء الرب، وابعث بها إلى صديقتي، ستعتني بها وتؤمِّن لها مكانةً مناسبة في تاريخ البشر والحيوانات.

***

أتذكر يا إيلاجا كيف بدت الكلمات الأولى التي حدَّثنا بها بعضنا اعتباطيةً في ذلك الوقت. قلتَ إن أرسطو كان يتيمًا. حسنًا، كان هذا أرسطو، يُبحر في بحر إيجة، أول مَن ميَّز الحيتان من الأسماك. وفي ما بعد، جاء العلَّامة العربي الجاحظ وشرع في تصنيف الحيوانات وعرَّض بنظرية تطوُّر. سافرتُ إلى لندن لرؤية كتاب الجاحظ بنفسي. يقول التعليق أسفله: «**إن كتاب الحيوان هو أطروحة عن الحيوانات والخواص الطبية لمختلف أعضاء أجسامها، مُجمَّع من كتابات أرسطو وابن بختيشوع**». وفي داخله، رأيتُ رسمًا لحيوانٍ رُباعي الأطراف يطفو فوق بركة ماء. ربما قُصِد بها عظاءة أو سمندر، عدا أن لها أصداء الباكيستوس، سلفُ ديانا المُحبُّ لليابسة. ألقيتُ بنظرةٍ فاحصة على المخطوطة، فأخبرتني أن الصِلات بيننا ليست أسطورية أو نِتاج المصادفة، بل هي صِلات عتيقة ومُتبحِّرة، وأجل -حتَّى شخصية العالِم بداخلي ستسمح بهذا- بل ومُقدَّسة.

***

انهمكتُ في توزيع النشرات الإعلانية؛ إذ عزمتُ أنا وبارت وجيمي على عرض الآمبولوستوس البحري في متحف التاريخ الطبيعي الأسبوع القادم. سيُعقد استقبال رسمي من أجل الظهور الإعلامي، وعالمي الصغير من علماء الحفريات سيشاهدون الحدث باهتمامٍ بالغ. ديانا ليست مكتملة، لكنها فاتنة، وثمَّة الكثير لنتعلمه منها.

خطر ببالي أن ثمَّة احتمالًا بأن إرسال عظام ديانا إلى كامبريدج، وهو الأمرُ الذي دفعني إلى تجميع أجزائها معًا، وهو أيضًا السبيل إلى وجودي عند تقاطع الطرق ذلك اليوم، وهو الأمرُ الذي ألهمني بكتابة كل شيء -احتمال بأن هذا كله هو مجرَّد مكيدة، سلسلة من أحداث تُحرِّكها أصابع القدر لتُرسل إشارةً دخانية لكَ أنتَ يا إيلاجا. يحدث كل هذا لكي تلتقي النشرة الإعلانية مُثبَّتة على لوحة إعلانات في الحرم الجامعي، وتأتي لتكشف الستار عنِّي، وتقرأ هذه القصَّة، وتتواطأ معي لتحديد نهايتها.

عبثت الاحتمالات بآمالي كما تعبث الريح بالمصابيح الورقية. وحين شرعتُ أول مرَّة في الكتابة، فكرتُ في أنكَ لو قرأت تلك الكلمات يومًا، سيتراءى لكَ أن -رغم تخليَّ عنك- ذاك الذي نشأ بيننا ليس وهمًا، وأنه هنا في عالم الأبيض والأسود، تكمن حقيقة الأمر التي لا جدال فيها. وفي ما بعد، حين عدتُ إلى هنا

وشرعتُ أجمِّع أجزاء ديانا معًا، حين رأيتكَ في الشارع ثمَّ لم أركَ مُجدَّدًا، في تلك اللحظة فقدتُ الأمل؛ لم أعد أتخيَّلكَ تركض إلى جانبي وأنا أعبرُ الساحة المستطيلة مشيًا، لتُخبرني أن الخطايا كلها مغفورة.

أنكى ما في الأمر أنني كلما كتبتُ، أدركتُ عجزي عن تغيير شيء. لا يسعني صقل الحواف الحادَّة لكلماتي إليكَ، ولا جعل نفسي أستديرُ لأنظر إليكَ وأصابعك ملفوفة حول قنينة العسل تلك، هذه هي الكيفية التي وقع بها الحدث، ولا شيء يمكنني فعله من شأنه أن يدفع بيدي إلى أغوار تاريخنا المُظلِم. فُتِنتُ بتحريف الحقيقة، لأصوِّر نفسي في صورةٍ أجمل، لكني أعرف أن أكره ما على قلبكَ هو المراوغة، ولذا بقيتُ على صدقي الوحشي القاسي. أدميتُ قلبي الدميم المستغلِق على سطور هذه الصفحات، ومع أن شعور الخزي لم يَزُل، حدَّثتُ نفسي أن أقله كنتُ قادرة على مواجهة الحقيقة. كنتُ قادرة على التطلع إلى عينَيْ ذاتي في المرآة، وأقول: أجل، أنا كنتُ هذه. أنا كنتُ هذه وأنا هذه الآن. لكن قول الصدق، في المحصِّلة، ليس لأجلي، بل لأجلكَ أنتَ. ليُعيدكَ إليَّ. ليمنحكَ شيئًا عوضًا عن الألم الذي قذفتكَ به مثل وابل من حجارة.

الآن وقد جمَّعتُ القطع المتناثرة: ليس من الحفرية وحدها، بل من نفسي أيضًا، لا بُدَّ أن أُخبركَ بأن المقاربة التحليلية لم تعد تُرضيني يا إيلاجا. لم تعد كافية في نظري لكشف الحقيقة. أريد أن أُحدِث أثرًا في هذا العالم، أن أترك نقوشي المُبهمة على جدران التاريخ. بينما أُضيف اللمسات الأخيرة على هيكل ديانا، وأُرتب عظامها في ترتيبها الصحيح، وبينما أُنهي قصَّتنا، سألتُ نفسي عمَّا سيحدث لو أني قطعتُ أوصال الحقيقة. ماذا سيحدث لو عُدتُ إلى أرض الأحلام تلك، الأرض التي يمكنني فيها خلق نهاية لأي قصة؟ لا يسعني خلق نهاية لقصتنا -عليَّ أن أسردها كما هي تمامًا- لكن يسعني فعل هذا مع قصص الآخرين. أذكر أن جدتي أخبرتني ذات مرَّة أن ابنها قد أخفى شاحنةً مملوءة بالسلاح في حديقتها الخلفية في أثناء الحرب، ومن هنا بدأت فكرة تتبلور في رأسي.

يتقوَّى قلبي بفكرة تغيير قصَّتها وأنا أكتب، ومنحها بارقةً من السعادة في حياتها الطويلة الموحشة. أستطيع البدء بقصَّةٍ حقيقية وأستطيع تأليف البقيَّة، أُثلم أشفار المأساة، أو ربما لا آتي بشيءٍ من هذا مطلقًا، ربما أسردها بمزيدٍ من الوضوح، لكن هذه المرة، هذه المرَّة سأمسكُ بالفرشاة، وسأتقمص

دور راوية الحكايات، وكل شيء -أعني التاريخ، وإرادة الآخرين، ودفعة الزمان القوية إلى الأمام- كل هذا سيخضع لسيادتي، هذا لأنه كما ترى يا إيلاجا، لم أعد شخصيةً مكتوبة، ولا مقبولة في صمت، بل أنا المُدوِّنة، العازفة التي تستقر قدماها على الدوَّاسة النحاسية للبيانو، ورغم الاحتمال القائم بأنكَ لن تُحبني مرَّة أخرى، ستظلُّ دومًا من صُنعي.

سأبعث إليكَ بهذا الخطاب الآن. وقلبي عامر بتلك الأيام التي قضيناها على الشاطئ حين صُبغ الضوء بألوانٍ برتقالية، والشذى بيننا يمتزج في قوةٍ لكأن لا شيء بيننا سوى طبقةٍ رقيقةٍ مزدوجة من الجلد. إنه الربيع في كامبريدج؛ أرى الثلج يذوب على الأرصفة الجانبية والأزهار تُصارع البرد. في غضون أيامٍ قليلة، سأكون بانتظاركَ لتأتي وتزور حفريتي الحبيبة. أعرف أنكَ ستتأخَّر. وستدفعني إلى فقدان الأمل حتَّى اللحظة الأخيرة، ومن ثمَّ، سألمحكَ بطرف عيني وأنتَ تربط شريط حذائك أو تُخرج شيئًا من جيبك. سأشعر لحظة أن أراك بنفسي تتحطَّم، لكن نظرتكَ ستبقيني متماسكة، كدأبكَ المعهود. بُحتُ بآلاف الاعتذارات على سطور هذه الصفحات، وسأبوح بها مُجدَّدًا في وقتٍ لاحق، أما الآن، لا مجال للمزيد من الكلمات، بل هي لغة الأعين فحسب. ستقول عيناي: لقد عُدتَ. وستقول عيناكَ: أجل فعلت. وسنسير يدًا بيد إلى خارج تلك الغرفة -متجاوزين ديانا والزهور الزجاجية وزمزم وميجنا والحرب التي خاضها والداي، أشباحنا كلها من خلفنا، والعالم المُظلم البائس من أمامنا- لا ننتمي إلا إلى بعضنا.

***

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

خاتمة المترجمة

عزيزي القارئ،

قطعنا رحلة استمرت قرابة أربعين عامًا، قرأناها في ألف صفحة أو يزيد، ضمَّت بين أسطرها قصة ثلاثة أجيال نسائية من عائلة حق، شهدنا خلالها بزوغ بلدٍ جديد، عاصرنا معهن الصعاب وأهوال الحرب وعايشنا الألم بكل صنوفه، تقمَّصنا أدوار الأم والابنة والحفيدة، وأدركنا أن الحياة في جعبتها الكثير مما نجهله. والأهم من كل هذا هو طرقنا لثقافة مختلفة عن القارئ العربي، وتوغلنا في خباياها وتعرفنا على أسبارها، هذه الثقافة وتلك الشعوب التي عشنا معها في بلداننا العربية ولا نعرف عنهم سوى ملامحهم. صرنا الآن نعرف بواطنهم وأحوالهم وصرنا نراهم بعين أخرى. كانت هذه الثلاثية تذكرة مجانية لزيارة أرض البنغال بأكملها ورؤيتها بعين ساكنيها، والغرض من ترجمتها هو فتح أعين القارئ العربي على شعب البنغال وثقافته وتاريخه ونضاله. وهذا هو الهدف من كتابة الأدب أولًا وأخيرًا.. توصيل الشعوب والثقافات ببعضها.

نورهان البدوي

(9 أبريل 1995) مترجمة مصرية من مواليد مدينة المنصورة، درست اللغة الإنجليزية وآدابها والترجمة الفورية، وتخرجت في جامعة الأزهر في 2018. وتُكمل حاليًّا دراستها العليا في فرع لغويات اللغة الإنجليزية في كلية الآداب جامعة المنصورة. عملت مترجمة قانونية ثم اتجهت إلى الترجمة الأدبية، فترجمت أول عمل لها رواية «قبل أن تلقاه» للكاتب بيتر سوانسون لدار نشر عصير الكتب للنشر والتوزيع، ومن أشهر ترجماتها رواية «الدوق وأنا» الجزء الأول من سلسلة بريدجرتون الشهيرة للكاتبة جوليا كوين. نُشر للمترجمة عدة مقالات في منصات إلكترونية، كما أنها تطوعت للترجمة في منصة TED لثلاث سنوات، ومؤسسة National Science Week، وUN Woman. اتجهت لمجال الكتابة، فكان لها تجربة كتابية في القصة القصيرة نُشرت في مجموعة قصصية إلكترونية عام 2018 بعنوان «ست وعشرون عينًا على الجسر».

The Bones of Grace

عظام المجد

"إن حكاية بحث زبيدة عن هويتها الحقيقية، والاختيارات العاطفية والمهنية التي اتخذتها في أثناء رحلتها، تمُثّل خاتمة جذّابة لثلاثية أنام ذات الرؤى التنويرية الثاقبة".

- Booklist

"إن قصة أنام لها صدى قوي يتردد في الملحمة الأخّاذة للأجيال النسائية الثلاثية، مُجسدةً تقدُّم بنجلاديش من بصيرة الثورة إلى تشويش الاندماج في عالم أوسع".

- Kirkus Reviews

"تظل كتابات أنام عالقة بالذاكرة حين تتناول قصص الحُب وشظايا العظام، إنه العمل العاطفي المزُخرف بالحفرية الذي تُطلق عليه عبارة «خلافنا البسيط مع الزمن»".

- New Yorker

"سلّطت أنام الضوء على ثقافتين مختلفتين تمامًا في دراسة متعمِّقة للشخصية ستأسر القرّاء من صفحتها الأولى".

- Publishers Weekly

تهميمة أنام

كاتبة وروائية حصلت على جائزة كُتاب الكومونولث وجائزة أوه. هنري O. Henry Award، ثم أتى ذكرها في مجلة جرانتا البريطانية كواحدة من أفضل الروائيين البريطانيين الشباب Granta's Best Young British Novelists. تعينت مُحكِّمًا في جائزة مان بوكر الدولية 2016. وفي عام 2015، ترشحت قصتها القصيرة "الحرامل" إلى القائمة القصيرة لجائزة بي بي سي الوطنية للقصة القصيرة BBC National Short Story Award. وفي عام 2017، انتُخبت لتصير زميلًا في الجامعة الملكية للآداب Fellow of the Royal Society of Literature. ولدت في دكَّا، بنجلاديش، وتلقت تعليمها في كلية ماونت هوليوك وجامعة هارفارد. تعيش الآن في لندن. تلقت الأحداث التاريخية التي وقعت في بنجلاديش إبان حرب الاستقلال من والدها الذي كان محاربًا في الحرب المذكورة.

أعمال أخرى للكاتبة: